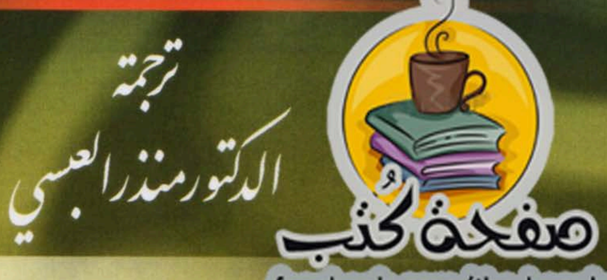
الدكتور جيفري لانغ

حتى الملائكة تسأل

رحلة إلى الإسلام في أمريكا

ترجمة

الدكتور منذر العبسي



دَارُ الفِكْر
دمشق - سورية




دَارُ الفِكْرِ المُعَاصِر
بيروت - لبنان



بنك القارئ النهم

بعد التطور المذهل في وسائل الاتصال والمعلوماتية أصبح من الضروري التواصل مع القراء الأعزاء عبر شبكة الإنترنت والبريد الإلكتروني نظرا لسرعته وفعاليته وقلة كلفته .

لهذا استبدلت الدار بقسيمة القارئ النهم الورقية رقما تدخله من خلال موقع الدار ، فتنفتح لك بطاقة تسجل عليها المعلومات. ويصبح لك رصيدك من النقاط. وتستلم نشرة عن إصدارات الدار ونشاطاتها الثقافية. و تستفيد من حسومات خاصة على الكتب. هذه اللصاقة نافذتك للاشتراك في بنك القارئ النهم .

بتواصلك معنا. نرتقي بصناعة النشر

اطلب أيقونة بنك القارئ النهم في موقع دار الفكر وأدخل رقم الكتاب الآتي على الموقع .

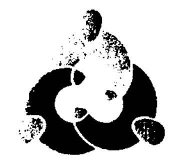
052 3444679 4476

حتى الملائكة تسأل

e-mail:fikr@fikr.net

www.fikr.com





١ - **أسست عام ١٩٥٧ (١٣٧٦هـ)**

٢ - **رسالتها :**

العمل في مجال الإبداع الفكري والثقافي: من خلال طباعة الكتب، والأقراص المغنطة، والوسائط المتعددة وأية أوعية أخرى للكلمة، ونشرها وتوزيعها، وإقامة الندوات والحوارات وورش العمل، بغية تحقيق ربح تجاري مجز يعينها على تحقيق رسالتها ورؤاها الثقافية.

٣ - **رؤيتها :**

- تزويد المجتمع بفكر يضيء له طريق مستقبل أفضل.
- كسر احتكارات المعرفة، وترسيخ ثقافة الحوار وضرورات التعدد.
- تغذية شعلة الفكر بوقود التجديد المستمر.
- مد الجسور المباشرة مع القارئ لتحقيق التفاعل الثقافي في المجتمع.
- إطلاق طاقات الطفولة، سبيل الارتقاء، واطراد التقدم الإنساني.
- الاستعانة بنخبة من المفكرين، إضافة إلى أجهزتها الخاصة للتحرير والأبحاث والترجمة.
- إعداد خطط النشر، والإعلان عنها: فصلياً وسنوياً ولآماد أطول.

٤ - **خدماتها :**

- **بنك القارئ النهم (الأول من نوعه في الوطن العربي) .**
- **تمنح جائزة سنوية للرواية ، وتكرم مؤلفيها وقراءها .**
- **ريادة في مجال النشر الألكتروني :**

أول موقع متجدد بالعربية لناشر عربي على الانترنت: www.fikr.com

موقع (فرات) لتجارة الكتب والبرامج الألكترونية : www.furat.com

موقع تفاعلي رائد للأطفال (عالم زمزم) : www.zamzamworld.com

- **إشراف مباشر على موقع:**

الدكتور وهبة الزحيلي: www.zuhayli.com

٥ - **منشوراتها :** تجاوزت مطلع عام ٢٠١١م (٢٢٥٠) عنواناً، تغطي معظم فروع المعرفة .

٦ - **جوائزها :** حازت على جائزة أفضل ناشر عربي للعام ٢٠٠٢ ، من الهيئة المصرية العامة للكتاب.

نالت أربع جوائز من مؤسسة التقدم العلمي في الكويت ، عن كتبها :

الجراحة التنظيرية :	مينيرو ج واخرين ، ٢٠٠٠م
هروبي إلى الحرية :	علي عزت بيغوفتش ٢٠٠٢م
موجز تاريخ الكون :	د. هاني رزق ٢٠٠٣م
الجينوم البشري :	د. هاني رزق ٢٠٠٨م

للمزيد من المعلومات زوروا موقعنا على الانترنت: www.fikr.com



حتى الملائكة تسأل

رحلة إلى الإسلام في أمريكا

جفري لانغ

حتى الملائكة تسأل

رحلة إلى الإسلام في أمريكا

تقديم

مراد هوفمان

ترجمة

الدكتور منذر العبسي





2013 - 1434

دار الفكـــر – دمشـــق	دار الفكر المعاصر – بيروت
☎ ٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١	☎ ٠٠٩٦١ ١ ٨٦٠٧٣٩

e-mail:fikr@fikr.net - http:/www.fikr.com

حتى الملائكة تسأل

رحلة إلى الإسلام في أمريكا

د. جفري لانغ

ترجمة: د. منذر العبسي

الرقم الاصطلاحي: ١٤٥٩,٠١١

الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-385-9

التصنيف الموضوعي: ٢١٠ (دراسات إسلامية)

٣٣٦ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة الخامسة: ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م

ط١ ٢٠٠١م

المحتوى

مُقَـدِّمة المُتَرجِم

الحمد لله رب العالمين، خالق الخلق ومالك الملك، رب المشرق والمغرب، ومقلب القلوب ومصرّفها، يضل من يشاء ويهدي من يشاء. والصلاة والسلام على البشير النذير، الذي أرسله الله رحمة وهدى للعالمين. وبعد،

جفري لانغ أستاذ رياضيات أمريكي أسلم وحكى قصة إسلامه في كتابه (**الصراع من أجل الإيمان**) الذي ترجمته ونشرته دار الفكر بدمشق عام ١٩٩٨م. والدكتور لانغ في هذا الكتاب (**حتى الملائكة تسأل**) قد ذكر باختصار رحلته إلى الإسلام حين قال: "ولدت مسيحياً ثم إني في الثامنة عشرة من عمري أصبحت ملحداً بسبب بعض الاعتراضات العقلانية على فكرة الله في المسيحية، بقيت ملحداً لمدة عشر السنوات التالية. قرأت تفسيراً للقرآن في سن الثامنة والعشرين فوجدت فيه إجابات متماسكة ومنطقية لأسئلتي. وهذا الأمر دفعني للإيمان بالله عن طريق الإسلام ومن خلال تلك القراءة، وهكذا أصبحت مسلماً ."

وفي موضع آخر يصوّر الأمر تصويراً روحيّاً رائعاً حين يقول - جواباً عن: كيف أصبحت مسلماً؟-:

"في لحظة من اللحظات الخاصة في حياتنا - لحظة لم نتنبأ من قبل أن نمر بها عندما نكبر - منّ الله بواسع من علمه ورحمته وعطفه علينا، بعد أن وجد فينا من العذاب ما نكابد، ومن الألم ما نشعر به، ومن عظيم الحاجة إلى ملء الخواء الروحي الكبير في أنفسنا، وبعد أن وجد لدينا الاستعداد الكبير لقبول ذلك. وعلى كل حال فقد حقق الله ذلك لنا، فله الشكر والمنة إلى يوم الدين".

وكتابه هذا امتداد لكتابه السابق، وهو يناقش فيه أموراً غاية في الأهمية أجْمَلَها مراد هوفمان في تقديمه لهذا الكتاب، وثمة أمور أخرى لم يذكرها هوفمان. لقد ناقش الدكتور لانغ تصورات الغرب عن الإسلام، وناقش وضع الجالية الإسلامية في شمال أمريكا، وقدم صورة لواقعهم وتصوراً لمستقبلهم. وكتب صفحات رائعة عن القرآن وعن شعائر الإسلام. والمؤلف حين ينتقد إدخال عادات أو ملامح ثقافية خاصة، وإظهارها على أنها من الإسلام—أو: من أصوله—ربما تكون عبارته صادمة لمشاعر القارئ الذي تربى وعاش في بيئاتنا العربية المسلمة. ولكن علينا أن نتذكر أن الكاتب مايزال حديث عهد بالإسلام، ويبدو أنه لازال على ذُكْر من شكوك الإلحاد التي كان يعيش في جوّها، ورواسب من ثقافته السابقة وقراءته الإنجيلية والتوراتية، وهو يناقش كل ذلك ليقف على أرض صلبة من يقينه بإسلامه.

ولكن حين نتجاوز بعض ما أخفق فيه (وقد علّقت عليه) وهو قليل في جنب ما نجح في إبرازه فإننا نحمد له أموراً عديدة منها: اعتماده على القرآن الكريم والسنة في كل أمر يعرض لفهمه، ومنها أنه حتى في تعبيره عن قلقه وحيرته إزاء بعض القضايا إنما يعبر عن غيرة على إسلامه ودينه .

ومن خلال كتابه الذي أزعم أنه مفيد أيما فائدة للقارئ العام والمتخصص على السواء، للدعاة ودارسي الحضارة والثقافة الإسلامية والغربية:

- نطّلع على خبرة الآخرين من أرباب الثقافات الأخرى، وعلى نظرتهم إلى الشعائر الإسلامية.
- نتعرف المصاعب التي تواجه انتشار الإسلام في البيئات الغربية.
- نتعلم كيف يفكر الملحد في نفسه وفي الآخرين وعن اهتماماته الثقافية والاجتماعية.
- نتعلم كيف ندعو إلى الإسلام بشكل عقلاني أكثر منه عاطفي.

- نتعلم كيف يفكر الآخر بنا، بمعنى أننا نرى أنفسنا في أعين الآخر، وخاصة من منظور ثقافي وديني.
- نتعلم كيف يعيش المسلم خارج حدود ثقافته، وندرك المصاعب التي يواجهها وخاصة المرأة.
- نتعلم أن نكف عن تناول الآخرين بألسنتنا حيث أن النميمة والغيبة في كل مكان وعلى كل لسان.
- نحاول أن ندمل الجراح ونفكر في وحدة الأمة، وندعو الله أن يجمع كلمتها ويلم شملها.
- وأخيراً، أن نكون أكثر منهجية في بحثنا وألا نلقي الكلام على عواهنه.

أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأخ العزيز والصديق الفاضل إبراهيم صبري راشد (الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر وجامعة الملك خالد) على قيامه بالمراجعة الشاملة للنص العربي وعلى تصويباته وبخاصة النحوية منها. لقد تعلمت منه - ومازلت - الكثير الكثير: شكراً لك ياأخي إبراهيم وجزاك الله كل خير .

وكذلك أشكر الأخ الفاضل الدكتور حسين سمرة (الأستاذ المشارك بدار العلوم بجامعة القاهرة) والذي أفدت منه في تعليقاتي الفقهية التي تتعلق ببعض المسائل التي أرى أن الدكتور لانغ أخفق في فهمها.

كما أنني أشكر الزملاء في معهد اللغة الإنجليزية بجامعة الملك خالد ممن أفدت من خبرتهم في تثبيت بعض المصطلحات التي تتعلق بالترجمة، وبخاصة الصديق العزيز الدكتور محمد صلاح الدين. كما أنني أشكر ولدي مصعب حيث قام بطباعة عدد لابأس به من صفحات هذا الكتاب.

- نتعلم كيف يفكر الآخر بنا، بمعنى أننا نرى أنفسنا في أعين الآخر، وخاصة من منظور ثقافي وديني.
- نتعلم كيف يعيش المسلم خارج حدود ثقافته، وندرك المصاعب التي يواجهها وخاصة المرأة.
- نتعلم أن نكف عن تناول الآخرين بألسنتنا حيث أن النميمة والغيبة في كل مكان وعلى كل لسان.
- نحاول أن ندمل الجراح ونفكر في وحدة الأمة، وندعو الله أن يجمع كلمتها ويلم شملها.
- وأخيراً، أن نكون أكثر منهجية في بحثنا وألا نلقي الكلام على عواهنه.

أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأخ العزيز والصديق الفاضل إبراهيم صبري راشد (الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر وجامعة الملك خالد) على قيامه بالمراجعة الشاملة للنص العربي وعلى تصويباته وبخاصة النحوية منها. لقد تعلمت منه - ومازلت - الكثير الكثير: شكراً لك ياأخي إبراهيم وجزاك الله كل خير .

وكذلك أشكر الأخ الفاضل الدكتور حسين سمرة (الأستاذ المشارك بدار العلوم بجامعة القاهرة) والذي أفدت منه في تعليقاتي الفقهية التي تتعلق ببعض المسائل التي أرى أن الدكتور لانغ أخفق في فهمها.

كما أنني أشكر الزملاء في معهد اللغة الإنجليزية بجامعة الملك خالد ممن أفدت من خبرتهم في تثبيت بعض المصطلحات التي تتعلق بالترجمة، وبخاصة الصديق العزيز الدكتور محمد صلاح الدين. كما أنني أشكر ولدي مصعب حيث قام بطباعة عدد لابأس به من صفحات هذا الكتاب.

وفي الختام أتوجه بكل الشكر إلى دار الفكر بدمشق، التي اختارت الكتاب، ويسّرت سبل ترجمته، ومن ثم إخراجه بهذا الثوب اللائق، ملحقة اللاّحق بالسابق، إذ كانت قد أصدرت (الصراع من أجل الإيمان) من قبلُ.

نسأل الله أن يثبّتنا على دينه وأن يتقبل منا ويعفو عنّا إنه سميع الدعاء.

أبها (السعودية): ٢٩ رمضان ١٤٢١هـ

٢٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠م

د. منذر عادل العبسي

تقــديم

مراد هوفمان

عندما حضرت المؤتمر الإسلامي الذي عقدته جمعية شمال أمريكا الإسلامية في كولومبوس (أوهايو) عام ١٩٩٦م هرعت لشراء كتاب الدكتور جفري لانغ **(الصراع من أجل الإيمان)** الذي قامت بطباعته دار أمانة. في البداية اعتقدت أنه كتاب اعتراف آخر يشرح فيه المؤلف بحماس طريق اهتدائه الخاصة جداً إلى دينه الجديد. وكم دهشت عندما أدركت أن هذا الكتاب ذو مغزى عظيم جداً، وقد كتب بشكل رائع (على غير ما يتوقعه المرء من مدرس رياضيات)، وبعد بحث وتفكير دقيقين. نعم لقد كان الكتاب وصفاً مفعماً بالحيوية للطريقة التي شعر بها جفري لانغ، وهو يصطرع من الداخل، بالانجذاب بلا مقاومة إلى الإسلام.

ولكن الكتاب قدّم أيضاً موقفاً منطقياً ذا أرضية صلبة لجميع الأمريكيين الآخرين الذين يتطلبون بحثاً عقلانياً وتفكيراً عميقاً قبل الامتثال والخضوع لدعوة الله . شأنهم في ذلك شأن جفري.

وكتاب **(حتى الملائكة تسأل)** هو الكتاب الثاني للدكتور لانغ. وقد كتبه بعد أن قضى عاماً في السعودية، ولابد أن لذلك علاقة بهذا الكتاب. وهذا الكتاب الأخير يحتوي على المزايا نفسها التي احتواها الكتاب الأول من صدق تام، وحس عام، ومستوى دقيق من التحري الديني، وتأرجح مثير مابين موهبتي رواية القصة وعرض العقيدة. ومرة أخرى يوضح المؤلف (وياليته رياضي

وحسب) أنه لايستطيع الإيمان بدين مالم يكن هذا الدين مُخْضِعاً من الناحية العقلانية والفكرية والروحانية، وهذا الدين هو الإسلام. والإسلام هو عقيدة الرجل الذي يفكر.

وعندما يزعم المؤلف بأن العقائد الدينية (المسيحية) في العصر الحديث لاتفعل شيئاً سوى أنها تزيد من أزمة الإيمان والدين، فإنه يردد صدى ماقاله محمد أسد (وهو من المفكرين الإسلاميين البارزين في القرن العشرين ومؤلف كتاب **الإسلام على مفترق الطرق**) عام ١٩٣٤م عندما تنبأ أن الشكوك التي أثارتها العقيدة النيقية، وخاصة عن أفكار التجسيد والتثليث، لن تُبعد أصحاب الفكر عن كنائسهم وحسب بل عن الإيمان بالله تبعاً لذلك. ويقترب الدكتور لانغ في ملاحظاته من كارين آرمسترونغ مؤلفة كتاب (**حول الله**) والذي تقول فيه المؤلفة: إن اليهودية قد عانت بسبب انغلاقها على نفسها وتقهقرت كدين عندما عدّت بنيها "شعب الله،" في حين نجد أن المسيحية قد عانت من العكس، أي من عالميتها، وذلك باستيعابها العديد من الثقافات والتقاليد داخل نفسها. وحسب ما يقول الدكتور لانغ، فإن الإسلام قد وُضِع في الوسط كي يتحاشى كلا المأزقين الخطرين، وأنا أوافقه الرأي .

وفي المملكة العربية السعودية أدرك المؤلف أنه "لا يستطيع الانسلاخ عن هويته الأمريكية،" بمعنى أنه "مسلم يتحرّى الأسس،" وقد عُدّت طريقته في التحري عن أسس الإسلام خطرة، لدرجة أنه أثار الشكوك من أن تؤدي إلى البدعة وربما الهرطقة والزندقة. (وأقول للتأكيد إنه لا يوجد مثال واحد في منهج الكاتب من شأنه أن يقود حتى إلى أدنى درجة من الشك في مبادئ الإسلام). وإن الموقف المحافظ الذي واجهه المؤلف في السعودية كان **قد تأثر به من قبل محمد أسد المعروف سابقاً بـ ليوبالد ويس** .(Leopold Weiss) ومن خلال معرفتي به، فإنني متأكد من أنه يوافق على هذين الكتابين كامل الموافقة .

على هذا الأساس فإن عنوان الكتاب ليس مجرد مناورة افتتاحية، بل برنامج متكامل: ففي سورة البقرة، الآية ٣٠ من القرآن الكريم، نجد أنه حتى الملائكة (التي لا تخالف أمراً لله قط) قد أثيرت لتسأل عن حكمة الله من وراء إرادته لخلق الإنسان (المؤذي والذي يخالف أمر الله). ومن هنا يحق للمسلمين أنفسهم ألا يتوقفوا عن التفكير بأمر الله والكون وكذلك في أنفسهم. ومهما يكن، فخلافاً لوجهة النظر الإسلامية التقليدية، تتملك الدكتور لانغ الشجاعة ليقترح أن على كل جيل من المسلمين أن يعيد البحث في أساسيات الإيمان على اعتبار "أن المعرفة تنمو مع الزمن." وفي الحقيقة فإنه يؤمن أنه من الخطأ الجسيم الانقياد بطاعة عمياء لأحكام الأقدمين، وأن تُؤَيّد آراؤهم وكأنها العقيدة نفسها، إلا إذا كان لدى المرء الاستعداد للقبول بالتوقف عن النمو وبالتالي الاهتراء وعدم التجدُّد.

وطبعاً إن الكاتب لا يقبل بمثل ذلك، بل على العكس يتطرق وبقوة لبعض المواضيع الحساسة مثل القضاء والقدر والعدل الرباني. والكاتب لا يقدم أية حلول، بل يشير كما أشار إيمانويل كانط في كتابه (**نقد العقل المحض**) من قبله إلى أن هذه المواضيع عصية على الفهم والحل، لأن الإنسان محكوم بحدي الزمان والمكان في عقله، والخاصة به وحده. وهكذا فإن الكاتب يدفع بمسائل لا يمكن حلها إلى مستوى أعلى من الإدراك. ولا يمكن للمرء أن يسأل أكثر من ذلك.

والأهم من هذا هو نقده الموسع لعيوب المسلمين، داخل الولايات المتحدة وخارجها. والمؤلف على وجه الخصوص يشجب:

- اتجاهات الثقافات الفرعية داخل الجالية الإسلامية الأمريكية.
- عدم تسامح مدارس الفكر الإسلامي بعضها مع بعض.
- غلبة الثقافة والملامح العربية على الفكر الديني.

- مواقف المسلمين التقليدية حيال المرأة والتي لا تنطلق من الدين أصلاً لدرجة أنها تمنع النساء من دخول المساجد.
- التركيز الزائد على أمور ثانوية وغير أساسية من الحياة الإسلامية بدلاً من التطلع إلى الدروس الأخلاقية والروحية من سنة النبي ﷺ.
- الشك المستمر الذي يبديه المسلمون "الأصليون" حيال إسهامات معتنقي الإسلام من الغربيين في الفكر الإسلامي.

لقد كتب جفري لانغ هذا الكتاب أولاً وأخيراً لأولاده -محاولاً أن يفتح أعينهم بفكر نيّر على القرآن أولاً، ومن ثمّ يطلعهم على أركان الإسلام الخمسة بطريقة تركز على الروحانية بدلاً من أي رتابة لأداء هذه الشعائر بطريقة روتينية. وبهذا يكون قد قدم، وللمرة الثانية، خدمة جليلة لجميع الآباء المسلمين في الولايات المتحدة الذين غالباً ما يتساءلون وهم قلقون حيال إمكانية نقل أسس عقيدتهم وإيمانهم للجيل الثاني في مجتمع إباحي استهلاكي يتجه إلى المخدرات أكثر مما يتجه إلى الدين. وحيال هذا يبدو المؤلف متشائماً أكثر منه متفائلاً. وأما أنا فإنني أميل لرؤية الأشياء بنور أكثر تفاؤلاً ولو لم يكن إلا لسبب واحد وهو أن ثمة كتابين جيدين يمكن أن يرجّحا كفّة الميزان لصالح الإسلام وهما **(الصراع من أجل الإيمان)** و**(حق الملائكة تسأل)** لمؤلفهما جفري لانغ.

إستانبول، نيسان: أبريل، ١٩٩٧م

مراد هوفمان

مقدمة المؤلف

لقد أصبح الصيف فصلي المفضّل بشمسه ودفئه وأيامه الطوال ونزهاته الممتعة التي أقوم بها بعد العصر. ولكنني عندما كنت في الثانية عشرة من عمري كان فصلي المفضل هو بلاشك الشتاء، بعواصفه وكراته الثلجية التي كنا نتقاذفها وكرة قدم الجليد والزلاّجات ولعبة الهوكي، وغيرها. وكنت أحب الشتاء لأني كنت أمضي فيه بضع ساعات مع والدي كل يوم بين الفينة والأخرى؛ لأنه في باقي فصول السنة كان يعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم في مصلحة التكييف والتبريد. وفي بعض أيام الآحاد كنا نأخذ كلبنا معنا للتتره قرب الشاطئ. وكان أبي يفضّل من أجل ذلك الأيام الأسوأ طقساً: العاصفة، والرمادية الضبابية، والقارسة البرودة، تلك التي تذكرني الآن بأيام كان فيها صغيراً يأخذ الصور ويرسم اللوحات لمثل تلك المواسم من أجل كسب الجوائز. وفي أحد تلك الأيام، كنا على وشك العودة إلى البيت عندما نظرت إليه وسألته: "هل تؤمن بالسماء والجنَّة ياأبي؟" عرفت أنني سوف أحصل على جواب صريح وليس جواباً ملطفاً غير مباشر لفكرة سيئة. فلو كانت الإجابة لأمي على مثل هذا السؤال لفكَّرَتْ طويلاً في التأثير الذي قد يسببه جوابها علي قبل أن تدلي به، ولكن استجابة أبي لأي سؤال كانت واحدة بغض النظر عن طبيعة السؤال. ولكنه لم يكن ليجيب دون تفكير طبعاً، وبالنسبة إلى ذلك السؤال دون عاطفة، بل كان يفكر بكل موضوع كنت أسأله عنه ملياً، وكأنما الموضوع يهمه جداً وبشكل شخصي.

وعندما سألته ذلك السؤال عن الجنّة، لم يظهر لي أي ردود فعل مباشرة بل تابع المسير. تابعنا طريقنا في الرياح الباردة الرطبة المتلاطمة التي كانت تدفع شعره الرمادي الكثيف إلى الخلف بينما كانت تلسع وجهي. بدأت أتساءل في نفسي إن كان سمع سؤالي أم لا، ذلك أننا كنا قد مشينا لأكثر من نصف ميل منذ أن طرحت عليه ذلك السؤال. ثم تباطأت خطاه ليقف ووجهه متجه نحو الشاطئ. لقد كان نظره بعيداً عندما قال لي وكأنما يخاطب نفسه: "أستطيع أن أؤمن بالجحيم بسهولة، لأن على الأرض أماكن كثيرة كالجحيم، وأما الجنَّة..." توقّف لبضع ثوان ثم هزّ رأسه وقال: "... أما الجنة، فلا أستطيع تصوّرها".

لم أندهش كثيراً برغم صغر سني عند ذلك الوقت. كان والدي حسّاساً للغاية، وكنت أعرف لتوي أن الحياة قد سلبته آماله وأحلامه. فكل ليلة كان يأتي فيها من العمل كنا نشعر به وهو يحاول أن يكظم غيظه، ولكن في معظم الأحيان كان ينفجر غضباً بسبب مشاعره المحبطة. إن السخط مُعْدٍ، وسرعان ما تأثّرنا جميعاً بنظرته السوداوية والساخرة والحانقة على الحياة—في النهاية كنّا جميعاً أطفالاً وكنا عاجزين عن الدفاع عن عواطفنا. فعندما كانت مشاعر الإحباط تصيب العديد من أبناء جيلي بسبب مقتل كينيدي، أو بسبب حرب فيتنام، أو بسبب قضية واترغيت، لم يكن كل ذلك ليثيرني ألبتة—فقد كان جميع ذلك توكيداً لما كنت قد تعلمته للتو.

إن الأنماط المتدينة من البشر كانت تنتقد والدي لأنه كما يقولون فتح الباب للشكوك الدينية، ولكن الباب لم يكن موصداً قط، وإلا لما كنت طرحت سؤالي عليه. كنت أسير في تلك الأثناء بخطى ثابتة نحو الإلحاد، ولكن ماخفف من سرعة تقدمي نحو ذلك هو جواب والدي لي؛ ذلك أنه لم يكن غير متدين أصلاً. وأما حقيقة أنه كان لديه شكوك فقد بدا ذلك أنه أمر طبيعي تماماً — إذ كيف يمكن لرجل عاقل ومنطقي وعقلاني ألاّ تكون لديه شكوك؟— ولكن أبي، مهما يكن، كان مؤمناً، ولابد أنه كانت لديه أسبابه للإيمان بالله، ولكنني لم أحاول قط أن أكتشف تلك الأسباب.

تتابعت مشكلاتي مع الجنَّة، لأنني كنت كلما تخيّلت أن الله بقدرته هو الذي خلق هذا العالم، كنت أتساءل عن سبب خلقه له؟ بمعنى آخر، كنت أتساءل: لماذا لم يدعنا في الجنة وللأبد من البداية، ولماذا جعل فينا عيوباً كي يعاقبنا بها بآلامنا على هذه الأرض؟ وكنت أسأل نفسي: لماذا لم يجعل منّا ملائكة أو مخلوقات أفضل؟ طبعاً كنت قد أسمعت كل الأحاديث عن قدرة الله اللامحدودة في العدالة، ولكن أين العدالة وأنا لم أختر طبيعتي، وأنا لم أخلق الغواية والإغراء، وأنا لم أطلب منه أن يخلقني أصلاً، وأنا لم آكل من الشجرة الملعونة! وهل خطر ببال أحد أن عقاب الله لنا يفوق بكثير حجم جريمتنا؟

كنت أرى أن تلك العدالة لاتنسجم حتى ولو بشكل مجازي مع "الحب" و"الرحمة".

ثم بدأت أكره كلمات العدالة والرحمة والمحبة هذه كرهاً مقيتاً. كنت أعتقد أن حياتنا على الأرض لا معنى أو فائدة لها، وأنه إن كان علينا أن نذهب إلى الجنَّة فإن تضحيتنا ونحن الأبرياء يجب أن تكون جسيمة، وأنه لابد لنا من أن نقبل بتناقضات صارخة. وأما البقية الباقية من البشر ممن لم يكن لديهم من الحظ ما يكفي كي يولدوا في العقيدة الصحيحة أو يتّبعوها، أو ممن لم يقدروا على تعليق تفكيرهم وتعليل أسباب الحياة والانقياد خلف عواطفهم، فإن اللعنة الأبدية سوف تحل عليهم.

كنت أتساءل في نفسي: ألم يكن من الأفضل لو أننا لم نخلق أصلاً مادام الشر كامناً فينا؟ وأما ما جعل العقيدة عندي كريهة فهو هذا المظهر البرّاق الذي كانت تقدم إلينا به، وقد اعتدت أن أخفي عدم مبالاتي بها — على الأقل كمظهر خارجي — متذرعاً بأني لست عاطفياً، وخاصة عندما كنت أستمع للخطب والتوكيدات عن الحب المقدس، تماماً مثلما تحاول أن تجامل أحداً ما فقد عقله عن طريق مداعبته وإضحاكه. وعندما تبيّن أنه لا أمل يرتجى مني كنّا من وقت لآخر نعود إلى الموضوع الحقيقي وهو الوعيد الإلهي، فقد كان يقال

لي: "ولكن ماذا لو كنتَ على خطأ؟" كما لو أنهم يريدونك أن تؤمن على أساس حسي وليس عقلانياً، أي احتياطاً لنفسك من ألا تكون هذه الرؤية الوحشية الهمجية حقيقة واقعة. ولكنني كنت أجيب: "وأما إن كنتُ على خطأ فلا بد أن أكون على صواب، لأنني أرفض الاستسلام لمطالب لا عقلانية من طغيان لا محدود، وأرفض توريط نفسي في نرجسية لا تنطفئ تتغذّى على تألم بائس، وأرفض أن أقبل بالمسؤولية وأن أتوب عن خطأ جسيم لم أرتكبه أصلاً. وفي النهاية سوف أكون الضحية الأبدية لأعظم ظلم في الكون، وبهذه الطريقة فسوف أكون وللأبد مثلاً من الحق أعلى من الذي جاء بنا إلى هذا الوجود. إن ذلك قد لا يخفف من ألمي في غرفة التعذيب أو الجحيم، ولكن على الأقل سوف يعطي لذلك معنى".

"إذن كيف، بحق الله، أصبحت مسلماً؟"

ليس الهدف من هذا الكتاب أن أشرح كيف أصبحت مسلماً، بل على القارئ أن يستنتج السبب المنطقي العقلاني الذي دفع بي إلى الإسلام. وقد يكون السبب عاطفياً وقد يكون سيكلوجياً (نفسيًّا)، وقد يكون روحانياً أيضاً، وقد يكون جميع ذلك. وبصراحة فأنا شخصياً لا أدري كيف حدث كل ذلك بالضبط، بل إن معظم ذلك حدث خارج إرادتي، ولكنه تم تبعاً لبعض القرارات الرئيسة التي كنت قد اتخذتها تمهيداً لذلك. وأما الفضوليون، فإنهم يجب أن يعلموا أنه كي يصبح المرء مسلماً، يتوجب عليه التزامٌ آنيٌّ بثلاثة مبادئ متداخلة غير منفصلة، الأول: **لا إله**، الثاني: **إلا الله**، الثالث: **محمد رسول الله**. وما قد قلته للتو في الصفحات الماضية يمثل كيف وصلت إلى الجزء الأول فقط من هذه المبادئ الثلاثة[1].

---

[1] لقد شرحت، أو لنقل فسّرت، كيف اعتنقت الإسلام بتفصيل أكبر في كتابي الأوّل: جفري لانغ، (Struggling to Surrender، Beltsville, MD:) مطابع أمانة، ١٩٩٤م، وقامت دار الفكر بدمشق بنشر ترجمته عام ١٩٩٨م بعنوان (الصراع من أجل الإيمان).

ولكنني كتبت هذا الكتاب لدوافع أخرى: فقد كتبته، كما كتبت الكتاب الأول، لأولادي، آملاً أن يعينهم صراعي في البحث عن معنىً للحياة. أريدهم أن يفهموا من أين جئت، وأن هذا الموضوع لم يكن بالنسبة إلي فضولاً أكاديمياً قط، بل تمريناً في فكرة عقلانية، وأن علاقتي به هي أكثر من مجرّد اهتمام وأنه جزء من ماضيَّ وحاضري ومستقبلي، وأنه جزء من بحثي وآلامي ورغباتي. إن السؤال الذي سألته لوالدي احترق في داخلي، كما احترق أيضاً ما قد تعلمته من ذلك السؤال، ولكنني لا أستطيع إلا أن أشاركهم ذلك السؤال وهذا الجواب. ومع ذلك فإني أكره أن أرى بحث أولادي منتهياً حيث انتهيت، بل إن أملي الكبير هو أن يبدؤوا من حيث أنتهي؛ وذلك لأنه ليس ثمة جواب نهائي وكامل لأي إنسان. إنه لخطأ جسيم أن يركن الإنسان إلى تبصراته القديمة؛ لأن معرفتنا تنمو مع الزمن، ومن الخطأ الجسيم أيضاً أن نجعل من تلك التبصرات عقيدة لأنفسنا. إن هذا يعني أننا يجب أن نتوقف عن التقدم نحو الحقيقة وأن نركن إلى الركود وعدم التجديد وبالتالي إلى الضمور والاهتراء.

ليس لي فضل فيما سوف تجدون من صفحات جيدة في طيّات هذا الكتاب — فأنا لم أجدها، بل هي التي وجَدَتْني — وأما فيما قد يعتبر غير ذلك، فأنا أعتمد على العفو الكريم لمن حكمته تنير بالعلم والمعرفة عقولنا فنقوم بأعمالنا حسب نوايانا.

ملاحظة: أخشى أن تقود طبيعة هذا الكتاب القارئ غير المسلم إلى أن يأخذ فكرة خاطئة عن الإسلام، أو أن تتكوّن لديه صورة أحادية الجانب حيال ذلك. إن الهجوم المستمر الذي تقوم به وسائل الإعلام الغربية في محاولة لتشويه صورة الإسلام والمسلمين ربما كان السبب الذي جعلني شديد الحساسية حيال هذا الموضوع. ويجب ألا يغفل القارئ أن هذا الكتاب موجه أصلاً للمسلمين من قبل شخص كان يوماً ما خارج جاليتهم، والذي حاول، خاصة في الفصول الثالث والخامس والسادس، أن يناقش أنماط سلوك ومفاهيم بعض المؤمنين

المعاصرين، والتي رأى في نفسه صعوبة في فهمهما أو التأقلم معها أو قبولها. ولهذا فإن الكتاب يحتوي على نقد لبعض تصرفات المسلمين. ولقد ضمّنت الكتاب أيضاً بعضاً من النكسات التي عانيت منها في صراعي لبلوغ استسلامي لله، وأخشى أن أكون أنموذجاً غير جدير بالاقتداء.

دعوني أنتهز الفرصة إذن كي أؤكد أنه خلال عشرين السنة الماضية قد قابلت عدداً كبيراً جداً من المسلمين الأفاضل الدمثي الأخلاق والمحبين والنبلاء والكرام والمتدينين المؤمنين، ممن أثْرَوْا معرفتي وأعطوني معنى أكبر للصداقة. وإذا ماقيّض الله لي أن أكتب كتاباً، وربما أفعل يوماً ما، عن القدوة الحسنة والصالحة وحول بعض هؤلاء الأصدقاء ممن عرفت فسوف يكون كتاباً أكبر من هذا بكثير. وبالمقابل، لو أردت أن أكتب نقداً للجاليات الأخرى التي أنتمي إليها — مثلاً الجالية الأمريكية، والجالية الأنكلوساكسونية، أو للأكاديمية التي أعمل فيها — فإنني واثق من أن ذلك سوف يتضمن نقداً أشد بكثير مما في طيات هذا الكتاب.

الفصل الأول

المقدمـــة

"يا إخوتي! لقد فقدته"

إن أكثر ما يتذكره المرء من رواية سومرست موم (Somerset Maugham) **فيما يتعلق بعبودية البشر**[1] (Of Human Bondage) هو صورة البساط الفارسي التي يقوم فيليب (Philip) ، وهو بطل في الرواية، بتأملها على نحو مستمر، بعد أن نصحه أحد أصدقائه بذلك، في محاولة منه كي يكتشف معنى الحياة. وعندما يصل إلى درجة كبيرة من الإحباط، برغم حداثة سنّه في هذا الوجود، والذي رأى وعايش من خلاله الكثير الكثير من المآسي المروعة والقاسية، فإنه يهيم على وجهه في شوارع لندن. وسرعان ما يستحوذ ذلك البساط الشرقي على تفكيره تارة أخرى. وبينما كان فيليب يتأمل تصميماته المعقدة، نراه فجأة تتملكه تبصرة رائعة؛ وهي أن تلك السجادة تحتوي جواب اللغز الذي طالما أقض مضجعه. وأخيراً يدرك فيليب أن الحياة ـــ كما هي الأنماط المتشابكة من البساط ـــ هي دوماً معقدة، تارة حلوة نضرة وتارة محيِّرة، ولكنها في النهاية خالية من أي معنى أو هدف على الإطلاق.

ولم يكن من اليسير على كثير من النقاد تقمّص دور فيليب أو التعاطف مع ما توصّل إليه من اقتناع فيما بعد، وهذا ما أدى على ما أعتقد إلى ظهور مراجعات أولية للكتاب متضاربة الآراء في معظم الأحيان. ومهما يكن فإن

---

(١) ولْيَم. س. موم: فيما يتعلق بعبودية البشرOf Human Bondage ، (نيويورك: كتب فينتجVintage، ١٩٦١م).

الفصل الأول

المقدمــة

"يا إخوتي! لقد فقدته"

إن أكثر ما يتذكره المرء من رواية سومرست موم (Somerset Maugham) **فيما يتعلق بعبودية البشر**[1] (Of Human Bondage) هو صورة البساط الفارسي التي يقوم فيليب (Philip) ، وهو بطل في الرواية، بتأملها على نحو مستمر، بعد أن نصحه أحد أصدقائه بذلك، في محاولة منه كي يكتشف معنى الحياة. وعندما يصل إلى درجة كبيرة من الإحباط، برغم حداثة سنّه في هذا الوجود، والذي رأى وعايش من خلاله الكثير الكثير من المآسي المروعة والقاسية، فإنه يهيم على وجهه في شوارع لندن. وسرعان ما يستحوذ ذلك البساط الشرقي على تفكيره تارة أخرى. وبينما كان فيليب يتأمل تصميماته المعقدة، نراه فجأة تتملكه تبصرة رائعة؛ وهي أن تلك السجادة تحتوي جواب اللغز الذي طالما أقض مضجعه. وأخيراً يدرك فيليب أن الحياة ــــ كما هي الأنماط المتشابكة من البساط ــــ هي دوماً معقدة، تارة حلوة نضرة وتارة محيِّرة، ولكنها في النهاية خالية من أي معنى أو هدف على الإطلاق.

و لم يكن من اليسير على كثير من النقاد تقمّص دور فيليب أو التعاطف مع ما توصّل إليه من اقتناع فيما بعد، وهذا ما أدى على ما أعتقد إلى ظهور مراجعات أولية للكتاب متضاربة الآراء في معظم الأحيان. ومهما يكن فإن

---

(١) ولْيَم. س. موم: فيما يتعلق بعبودية البشرOf Human Bondage ، (نيويورك: كتب فينتجVintage، ١٩٦١م).

الذين توصلوا إلى النتائج نفسها التي توصَّل إليها فيليب بسبب نشأهم الدينية المحافظة كانوا قادرين بالتأكيد على فهم موقفه وسبب اقتناعه.

وروايته فيما يتعلق بعبودية البشر غربية محضة، وهي جزء من أحد أجناس الأعمال الأدبية التي استكشفت المواضيع الصعبة ذاها وغالباً ما وصلت إلى نتائج متشاهة. إن هذا لا يعني أن الثقافات الأخرى تجنبت الخوض في صراعات الإيمان والعقل، ولكن يبدو أن الحضارة الغربية كان لها قصب السبق في هذا الميدان، فهي ما فتئت تصطرع مع مسائل كهذه لمدة تنيف على الألفي عام حتى الآن. وفي حين أن إعلان انتصارات العلم والعقلانية على حساب العقيدة (الدين) منذ حوالي خمسة وعشرين عاماً خلت ربما كان سابقاً لأوانه، إلا أن ما لاشك فيه أن هذه الأخيرة تلقت أسوأ الضربات، وربما تفقد جزءاً أكبر من النزر اليسير الذي بقي لها في قلوب البشر. إن طرائق عيشنا إنما تتشكل بواسطة المعاني التي يطلقها كل منا على هذه الحياة (والتي قد لا تعنيها بالضرورة)، وأن خط سير هذه المعركة هو الذي يؤثر بشكل كبير في تشكيل وجهات نظر مجتمعاتنا. إن السؤال عن غاية الحياة هو أمر جوهري، ويكاد المرء لا يعرف شخصاً أو مجتمعاً ما حتى يكون قادراً على فهم الطريقة التي يُعالَج بها هذا السؤال.

ومما هو شائع هذه الأيام أن تسمع مناقشة بعض علماء النفس لأزمة المعنى الحديثة. فـ (ك. ج. يونغ C. G. Jung)، وهو واحد من أوائل الذين أدركوا وروّجوا لهذه الأزمة، قال إن معظم مرضاه ممن جاوز الأربعين كان يعاني منها بطريقة أو بأخرى[١]. وفي حين أن الأجوبة التي قدمها الدين كانت ترضي أوروبة الغربية عندما كانت غالبية سكانها من الأميين، نجد أن العقائد الدينية إنما تزيد الأزمة تعقيداً في العصور الحديثة وتنفِّر الكثيرين من الأخذ بأية اعتبارات

---

(١) ك. ج. جونغ: جواب لأيوب An Answer to Job، ترجمة: ر.ف.ك. هَلّ R.F.C.Hull (نيويورك: كتب ميريديان، ١٩٦٠م).

روحية. فثمة من ينبذ الدين كليّة، وبعض ممن يبقون على بعض الصلات بعقيدة ما قد يجدون هذه العقيدة في صراع مع تفكيرهم العقلاني. والنتيجة هي القذف دوماً بالدين فوق الرف، ولكن لابد من إيجاد البدائل للأجوبة والخدمات التي كانت توفرها العقيدة في السابق. وقد زعم يونغ وآخرون عديدون جاؤوا من بعده أن هذا التوجه سوف يستمر ما لم تصبح العقيدة متوافقة مع الخبرة والمعرفة الحاليتين. ونادراً ما نستطيع أن نرى هذا على أنه توجه إيجابي، حيث يبدو أن الطبيعة الإنسانية تشتمل على روحانية، وأن هذه الروحانية لا يمكن تجاهلها فيما يبدو لنا أنها **حاجة غريزية تدفعنا كي يرى كل منا حياته على أنها ذات معنى. وغالباً ما نجد فيكتور فرانكل (Victor Frankl) يردد مقولة مفادها أنه إذا ما استطاع أحد ما أن يمد الإنسان، بإيجابية قاطعة، بـ"لماذا" نحيا؟ فإننا لا محالة سوف نجد "كيف" نحيا؟ بشكل إيجابي مثمر. ولكنها لا يمكن أن تكون أية "لماذا"؛ بل لابد أن تكون ملزمة عقلياً وفكرياً وروحياً**[1].

ثم يأتي دور المسلم. ولقد شهدتْ العقود الثلاثة الأخيرة نمواً مفاجئاً في الجالية الإسلامية الأمريكية ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى الهجرة إلى أمريكا وكذلك إلى ازدياد عدد معتنقي الإسلام الجدد من الأمريكيين والأفارقة منذ تاريخ إعلان الحقوق المدنية. والمسلم أيضاً يجد نفسه منقاداً إلى الصراع نفسه. فتراه وبكل ثقة يقول معللاً: «لا أعتقد أن للديانتين الرئيستين في أمريكا (اليهودية والمسيحية) أي معنى» .

وسرعان ما يأتيه الجواب: «أنا لا أعتقد أن لأي ديانة في العالم أي معنى. فعلى سبيل المثال ومن وجهة نظر دينكم، (يسأله أحدهم) ما غاية الحياة؟ ولماذا خلقنا الله لنشقى هاهنا على الأرض؟ ».

---

[1] فيكتور فرانكل: بحث الإنسان عن المعنى Man's Search for Meaning ، ترجمة: إ.لاش I.Lasch (بوسطن: مطبعة بوسطن، ١٩٩٢م).

ويفكر المسلم مسترجعاً ما كان قد تعلمه في طفولته قائلاً: " أعتقد أن الله خلقنا لكي يمتحننا." وطبعاً يأتيه السؤال التالي تعقيباً على جوابه: "على هذا فإن دينكم يشكّك في علم الله، إذ ما الشيء الذي يخفى على الله ويمكن له أن يعلمه من خلال امتحانه لنا؟ "

ويشعر المسلم أنه قد أحيط به، فيبحث في ماضيه عن الأجوبة عالمية القبول والتي كان قد أجبر على استظهارها في الماضي، فيقول: "كلا، ليس ذلك تماماً. ها! نعم!! لقد خلقنا الله لكي نعبده "!

وبابتسامة ماكرة يسأله خصمه: "إذن لابد أنك تؤمن بأن لله حاجاته ونقاط ضعفه، وإلا فلماذا يطلب منا أن نعبده؟ فعندما يطلب منا إنسان ما الولاء له، فإننا نصمه بالطغيان أو بالمرض العقلي. هل تريد أن تقول بأن لله مواطن ضعفٍ كالإنسان؟" ويدور رأس المسلم بأسئلة وشكوك مبهمة. ويتلمس طريقه بحثاً عن دليل من أيام طفولته، ويجيئه الجواب: "لقد عصى آدم عليه السلام ربّه؛ وكانت عقوبته أن يحيا هذه الحياة الدنيا"!

وبنظرة باردة متأنية من خصم كأنه يلاعبه الشطرنج ينطلق ليقول: (checkmate كش ملك) لقد مات شاهك! فإذا ما نحّينا بعض المشكلات العلمية جانباً، يبدو أنك تعتقد بأن الله غير عادل؛ وإلا لماذا يعاقب الله ذرية آدم عليه السلام بمعصية أبيهم؟ ولماذا لا يعطي كلاً فرصته الخاصة به؟ وهل أنتم المسلمون تؤمنون بالخطيئة الأولى؟"

"كلا! كلا! بالطبع لا"!

انتهت اللعبة.

قد يكون على المسلم الذي يعيش في أمريكا مواجهة مثل هذه الأسئلة ولمرات عدة؛ ذلك أن هذه الأسئلة هي جزء من الخلفية الثقافية للحضارة الغربية. أحياناً قد تكون النتيجة ضياعاً، بل قد تتعدى ذلك لتصل إلى درجة

التخلي عن العقيدة. فعند العديد من المسلمين يعدّ سلمان رشدي الحالة النموذجية البدائية. فلقد اعترف في مقابلة أجريت معه أنه كان طفلاً متديناً جداً عندما كان صغيراً. ولكنه خلال دراسته في إنكلترا تزعزع إيمانه بشدة، وذلك بتأثير مواقف الغرب تجاه الدين وخاصة الإسلام. وحالة رشدي هذه ليست فريدة، فلقد قابلت شخصياً العديد من أساتذة الجامعات في أمريكا ممن يحملون أسماءً إسلامية ولكنهم كانوا يتنصلون من أية عقيدة بالإسلام، بل إن قلة قليلة منهم فقط كانت تخرج عن الطور فتبدي بعض الاهتمام بذلك.

ومع ذلك تبقى عقيدة المسلم المهاجر سليمة في معظم الأحيان. وقد ينتابه شعور بسيط من زعزعة الإيمان وربما يتراجع قليلاً عن معتقده القائل: "الإسلام دين واضح المعاني" إلى موقف يقول: "الإسلام دين أكثر وضوحاً،" ولكن جذوة التزامه تبقى متّقدة معظم حياته، وذلك لأنها متأصلة في خبرته الطويلة من كونه مسلماً. فكونه قد ولد في بيئة حيث الإسلام، عملياً، هو الدين السائد، في بيئة من غير مصلحة الفرد أن يكون فيها غير مسلم، وحيث كان لإيمانه الفرصة السانحة كي يتأصل وينمو دون أي عوائق، وذلك من خلال قضائه العديد من السنين من المشاركة المنتظمة والممارسة العملية لشعائر دينه في بيئة إسلامية لها قيمها، حيث الموطن والطمأنينة والكبرياء واستحضار الخشية من الله واللقاءات الروحية -وربما معجزات مدركة- والتي من شأنها جميعاً أن تجعل حلاوة الإيمان أمراً أكثر واقعية وقوة من أي تحد قد تقوم به يد خفية بشكل منطقي.

وأما حالة معتنقي الدين الجدد فهي أقل ثباتاً، وقد وقعت إلى حد ما نسبة عالية من حالات الردة بين صفوف هؤلاء في السنوات الأخيرة. وفيما إن كان سيبقى هذا المعتنق الجديد مسلماً لمدة طويلة أم لا، هو أمر يعتمد عادة على السبب الأساسي الذي دفعه للإسلام من جهة، وما إن كانت تلك الحاجة الأساسية لهذا الدين سوف تستمر لدرجة كافية تمكنه من الرسوخ فيه من جهة أخرى. وإذا ما خبا الدافع المحرّض الأولي ووجد المعتنق الجديد بأن هناك عناصر سلبية معينة رجحت كفتها على المنافع المدركة من كونه مسلماً، فإنه في

هذه الحالة غالباً ما يتخذ قراراً بمفارقة الجماعة. والتزام المعتنق الجديد بدينه، مثله مثل المهاجر في هذه الحالة، أمر يعتمد على خبرات إيمانه الشخصية والعاطفية والروحية؛ وهذا الأمر ينطبق على كافة الديانات في الغرب. ومادام المعتنق الجديد هو في الأصل جزءاً لا يتجزّأ من المجتمع المحيط به، وعرضة لانتقاداته وتحدياته الفكرية منذ الوهلة الأولى التي يدخل فيها الإسلام، فإن بعض الأسئلة حول الإيمان والعقل، قد تكون أشد وقعاً على خياراته الدينية منها على المسلمين المهاجرين.

ومع ذلك فمستقبل الإسلام في الغرب، وخاصة في أمريكا، لا يتعلق بالدرجة الأولى بمستقبل المهاجرين والمعتنقين الجدد، بل بمستقبل الأولاد. إذ إن "نجاح" الإسلام في أوروبة وأمريكا سوف يقاس بمقدار تقوى وورع ذريّاتهم. إن أحفاد مسلمي اليوم في الغرب سوف يكونون بلا شك غربيين في مواقفهم وتفكيرهم، ذلك أن حياتهم تتوقف على ذلك، ولكن ما هو غير مؤكد تماماً هو مقدار الولاء الذي سوف يكنّه هؤلاء للإسلام أو للأمة الإسلامية المنتشرة حول العالم في المستقبل.

وفي اجتماع جمعية مسلمي شمال أمريكا الذي انعقد في مدينة تولسا(Tulsa) ، ولاية أوكلاهوما (Oklahoma)عام ١٩٩٣م ذكر الدكتور جمال بدوي أنه، خلال زيارة قام بها مؤخراً إلى أستراليا، رأى عدداً لا بأس به من الأبنية تشبه المساجد التي يراها المرء في ديار الإسلام. ومع ذلك فهي تُستخدم لأغراض دنيوية محضة كـفسحات مكاتب وقاعات اجتماعات وما شابه ذلك. وقد أُخبر أنه كان هناك في قديم الزمان عدد كبير من المهاجرين الأفغان إلى أستراليا وأن هذه المساجد المحوّلة إلى مكاتب وغيرها هي آخر آثار تلك الجالية التي ذابت تماماً في الثقافة المهيمنة. وقد استخدم الدكتور بدوي هذا المثال ليلقي الضوء على الحاجة الماسة للمدارس الإسلامية في أمريكا.

إن المدارس الإسلامية قد تساعد أولاد المسلمين في الحفاظ على هويتهم الدينية، ولكن يلوح في الأفق الموضوع الأكبر وهو: ماذا وكيف سنعلّم هؤلاء الأطفال؟ ولكن العديد من اللاأدريين (agnostic)والملحدين (atheists) اليوم كانوا يحضرون مدارس دينية يهودية أو مسيحية عندما كانوا أطفالاً. فإذا كان على الجالية الدينية أن تقدم باحثين وعلماء طليعيين فإن منهجها التعليمي يجب أن يكون متوافقاً مع طرائق الدراسة التحليلية والنقدية المعاصرة؛ وأعتقد أن هذا ضروري جداً. إن ذلك يتطلب مناخاً من حرية التعبير والبحث، حيث النقد الذاتي والموضوعية يتم تشجيعهما والاستفهام والشك يتم استيعابهما. وإذا كان المنهاج التعليمي العام **يتضارب مع منهج التعليم الديني فإن الطلاب سوف يكونون أمام خيار واحد من بين طرائق التفكير البديلة، وقد يكون هذا الخيار أبدياً. وبهذه الطريقة فإن الدين لدى أتباعه من الأطفال سوف يصبح محدداً، أو لنقل سوف يتم تغريبه إن جاز التعبير.** إن الدين في هذه الحالة سوف يصبح مقصورة من الأفكار يجب أن يُدخل إليها في حالات محددة ويُخرج منها في أخرى .

أما لدى أولاد المسلمين فإن هذه المعضلة مزمنة بشكل واضح. فإذا كنا لا نستطيع إبراز الإسلام على أنه متوافق تماماً مع التفكير العقلاني فإن الإيمان بالنسبة إلى المسلم الغربي لن يغدو أكثر من مجرد مسألة تجربة شخصية وروحية، شأنه في ذلك شأن الكثير من أتباع الديانات الأخرى في الغرب. **إن الإيمان في هذه الحالة سوف يفقد الكثير من قدرته على الإقناع. إن التفكير العقلي يمكن الإفصاح عنه ومناقشته بشكل فعّال تماماً مع الآخرين، ولكن هذا الأمر لا ينطبق على التجارب الروحية.** إذ لا يمكننا في الحقيقة مشاطرة الآخرين اتصالاتنا الروحانية، بل كل ما يمكننا عمله هو تفسيرها ومقاربتها. أنا لا أقول بأن الإيمان يمكن أن يقتصر وجوده على مستوى عقلاني فقط، أو أن وجوده يتنافر مع العقل. إن ما أقوله هو أنه إذا لم يُخضع الإسلام لحجة عقلانية مقنعة، حجة يمكن للشباب المسلم في الغرب أن يتمسك بها، فإن العديد من هؤلاء سوف ينظر إلى الإسلام على أنه مجرد ديانة أخرى وخيار ديني شأنه شأن الخيارات الدينية الأخرى

تقريباً، وفوق ذلك في بيئة حيث معتقدهم هو أكثر ما يخشاه الآخرون، وحيث دينهم، من بين ديانات العالم أجمع، هو أكثر ما يحتقره الآخرون؛ ذلك الدين الذي تتطلب شعائره وممارساته حاجات أكثر إلحاحاً من أي دين آخر، وتتعارض تكليفاته مع توجهات وأساليب الحياة في المجتمع ككل في بيئة كهذه يجب ألا نستغرب إذا ما ألفينا شريحة لا بأس بها من الأولاد الذين يولدون لوالدين مسلمين تنحّي الدين الذي ورثته عن أسلافها جانباً.

منذ بضع سنوات خلت قرأت مقالاً في مجلة أمريكية إسلامية تقول: إنه تبعاً لدراسة قامت بها تلك المجلة فإن تسعة أطفال من أصل عشرة يولدون لوالدين مسلمين في أمريكا يصبحون ملحدين، أو أنهم لا يبدون الولاء بالانتماء لأي ديانة معينة وذلك عند بلوغهم سن الرشد. ولم توضح تلك المقالة الطرق الإحصائية التي اتبعتها في إجراء تلك الدراسة مما جعلني أشك في مصداقيتها. ولكن حتى وإن افترضنا أن نصف ذلك العدد من الأطفال يتخلى عن الإسلام في النهاية فإن ذلك يشكل أزمة للمسلمين في أمريكا. ومع ذلك ربما يجب ألا تشكل إحصائية كهذه صدمة كبيرة لنا. والسؤال الذي يطرح نفسه هو:

لماذا يتوجب على الأولاد الأمريكيين من ذوي الأصول المسلمة أن يكونوا مختلفين كثيراً عن أولئك الذين أهلوهم من البوذيين أو الهندوسيين أو حتى من أي ديانة غير مألوفة في الغرب، خصوصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار مواجهتهم لبعض العقبات الخاصة التي تم ذكرها آنفاً؟

لقد قيل: إن العائلة المهاجرة تستغرق ثلاثة أجيال لكي تذوب تماماً في المجتمع الأمريكي. لم أقم بأي دراسة علمية، ولكنني قابلت من خلال قيامي بالتدريس في الجامعة عدداً لا بأس به من الجيل الثالث المنحدر من أمريكيين مسلمين، وحتى الآن لم أجد شخصاً واحداً منهم يعترف بأنه يؤمن بالإسلام. وعندما أسأل هؤلاء الطلبة إن كانوا مسلمين فإن الإجابة النموذجية التي يجيبني بها كلٌّ منهم هي: "إن والديَّ مسلمان،" وهذه هي الإجابة نفسها التي كنت أعطيها أنا

عندما كان يسألني أحدهم إن كنت مسيحياً. قد يرسم لنا هذا صورة تشاؤمية جداً مادام أن أجداد هؤلاء الشبان كانوا جزءاً صغيراً من مجموعة أقلية مسلمة متناهية الصِّغر. أما وقد أصبح هناك الآن عدة ملايين من المسلمين في أمريكا وكندا، فإننا نتوقّع أن عدداً كبيراً من أحفاد هؤلاء سوف يعبِّرون عن أنفسهم بوصفهم مسلمين، برغم أنه يبقى لنا أن نرى إلى أي درجة سوف يعكس ذلك التزاماً دينياً فعّالاً. وفي رحلاتي للعديد من المؤتمرات الإسلامية في أمريكا أسأل دوماً عن مشاركة الشبان في الجاليات الإسلامية المحلية ولكنني، لا محالة، أجد أن تلك المشاركة قليلة للغاية.

كان أول اهتمام لي بموضوع علاقة الإسلام بأولاد المسلمين الأمريكيين منذ ما يربو على عشر سنوات مضت عندما كنت أعيش في سان فرانسيسكو (San Francisco.) ففي إحدى الأمسيات وبعد صلاة المغرب جلسنا في حلقة مؤلفة من اثني عشر شخصاً تقريباً في المسجد نتجاذب أطراف الحديث الودي، وذلك بعد أن أمَّنا لتلك الصلاة محمد الذي كان في الأربعين من عمره وكان أكبرنا سناً، وكان أحد أكثر أعضاء الجالية ممن يحظون بالمحبة والاحترام. **سأله أحدهم عن حال ابنه الذي لم نره منذ فترة.** أجاب قائلاً: إن ابنه قد أصبح في السادسة عشرة من عمره في تلك الليلة، وفي الحال دوَّت تلك الغرفة الصغيرة بالابتسامات والضحك والتهنئات، ذلك أن أكبر أولادنا قد أصبح رجلاً. ولكن محمداً لم يشاطرنا تلك البهجة وسرعان ما لاذ الجميع بالصمت عندما رأينا دموعاً غزيرة تنهمر على وجهه المطأطئ. ثم رفع رأسه ليقول بصوت أجش: "يا إخوتي، لقد فقدته—لقد فقدت ولدي!" لم يكن هناك حاجة لأي شرح. فقد رأينا وسمعنا حالات كثيرة مشابهة في الجاليات المجاورة. فإذا كان ابنه في السادسة عشرة ما يزال متمسكاً بدينه فإن ذلك يعدّ استثناء، غير أن ثقتنا بمحمد وتقديرنا له عاليان جداً. وكل ما كان علينا أن نفعله هو أن نجلس هناك واجمين بعد أن تملكتنا جميعاً قوة لا شعورية جارفة من الاستخفاف بأنفسنا.

في تلك الليلة وبينما كنت أقود سيارتي قافلاً إلى البيت من المسجد، لم يغب عن بالي لحظة واحدة تلك التعابير التي ارتسمت على وجه محمد وحالة اليأس التي انتابته أثناء جوابه عن ولده. عند ذلك فكّرت في ولدي الأوَّل الذي سوف يولد قريباً، **وفكرت بالشعور الذي سوف ينتابني بعد ست عشرة سنة من الآن. وكلما ازددت تفكيراً بالمسألة برمتها، وجدت نفسي أقل موافقة مع محمد، إذ لم أكن مقتنعاً بأن محمداً قد فقد ابنه، لأنني لم أكن في الحقيقة مقتنعاً بأنه كان قد وجده أصلاً.** لقد كان محمد مسلماً جزائرياً ملتزماً حاول كل ما في وسعه أن ينشِّئ ابناً جزائرياً مسلماً صالحاً، ولكن ولده لم يكن جزائرياً بل كان أمريكياً محضاً، وكل الأمور التي كانت تجري بشكل حسن عندما كانوا في الجزائر أخفقت جميعاً في أمريكا كما حصل للكثيرين من أمثاله.

كنا نلحظ في السابق كم كان ولد محمد هادئاً في فعاليات جالياتنا في الماضي. فصمت الطفل قد يكون دليل وقار وإقرار، ولكنه قد يكون أيضاً تعبيراً عن اللامبالاة لما يقال من حوله. تساءلت إن كان أولاد المسلمين الأمريكيين يواجهون المصاعب نفسها التي كنت أواجهها أنا في الماضي من ربط نفسي بمنظورات وتقاليد المسجد.

ومع السنين دَعَّمَت المحادثات التي أجريتها مع أولاد وآباء مسلمين شكوكي وقادتني لحدس يقول: إنه إذا كانت الأمريكانية التي أَشْتَرِك بها مع الشبان المسلمين هي التي تنأى بنا عن وجهة نظر المسجد، فربما تأتي مرحلة ما من مراحل حياتهم يتوصلون من خلالها لربط أنفسهم بما قد اكتشفته أنا وأمريكيون آخرون في الإسلام. وعندما ناقشت المسألة مع معتنقين آخرين بدا لنا أن أفكارنا تتقاطع عند العديد من النقاط الرئيسة التي تقارب مدخلاً مميزاً ومعيناً إلى الإسلام. من أجل ذلك أود أن أجول معك أيها القارئ في هذا المدخل. أود أن أدعوك إلى رحلة وهي **رحلة إلى الإسلام في أمريكا.**

عليك أن تعرف ما ستحزمه والسبيل التي سوف نسلكها للوصول إلى وجهتنا. فأمّا الأولى وهو ما يجب عليك أن تحزمه كي تصحبه معك فهو أقل قدر ممكن من الأعباء، أي مطلوب منك أن تترك وراءك أكثر قدر ممكن من المتاع الديني. بل والأحرى بك أن تدّعي بأنك ملحد، وربّما **عليك أن تبدي العديد من الاعتراضات حول الإيمان بالله. ومع ذلك يجب عليك أن تكون مستنير العقل بحيث لا تنبذ وجهة نظر ما دون أخذها على الأقل بعين الاعتبار.** وأما الثانية، وهي السبيل التي سوف نسلكها للوصول إلى وجهتنا، فإن القرآن سوف يكون دليلنا. والقرآن هو المصدر الرئيس للهداية والبوصلة الروحية لبلايين المسلمين، وهو المقدمة الرئيسة للعديد من الوافدين الجدد إلى الإسلام.


صفحة كتب

الفصل الثاني

الشـــــروع في الرحـــلة

مداخل لفهم القرآن

أرى من الأفضل إرجاء هذه المناقشة ووضعها في ملحق الكتاب كي لا أفقد الكثير من القرّاء حيث إننا لم نبدأ بعد؛ وذلك لأنني أتوقع أن أغلب من سيقرأ هذا الكتاب هم من المسلمين، وأن العديد منهم سوف يجد هذا الموضوع مزعجاً. وهذا الموضوع له علاقة بدور الرمزية في التنـــزيل. فخاتمة الكتاب أو ملحقه قد يكون المكان الأفضل لهذا الفصل؛ ذلك أن النتائج التي تم التوصل إليها هنا لن تتأثر كثيراً بهذه الملاحظات إذا وضعت في نهاية الكتاب. ولكن قلقي الأكبر يتركز على مجموعة صغيرة من القرّاء، والتي قد يثنيها تمسكها بالحرفية المفرطة عن محاولة التوفيق بين الدين والفكر الحديث.

ويؤكد المسلمون أن القرآن تنـــزيل صالح لكل إنسان وزمان ومكان، من السهل جداً الاستشهاد بآيات قرآنية لدعم هذا القول. فلو كانوا يؤمنون بعكس ذلك لما كان هناك ميزة كبيرة في دراسة كتابهم الكريم. ومن أجل تعليل هذه المقدمة بأمانة فإن علينا بالتأكيد أن نسمح، بل حتى نتوقع، أن القرآن يستخدم المجاز (allegory)، والحكايات الرمزية ذات المغزى الأخلاقي (parables)، وعناصر أدبية أخرى (literary devices) ، من أجل الوصول إلى جمهور متعدد المشارب. إن لغة القرآن لابد أن تكون لغة بيئة النبي ﷺ وأنها تعكس العادات المادية والاجتماعية والدينية والفكرية لعرب القرن السابع

الميلادي. ولكن إذا كانت الرسالة الجوهرية عالمية؛ فإنها يجب أن تتجاوز اللغة والثقافة نفسها التي كانت أداة نقل التنــزيل. وإذا كانت لغة جماعة ما تنمو داخل خبراتها وخارجها، فكيف إذن يتم التخاطب مع الوقائع خارج نطاق تلك الخبرة؟

يبدو أنه ليس هناك سوى سبيل واحد فقط وذلك من خلال استخدام المجاز، أي التعبير عن الحقائق من خلال أحداث وأشكال رمزية، أو كما يقول مفسر القرآن المشهور الزمخشري: «إيضاح رمزي بالحكايات ذات المغزى الأخلاقي وذلك عن طريق شيء ما نعرفه من خلال خبرتنا، من شيء خارج عن نطاق إدراكنا[١]».

فمثلاً يخبرنا القرآن أن الجَنَّة في الآخرة هي إلى الدرجة التي ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧/٣٢]. ومع ذلك فإنه يقدم صوراً حسيَّة جداً عن الجنة تناسب بشكل خاص مخيلة معاصري محمد ﷺ فهذه التوصيفات تعيد إلى الأذهان وسائل الترف والمباهج الحسية التي كان يتمتع بها أثرى الأثرياء من زعماء البدو في القرن السابع. فلو صادف أن كان القارئ رجلاً من سكان ألاسكا (Alaska) فقد يكون فاتر الشعور تماماً حيال هذه المغريات، بل قد يفضِّل الشواطئ الرملية الدافئة على الواحات الباردة، وضوء الشمس على الظل الدائم، وقد يفضل فتيات يستحممن شبه عاريات على الحوريات ولا يعبأ كثيراً إن كان هؤلاء الفتيات عذارى أم لا. إن هذا القارئ ربما يأخذ هذه الإشارات على نحو رمزي، ومما يعزز ذلك لديه تحديد القرآن المتكرر لكلمة (مَثَل) لوصف ما يمكن الإيمان به من الأُخرويات.

وعلى نحو مشابه، فبرغم أن الله ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالَى عَمّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ٦/١٠٠]، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ٤٢/١١]، وأنه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً

---

(١) محمد أسد: رسالة القرآن The Message of the Qur'an ، (جبل طارق: دار الأندلس، ١٩٨٠م)، ص ٩٨٩-٩١.

أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤/١١٢]، إلا أن القارئ، مهما يكن، فإنه يحتاج ليرتبط مع الله ومع فعالياته. وهكذا نجد أن القرآن يزودنا بالعديد من صفات الله المقارَنة، فعلى سبيل المثال: في حين يمكن أن نصف أحداً من البشر أنه رحيم وكريم وحكيم وغفور، فإن الله هو الرحمن، وهو الرحيم، وهو الكريم، وهو الحكيم، وهو الغفور. ونجد في القرآن ذكراً لـــ(وجه) الله و(يد) الله و(عرش) الله وتعابير أخرى: تبدو للوهلة الأولى أن لها صبغة يمكن تصورها تقريباً، فمثلاً (غضب) الله أو (لعنة) الله، و(رضاء) الله بالأعمال الصالحة أو (محبته) لمخلوقاته، وكونه (ينسى) العاصي الذي ينسى الله، وكونه (يسأل) المذنب يوم القيامة عن ذنبه، وما إلى ذلك[1].

فلأن نمنع إمكانية الرمز في تعابير كهذه، فإننا سوف نبدو وكأننا نضمّن تناقضاً بين بعض البيان في القرآن، خاصة عندما نأخذ بعين الاعتبار التوكيد الرئيس التالي:﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧/٣].

إذن فالقرآن نفسه يصر على استخدام الرمز؛ ذلك أن محاولة وصف عالم الوقائع فيما وراء إدراك البشر (وهو ما يصفه القرآن بالغيب) سوف تكون مستحيلة إذا لم نستخدم الرمزية. ومن هنا يكون من الخطأ الإصرار على التفسير الحرفي للوصف الوارد في القرآن عن صفات الله، وصفة يوم القيامة، وصفة الجنة والنار، إلخ..، وذلك لأن لفظة "الآيات المتشابهات" الواردة في الآية القرآنية لا تعرّف أو تشرح هذه الصفات، لكنها، وبسبب قصور فكر الإنسان ولغته، تروي لنا شيئاً مشابهاً. وهذا الأمر يعيننا على شرح العقيدة المعروفة "بلا كيف" التي سادت الفكر الإسلامي، والتي نادى بها أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وهو واحد من مشاهير العلماء في القرن الثالث الهجري، العاشر الميلادي.

---

(١) المصدر السابق.

وتقول هذه العقيدة: إن آيات كهذه تنم عن حقائق، ولكننا يجب ألا نسأل أو نلح على كيفية إدراك هذه الحقائق[١].

وخلال التاريخ الإسلامي كان المنحى الحرفي واحداً من بين العديد من الطرائق التي اتبعت في تفسير القرآن، واليوم برز هذا الاتجاه من جديد ليسود في كل من أمريكا وكندا. ويبدو أن الغالبية العظمى من المحاضرين المسلمين في أمريكا تميل للأخذ بكل وصف، أو سرد في القرآن على أنه مقولة علمية، أو حقيقة تاريخية. فمن هذا القبيل وعلى سبيل المثال يفترض بعضهم أن قصة آدم عليه السلام تروي لنا الأصول التاريخية والعلمية للإنسان بوصفه جنساً بشرياً (Homo Sapiens)، وهذا الاتجاه يدعمه الابتهاج العام حول بعض الدراسات القرآنية والعلمية التي تمت مؤخراً، إذ يُعْتَقَد أن عدداً كبيراً من النتائج العلمية، إن لم يكن معظمها، كان القرآن قد تنبأ بها[٢].

صحيح أن بعض ما ورد في القرآن من وصف لبعض الدلائل (الآيات) — وذلك في طبيعة الله وحكمته وقدرته — يحمل شبهاً رائعاً ببعض المكتشفات الحديثة، وصحيح أن هذه الدلائل تتوافق جميعها مع العلم بشكل تام، ولكن جزءاً من سبب هذا كله قد يخالف محاولات بعض المسلمين إخضاع القرآن للتحليل العلمي[٣] إن القرآن أبعد من أن يكون كتاب نصوص علمية، فلغته هي

---

(١) آن ماري شيمّل :Annemarie Simmel الإسلام: مقدمة Islam: An Introduction ، (نيويورك: دار SUNY)١٩٩٢م، ص ٧٨-٨١.

(٢) يعد آدم عليه السلام المخلوق الأول الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته. وقد تكررت قصة خلق آدم في مواضع عديدة من القرآن الكريم. انظر على سبيل المثال لا الحصر الآيات ٣٠ و٣٣ من سورة البقرة، والآيات ٢٦-٣١ من سورة الحجر . [المترجم].

(٣) انظر على سبيل المثال كتاب مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية The Qur'amic Phenomenon ، وموريس بوكاي: التوراة والقرآن والعلم The Bible, the Qur'an and Science ، و كيث مور: الإنسان الذي يتطور .The Developing Human وكما قلت في كتابي السابق الصراع من أجل الإيمان: إن هذا الموضوع ممتع بل رائع أحياناً، ولكنه غالباً ما يتطلب استقراءات معقدة ومبهمة في تفسير بعض الكلمات والعبارات. وهذا التوجه نجده لدى بعض الجاليات الدينية أيضاً، فقد أخبر أحد المتحدثين جمهوره قائلاً: إن العهد الجديد يحتوي على نظرية الانفجار الكوني الأول the big -

أرقى أنواع الكتابة الأدبية، وتحمل العديد من ظلال المعاني المختلفة. إن أوصاف العديد من الدلائل القرآنية والتي يعتقد اليوم أنها تنبأت بحقائق تم إثباتها مؤخراً تبدو كأنها غامضة على نحو مطرد ومقصود، وتتحاشى أي درجة من الوضوح من شأنها أن تتعارض مع مستوى المعرفة لأي قارئ في أي زمان كان. فلو كان الوصف القرآني لهذه الظواهر (نظرية الانفجار الكوني، وانشطار الذرة، واتساع الكون على سبيل المثال لا الحصر) يقدم وصفاً دقيقاً ومطولاً لقام قدماء المسلمين من العلماء باكتشافها. ومن الميزات الرائعة في القرآن، أن هذه الدلائل لا تفقد أي شيء من قدرها وسرّها وجمالها من جيل لآخر، وكل جيل بدوره يجد فيها ما يتوافق والحالة الراهنة من المعرفة. فإذا كان القرآن يزرع فيك الرهبة والعجب بدلائله وآياته، فتلك مسألة، وأما إذا كنت تحاول أن تستنبط من هذه الآيات أو تسقط عليها بعض النظريات العلمية، فتلك مسألة أخرى، وفوق ذلك كله، فهي مخالفة لأسلوب القرآن.

إن العلاقة ما بين القرآن والتاريخ واحدة تقريباً، وإن أي شخص عنده بعض المعرفة بالكتاب المقدس (The Bible)، يلاحظ أن العديد من نصوص السرد في القرآن لها ما يماثلها في الكتاب المقدس. وفي الماضي كان المستشرقون يزعمون أن محمداً ﷺ هو الذي قام بتأليف القرآن، ويتهمونه بانتحال أو استعارة مواد من مصادر يهودية ومسيحية، ولكن هذا الرأي لم يعد شائعاً بين العالمين بالإسلام في الغرب، والسبب في ذلك هو أنه حيثما وجد تماثل مع الكتاب المقدس، فإننا نجد أن السرد القرآني يشتمل، وعلى نحو شبه دائم، على نقاط خلاف رئيسة من حيث التفاصيل والمعنى. ومما هو مهم أيضاً هنا، أن القرآن نفسه يفترض أن مستمعيه الأولين على إحاطة لابأس بها بهذه القصص. من هنا فإنه من المحتمل جداً أنه، وعبر قرون من التواصل، فإن كلاً من يهود الجزيرة

- bang theoryفي الخلق، وأن إنجيل يوحنا يقول: في البدء كانت "الكلمة." ومادامت الكلمة هي وحدة مفردة في عالم اللغة والتي تحدث ذبذبات صوتية عندما ننطق بها، نستخلص عن طريق بعض التماثل مع الكون الفيزيائي نظرية كتلة النقطة الأصلية المفردة ذات الكثافة اللامحدودة والتي تنفجر.

العربية ومسيحييها ووثنييها قد تبنى، مع بعض التعديل، تراث الآخر المنقول مشافهة. وليس عجباً على الإطلاق أن يكون مجموع التراث الذي تشاطره يهود وعرب الشرق الأوسط مرده إلى مصدر مشترك مادام الطرفان كلاهما ينتميان إلى جد مشترك. من هنا فإن التصوّر القائل بأن القرآن استعار مادته من الكتاب المقدس إنما هو تصور غير ملائم.

وبالإضافة إلى تماثلات في الكتاب المقدس، فإن القرآن يحتوي عدداً من القصص التي لم تكن معروفة على مايبدو إلا في الجزيرة العربية وواحدة من هذه القصص على الأقل لها أصول غامضة[1] . وفرق جوهري آخر بين جميع روايات القرآن والسرد في الكتاب المقدس هو أن هذا الأخير غالباً ما يُقَدَّم في إطار تاريخي، في حين أن روايات القرآن تتحدى كل محاولة لوضعها في مثل هذا الإطار، ما لم يتم الرجوع إلى مصادر خارجية. وبمعنى آخر، إذا اقتصر اعتمادنا على القرآن لفهم هذه الروايات فإنه يستحيل أن نكون قادرين على وضعها في التاريخ، فالقرآن يروي الأحداث بطريقة يتم التركيز فيها على المغزى في حين تحذف التفاصيل التي تربط هذه الأحداث. على هذا فالقارئ الغربي الذي لا يعرف شيئاً عن قبيلتي عاد وثمود العربيتين سرعان ما يفهم المغزى الأخلاقي من وراء ذكر حكاياتهما. إن هذا الحذف للتفصيل التاريخي يضيف إلى قوة السرد في تحريك المشاعر ليجعلها عالمية، وتتجاوز كل الحدود؛ وذلك لأنها تساعد القارئ على التركيز على معنى القصص غير المحدود زمنياً.

إن القصص القرآنية خالية تماماً من أي إشارات تاريخية بحيث لا يكون من الواضح دوماً ما إن كانت رواية ما يقصد بها أن تؤخذ على أنها تاريخ أو حكاية رمزية ذات مغزى أخلاقي أو أنها مجاز، ولنأخذ في الاعتبار الآيتين التاليتين من قصة آدم عليه السلام.

---

(١) من هذه القصص قصة (ذي القرنين) التي سوف نناقشها بعد قليل.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١/٧].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلَى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنّا كُنّا عَنْ هَذا غافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢/٧].

نلاحظ في الآية الأولى التحول في صيغة الجمع من (خلقناكم) و(صورناكم) إلى (آدم) مفرد، وكأن البشر جميعاً مرتبطون بـــ (آدم عليه السلام). ويبدو أن هاتين الآيتين تتطلبان تفسيرات رمزية، وإلا فإننا نستنتج من الآية الأولى أنه: خُلقنا ثم صُوّرنا ثم كان الأمر الذي يتعلق بالإنسان الأول.

وأما بالنسبة إلى الآية الثانية فإنني لا أعرف حتى كيف أبدأ في تفسيرها على نحو ملموس، وليس من العجب أن نجد العديد من المفسرين القدماء يفسرونها على نحو رمزي.

وتحكي لنا السورة الثامنة عشرة في القرآن، سورة الكهف، عدداً من القصص الجميلة بأسلوب سوريالي (فوق واقعي) تقريباً ومثال ذلك الآية ٨٦ وهي جزء من قصة ذي القرنين:﴿ حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذا الْقَرْنَيْنِ إِمّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ [الكهف: ٨٦/١٨]. فقد حيّرت هذه الآية بعض المفسرين الذين قام عدد منهم بالبحث في التاريخ عن نبي فاتح تتطابق صفاته مع ذي القرنين الذي وصل الأراضي التي تشرق فيها الشمس وتغيب. وكان الخيار الأكثر شيوعاً أن ذاك الرجل هو الإسكندر الأكبر، ولكنني أعتقد أن هذا خطأ كبير؛ ذلك أن الإسكندر كان مشهوراً بوثنيته. ومادامت الشمس لا تغرب حرفياً في عين ماء موحلة والناس واقفون من حولها، فإننا يجب أن نأخذ بالتفسير الأقل حرفيّة هنا.

وبدلاً من مهاجمة هذه النقطة، دعوني ألخّص موقفي. فمن حيث أساس أسلوب وشخصية القرآن، أعتقد أن الأكثر حيطة فيما يمكن أن يقوله المرء هو أن القرآن يروي العديد من القصص أو أجزاءً من قصص كانت مألوفة جداً على ما يبدو عند العرب، ليس من أجل أن يروي رواية أو تاريخاً، أو يشبع فضول الإنسان، بل "ليضرب مثلاً في الأخلاق ويوضح نقطة ما ليزيد من حدة الانتباه، وكذلك ليدعم الرسالة الأساسية[1] ".وأود أن أدفع عكس المحاولات التي تهدف إلى أن تقرر، أو ترغمنا بقبول تاريخيّة (historicity) كل من هذه القصص؛ وذلك لأن القرآن يتحاشى المعالم التاريخية، ومادام أن نصوصاً محددة في بعض السرد لا يمكن الأخذ بها بشكل حرفي، فإنه لا يوجد مسوّغ لمثل هذا الإصرار على تاريخيّة النص. وفوق ذلك فإن فرض قيود قد يقود، وليس من شأنه أن يقود بالضرورة، إلى خلافات عقلانية واعتراضات تصرف انتباه القارئ عن العبرة الأخلاقية لقصة ما. ونجد أن القرآن نفسه ينتقد بشدة هذا المنحى وذلك في سورة الكهف: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاّ مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف: ٢٢/١٨].

وكوننا بشراً فإنه لا يمكننا على الإطلاق أن نقرر الشخصية التاريخية أو الرمزية لكل قصة قرآنية أو نعرّفها، إذ لا أحد لديه المستوى اللازم من المعرفة بالتاريخ والتراث الشفهي للعرب من شأنه أن يقدم زعماً كهذا. يجب علينا أن نعترف بالجهل الشخصي، ولكن يجب ألا نسمح لهذا الجهل أن يضع حدوداً وقيوداً على طرائق ووسائل فهم التنـــزيل.

---

(١) ج. ر. هوتنغ G.R.Hawting و عبد القادر الشريف: طرائق لفهم القرآن Approaches to the Qur'an، (نيويورك: روتدلدج، ١٩٩٣م)، ص ٢٣١.

وحالما ننطلق في رحلتنا، سوف نتناول القرآن من وجهة نظر المضمون، باحثين بذلك عن خلق معنى من، وإيجاد سبب في، وجود الله والإنسان والحياة. نحن الآن مستعدون للصعود بعد أن حزمنا أمتعتنا وقمنا بكامل التجهيزات، ومع وجود القرآن أمامنا، ندخل الصفحة الأولى:

استجابة الدعاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٢. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣. مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

٤. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

٥. اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيم

٦. صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

٧. غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ١/١-٧].

لقد كتبت مجلدات ومجلدات عن سورة فاتحة القرآن، وبرغم أنها تتألف فقط من سبع آيات قصار فقط، ولكن بالنسبة إلينا، يا رفاقي المسافرين، ليس لدينا من الوقت ما يكفي إلا للوقوف على بعض الملاحظات الصغيرة جداً. فالآية الأولى تشير إلى ترنيمة حمدٍ لله (رب العالمين). ويأتي الاسمان المقدسان (الرحمن الرحيم) في الآية الثانية، وهذان الاسمان يتصدران كل سورة (عدا السورة التاسعة: التوبة)، وهما من بين أكثر صفات الله وروداً في القرآن وعلى ألسنة المسلمين في حديثهم اليومي. ولكن سرعان ما تتغير الحالة في الآية الثالثة، وذلك عندما توقظ فينا هذه الآية قلقاً وصراعاً راسخين في نفوسنا، فحالما يتم

التوكيد على رحمة الله وعطفه (الآية ٢)، يأتينا الوعيد بـ(يوم الدين) (الآية ٣). وقد نسأل: هل كان من الأحرى تأجيل اعتبارات كهذه والانتظار حتى يكون القارئ أكثر راحة مع القرآن وإيماناً به؟ فالتوكيد على رحمة الله وعطفه وحنانه ومحبته لم تنفرنا من الدين قط، ولكن ما نفّرنا منه الوعيد بيوم القيامة والنار واللعنة الأبدية التي كان من المستحيل علينا أن نوفّق بينها وبين الرحمة والعطف.

وتذهب الآية الرابعة إلى حد أبعد في هذه المشكلة، وذلك عندما تذكرنا أن نؤدي الصلاة، ونلتمس العون من خالق المأزق الذي نريد الخلاص منه. وبعيداً عن أن يسمح لنا أن نهب بحرارة للاهتمام برسالته، فإن الكتاب لا يألو جهداً للتذكير بتذمرنا من الدين. سوف نكتشف أن هذا الأسلوب متواصل في القرآن، وسوف نرى في الحال بأن هذا القرآن ليس بيعاً بالإقناع أو بالإجبار، وأنه في الواقع ليس بالسهل الهيِّن ولا بالشاق المرغم، ولكنه شيء لا يمكنك أن تماري فيه، وأنه ليس أقل من تحدٍّ وجرأة على المواجهة والمناقشة.

وبالنسبة إلى الآيات الثلاث الأواخر (من سورة الفاتحة) فكل امرئ يستطيع أن يرى نفسه فيها بسهولة بالغة، فالحياة لغز محيِّر، ومتاهة عشوائية مربكة تتألف من مسالك وخيارات لا تؤدي إلا لأحلام محطمة، ومآثر خاوية، وآمال بعيدة المنال، وسراب من بعد سراب. هل ثمة طريق سوي، أو أنها جميعاً في النهاية لا معنى لها؟ لاحظ التحول من الشخصي إلى اللاشخصي في الآيتين السادسة والسابعة وكأنهما توحيان أن الهدي إلى (الصراط المستقيم) هو نعمة ربانية يمنحها الله لعباده الذين يسعون لنيل الهداية الإلهية ويعملون لها، وأن الذين لا يتَّبعون هدي الله سوف يلقون ضنك العيش، وسخطاً شديداً، وضلالاً وضياعاً تامين. وأما السخط والضياع فقد خبرناهما جيداً؛ ذلك أننا تشرّبنا غضب الحياة وخلوَّها من أي هدف، وجعلناها ملكاً لنا، إنها حجتنا التي ندعي بها أن ليس هناك من إله رؤوف بعباده، وهي أساس فلسفتنا.

لقد جلنا خلال الآيات السبع (من سورة الفاتحة) بسرعة. وقد كان هناك نقلة دقيقة في الصيغة بين الآيات الأربع الأول التي تمجد الخالق إلى الثلاث الأخر التي تطلب الهداية. أكثر من مجرد احتمال فقد كانت قراءتنا الأولية لها عرضية جداً، بحيث إننا لم نلحظ هذا التغيّر. ولم نكن ندرك بأننا كنّا نقوم بالتضرع بطريقة غير إرادية، وبحالة من شبه اللاوعي حتى انتهينا من قراءة فاتحة الكتاب. لقد بدا وكأننا خُدعنا تقريباً بقراءتها قبل أن يكون لدينا الفرصة لمقاومة ذلك. وتخبرنا بداية السورة التالية أنه سواء قصدنا التضرع بشكل واع أم لا، فإن دعاءنا قد بلغ غايته، وأن ذلك الدعاء على وشك أن يقابل بالاستجابة.

ذلك الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

١. ﴿الم

٢. ذَلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ

٣. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ

٤. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون

٥. أُولَئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢-٥](١) .

هناك تسع وعشرون سورة في القرآن تبدأ بأحرف مقطعة كهذه التي في هذه السورة، وما تزال هذه الأحرف تشكل لغزاً لمفسري القرآن، وهناك اختلاف في الرأي حول معانيها. فالعديد يعتقد أنها اختصارات لكلمات أو رموز غامضة، ولكننا سوف نترك التفكير فيها جانباً.

---

(١) تفسير الآيات الواردة في هذا الكتاب هي في معظم الأحيان تفسيري الخاص، برغم أنني اعتمدت كثيراً في استدلالي على عدد كبير من المفسرين أمثال: محمد أسد: رسالة القرآن؛ محمد علي: القرآن الكريم: النص، الترجمة الإنجليزية والتفسير؛ عبد الله يوسف علي: ترجمة معاني القرآن الكريم؛ مارمادوك بيكتال Marmaduke W. Pickthall: معاني القرآن الكريم.

تعلن الآية الثانية لنا أن ذلك الكتاب، القرآن الذي هو بين أيدينا، هو دون أدنى شك إجابة للدعاء (سورة الفاتحة) الذي قد تلوناه لتوّنا، ومن هنا فصاعداً يختلف فحوى القرآن عما هو عليه في سورة الفاتحة. ففي السورة الأولى يقف القارئ بخضوع بين يدي الله طالباً منه الهداية، في حين نجد أن منظور باقي القرآن، كما تصرُّ هذه الآية، هو الله في جبروته وعظمته يعلن لقارئ القرآن سبيل الرشاد الذي يبحث عنه، سواء وعى القارئ ذلك أم لم يع، عرف ذلك أم لم يعرف. نلاحظ أيضاً أن التوكيد في هذه الآية هو على مسألة الريبة والخشية، وعلينا ألا ننأى بأنفسنا كثيراً عن هاتين الخاصتين (الريبة والخشية) ولو أننا لا نرقى لمثل الخصال الواردة في الآيات التالية (من ٣-٥). نعم لدينا شكوك، ليس فقط حول وجود الله، بل حول نكراننا لهذا الوجود. ولكن لو كنا على تمام اليقين من إلحادنا لما كنّا نقرأ هذا الكتاب الكريم الآن. وبقدر ما نمقت أن نعترف بالحقيقة، فإننا لسنا على يقين تام من أنفسنا؛ ذلك أنه ما يزال يعتلج في أنفسنا نزعة من الشك، والخشية. فترجمة كلمة (المتقين) تعني أولئك الذين لديهم الخشية، والتي تعود في العربية إلى الجذر يتقي، يحترس (ويدفع عن نفسه ويحتاط). وهي تتضمن احتراس المرء الشديد حيال نقاط ضعفه الكامنة، وهو يقف على رؤوس أصابعه، احتراساً ملؤه تأنيب الذات. وقد لا نكون مؤمنين، ولكننا، دون شك محصنون ومدافعون وحذرون عندما يصل الأمر إلى الدين، وإلا لما كنا ملحدين من جهة؛ ولَكُنّا قبلنا ما قد ورثناه عن آبائنا بسهولة من جهة أخرى. وهذه الخصال هي نفسها التي جاءت بنا إلى هذه الرحلة، لأنه يخامرنا شك أننا قد نكون على خطأ، وأن هناك على الأقل احتمالاً بوجود الله، وأنه إذا كان هناك إلهٌ فإننا إذن نتجاهل ما قد يكون أهم حقيقة في وجودنا.

وتبدأ الآية الثانية وصفاً لأتباع القرآن المحتملين. والقرآن، شأنه شأن العديد من كتب المعرفة، يتطلب استعداداً كي يستفيد المرء مما يحتويه إلى أبعد درجة ممكنة، والذين سوف يحظون بالفوز العظيم هم أكثر الناس صدقاً مع الله، وهؤلاء هم الوارد ذكرهم في الآيات (٢-٥) من سورة البقرة. فهم يؤمنون

بوقائع خارجة عن نطاق إدراكهم، وهم أتقياء وكرماء مع أخيهم الإنسان، ولديهم إيمان بما قد بلغوا به من حقائق، وهي الحقائق الجوهرية نفسها في كل العصور.

أما الآية السادسة (من سورة البقرة) فتشير إلى المعرضين الذين يرفضون حتى الاعتقاد بالقرآن، والذين ينبذهم القرآن بدوره في الآية التالية. وتبدأ الآية الثامنة نقاشاً مطوّلاً نسبياً (الآيات من ٨-٢٠) عن صفات ما بين الفريقين الذين يتذبذبون ما بين الإيمان والكفر وغالباً ما تلهيهم الحياة الدنيا ويعميهم السعي خلف شهواتهم. فمن وجهة نظر القرآن، ربما نكون نحن أقرب إلى حدود هذه الزمرة. والآيات من ٢٠-٢٨ تبرز بعضاً من مواضيع القرآن الرئيسة: كحاجة الإنسان لطاعة الله الواحد الأحد، ونبوّة محمد ﷺ، والآخرة ويوم الحساب، واستخدام القرآن للرمزية (الآية ٢٦)، وبعث الإنسان، وسلطة الله المطلقة على الكون.

والآية ٣٠ تحكي قصة الإنسان، وهنا نريد أن نتابع ولكن ببطء آية بعد آية، مادام أن لهذه الآيات الأثر الكبير على أسئلتنا. فقدماء المفسرين تحدثوا عن إعجاز القرآن في هذه الآيات التي لا يمكن الإتيان بمثل بلاغتها، حيث روعة البيان بمقصود الكلام. ويوصي هؤلاء بتدبر هذه الآيات بعقولنا وقلوبنا كلمةً كلمة، وحرفاً حرفاً، كي نحظى بأكبر قدر ممكن من النفع، وإلا حرمنا أنفسنا من الوسائل الأصلية التي نميط بها اللثام عن الحقائق الدفينة بين جنبينا:

﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٣٠].

فالمشهد هنا في الجنَّة حيث يخاطب الله الملائكة أنه يريد أن يستخلف الإنسان في الأرض. ولم يكن آدم عليه السلام خلق كأوَّل إنسان بعد. ومن خلال الآيات التالية يبدو واضحاً أن آدم عليه السلام كان بريئاً من أي معصية، ومع ذلك

تعلن الآية الثانية لنا أن ذلك الكتاب، القرآن الذي هو بين أيدينا، هو دون أدنى شك إجابة للدعاء (سورة الفاتحة) الذي قد تلوناه لتوّنا، ومن هنا فصاعداً يختلف فحوى القرآن عما هو عليه في سورة الفاتحة. ففي السورة الأولى يقف القارئ بخضوع بين يدي الله طالباً منه الهداية، في حين نجد أن منظور باقي القرآن، كما تصرُّ هذه الآية، هو الله في جبروته وعظمته يعلن لقارئ القرآن سبيل الرشاد الذي يبحث عنه، سواء وعى القارئ ذلك أم لم يع، عرف ذلك أم لم يعرف. نلاحظ أيضاً أن التوكيد في هذه الآية هو على مسألة الريبة والخشية، وعلينا ألا ننأى بأنفسنا كثيراً عن هاتين الخاصتين (الريبة والخشية) ولو أننا لا نرقى لمثل الخصال الواردة في الآيات التالية (من ٣-٥). نعم لدينا شكوك، ليس فقط حول وجود الله، بل حول نكراننا لهذا الوجود. ولكن لو كنا على تمام اليقين من إلحادنا لما كنّا نقرأ هذا الكتاب الكريم الآن. وبقدر ما نمقت أن نعترف بالحقيقة، فإننا لسنا على يقين تام من أنفسنا؛ ذلك أنه ما يزال يعتلج في أنفسنا نزعة من الشك، والخشية. فترجمة كلمة (المتقين) تعني أولئك الذين لديهم الخشية، والتي تعود في العربية إلى الجذر يتقي، يحترس (ويدفع عن نفسه ويحتاط). وهي تتضمن احتراس المرء الشديد حيال نقاط ضعفه الكامنة، وهو يقف على رؤوس أصابعه، احتراساً ملؤه تأنيب الذات. وقد لا نكون مؤمنين، ولكننا، دون شك محصنون ومدافعون وحذرون عندما يصل الأمر إلى الدين، وإلا لما كنا ملحدين من جهة؛ ولَكُنّا قبلنا ما قد ورثناه عن آبائنا بسهولة من جهة أخرى. وهذه الخصال هي نفسها التي جاءت بنا إلى هذه الرحلة، لأنه يخامرنا شك أننا قد نكون على خطأ، وأن هناك على الأقل احتمالاً بوجود الله، وأنه إذا كان هناك إلهٌ فإننا إذن نتجاهل ما قد يكون أهم حقيقة في وجودنا.

وتبدأ الآية الثانية وصفاً لأتباع القرآن المحتملين. والقرآن، شأنه شأن العديد من كتب المعرفة، يتطلب استعداداً كي يستفيد المرء مما يحتويه إلى أبعد درجة ممكنة، والذين سوف يحظون بالفوز العظيم هم أكثر الناس صدقاً مع الله، وهؤلاء هم الوارد ذكرهم في الآيات (٢-٥) من سورة البقرة. فهم يؤمنون

بوقائع خارجة عن نطاق إدراكهم، وهم أتقياء وكرماء مع أخيهم الإنسان، ولديهم إيمان بما قد بلغوا به من حقائق، وهي الحقائق الجوهرية نفسها في كل العصور.

أما الآية السادسة (من سورة البقرة) فتشير إلى المعرضين الذين يرفضون حتى الاعتقاد بالقرآن، والذين ينبذهم القرآن بدوره في الآية التالية. وتبدأ الآية الثامنة نقاشاً مطوّلاً نسبياً (الآيات من ٨-٢٠) عن صفات ما بين الفريقين الذين يتذبذبون ما بين الإيمان والكفر وغالباً ما تلهيهم الحياة الدنيا ويعميهم السعي خلف شهواتهم. فمن وجهة نظر القرآن، ربما نكون نحن أقرب إلى حدود هذه الزمرة. والآيات من ٢٠-٢٨ تبرز بعضاً من مواضيع القرآن الرئيسة: كحاجة الإنسان لطاعة الله الواحد الأحد، ونبوَّة محمد ﷺ، والآخرة ويوم الحساب، واستخدام القرآن للرمزية (الآية ٢٦)، وبعث الإنسان، وسلطة الله المطلقة على الكون.

والآية ٣٠ تحكي قصة الإنسان، وهنا نريد أن نتابع ولكن ببطء آية بعد آية، مادام أن لهذه الآيات الأثر الكبير على أسئلتنا. فقدماء المفسرين تحدثوا عن إعجاز القرآن في هذه الآيات التي لا يمكن الإتيان بمثل بلاغتها، حيث روعة البيان بمقصود الكلام. ويوصي هؤلاء بتدبر هذه الآيات بعقولنا وقلوبنا كلمةً كلمة، وحرفاً حرفاً، كي نحظى بأكبر قدر ممكن من النفع، وإلا حرمنا أنفسنا من الوسائل الأصلية التي نميط بها اللثام عن الحقائق الدفينة بين جنبينا:

﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٣٠].

فالمشهد هنا في الجنَّة حيث يخاطب الله الملائكة أنه يريد أن يستخلف الإنسان في الأرض. ولم يكن آدم عليه السلام خلق كأوَّل إنسان بعد. ومن خلال الآيات التالية يبدو واضحاً أن آدم عليه السلام كان بريئاً من أي معصية، ومع ذلك

فقد أراد الله أن يسكنه وذريته الأرض كخلفاء كما في [الأعراف: ١٦٥/٧، والنمل: ٦٢/٢٧، وفاطر: ٣٩/٣٥]. وليس هناك إشارة هنا على أن الحياة الدنيا هي بمثابة عقوبة، فكلمة (خليفة vicegerent, vicar) تعني (مندوباً) و(ممثلاً) و (وكيلاً). وعلى هذا، يبدو أن الإنسان قصد من استخلافه أن يمثل الله على الأرض، وبمعنىً ما، أن يتصرف نيابة عنه.

وأما جواب الملائكة فهو رائع ومقلق في الوقت نفسه. والسؤال في جوهره يقول: "لماذا (يا ربّ) تخلق وتجعل على الأرض من في طبعه الإفساد وارتكاب الجرائم المروّعة؟ لماذا تخلق هذا المخلوق الذي سوف يكون المسبب والمتلقي للعذاب العظيم؟"

ومن الواضح أن الملائكة تشير هنا إلى ذات طبيعة الإنسان، مادام أن آدم عليه السلام، في القرآن، يبدو على أنه واحد من أحباب الله ومنـــزه عن أي كبيرة. وتزداد أهمية السؤال إذا ما أخذنا في اعتبارنا ممن ومن أين جاء هذا السؤال؟ وعندما نفكر في الملائكة، فإننا نتخيَّل مخلوقات وديعة وطاهرة ومقدسة، وقد أذعنت لله بكامل الخضوع والبهجة، فهي تمثل النموذج الذي يجب أن نطمح للاحتذاء به. وفي كلامنا اليومي فإننا لانطلق كلمة (ملاك) إلا على أنبل أنواع البشر ممن يعطف على الناس، وممن يسدي الخير عن نفس راغبة، وكذلك على الأطفال الأبرياء. فصورة الملاك عندنا تمثل الكائن الإنساني الأمثل، وهذا ما يعطي سؤال الملائكة تلك القوة، فالسؤال يقول: "لماذا (يا ربّ) تريد أن تخلق هذا المخلوق كثير الزلل وواضح الفساد مادام أن في مقدورك أن تخلقنا؟" وهكذا تردف الملائكة: "ونحن نسبح بحمدك ونمجِّد قدسيتك؟"

وإن ما يزيد من أهمية هذا الموضوع هو أن هذا السؤال إنما نشأ في الجنة، وإلا فما العبرة التي يمكن استنباطها من وراء وضع الإنسان في بيئة حيث يستطيع فيها أن يمارس وبحرية أبشع نزعاته الإجرامية؟ إن جميع هذه الاعتبارات تبلغ أوجها في الاعتراض الواضح القائل: لماذا لم يوضع الإنسان

بطبيعة مناسبة في الجنة من البداية؟ لم نكد ننهي جملة واحدة من القرآن حول قصة الإنسان إلا وقد واجهنا شكوانا الرئيسة (نحن الملحدين)، وهذه الشكوى قد تم التعبير عنها بلسان الملائكة! ولا تنتهي الآية بالشرح بل بالتذكير القرآني أن الله يعلم مالا نعلم، ومن ثم المعنى الضمني أن حياة الإنسان على الأرض هي جزء من هدف أعظم. ولقد أشار العديد من الباحثين الغربيين أن الآية ﴿إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ إنما تدحض سؤال الملائكة. ولكن، وكما سوف توضح سلسلة النصوص التالية، فإن هذا ليس هو الموضوع الأهم.

إن مواجهتنا الأولية مع القرآن لم تكن سارة على الإطلاق، بل إنها تثير القلق مع شعور بعدم الراحة. فإما أن يكون خالق القرآن غير مدرك (تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً) للاعتراضات والمشكلات النفسية التي سوف تنشأ لاحقاً، أو أنه تعمَّد أن يستفزّنا بها! لم نكد نمضي في قراءة سبع وثلاثين آية من القرآن إلا وقد أثير قلقنا واستياؤنا إلى الحد الأقصى. ونسأل: "لم (يا ربّ) تخضع الجنس البشري إلى ألم دنيوي؟ لم لا تنقلنا إلى الجنة أو لم تضعنا هناك منذ البداية؟ لماذا كتبت علينا، معشر البشر، الصراع من أجل البقاء؟ لم خلقتنا ضعفاء وأعداء لأنفسنا مدمرين لها؟ لماذا كتبت علينا أن نحيا بقلوب منكسرة وأحلام محطمة، بحب ضائع، وشباب زائل، وأزمات ومحن لا تحصى؟ لماذا كتبت علينا أن نتجرَّع ألم المخاض وسكرات الموت، لماذا؟" نتوسل إليك (اللهم) بإحباط وذل، "لماذا؟" نناشدك (يا رب) والأسى والحماقة تملأ جوارحنا "لماذا؟" إننا نلح بكربنا، "لماذا؟" نصرخ بصوت يطاول عنان السماء: "لماذا؟"، "لماذا؟" فإذا كنت موجوداً وتسمعنا (يا ربّ) نبِّئنا لماذا خلقت الإنسان؟

* * *

فقد أراد الله أن يسكنه وذريته الأرض كخلفاء كما في [الأعراف: ١٦٥/٧، والنمل: ٦٢/٢٧، وفاطر: ٣٩/٣٥]. وليس هناك إشارة هنا على أن الحياة الدنيا هي بمثابة عقوبة، فكلمة (خليفة vicegerent, vicar) تعني (مندوباً) و(ممثلاً) و (وكيلاً). وعلى هذا، يبدو أن الإنسان قصد من استخلافه أن يمثل الله على الأرض، وبمعنىً ما، أن يتصرف نيابة عنه.

وأما جواب الملائكة فهو رائع ومقلق في الوقت نفسه. والسؤال في جوهره يقول: "لماذا (يا ربّ) تخلق وتجعل على الأرض من في طبعه الإفساد وارتكاب الجرائم المروّعة؟ لماذا تخلق هذا المخلوق الذي سوف يكون المسبب والمتلقي للعذاب العظيم؟"

ومن الواضح أن الملائكة تشير هنا إلى ذات طبيعة الإنسان، مادام أن آدم عليه السلام، في القرآن، يبدو على أنه واحد من أحباب الله ومنـــزه عن أي كبيرة. وتزداد أهمية السؤال إذا ما أخذنا في اعتبارنا ممن ومن أين جاء هذا السؤال؟ وعندما نفكر في الملائكة، فإننا نتخيَّل مخلوقات وديعة وطاهرة ومقدسة، وقد أذعنت لله بكامل الخضوع والبهجة، فهي تمثل النموذج الذي يجب أن نطمح للاحتذاء به. وفي كلامنا اليومي فإننا لانطلق كلمة (ملاك) إلا على أنبل أنواع البشر ممن يعطف على الناس، وممن يسدي الخير عن نفس راغبة، وكذلك على الأطفال الأبرياء. فصورة الملاك عندنا تمثل الكائن الإنساني الأمثل، وهذا ما يعطي سؤال الملائكة تلك القوة، فالسؤال يقول: "لماذا (يا ربّ) تريد أن تخلق هذا المخلوق كثير الزلل وواضح الفساد مادام أن في مقدورك أن تخلقنا؟" وهكذا تردف الملائكة: "ونحن نسبح بحمدك ونمجِّد قدسيتك؟"

وإن ما يزيد من أهمية هذا الموضوع هو أن هذا السؤال إنما نشأ في الجنة، وإلا فما العبرة التي يمكن استنباطها من وراء وضع الإنسان في بيئة حيث يستطيع فيها أن يمارس وبحرية أبشع نزعاته الإجرامية؟ إن جميع هذه الاعتبارات تبلغ أوجها في الاعتراض الواضح القائل: لماذا لم يوضع الإنسان

بطبيعة مناسبة في الجنة من البداية؟ لم نكد ننهي جملة واحدة من القرآن حول قصة الإنسان إلا وقد واجهنا شكوانا الرئيسة (نحن الملحدين)، وهذه الشكوى قد تم التعبير عنها بلسان الملائكة! ولا تنتهي الآية بالشرح بل بالتذكير القرآني أن الله يعلم مالا نعلم، ومن ثم المعنى الضمني أن حياة الإنسان على الأرض هي جزء من هدف أعظم. ولقد أشار العديد من الباحثين الغربيين أن الآية ﴿إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ إنما تدحض سؤال الملائكة. ولكن، وكما سوف توضح سلسلة النصوص التالية، فإن هذا ليس هو الموضوع الأهم.

إن مواجهتنا الأولية مع القرآن لم تكن سارة على الإطلاق، بل إنها تثير القلق مع شعور بعدم الراحة. فإما أن يكون خالق القرآن غير مدرك (تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً) للاعتراضات والمشكلات النفسية التي سوف تنشأ لاحقاً، أو أنه تعمَّد أن يستفزّنا بها! لم نكد نمضي في قراءة سبع وثلاثين آية من القرآن إلا وقد أثير قلقنا واستياؤنا إلى الحد الأقصى. ونسأل: "لم (يا ربّ) تخضع الجنس البشري إلى ألم دنيوي؟ لم لا تنقلنا إلى الجنة أو لم تضعنا هناك منذ البداية؟ لماذا كتبت علينا، معشر البشر، الصراع من أجل البقاء؟ لم خلقتنا ضعفاء وأعداء لأنفسنا مدمرين لها؟ لماذا كتبت علينا أن نحيا بقلوب منكسرة وأحلام محطمة، بحب ضائع، وشباب زائل، وأزمات ومحن لا تحصى؟ لماذا كتبت علينا أن نتجرَّع ألم المخاض وسكرات الموت، لماذا؟" نتوسل إليك (اللهم) بإحباط وذل، "لماذا؟" نناشدك (يا رب) والأسى والحماقة تملأ جوارحنا "لماذا؟" إننا نلح بكربنا، "لماذا؟" نصرخ بصوت يطاول عنان السماء: "لماذا؟"، "لماذا؟" فإذا كنت موجوداً وتسمعنا (يا ربّ) نبِّئنا لماذا خلقت الإنسان؟

* * *

واستدار ربه إليه

ننتقل الآن للآية الحادية والثلاثين (من سورة البقرة)، حيث نجد أن القرآن يتابع استكشاف سؤال الملائكة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/٣١].

من الواضح أن هذه الآية تخاطب سؤال الملائكة، فمقدرات آدم عليه السلام على التعلم واكتساب المعرفة وتلقي العلم هي محور هذه الاستجابة الأولية. وأما الآية التالية فتظهر دونية الملائكة في هذا المجال. لقد تم التركيز بشكل خاص على قدرة آدم عليه السلام في تسمية الأشياء والتمثيل بالرموز الفعلية لــ"كل الأشياء" التي تدخل عقله المدرك بما في ذلك: كل أفكاره ومخاوفه وآماله؛ باختصار كل ما يستطيع إدراكه واستيعابه. إن هذا يسمح للإنسان أن يتواصل بخبرته ومعرفته على مستوى عالٍ نسبياً مقارنة بالمخلوقات الأخرى من حوله ويعطي العلم الإنساني كله نوعية تراكمية متفوقة. وفي أماكن متعددة من القرآن نجد أن هذه الموهبة هي إحدى النعم الكبرى التي فضَّل الله بها الإنسان على سائر مخلوقاته: ﴿قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٢/٣٢]. ففي هذه الآية تدافع الملائكة عن عدم مقدرتها لأداء مهمة كهذه، حيث إن ذلك يتطلب، وكما تعلن بوضوح، معرفةً وحكمةً خارجة عن نطاق إدراكها، وتؤكد الملائكة أن تنفيذ تلك المهمة هو بالطبع أمر في غاية السهولة لدى لله مادام أن معرفته وحكمته هي الأسمى، وأن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يُتوقع منها. وفي النص التالي نكتشف أن آدم عليه السلام يمتلك مستوى الذكاء اللازم لأداء المهمة، ومن هنا، وبرغم أن معرفته وحكمته هي لاشك أدنى من معرفة وحكمة الله، فإنها أكبر من معرفة وحكمة الملائكة:

﴿قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٣٣].

ففي هذه الآية صيغة توكيدية على أن فكر الإنسان الأعظم يتمثل في الإجابة عن السؤال الذي طرح على الملائكة. ونعلم أن الله قد أحاط بكل شيء، وبخاصة كافة جوانب الشخصية الإنسانية التي تتضمن قدرة كامنة للشر في الإنسان والتي (يكشف) عنها سؤال الملائكة، وطاقة الإنسان المتممة والمتصلة على الرقي الفكري والأخلاقي والتي (يخفيها) سؤال الملائكة. ولنعد بهذه النقطة إلى الوراء، فإن الآية التالية تجعل الملائكة توضح دونيتها حيال آدم الطَّيْكُلاً، وتظهر (هذه الآية) أن شخصية الإنسان الأشد تعقيداً تجعله مخلوقاً أسمى من حيث المقدرات الكامنة: ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤/٢].

ونجد في هذه الآية أيضاً نشوء المعصية (sin) الخطيئة، الإثم، الذنب والإغواء (temptation) الفتنة، الإغراء. ويخبرنا القرآن لاحقاً أن إبليس (Satan) هو من الجن (كما في الآية ٥٠ من سورة الكهف)، مخلوق خلقه الله من مارج من نار (كما في الآية ١٥ من سورة الرحمن)، والذي شعر بالمهانة عندما طلب منه الله أن يسجد احتراماً لمخلوق صنعه الله من طين (كما في الآية ١٢ من سورة الأعراف، والآية ٦١ من سورة الإسراء، والآية ٧٦ من سورة ص). ويُصوَّر إبليس على أنه يمتلك طبيعة نارية مهلكة مدمرة، ونراه يسمح لعواطفه بالانفجار خارج حدود السيطرة مستهلاً بذلك ثورة مهلكة. وغالباً ما يكون المال أساس الشرور كلها على ما نعلم، ولكننا نتعلم من هذه العبرة أن التكبر(pride) والأنانية (self-centeredness) هي في صميم الشر، وفي الحقيقة أن الكثير من المظالم ترتكب دون أن يكون وراءها دافع مادي معروف.

﴿وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥/٢] ومن هنا كان الأمر المقدر المعروف، ومع ذلك فإن وقعه يبدو مقيَّداً على نحو غريب. وليس هناك إيحاء بأن الشجرة لها ميزة خاصة بطريقة ما، بل يبدو وكأنها اختيرت بطريقة

عشوائية. وفيما بعد يغوي الشيطان آدم عليه السلام عندما يعده بحياة الخلود و﴿وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ [طه: ٢٠/١٢٠]، ولكن هذا سرعان ما يبدو أنه تلفيق من قبل الشيطان على آدم عليه السلام. وليس هناك أي إشارة على الإطلاق أن آدم وزوجه (عليهما السلام) قد قاما بتشكيل أي نوع من أنواع التهديد عندما خالفا أمر الله، وبدلاً من ذلك نجد أن الله يشفق عليهما أن يكونا من الظالمين.

ربما يكون هذا هو المكان الأفضل لنا كي نتأمل فيما قد تعلمناه حتى الآن. فقد رأينا كيف أن الله أراد أصلاً أن تكون للإنسان حياة على هذه الأرض. ثم لاحظنا كيف كان هناك فترة تحضير تم من خلالها (تعليم) الإنسان كيف يستخدم مواهبه الفكرية. والآن نجد أن آدم وزوجه (عليهما السلام) أمام خيار، وهذا الخيار لا يبدو أن له نتائج قيِّمة سوى أنه إنما جُعل ليكون خياراً أخلاقياً. على هذا يبدو أن الإنسان قد أصبح بشكل تدريجي، أو يكاد يصبح، كائناً أخلاقياً.

﴿فَأَزَلَّهُما الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فِيهِ وَقُلْنا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٢/٣٦]. ومرة أخرى نجد أن ثمة ميلاً كبيراً في القرآن يدفع بنا نحو فهم الأشياء، فالفعل (أزلَّ) في العربية يعني أنه بسبب أحد ما فإن قدم إنسان تنزلق أو تحيد بغير قصد عن مكانها، ولكن كيف يمكن لإحدى أعظم المظالم أن توصف على أنها (زلَّة) خاطفة؟ ولكننا بهذا السؤال نحاول أن ندع المجال لخلفياتنا الدينية أن تشوِّه قراءتنا برغم أنه قد افترضنا أننا قد تخلَّينا عن هذه الخلفيات. ربما يرى القرآن أن هذه المعصية لا تعدو أن تكون أكثر من مجرد زلَّة مؤقتة. وفي النهاية فالأمر لا يعدو أن يكون مجرد شجرة مدلولها الوحيد هو أنها قد تشير إلى مرحلة جديدة في تطور الإنسان، وأنها تجعل الإنسان يغادر من حالته السابقة إلى حالته اللاحقة. وأما عبارة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فمن الواضح أنها تشير إلى بني البشر جميعاً، وأنها تردد صدى ما قالته الملائكة عن خلق البشر من أنهم سوف يقتل بعضهم بعضاً على هذه الأرض.

وفي الظروف العادية فإننا نعلم الآن ماذا علينا أن نتوقع. إن ما علينا أن نتوقعه هو الشيء الذي مازال يروِّعنا منذ الطفولة، إنه ما كان يقض مضجعنا، ويجعل أمهاتنا تهرع لتهدئة مخاوفنا، إنه أسوأ من الكوابيس، لأن الكابوس إنما يزول عندما نصحو من حلمنا المروع، إنه ما أكد حصوله كل من نثق به من حولنا. نعلم أن ما يمكن أن يقع على الإنسان هو الغيظ والعنف والهول، وهي أمور لم نعهدها منذ ذلك الحين أو قبله. إن الإنسان على وشك أن يحيط به غيظٌ مروّعٌ، أشبه ما يكون بغمامة دخان سوداء مرعدة ومرعبة تلوح في الأفق وتتجه نحونا مباشرة، وعندما تنقشع الغمامة سوف يجد الإنسان أنه حُكم عليه أن يعيش على الأرض، حيث يتوجب عليه، وعلى ذريته من بعده، أن يشقى ويناضل بكده وعرقه من أجل أن يعيش. فهناك على الأرض عليهم أن يتجرعوا الأمراض والآلام والموت. وهناك على الأرض عليهم أن يعانوا ألماً وعذاباً لا ينتهيان، وربما، وعلى أغلب تقدير، مزيداً من العذاب نفسه، بل أدهى وأمرّ، في الحياة الآخرة.

وأما المرأة فلها العذاب الأعظم والمهانة الكبرى؛ لأنها هي التي أغوت آدم عليه السلام بجمالها ومفاتنها، إنها هي التي تحالفت مع الشيطان تحالفاً لم يكن لآدم عليه السلام أن يصمد أمامه، إنها هي التي أفسدت براءته وعرَّت نقاط ضعفه. لذا فقد كتب عليها أن تتألم وتحيض كل شهر، وأن تصرخ ألماً عند المخاض. إنها هي التي تتحمل النصيب الأعظم من الشقاء والمهانة؛ لأن الرجل إنما جُعل لتكون له القوامة عليها برغم أنها تتفوق عليه من الناحية الفكرية مادام أنه لم يستطع مجاراة ذكائها ودهائها[1] . إننا نجفل ونرتعد خوفاً عندما ننظر إلى الرعب الذي عرفناه دوماً، وننكمش خوفاً وترتعد فرائصنا هلعاً عندما نلقي نظرة خاطفة على الآية التالية: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ

---

(١) أعتقد أن المؤلف في حديثه عن المرأة مازال خاضعاً لخلفياته الدينية، وهي رواسب توراتية، وإن كان بعد هذا يحاول تفسير موقف القرآن تجاه آدم وحواء. [المترجم]

الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧/٢]. ما هذا؟ ما هذا الحديث عن الرحمة والنظرة العطوف حيال الإنسان؟ إلى أين العاطفة والحسد والغضب تنطلق خارجة عن السيطرة؟

في هذه الآية، وفي الآيات التالية وآيات أخرى في القرآن تتصل بالموضوع نفسه (انظر على سبيل المثال الآيات ١١٦-١٢٤ من سورة طه) فإن النغمة هي أولاً وفي البداية معزّية ومطمئنة. فسرعان ما يغفر الله لآدم وحوّاء (عليهما السلام) دون أن يلقي باللوم الكبير على أي منهما. فآدم عليه السلام تلقى (كلمات) يقول بعض المفسرين إنها موحاة، فيما يرى بعض آخر أنها تطمينات ووعود إلهية. والآية التالية تدعم وجهة النظر الأخيرة، في حين أن هناك آخرين يدرجون آدم عليه السلام ضمن أمة الأنبياء مستشهدين على سبيل المثال بالآية ٣٢ من سورة آل عمران.

﴿قُلْنا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدَىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨/٢]. فالأمر الرباني الذي صدر في الآية ٣٦ السابقة نراه يتكرر هنا في هذه الآية، ولكن مع توكيد خاص على طمأنة الله ووعده لبني البشر، واضعة بذلك حائلاً دون التفسير القائل بأن حياة الإنسان الدنيوية ما هي إلا عقوبة له. وهذا يشرح لماذا يجعل القرآن الإنسان مقيماً على الأرض برغم أن الله قد تاب على آدم وحوّاء (عليهما السلام) في الحال. ومهما يكن فإن القرآن يصر، وكما نجد من خلال قراءتنا فيه، على أن الحياة تخدم أهدافاً محددة، وأن علينا أن نأخذها بعين الجد لأن نتائجها خطيرة كما تنذر الآية التالية: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولَئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾[البقرة: ٣٩/٢].

وتنتهي قصة آدم عليه السلام هنا لتُستَأنَف بصور مختلفة لاحقاً. ولقد برز العديد من الأسئلة والمسائل، ولكننا لم نتوصل إلا لبعض الأدلة والإيضاحات فقط. وهذه ميزة أخرى في القرآن، وهي مزج المواضيع عبر النص وليس تقديم عددٍ من الخطابات المحددة والكاملة حول مواضيع مختلفة. وبهذه الطريقة فإن القرآن

يأسر القارئ ويغريه للدخول في تصميمه، بحيث تقوم مواضيعه المختلفة بممارسة تأثيرها في القارئ على نحو متكرر ومتعاقب. وسوف نكون من السذاجة أن نتوقع خطباً متصلة مطوّلة تدور فحواها حول الغيبيات أو علوم التوحيد؛ ذلك أن مثل هذه الخطب سوف تكون مفهومة من قبل بعض الناس فحسب، وسوف تحظى باهتمام أقل بكثير من ذلك. ومن ناحية أخرى، إذا كان القرآن هُدىً للناس، كما جاء فيه، فإننا نتوقع أن نجد اقتراحات وأدلة إرشاد ونقاط استناد من شأنها أن تعيننا على طول الطريق. وكن مطمئناً إلى أن القرآن لن ينقلنا إلى أهدافنا بيسر، أو يزودنا بتوجيهات في مراحل مختلفة، بل إن الرحلة والاكتشاف أمر خاص بنا؛ ذلك أن الأسئلة التي نطرحها ليست أسئلة عن الله فقط، بل إنها أسئلة حول أنفسنا بصفتنا أفراداً لهم خاصية مميزة، ونحن الأشخاص الوحيدون الذين يملكون مفتاح الدخول إلى أرواحنا. وعلى هذا، وكما قد يقول القرآن، يجب أن نمتلك الإرادة ليس فقط للبحث في الآفاق، بل أيضاً للبحث في أنفسنا حتى نتمكن من فهم أكبر قدر من الحقيقة (كما في الآية ٥٣ من سورة فصِّلت).

* * *

متى نصر الله؟

وبرغم أن الصورة لم تتضح بعد، فإنه قد برزت بعض المواضيع التي تستوجب بعض التفكير والإسهاب. وأهم الحقائق المؤثرة التي لاحظناها هي أن القرآن لا يؤكد بدليل الإيراد أو الحجة أن حياة الإنسان على الأرض هي عقوبة له. فقبل أن يدخل آدم وحوّاء (عليهما السلام) القصة بوقت طويل، تطرح الملائكة السؤال المضني: لماذا خَلْقُ الإنسان؟ وتقدم لنا سلسلة من الآيات أجزاء من جواب: يمتلك الإنسان ذكاءً يفوق بشكل نسبي ذكاء المخلوقات الأخرى، وطبيعة الإنسان أكثر تعقيداً، إضافة إلى أنها تمتلك مساحة أكبر من الحرية

الشخصية. على هذا فالإنسان ليس لديه قابلية أكبر للضلوع في الشر فحسب، بل لديه، بالمقابل، الاستعداد للارتقاء في الفضيلة أيضاً. ونشهد فترة تحضير، يتعلم فيها الإنسان كيف يستخدم قواه العقلية.

ثم يصبح آدم وحوّاء (عليهما السلام) جاهزين كي يصبحا مخلوقات أخلاقية، ثم يُقَدم لهما خيارٌ أخلاقي غير ضار نوعاً ما، برغم أنه محرج من وجهة نظر تطورهما. ولكنهما زلاّ ليدخلا حقبة أخلاقية في وجودهما يرمز لها في نصوص قرآنية أخرى أن الزوجين أصبح لديهما وعي بالأخلاق والحياء الجنسيين (كما في الآيات ١٩-٢٥ من سورة الأعراف، والآيات ١٢٠-١٢٣ من سورة طه)، وبهذا يخرج آدم وحوّاء (عليهما السلام) من حالة الجهل والبراءة والنعيم. إن تفكير الإنسان الأسمى وحريته في الاختيار وقابليته للارتقاء من شأنها جميعاً أن تودي به لا محالة إلى الصراع والكدح، وهذا هو محور سؤال الملائكة.

ومع المضي في رحلتنا نجد أن القرآن يشدد — وعلى نحو مستمر — الملامح الثلاثة التالية من مسيرة حياة الإنسان: **التفكير** (reasoning) ، **وحرية الإرادة أو الاختيار** (choice) ، **والبلاء أو الابتلاء** (adversity)، وسوف نقوم بدراسة كل منها على حدة.

* * *

التفكير

إن إعطاء المكانة العالية للتفكير من أجل الوصول إلى الإيمان أمر يشتهر به القرآن، وغالباً ما يذكره الإسلاميون الغربيون، ويرى العديد من علماء الغرب في هذا أنه من عيوب القرآن؛ ذلك أنهم يرون أن الإيمان والعقل غير متوافقين في الأصل. فعلى سبيل المثال يقول هـ. لامِّنز (H. Lammens) متهكماً: إن

القرآن «ليس بعيداً عن اعتبار الكفر على أنه حالة ضعف في العقل البشري[1]»! إن ردة فعل لامّينــز هنا ثقافية وعاطفية أكثر مما هي عقلانية، تنبع جذورها من صراع الغرب الذاتي مع الدين والعقل، ومع ذلك فليس جميع الباحثين الغربيين في مثل سخريته. وفي حين أن مكسيم رودينسون (Maxim Rodinson) ليس بمدافع عن الإسلام، فإنه يرى في هذا الجانب من القرآن ما يصب في مصلحة القرآن نوعاً ما، ويكتب رودينسون قائلاً: "إن القرآن يقدم باستمرار البراهين العقلية الدالة على قدرة الله. فمعجزات الخلق، مثل تكاثر الحيوانات، وحركة الأجرام السماوية، والظواهر الكونية، واختلاف أنواع الحيوانات والنباتات، تتناسب وحياة الإنسان بشكل رائع، وهي جميعاً ﴿لآياتٍ لأُولِي الأَلْبابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠/٣]." ويضيف رودينسون: "يتكرر في القرآن حوالي خمسين مرة الفعل عَقَلَ والذي يعني: (يربط الأفكار بعضها ببعض، يفكر، يفهم مناقشة ذهنية). وتطالعنا اللازمة ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ بعد كل مقطع تعليلي في العديد من السور ثلاث عشرة مرة. وأما الكافرون الذين لا يستجيبون لدعوة محمد ﷺ فإن القرآن يصمهم بأنهم ﴿قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ (كما في الآيات ٥٨-٦٣و ١٠٢-١٠٣ من سورة المائدة، و٤٢-٤٥ من سورة يونس، و٤٥-٤٦ من سورة الأنبياء، والآية ١٤ من سورة الحشر). على هذا فهم كالأنعام (كما في الآيات ١٦٦-١٧١ من سورة البقرة، و٤٤-٤٦ من سورة الفرقان)[2].

والقرآن يصر على أنه يحتوي على آيات لمن ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٦٩/٢] و﴿الْعالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣/٢٩] ولـ﴿أُولُو الأَلْبابِ﴾ [الزمر: ٩/٣٩] وللذين ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣/٤٥]. وشكوى القرآن الدائمة ضد من يعرضون عنه

---

(١) هـ. لامّينز" :H. Lammens صفات محمد كما وردت في القرآن" مجلة بحوث علوم الدين Religieuse)Recherches de Science بالفرنسية)، العدد ٢٠ (١٩٣٠م)، ص٤١٦-٣٨.

(٢) مكسيم رودينسون Maxim Rodinson :الإسلام والرأسمالية) Islam and Capitalism لندن: كتب بنكوان، ١٩٧٤م)، ص٧٩-٨٠ .

هو أنهم يرفضون استعمال قواهم العقلية، وأنهم يغلقون عقولهم عن التعلم. والقرآن يسأل على نحو شكوكي تقريباً ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧/٢٦] و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦/٢٢] و﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩/٣٠] و ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ [ق: ٦/٥٠] و﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧/٨٨] و﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣/٥٦].

وغالباً ما يقوم المدرّسون المسلمون في المدارس الإسلامية في العالم أجمع بتذكير طلابهم بأوّل خمس آيات من السورة السادسة والتسعين: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٩٦/١-٥]. إن هذه الآيات هي أول خمس آيات تنـــزلت على محمد ﷺ . فكلمة (اقرأ!) توضح لنا أن مهارة التخاطب الكتابي هي إحدى النعم السماوية العظيمة؛ لأنه عن طريق استخدام القلم علّم الله الإنسان ما لم يعلم. وهنا ومرة ثانية يسلط القرآن الضوء على قدرة الإنسان المثالية على التواصل، هذه المرة عن طريق الكتابة، وعلى التعلم بشكل جماعي من جوانب فهم وخبرات الآخرين.

ويشير التكرار في هذه السورة إلى الأهمية التي يوليها القرآن لبعض المواضيع، ويجب أن نلاحظ أن الكلمة التي تدل على المعرفة في العربية (علم) ومشتقاتها تتكرر في القرآن ٨٥٤ مرة، وهي من أكثر المفردات وروداً في القرآن. ويجب أن نلاحظ أيضاً أن في العديد من قصص القرآن حيث يوجد حوارٌ ما بين المؤمن والكافر نجد أن موقف المؤمن لا محالة هو أشد عقلانية ومنطقية من خصمه.

الاختيار:

إن القرآن يقدم التاريخ الإنساني على أنه صراع دائم ما بين خيارين متعارضين هما: أن تقاوم الله أو تستسلم وتذعن بالخضوع له، وهذا ما

يعمد إليه القرآن مع القارئ، ويمكن القول بأن هذا هو جوهر ما يدعو إليه القرآن. والاختيار يجب أن يكون عن طواعية تامة، لأن القرآن يوصي ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦]. فالنقطة الحاسمة هي أنه ليس على المرء أن يعرف الله ويعبده، ولكن عليه أن يختار بملء حريته الطريق لمعرفة الله وعبادته. ومن هنا نجد تكرار البيان القرآني بأن الله لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى الصراط المستقيم، ولكن الله ترك للناس حرية الاختيار:

﴿فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ٦/١٤٩].

﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعاً﴾ [الرعد: ١٣/٣١].

﴿وَلَوْ شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها﴾ [السجدة: ٣٢/١٣].

﴿وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٥/٤٨].

والقرآن يؤكد بشكل مطلق على أن خياراتنا لا تُنقص من سلطة الله أو تهددها، ولكن هذه الخيارات من شأنها أن تحمل نتائج خطيرة بالنسبة إلى الفرد على أنه المستفيد الأول حالة فعله للخير والضحية الأولى حالة فعله للشر:

﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها﴾ [الأنعام: ٦/١٠٤].

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٥٣].

﴿وَما ظَلَمُونا وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٦٠].

﴿فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٩/٧٠].

﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٢٧/٩٢].

﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦/٢٩].

﴿إِنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾ [الزمر: ٤١/٣٩].

(وكذلك انظر أيضا الآيات ١٠٨ من سورة يونس، و١٥ من سورة الإسراء، و٩٢ من سورة النمل).

إن البيان الوارد في هذه الآيات ليس سهلاً على القارئ على الإطلاق، فللوهلة الأولى تبدو هذه الآيات وكأنها تشير إلى تجرد عن أوضاع الإنسان ولامبالاته حيالها. ومن الناحية الفلسفية، فإن موقفاً كهذا قد يكون متسقاً مع سمو الله، ولكن فقط على حساب أي محاولة لبناء علاقة مع الله. ومع ذلك فإن تفسيراً كهذا سوف يكون قاسياً على نحو غير ملائم.

وبيّن القرآن بأن الله لا يمكن بأي حال أن يكون متجرِّداً عن أحوال البشر، فهو يرسل الرسل ويجيب الدعاء (كما في الآية ١٨٦ من سورة البقرة، والآية ١٩٥ من سورة آل عمران)، ويتدخَّل ويعالج حدثاً إنسانياً دراميّاً كما في معركة بدر (انظر الآيات ١٣ من سورة آل عمران، و٥-١٩ من سورة الأنفال، و٤٢-٤٨ من نفس السورة). فكل شيء قَبْضَتُهُ وما من شيء يحدث في الكون إلا بإذنه (انظر الآيات ٧٨-٧٩ من سورة النساء).

إن "أسماء الله الحسنى" الواردة في القرآن تتضمن ارتباطاً مباشراً بحياة الإنسان في هذه الحياة الدنيا. فهذه الأسماء، مثل: الرحمن والرحيم والوهاب والودود والخالق، إلخ.. توحي بإله يخلق الخلق من الرجال والنساء كي تكون له علاقة رضاً معهم على مستوًى حميمي جداً، أي على مستوًى يفوق مستوى المخلوقات الأخرى المعروفة لدى الإنسان، ليس من منطلق حاجة سيكولوجية أو عاطفية، بل لأن هذا هو جوهر طبيعة الله. ولذلك نجد أن العلاقة بين المؤمن الصادق والله تتسم باستمرار على أنها علاقة محبة، فالله يحب المحسنين (كما في

الآيات ١٩٥ من سورة البقرة، و١٣٤ و١٤٨ من سورة آل عمران، و١٣ و٩٣ من سورة المائدة)، ويحب التوابين (كما في الآية ٢٢٢ من سورة البقرة)، ويحب المتطهرين (كما في الآية السابقة من سورة البقرة، والآية ١٠٨ من سورة التوبة)، ويحب المتقين (كما في الآية ٧٦ من سورة آل عمران، والآيتين ٤و٧ من سورة التوبة)، ويحب الصابرين (كما في الآية ١٤٦ من سورة آل عمران)، ويحب المتوكلين (كما في الآية ١٥٩ من سورة آل عمران)، ويحب المقسطين (كما في الآيات ٤٢ من سورة المائدة، و٩ من سورة الحجرات، و٨ من سورة الممتحنة)، ويحب الذين يجاهدون في سبيله (كما في الآية ٤ من سورة الصف)، وجميع هؤلاء بدورهم يحبون الله:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّه﴾ [البقرة: ١٦٥/٢].

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١/٣].

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤/٥].

ومن ناحية أخرى فإن الطاغين والمعتدين والمفسدين والآثمين والكافرين والمسيئين والمختالين والمبذّرين والخائنين والقاسطين لن يذوقوا هذه العلاقة من الحب مع الله (انظر الآيات ١٩٠ و٢٠٥ و٢٧٦ من سورة البقرة، و٣٢ و٥٧ و١٤٠ من سورة آل عمران، و٣٦ و١٠٧ من سورة النساء، و٦٤ و٨٧ من سورة المائدة، و١٤١ من سورة الأنعام، و٣١ و٥٥ من سورة الأعراف، و٥٨ من سورة الأنفال، و٢٣ من سورة النحل، و٣٨ من سورة الحج، و٧٦ و٧٧ من سورة القصص، و٤٥ من سورة الروم، و١٨ من سورة لقمان، و٤٠ من سورة الشورى، و٢٣ من سورة الحديد).

هناك علماء مسلمون وغير مسلمين ممن يرى أن الله في القرآن عملياً غير عابئ بالإنسان، فقد أنشأ الكون بقوانينه في السبب والنتيجة (Cause and effect) في جميع المجالات (الفيزيائية والسيكولوجية النفسية والروحية، إلخ..) ثم جرى إخضاعها لهذه القوانين لتجري وفقاً لنظمها. في حين يرى آخرون أن الله تام الاهتمام وكليُّ السيطرة على خلقه أجمعين، وأن كل شيء مقدَّر بما في ذلك خياراتنا. ويعتقد العديد ببعض من كلتا وجهتي النظر هاتين، وبأنهما قد تكونان متناقضتين. وقد يكون الاعتقاد الأخير هو الأقرب للحقيقة، برغم أن التناقض ليس ضرورياً. ولاشك أن القرآن يشدد على قدرة الله المطلقة فوق جميع خلقه وأن هذه القدرة دائمة ومستمرة ونافذة على الدوام. فلا يحدث شيء في هذا الكون إلا بإذنه، وبرغم ذلك فالله يمنحنا الطاقة والقدرة على صنع خياراتنا وتنفيذها ومتابعتها في أغلب الأحيان إلى نتائجها المرجوّة. ويسمح الله لنا كذلك، ويمكّننا من اتخاذ قرارات ضارة بأنفسنا وبالآخرين: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ، ما أصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِك﴾ [النساء: ٤/٧٨-٧٩]. فالتأكيد هنا على أن قدرتنا على تجريب الخير أو الشر تأتي من الله، ولكن إذا ما ألحقنا أذًى حقيقياً بأنفسنا بالمعنى الروحي والمطلق فإن ذلك يعتمد على أفعالنا وقراراتنا التي أعطانا الله القدرة على القيام بها.

وكما أسلفنا سابقاً فإن أفعالنا وخياراتنا لا تؤثّر على الله بأي شكل من الأشكال، بل إن الفرد هو الذي يربح أو يخسر بسببها. وعلى أي حال، فالقرآن يرينا أن الله إنما يهدف، من خلال حياة الإنسان على هذه الأرض، أن يخلق بشراً يشاطرونه علاقة من الحب. وفي حين أن أي فرد قد يتابع أو لا يتابع هذه العلاقة، فإن القرآن ينبئنا بأنه سوف يكون هناك، لا محالة، خلق ممن يحرصون على علاقة الحب هذه مع الله، وأن تطويرهم لهذه العلاقة على ما يبدو هو الهدف نفسه من غاية حياة الإنسان على الأرض (انظر الآيات ٣٩-٤٣ من سورة الحجر، و٦٤-٦٥ من سورة الإسراء).

إن رؤيتنا ما تزال ضبابية، ولكنها نوعاً ما تبدو أكثر وضوحاً مما بدأنا، برغم أن الطريق أمامنا ما يزال طويلاً. وتلح الأسئلة حول الحاجة المرجوة من هذه الحياة الدنيا إضافة إلى أدوار خيارات الإنسان وذكائه ومعاناته في الخلق. وهناك شعور كما لو أننا ننــزلق نحو مناقشة موضوع صعب وهو القضاء والقدر، ولكننا سوف نؤجل مناقشة هذا الموضوع إلى نهاية هذا الفصل لأنه يستغرق وقتاً طويلاً. ومهما يكن فإننا بحاجة لمناقشة آية قرآنية إضافية تتعلق بالإرادة الإلهية وإرادة الإنسان، لأنه غالباً ما يُساء فهمها لأنها تحمل معنىً كبيراً حول موضوع حرية الاختيار عند الإنسان.

وغالباً ما تتكرر الآية القرآنية ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ (انظر الآيات ٢٦ من سورة البقرة، و٨٨ و١٤٣ من سورة النساء، و٣٩ من سورة الأنعام، و١٧٨ و١٨٦ من سورة الأعراف، و٢٧ من سورة الرعد، و٤ من سورة إبراهيم، و٩٣ من سورة النحل، و٨ من سورة فاطر، و٢٣ و٣٦ من سورة الزمر، و٣٣ من سورة غافر، و٣١ من سورة المدثر)، وهذه العبارة القرآنية تم تفسيرها في معظم الترجمات الإنجليزية بـــ "إن الله يضل من يريد ويهدي من يريد"، والتي تعني الشيء نفسه من الناحية القواعدية. فالفعل (أضلّ) قد يعني إما "أن تدع شيئاً ما أو شخصاً ما يمشي دونما مرشد،" أو، على نحو موازٍ، "أن تجعل شيئاً ما أو شخصاً ما يضل عن الطريق." ويؤيد إغناس غولدتيسيهر (Ignaz goldziher) المستشرق والباحث المعروف في العربية، التفسير الأول قائلاً: "إن عبارات كهذه لا تعني أن الله يقود هذا الأخير[الضال] إلى الخطأ. فالفعل الحاسم (أضلّ) يجب ألاّ يفهم في هذا السياق بمعنى "يقود للضلال" ولكن يعني أن الله "يسمح للمرء أن يضلّ،" أي ألاّ يعبأ بأحد ما وألاّ يريه طريق الخلاص من محنته، ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٠]. يجب علينا أن نتخيَّل هنا مسافراً وحيداً في الصحراء، وهذه الصورة هي التي أراد القرآن التعبير عنها فيما يخص الهداية والضلال، فالمسافر يسير بحثاً عن طريقه الصحيح وضالته المنشودة. إن هذا المسافر هو الإنسان في رحلة

الحياة"[١] . إن ما يدعم ملاحظته هو حقيقة أن جميع الآيات القرآنية من هذا النوع تسبقها في الحال آيات تؤكد أن الله إنما يهدي شخصاً ما أو لا يهديه تبعاً لاختياراته وميوله ونزعاته. لذلك نجد أن الله لايهدي الظالمين والله لايهدي المعتدين، بل إن الله يهدي من يستمعون القول ويهدي المخلصين والذين يخشون الله (انظر الآيات ٢٦ و٢٥٨ و٢٦٤ من سورة البقرة، و٨٦ من سورة آل عمران، و١٦ و٥١ و٦٧ و١٠٨ من سورة المائدة، و٨٨ و١٤٤ من سورة الأنعام، و١٩ و٢١ و٣٧ و٨٠ و١٠٩ من سورة التوبة، و٥٢ من سورة يوسف، و٢٧ من سورة الرعد، و٣٦ و١٠٧ من سورة النحل، و٥٠ من سورة القصص، و٣ من سورة الزمر، و٢٨ من سورة غافر، و١٣ من سورة الشورى، و١٠ من سورة الأحقاف، و٨ من سورة محمد، و٧ من سورة الصف، و٥ من سورة الجمعة، و٦٣ من سورة الجمعة). وعلى هذا نجد أنه ﴿فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٦١/٥]. إن هذا ليوضح لنا أن هداية الله لإنسان ما إنما تتأثر بمدى طاعته واستجابته وإرادته؛ وهذا يذكرنا بحديث محمد ﷺ فيما يرويه عن ربه: "ومن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة[٢] . ومن هنا فالعبارة القرآنية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ﴾ توضح ما قد توصَّلنا إليه وهو أنه، وحسب ما جاء في القرآن، في حين أن الله يستطيع أن يهدي الناس جميعاً دفعة واحدة وعلى السواء، فإن لديه غايات أخرى، ومن هنا فإنه يدع الناس على ما هم عليه. وبدلاً من ذلك فقد خلق الإنسان ذا قدرة فذة وكبيرة يكون من خلالها قادراً على اتخاذ قرارات أخلاقية، في حين أن الله يراقب ويؤثّر ويوجّه التطوّر الأخلاقي والروحي لكلّ فرد حسب قراراته الأخلاقية.

---

(١) إغناس غولديتسيهر Ignaz Goldziher : مقدمة في الديانة والقانون الإسلاميين Introduction to Islamic Theology and Law (مطبوعات جامعة برنستون، ١٩٨١م)، ص٧٩-٨٠.

(٢) الحديث أورده النووي في رياض الصالحين الحديث رقم (٩٦) عن أنس بن مالك، وعزاه للبخاري، والحديث رقم (٤١٢) عن أبي ذر، وعزاه لمسلم. انظر رياض الصالحين وشرحه كنوز الباحثين، طبع دار الفكر بدمشق.

الابتلاء أو المعاناة

إن القاسم المشترك بين المؤمن والملحد هو ردود أفعالهما حيال المعاناة الإنسانية. فالأول يعد ذلك أمراً مستحقاً أو سراً لا سبيل إلى فهمه، في حين ينظر إليه الثاني على أنه أمر غير ضروري ولا يمكن تسويغه. ولكن القرآن لا يؤيد أياً من وجهتي النظر هاتين. فالبلاء والمحنة يُعتقد أنهما حتميان وضروريان للتطور الإنساني ولابد للمؤمن والملحد أن يمرّا بهذه التجربة:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنّا لِلَّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٥٦].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢/٢١٤].

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٦].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنا الإِنْسانَ مِنّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ، وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ، إِلاّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١/٩-١١].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٥].

﴿يا أَيُّها الإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٨٤/٦].

ومهما يكن فإن الإنسان لا يرقى فقط من خلال معاناة الصبر، ولكن أيضاً من خلال المجاهدة والكفاح ضد مشاق الحياة وابتلاءاتها، وهذا يشرح سبب كون الجهاد أحد المفاهيم الرئيسة في القرآن. فكلمة (جهاد) غالباً ما تترجم

(إلى اللغة الإنجليزية) على أنها الحرب المقدسة (holy war) أو (الحرب الدينية)، إلا أنها حرفياً تعني: (المعاناة)، (الكدح)، (الإجهاد)، أو (الجهد الكبير). وقد يتضمن ذلك معنى القتال في سبيل أمر عادل، ولكن اللفظة تشتمل على معان أوسع من ذلك بناءً على اشتقاقات الفعل جَهَدَ (ومنها يأتي الاسم جهاد) التي تعني (كدح)، (بلغ المشقة)، (عانى)، (سعى وراء)، و(أعيا نفسه). فالآيات التالية، التي نزلت في مكة قبل أن يشرّع القتال توضح المعنى الضمني العام لهذه الكلمة:

﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩/٢٩].

﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦/٢٩].

﴿وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾ [الحج: ٧٨/٢٢].

﴿فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥٢/٢٥].

وهذه الآية الأخيرة ترد في سورة تخبر المسلمين أن يستخدموا القرآن في نقاشهم مع الكافرين.

وموقف القرآن حيال المعاناة والابتلاء ليس سلبياً واستقلالياً بل إيجابياً وديناميكياً فعّالاً. فالقرآن يخبر المؤمنين بأنه لابد من المعاناة، وأن عليهم أن يصبروا ويثبتوا في أوقات الشدة، وأن عليهم أن يتطلعوا إلى الأمام بحثاً عن فرص أفضل لتحسين أوضاعهم وتصحيح الأخطاء الموجودة. وكذلك يخبر القرآن المؤمنين بأن عظم البلاء مع عظم الجزاء (انظر الآيات ٢١٨ من سورة البقرة، و١٤٢ من سورة آل عمران، و٩٥-٩٦ من سورة النساء، و٧٤ من سورة الأنفال، و٨٨-٨٩ من سورة التوبة، و١١٠ من سورة النحل، و٦٩ من سورة العنكبوت):

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ [التوبة: ٩/٢٠].

لم تكن الحياة يوماً ما سهلة، و لم يقصد منها أن تكون سهلة، ويشير القرآن إلى أن الحياة الناجحة هي أشبه ما تكون باقتحام (العقبة)، وهو اقتحام يحاول معظم الناس تحاشيه :

﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ فِي كَبَدٍ ، أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً ، أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ، أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ ، فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ، وَما أَدْراكَ ما الْعَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ، يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ ، ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ٩٠/٤-١٧].

تفكير التمني

لماذا خلق الله الإنسان؟

إن سؤال الملائكة يتردد صداه من خلال تفكيرنا، ويمكننا، على الأقل، أن نحاول تقديم شرح جزئي مبني على ما قد تعلمناه من القرآن حتى الآن. ويبدو أن الله، بما له من أسماء حسنى، قد شاء أن يُوجِد مخلوقاً (الإنسان) يكون قادراً على الشعور بوجود الله (برحمته وعطفه ومحبته ولطفه وبهائه، إلخ..) بطريقة شخصية محضة، وعلى مستوى أرقى من مستوى المخلوقات الأخرى المعروفة لدى الإنسان.

فالتفكير والإرادة التي منحها الله للإنسان، مع ما سوف يلقاه من معاناة ومجاهدة في الحياة على هذه الأرض، تسهم جميعها في تطوير هؤلاء الأفراد، ذلك الجزء من البشرية سوف يكون على صلة مع الله عن طريق المحبة.

ونريد أن نتابع الرحلة ونسبر غوراً أعمق في هذا الاتجاه كي تزداد بصيرتنا بشكل كبير. ولكن قبل أن نقوم بذلك علينا أن نأخذ في حسباننا إن كنا نخادع

أنفسنا أم لا. وما أعنيه بذلك هو أننا ربما نقرأ في القرآن ما ليس موجوداً أصلاً، وأننا كنا نحاول إسقاط صراعاتنا الشخصية على هذا الكتاب الكريم؛ وأن القرآن لم يشدد علانية، بل لم يثر عمداً الغاية من وراء خلق الله للإنسان. وإذا كانت القضية كذلك فنحن إذن أمام طريقة القرآن الاستفزازية دوماً. ففي الوقت الذي نصبح فيه جاهزين للشك في انطباعاتنا الأولية والعودة إلى الركن المألوف والمريح الذي أتينا منه وهو ركن السخرية، نجد أن القرآن يثير الموضوع ثانية:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هَذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١/٣].

﴿وَما خَلَقْنا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ، لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٦-١٧].

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ ، فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٥-١١٦].

﴿ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٤٤/٣٩].

على هذا فإن الهرب بالنسبة إلينا ليس سهلاً على الإطلاق، إذ يبدو أن القرآن لا يستسلم للتحدي. ويبقى الأمر بالنسبة إلينا أن نستمر في هذا البحث، أو أن نتوقف عن البحث ونجنّب أنفسنا عملاً حاسماً. فأعدادنا الآن (في هذه الرحلة) على أغلب التقديرات قد نقصت عما كانت عليه في البداية. وأما أولئك الذين يريدون الاستمرار، فإن علينا أن نأخذ باعتبارنا الخطوة الطبيعية التالية. وإذا كان القرآن يقول، وبلا شك، إن للحياة سببها، وإن ذلك السبب يتعلق بتعزيز علاقة معينة بين الله والإنسان، كما لاحظنا، فيبدو أنه من المناسب جداً البحث عن المزيد من المعلومات عن طبيعة الإنسان وما يتطلبه القرآن منه، وكذلك عن صفات الله وكيف يتأثر الإنسان بهذه الصفات.

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات

إن مفتاح الفوز في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة قد بيّنه القرآن بياناً قاطعاً وفي أماكن متعددة بحيث لا يخفى ذلك على أي قارئ جاد. وعلى أي حال فـ (فالبساطة) المفرطة للقول الفصل قد تجعل الفرد يتجاهله؛ لأن هذا القول يبدو وكأنه يتجاهل الأسئلة الكبرى عن الحياة وتعقيداتها. فالقرآن يصر على أن الوحيدين الذين سوف يستفيدون من حياتهم الدنيا هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ (انظر الآيات ٢٥ و٨٢ و٢٧٧ من سورة البقرة، والآيات ٥٧ و١٢٢ من سورة النساء، و٩ من سورة المائدة، و٤٢ من سورة الأعراف، ٩ من سورة يونس، و٢٣ من سورة هود، و٢٩ من سورة الرعد، و٢٣ من سورة إبراهيم، و٢ و٨٨ من سورة الكهف، و٦٠ و٩٦ من سورة مريم، و٧٥ و٨٢ و١١٢ من سورة طه، و٩٤ من سورة الأنبياء، و١٤ و٢٣ و٥٠ و٥٦ من سورة الحج، و٥٥ من سورة النور، و٧٠-٧١ من سورة الفرقان، و٦٧ من سورة الشعراء، و٨٠ من سورة القصص، و٧ و٩ و٥٨ من سورة العنكبوت، و١٥ و٤٥ من سورة الروم، و٨ من سورة لقمان، و١٩ من سورة السجدة، و٤ و٣٧ من سورة سبأ، و٧ من سورة فاطر، و٢٤ من سورة ص، و٨ من سورة فصلت، و٢٢ و٢٣ و٢٦ من سورة الدخان، و٢١ و٣٠ من سورة الجاثية، و٢ و١٢ من سورة محمد، و٢٩ من سورة الفتح، و٩ من سورة التغابن، و١١ من سورة الطلاق، و٢٥ من سورة الانشقاق، و١١ من سورة البروج، و٦ من سورة التين، و٧ من سورة البينة، و٣ من سورة العصر). فهذه العبارة (القرآنية) تتكرر في القرآن بشكل كبير بحيث تسوّغ لنا أن نتناولها بالتحليل الدقيق.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾: فالفعل (عَمِلَ) يعني (أنجز) و(فعل) و(أحدث) و(قام بعمل) و(صنع)، وجميع ذلك يتضمن بذل الجهد والطاقة. ومن هنا فالاسم من (عَمِلَ) هو (عَمَلٌ) (وتجمع على: أعمال) وهذه تتضمن معاني مثل:

(الفعل) و (النشاط) و (العمل) العمل العام، كما في الآية القرآنية: ﴿أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥/٣]. والاسم (الصالحات) هي جمع (الأعمال) "الصالحة[١] "والتي تعني: "عمل قويم طيِّب،" ولكن هذا التعريف غير وافٍ. فالفعلان (صلح) و (أصلح) واللذان هما من المادة نفسها في العربية، يعنيان "يعيد ترتيب الأشياء،" (يجدد، يرمم) و "يسوي أو ينهي (خلافاً") و"يعقد أو يعزز صلحاً؛" ومن هنا يأتي الاسم (صُلْح) ليعني (سلم أو سلام) و(أمن) و(وفاق) و(توطيد) و(تسوية). ولذلك فالعبارة (القرآنية) ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ تشير إلى أولئك الذين يواظبون بكد على إصلاح الأمور وعلى إعادة الوفاق وعلى إعادة الأمن والاستقرار.

فمن خلال النصائح العديدة الواردة في القرآن ووصفها لأفعال وأنماط الأفراد الذين يحبهم الله، أجد من اليسير إنشاء قائمة جزئية بـــ(الصالحات) من الأعمال. وعلى غير ما هو متوقع، فإن هذه القائمة سوف تتألف من تلك الأفعال والخصال التي تُعرف عالمياً على أنها أعمال فضيلة. فعلى المرء أن يكون محسناً (انظر الآيات ٨٣ و٢١٥ من سورة البقرة، و٣٤ من سورة الحاقة)، وأن يكون رحيماً (انظر الآية ١٧ من سورة البلد)، وأن يكون غفوراً مسامحاً للآخرين (انظر الآيات ٣٧ من سورة الشورى، و١٤ من سورة الجاثية و١٤ من سورة التغابن)، وأن يكون عادلاً أو مقسطاً (انظر الآيات ٥٨ من سورة النساء، و١٥٢ من سورة الأنعام)، وأن يحمي الضعيف (انظر الآيات ١٢٧ من سورة النساء، و١٥٢ من سورة الأنعام)، وأن يدافع عن المظلوم (انظر الآيات ٧٥ من سورة النساء)، وأن يطلب المعرفة والحكمة (انظر الآيات ١١٤ من سورة

---

(١) هكذا يقول المؤلف وأعتقد أن جمع (صالحة) هو (صالحات) وأما (صالح) فتجمع على (صالحين). قال صاحب الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٢١١/١ في تفسير قوله تعالى "وبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات..." (البقرة/٢٥) "... دليل على أنه يستحق التبشير بفضل الله من وقع منه الإيمان وتحقق به بالأعمال الصالحة. والصالحات جمع صالحة وهي من الصفات التي جرت مجرى الأسماء في إيلائها العوامل "....[المترجم.]

طه، و٥٤ من سورة الحج)، وأن يكون كريماً (انظر الآيات ١٧٧ من سورة البقرة، و٦٠ من سورة المؤمنون، ٣٩ من سورة الروم)، وأن يكون صادقاً (انظر الآيات ١٧ من سورة آل عمران، و٢٤ و٣٥ من سورة الأحزاب، و١٥ من سورة الحجرات)، وأن يكون متواضعاً (انظر الآية ٣٦ من سورة النساء)، وأن يكون مسالماً (انظر الآيات ٦١ من سورة الأنفال، و٦٣ من سورة الفرقان، ٣٥ من سورة محمد)، وأن يكون محباً للآخرين (انظر الآيات ٩٦-٩٧ من سورة مريم):

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ، فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ [مريم: ١٩/ ٩٦-٩٧].

ويجب علينا أن نعلّم الآخرين ونشجعهم على ممارسة هذه الفضائل (انظر الآية ١٧ من سورة البلد، والآية ٣ من سورة العصر)، ونحن—تبعاً لذلك— نتعلم ونرقى في هذه الفضائل أيضاً. وقصص الأنبياء جميعاً هي قصص رسل الله تأمر أممها وعشيرتها بتبنّي هذه الأخلاق برغم أن العديد من هؤلاء كان يزدري دعوة الرسل تلك.

وليس مدهشاً أن نرى القرآن يدعم نظرية القاعدة الذهبية، فكثير من يشعر أنه من الأفضل أن تعطي على أن تتلقى، وأن تكون صادقاً على أن تعيش في الكذب، وأن تحب على أن تكره، وأن تكون عطوفاً على أن تتجاهل آلام الآخرين؛ ذلك أن خبرات كهذه تعطي الحياة معنًى وجمالاً. وأعتقد أنه عندما يحل خريف عمرنا سوف تبدو إنجازاتنا المادية والدنيوية أقل أهمية بالنسبة إلينا من العلاقات التي بنيناها مع الآخرين، ومن المحبة والصداقات التي نشاطرهم إياها، ومن الأوقات التي قضيناها نجود بأنفسنا في سبيلهم ونفعل الخير للآخرين، وفي المحصلة فإن هذه الأفعال هي التي تبقى دون غيرها كما يقول القرآن:

﴿وَالْباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٦].

﴿وَالْباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾ [مريم: ١٩/ ٧٦].

وهذه (العلاقات والمحبة والصداقات) هي مواضيع الأغاني والقصائد والروايات والمسرحيات والأفلام، ليس فقط بسبب مخاطبتها للوجدان بل هي جزء من حكمة الإنسان وخبرته الجماعية. فثمة من يقول إن الحياة هي في الحقيقة ليست مسألة أخذ فحسب بل مسألة عطاء ومشاركة، وهذا ما يعطي الحياة معناها وغايتها. ولكن موافقة المسلم في هذا الجانب ليست تامة؛ ذلك أنه إذا كان التطور الإنساني العاطفي والأخلاقي والفكري هو غاية الحياة الوحيدة، فإن الإيمان بالله قد يكون مفيداً، ولكن ليس ضرورياً بشكل تام، بل إن إيديولوجية إنسانية ما قد تكون كافية في هذا المضمار. ولكن القرآن لا يقول إن الفائزين في الحياة هم ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحاتِ﴾؛ بل إن هؤلاء هم من يقرن الإيمان بالحياة القويمة، إنهم ﴿مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾.

﴿إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: فالفعل (آمَنَ) يعني: (يكون مؤمناً) و (يثق) و (يكون لديه ثقة بـــ(و) يؤمن أو يعتقد (بـــ)، والمصدر في العربية [للجذر أمِن] هو (أَمْن) والتي ترتبط بأفكار الطمأنينة والأمن والسلام. ومن هنا فالفعل (أَمِنَ) يعني: (أن يكون مطمئنّاً) و(أن يكون آمِناً) و (أن يثق)؛ ومن ثم فإن (أَمْنْ) تعني: (السلامة) و(السلام) و(الحماية) و(الطمأنينة). وترجمة (آمِنوا) إلى الإنجليزية مضللة إلى حد ما؛ لأنه في الوقت الحاضر غالباً ما تستخدم بمعنى (يحمل اعتقاداً) أو (يقبل باقتراح أو مسلّمة على أنها صحيحة). ولكن الكلمة العربية تحوي مضموناً سيكولوجياً وعاطفياً أقوى، لأن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تتضمَّن أكثر من مجرّد قبول لفكرة؛ فهي تتضمن علاقة شخصية والتزاماً من قبل أولئك الذين يجدون الأمن والسلام والحماية في جنب الله، والذين هم بدورهم ملتزمون إيمانياً به. وكما هو الحال في العبارة القرآنية التي بين أيدينا، فإن القرآن يؤكد الارتباط التام بين الإيمان والأعمال الصالحة، فإذا ما ذكر أحدهما ذكر الآخر مباشرة.

فالإيمان يجب أن يحث على الأعمال الصالحة، والتي بدورها يجب أن تغذي تجربة إيمانية أكثر عمقاً، والتي من شأنها أن تدفع بالمرء إلى أعمال خيرية أعظم، وهكذا تؤثر الواحدة بالأخرى في تنامٍ وتسامٍ مستمر. ومن وجهة النظر هذه، فإن جميع محاولاتنا تكتسب وحدة الهدف الكامنة: الشعائرية والروحانية والإنسانية والنشاط الدنيوي وجميعها تدخل ضمن دائرة العبادة. وتصبح الأعمال الصالحة أعمالاً يوجهها الله ويوجهها الإنسان في الوقت نفسه، فعلى سبيل المثال، من ينفق من ثروته على الآخرين يصبح تعبيراً عن حبه لله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧]. ومن هنا فإن العلاقة بين الله والإنسان وثيقة الصلة بعلاقة الإنسان مع أخيه الإنسان.

وما أكثر ما نجد في القرآن آيات تحض على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فالصلاة هي التوجه إلى الله، والزكاة التوجه إلى الأمة، ومن ثم إلى الإنسان، والخط الفاصل ما بين الصلاة والزكاة ضعيف جداً في الإسلام، فكلاهما من فروض الشعائر، وكلاهما يتطلب ويؤدي إلى مستوى عالٍ من النظام والتماسك الاجتماعيين.

فالعديد من غير المسلمين قد تأثر بالدقة التزامنية، وكأنها عسكرية، لاجتماع المسلمين في الصلاة. فعند النداء للصلاة يرتب الجمع نفسه في صفوف محكمة، دون أن يكون لشخص فضلٌ أو تميّز عن الآخرين لدرجة أنه حتى قائد الصلاة (الإمام) يمكن أن يكون أي شخص ينتخب من بين ذلك الجمع. وبهذه الطريقة تصبح الصلاة تمريناً روحانياً قوياً، ولكنها، وعلى نحو ثانوي، تدرّب الأمة في القيادة والتنظيم والتعاون والمساواة والأخوة. وأما المنافع الجسدية والصحية للتحضير للصلاة وأدائها فهي أمر آخر، جذب انتباه الآخرين من غير المسلمين على نحو مستمر. إن هذا لا يعني أن المسلمين يقومون بعمل قائمة بالمنافع الأولية للصلاة، فهم لا يقومون بذلك على الإطلاق، ولكن الصلاة تمثل حقيقة أن ما هو روحاني ودنيوي يتداخل ويكمل بعضه بعضاً في الإسلام.

وتوضح شعيرة الزكاة النقطة نفسها ولكن من زاوية مقابلة. فالزكاة ضريبة سنوية، شيء أشبه بضريبة الضمان الاجتماعي، على أموال المسلم والتي توزّع على الفقراء والمحتاجين وآخرين بيّنهم القرآن (كما في الآية ٦٠ من سورة التوبة). فالقلق الاجتماعي من وراء هذه الضريبة واضح تماماً، ولكن القرآن يؤكد على الجوانب الشخصية والروحية أيضاً. فكلمة (زكاة) والتي تعني صدقات (alms) أو إحسان (charity) يرتبط معناها بالفعلين العربيين (زكّى) و(تزكّى) واللذين يعنيان: (يطهّر) و(ينظّف) على التوالي. ويعرف المسلمون منذ أمد بعيد أنه من خلال دفع الزكاة قد يبلغ المرء مستوى أرقى من الصفاء الروحي. إن هذا ليس من سبيل تداعي الخواطر، بل لأن القرآن يربط ما بين التصدّق وتزكية النفس:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٣].

﴿وَسَيُجَنَّبُها الأَتْقَى ، الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ٩٢/ ١٧-١٨].

إن دعوة القرآن المتكررة لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة توجه بموقفها العام نحو الإيمان والأعمال الصالحة، فالإيمان والأعمال الصالحة مترابطان لدرجة كبيرة، ويغذي كل منهما الآخر. والهدف الأسمى هو إكمال التوافق بين كلا النوعين من النشاط، لأن كلاً منهما ضروري لرقيّنا التام. على هذا فالعطاء عن طواعية نفس يوطد من خبرة الإيمان، أو، كما يقول القرآن، الإنفاق في سبيل الله والقيام بعمل صالح يقرّب المرء من الله ومن رحمته:

﴿وَمِنَ الأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٩].

﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٧].

إن رؤية (وجه الله) تشير إلى مقابلة صوفية مركزة لا ينالها في الآخرة إلا من أوتي أعلى المستويات من الروحانية والصلاح. وهنا نجد القرآن يربط هذه الرؤية المقدسة باهتمامنا ومسؤوليتنا تجاه الآخرين: ﴿فَآتِ ذا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٨][1].

وكما تظهر هذه الآيات، فإن الأعمال الفاضلة تزكي الإيمان والروحانية. فالإيمان في الإسلام شامل، وهو أكثر من مجرَّد عقيدة أو حالة من الوعي الروحي: إنه نظرة متكاملة لطريقة عيش تشتمل على جميع جوانب طبيعة الإنسان، والتي من شأنها أن تزداد مع العطاء والتضحية بالنفس:

﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٢].

﴿الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ، الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا حَسْبُنا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٢-١٧٣].

﴿وَلَمّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزابَ قالُوا هَذا ما وَعَدَنا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلاّ إِيماناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٢].

وفي المقابل فإن خبرات الإيمان الروحية يجب أن تزيد من التزام المرء بالصالحات:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ ، أُولَئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٠-٦١].

---

(١) جاء في تفسير ابن كثيرلقوله تعالى ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى. ولعل المعنى الأقرب هو يبتغون رضى الله. [المترجم].

﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢-٤].

فالعقيدة والأخلاق والروحانية تتداخل كثيراً في القرآن بعضها مع بعض لدرجة التمازج في تعريف التقوى والإيمان:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتامَى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧].

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلَكِنْ يَنالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٦-٣٧].

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ ، إِلاَّ عَلَى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَراءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١-١٠].

يشير النص الثاني من الآيات إلى يوم النحر (عيد الأضحى) عند الحج إلى مكة من كل عام. والحج هو أحد أركان الإسلام الخمسة. وربما يكون الحج،

حتى في أيامنا هذه، أكثر الشعائر تطلباً للجهد الجسدي، وهو مذهل بصورته الدينية وعواطفه ودراميته. وهنا أيضاً، نرى كيف يربط القرآن بين المنافع الاجتماعية والروحانية للحج.

إن غير المسلم غالباً ما يُدهش بروح التفاؤل والاحتفال التي تسود الشعائر الإسلامية، وبخاصة خلال شهر رمضان (شهر الصوم) وخلال الحج، حيث يُفترض أنهما مكفّران للذنوب الماضية. وأما إدراك المسلمون حيال شعائرهم فهو إيجابي، أي إنها تقدمية من الناحية الروحانية والاجتماعية، وهم يفهمونها على أنها، كالحياة نفسها، تحدٍّ وفرصة.

وكلمة **إسلام** تعني (الاستسلام) أو (الخضوع)، أي التخلي عن المقاومة، أي الإذعان لإرادة الله والنظام الذي خَلَقه، وكذلك لطبيعة الإنسان الحقيقية. إنها محاولة وتجربة تدوم مدى العمر، وطريق ليس له نهاية يقود إلى ارتقاء لا حدود له. إنها مطاردة مستمرة تؤدي إلى درجات لا حدود لها من السلام والطمأنينة من خلال التقرب إلى الله، وهي تحرك القدرات الإنسانية جميعها بعلاقات لا شروط لها. إنها تبحث عن التزام طوعي للجسد والعقل والقلب والروح. إن شمولية الإسلام قد تتضح أكثر عن طريق اختبار واحد من الأسئلة الكبرى في المسيحية، وهو: "هل يتأتى الخلاص عن طريق الإيمان أو عن طريق الأعمال الصالحة؟".

أولاً لا بدّ من إعادة صياغة السؤال لأنه سؤال غير طبيعي لدى المسلم، إذ إن الإسلام لم يعرف شيئاً مثل اللاهوت الخلاصي الموجود في المسيحية البحث عن الخلاص عن طريق المسيح (soteriology) . فإذا ما سألنا المسلم: "كيف تعرف بأنك سوف تنجو؟" فمن المحتمل أن يكون جوابه: "النجاة من ماذا، ومن أين؟" فالحياة الدنيا عنده هي فرصة وتحدٍّ وامتحان، وليست عقاباً كي ينجو المرء منه. وسواء عرفوا ذلك أم لم يعرفوا، فإن الخلق جميعاً في القرآن يسعون نحو تحقيق غايات الله القصوى؛ وعلى هذا فليس من الواضح بالنسبة إليه

إن كان بحاجة إلى خلاص من الوجود. والقرآن كذلك يُجرِّد إبليس من جميع طاقاته، وينحصر فعله في كونه غاوياً أبدياً على الأرض، ليس إلا، أي كمحفز لاتخاذ القرارات الأخلاقية، ومن ثمّ، فهو محفّز للتطور الأخلاقي والروحاني. وإذ كان لابد من الخلاص من شيء ما، فإن المسلمين بحاجة للخلاص من شرور أنفسهم ومن غفلتهم وعدم استجابتهم لآيات الله العديدة.

ففي مثل وضع المسلم يكون من الطبيعي أكثر أن نسأل: "كيف يمكن للمرء تحقيق الفوز في هذه الحياة أعن طريق الإيمان أم عن طريق الأعمال الصالحة؟" فعلى اعتبار ما قد تمت ملاحظته، يصبح الجواب واضحاً في الحال وهو: كلاهما أساس، وإلا فليس للوجود الإنساني أي معنى ويصبح معظم ما في الحياة غير ضروري. وبالنسبة إلى المسلم فإن سؤالاً كهذا يصبح مماثلاً للسؤال: "أي عنصري الماء: الأكسجين أم الهيدروجين ضروري لإرواء عطش الإنسان؟".

وقبل أن نبحث فيما يخبرنا القرآن عن الله دعنا نعيد تلخيص ما سبق بإيجاز. فالقرآن يقول: إن حياة الإنسان الدنيا ليست عقوبة إلهية، وإنها لم تكن لإرضاء نزوة ما من نزوات الخالق، بل إنها مرحلة في خطة الله من الخَلْق. فقد وهب الله الإنسان طبيعة معقدة على نحو متميِّز وبميول وأهواء متناقضة، وإنه من خلال استخدام الإنسان لقدراته (العقلية والإرادية والروحانية والأخلاقية، إلخ..)، ومن خلال المحن والتجارب التي لابد له من مواجهتها، فإن الفرد إما أن يرقى في علاقته مع الله، (أي "في التقرب إلى الله" كما يشير القرآن)، وإما أن يشتت نفسه في مساعٍ لا سبيل إليها. والقرآن يشدد أن هذه الحياة سوف تقدم بالفعل جزءاً من الإنسانية ممن سوف يَخْبُرُون محبة الله ويتواصلون في ظلالها، وهؤلاء هم الذين يُدعون في الإسلام بالمسلمين، أي، حرفياً، (الذين يستسلمون لله)؛ ذلك أنهم يسعون جاهدين لتسليم أنفسهم، قلباً وعقلاً وجسداً وروحاً، لهذه العلاقة. إنهم أولئك الذين يجدون السلام والطمأنينة والثقة بالله، والذين يعملون الصالحات ويحرصون بجد على عمل الأشياء بشكل صحيح. ولكي

نفهم بشكل أفضل كيف أن الحياة التي نحياها من شأنها أن تيسر سبيل تواصل أقرب مع الله، دعنا نر ماذا يقول القرآن عن الله.

الأسماء الحسنى

يقدم القرآن صورتين متقابلتين لله وتدبيره لشؤون الكون، فمن جهة هو فوق الوجود المادي ولا يمكن أن يُسْبِر غوره، إنه ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالَى عَمّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ٦/١٠٠]، وإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:٤٢/١١]، وإنه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١١٢/٤]. فهذه الآيات تحذرنا من قيود ومخاطر استخدام لغة الإنسان في وصف الله، وبخاصة في مثل التعابير العامة المستخدمة لوصف طبيعة الإنسان وسلوكه، ذلك أن ميل الإنسان للاستخدام الحرفي للرموز الدينية غالباً ما يقود إلى تلفيق صور مضللة عن الله. ومهما يكن فإن هذه الآيات كأنها تحذيرات في القرآن؛ إذ إنها بدورها، إذا ما دعت الحاجة، تحتوي صفات مُقَارنة. فإذا كان علينا أن نرقى في محبتنا مع الله فإن علينا أن نعرفه، ولو بشكل تقريـــبـــي، كي نرتبط معه، ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية فإن الكلام هو الوسيلة الواضحة التي لابد منها.

على هذا وبالإضافة للتصريحات عن سمو الله الذي لا يدانيه شيء في الوجود، فإننا نجد صفاته العديدة مذكورة في كل صفحة تقريباً من صفحات القرآن. وغالباً ما تستخدم هذه الصفات لتكون فواصل للآيات، وهي ترد على نحو نموذجي في عبارات وصفية مزدوجة بسيطة، مثل: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ٤/١٢٩]، و﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٢٦/٦٨]، و﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١٧/١]. وبشكل جمعي، فإن القرآن يشير إلى هذه الألقاب بـــ (أسماء الله الحسنى) (انظر الآيات ١٨٠ من سورة الأعراف، و١١٠ من سورة الإسراء، و٨ من سورة طه، و٢٤ من سورة الحشر):

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً ما تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠].

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٢٠/ ٨].

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٣-٢٤].

فهذه الأسماء المقدسة هي عنصر كلي الوجود في حياة المسلم اليومية، فهو يذكرها عند البدء بكل أمر أو الفراغ منه حتى أكثر المهام دنيوية، وهي تظهر في أسماء الأشخاص مثل: عبد الرحمن وعبد الغفور وعبد الودود، إلخ..، ويهتف بها في اللحظات الأكثر فرحاً والأكثر ترحاً، ويتمتم بها بعد الفراغ من كل شعيرة صلاة، وينشد بها بإيقاع وعلى نحو جماعي في مناسبات مختلفة. ولأن المسلمين يستخدمون هذه الأسماء في حديثهم اليومي بلا كلل أو ملل، فقد اتهمهم بعض من غير المسلمين بالشكلانية الخاوية (empty formalism) ، ولكن هذا يعكس نقصاً في الفهم، لأن الحقيقة هي أن للأسماء المقدسة دوراً مكملاً هاماً في حياة المؤمنين بحيث يكون ذلك الاستخدام طبيعياً وغير متكلّف .

إن الأسماء المقدسة عند المسلمين هي وسيلة التوجه إلى بهاء الله غير المحدود، ومن خلال ذكر هذه الأسماء فإن المؤمنين يحاولون أن يميطوا اللثام، ويتجهوا بأرواحهم نحو هدف الجميع المتعالي (الله). ومعرفة الأسماء الحسنى أساس إذا أراد المرء أن يفهم العلاقة بين الله والإنسان كما بيَّنها القرآن وكما خبرها المسلمون.

وفي تصنيفه لـــ(فهرس القرآن)، يترجم حنا قسيس[1] معظم الألقاب والصفات الواردة في الكتاب الكريم والمتعلقة بالله إلى الإنجليزية مع معاني ظلالها المختلفة. والقائمة التي يأتي بها ليست كاملة، ذلك أن باحثين آخرين أجروا

---

(١) حنا قسيس: Hanna E. Kassis فهرس القرآن (A Concordance of the Qur`an) مطبوعات جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٣.

تصنيفاً وشرحاً موسعين بالإنجليزية لصفات وأسماء الله الحسنى، ذلك أن هذه الأسماء في العربية لها مدلولات عدة، وليس من السهل أن نفي الأصل العربي حقه. فعلى سبيل المثال كلمة (رب) يترجمها قسيس بـ (Lord) توحي بفكرة (التربية) و (الكفالة) و (الرعاية). وأما عند العالم اللغوي المعروف الراغب الأصفهاني فكلمة (رب) تعني: "التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام[1] ".وكما هو واضح، فإن كلمة (Lord) لاتوحي بهذه الفكرة. والقائمة التالية من الصفات والأسماء المقدسة مأخوذة من فهرسة قسيس:

أسماء وصفات مقدسة:

الأحد: One ، الآخر: Last ، الجليل: Honorable ، الأول: First ، الباطن: Inward، البديع (البارع، الفاطر، الخالق، الخلّاق): Creator ، البَر: Benign ، البصير: Seeing ، التوّاب: One Who Turns Towards Others ، الجامع: Gathere ، الجبار: (Irresistible) Compeller ، الحسيب: Reckoner ، الحفيظ (الوكيل، الولي) Guardian، الحق: Truth ، أحكم الحاكمين: most Just Judge ، الحكيم: Wise ، الحميد: Laudabl ، (Praiseworthy) الحي: Living ، العليم: (Sagacious) Informer ، الخبير: Aware ، الرب: Lord ، الرحمن: (Merciful) Beneficent ، الرحيم: Compassionate، الرزاق: Provider ، الرفيع: Exalter ، الرقيب:Watcher ، السريع: Quickener ، السلام: Peaceable ، السميع: Hearing ، الشاهد: Watcher، الشكور: (Grateful, Thankful) Embracing ، الصمد:Absolute ، الظاهر: Evident (Outward) ، العالي: High ، العزيز: Mighty ، العظيم: (الأكرم، المجيد: Mighty, Splendid Glorious)، العفو: Pardoner ، العفو، الحليم، الرؤوف: Clement، العليم (الخبير: Knower)، الغفور (الغفّار: Forgiver)، الغني (الكافي) Sufficient، الفاطر: Originator ، الفتاح: Deliverer ، القدّوس:Holy ، القدير

(١) حنا قسيس :Hanna E. Kassis فهرس القرآن (A Concordance of the Qur`an) مطبوعات جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٣). منقولة عن عبد الله يوسف علي Yusef Ali القرآن الكريم: النص والترجمة والتعليق.The Holy Qur'an: Text, English Translation & Commentary

(القادر، القهار، القاهر: (Omnipotent (Powerful)، القدير:Able ، الجواد : Bountiful، القوي: Strong ، القيوم: (الصمد: Eternal (Everlasting، الكبير Great، الكريم: Generous ، اللطيف (الرؤوف ,Gentle, Gracious, Kind, Subtle) Tender))، الله (إلهGod)، المؤمن: Faithful ، المتكبّر:(Sublime (Superb ، المتين : Sure، المجيب: One Who Answers ، المصور: (Fashioner (Shaper ، المعطي (الوهاب: Giver)، الملك: (المليك:King)، المهيمن:Preserver ، المولى (الولي): Protector، النور: Light ، الهادي: Guide ، الوارث: Inheritor ، الواسع: Embracing، الودود: Loving ، الوكيل:(Disposer (Trustee ، الوهاب: Bestrewer، تبارك وتعالى:Exalted ، ذو الجلال: (المتكبّر : Majestic)، مالك الملك: Master of the Kingdom ، هو[1] He.

وهناك تباين كبير في عدد المرات التي ذكرت فيها هذه الصفات في القرآن، فعلى سبيل المثال يتكرر لفظ الجلالة (الله) حوالي ٢٦٩٨ مرّة، ولفظة رب حوالي ٩٠٠ مرّة، ولفظة **الرحمن** ١٧٠ مرّة، ولفظة **الرحيم** ٢٢٧ مرّة، ولفظتا **الغفّار والغفور** ٩٧ مرّة، ولفظة **اللطيف** ٧ مرّات. وهذا التكرار والتباين له أثره الكبير في تقوى المسلمين، ولتقدير هذا الموقف فإننا بحاجة أن ندرك فقط عدد المرّات التي يتواصل المسلم فيها مع القرآن.

فالمسلم الملتزم يتلو القرآن على الأقل خمس مرات في اليوم والليلة خلال صلواته المفروضة. ويستمع العديد من المسلمين للقرآن على أشرطة الكاسيت بمثل ما يستمع الغربيون للموسيقا، والعديد العديد منهم يتلون جزءاً معيناً منه كل يوم للمدارسة والهداية، ويقوم عدد منهم بحفظه عن ظهر غيب بأكمله. ومن خلال قراءة المسلمين للقرآن، فإنهم يذكرون وباستمرار أسماء الله وصفاته المقدسة من خلال هذه التلاوة والتي تكاد لا تخلو صفحة واحدة من القرآن

---

(١) قام المؤلف بترتيب الأسماء هجائياً حسب الأحرف اللاتينية وقد قمت بترتيبها حسب الأحرف الهجائية العربية، علماً بأن هناك بعض الأخطاء في الصياغة العربية كما أوردها المؤلف[المترجم.]

منها. ومن خلال هذا الذكر المستمر (لأسماء الله) تنطبع رؤية أو صورة روحية معينة بشكل تلقائي على قلب وعقل المسلم، وتتنوع هذه الصورة في انطباعها تبعاً لنسبة ورود أسماء أو صفات أكثر من غيرها. وإذا كان علينا أن نتصور هذا التأثير فيمكننا أن نقوم بتصوير هرم بأسماء الله الحسنى فنرى أن لفظ (الجلالة) **الله** سوف يكون في قمة الهرم، وينبثق عنها، ولكن دونها في المرتبة لفظة رب، ثم تأتي دون ذلك صفات الرحمة (**الرحمن والرحيم**) منبثقة عنها وواصفة إياها وكأنها إشعاع مصباح، ثم صفات المغفرة (**الغفار والغفور**)، ثم ينبثق عن الرحمة **الخالق** وهكذا.

وبهذه الطريقة يطور المسلم مفهوماً عن الله أبعد ما يكون عن المادية، ويتقرب إلى الله من خلال عقله وقلبه وروحه ومشاعره وحدسه وليس من خلال أية صورة مجسّمة. وأعتقد أن هذا هو مصدر تحطيم الإسلام لصورة الأوثان (iconoclasm) كما هو معروف. وتحطيم الإسلام للأوثان ليس تطرفاً قاسياً له جذوره الثقافية في بيئة صحراوية ذات ذوق بدائي في الفنون، بل إنه لازمة طبيعية للطريقة التي يتصور المسلمون الله من خلالها ويرتبطون به من خلال مفاهيم تعبر عن قيم داخلية ونشاطات وليس من خلال صور مرئية. ومن هنا جاء فن الخط الإسلامي الفريد الذي لا يتضمن صوراً أو تماثيل، بل كلمات غالباً ما تكون أسماء مقدسة وآيات قرآنية مكتوبة بأناقة وجمال، وتعطي تصميماً وتناسقاً دقيقين وعجيبين يستوجبان دراسة مُحكمة للتحقق من المعنى واكتشاف الحقيقة الكامنة فيما وراء الجمال .

وإذا ما نظرنا إلى الأسماء الإلهية المقدسة مرة أخرى فإننا نصاب بالحيرة، إذ مادامت أسماء **الرحمن والرحيم والرب والمولى والولي والغفار والغفور** تظهر وتتكرر في القرآن باستمرار، فإننا نتوقع أن الأسماء التي تبدو وثيقة الاتصال بها، كـ**الودود**، سوف تتكرر في القرآن أكثر من مرّتين، فإذا ما ضمنّا العدد الكبير

من الإشارات إلى محبة الله أو نَزْعِهِ المحبة من الآخرين فإننا قد نشعر أنه ربما من المناسب أن نزيد هذا العدد. ولكن بالفحص الدقيق لأمثلة كهذه نلاحظ أن محبة الله في القرآن ليست عالمية، وهذا في الحقيقة ما يجعل هذه الصفة بمنأى عن الصفات التي ورد ذكرها أعلاه. فرحمة الله مثلاً ينالها جميع خلقه وتشمل حتى أكثر الناس بعداً عن الله (انظر الآيات ١٥٦ من سورة الأعراف، و٣٣ و٣٦ و٤٦ من سورة الروم، و٧ من سورة غافر، و٢٨ من سورة الشورى)، ودعمه وعطاؤه يصل إلى الجميع. والله هو الحافظ الوحيد لكل نَفْس (انظر الآيات ١٠٧ من سورة البقرة، و٦٢ من سورة الأنعام، و٣٠ من سورة يونس)، ويقبل التوبة النصوح لمن يتوب عن قريب (انظر الآيات ١١٠ من سورة النساء، و٦ من سورة الرعد، و٥٣ من سورة الزُمر)، ولكن عندما يتكلم القرآن عن المحبة، فإنه يشير إلى **علاقة** خاصة يتقاسمها الله مع خلقه من البشر بإرادته، إنها علاقة يقول القرآن إن معظم البشر يعرضون عنها (انظر الآيات ٨٩ من سورة الإسراء، و٥٠ من سورة الفرقان، و٧٣ من سورة النمل). وبرغم أن رحمة الله وعطفه ورعايته تسطع على كل البشرية، فإن الذين سوف يحظون بعلاقة محبة مع الله هم فقط أولئك الذين يتوجهون إليه ويسعون طوال حياتهم كي يسلموا أنفسهم لله. وهذه المحبة تعني محبة المشاطرة، محبة نتلقاها ومحبة نعطيها، إنها المحبة المشتركة. ولأن القليل القليل فقط هم الذين يختارون أن يدخلوا فيها، فإننا يجب ألا نستغرب من الاستخدام المحدود للاسم المقدس **الودود** في القرآن؛ ذلك أنه في حين أن علاقة من المحبة مع الله هي في متناول الجميع، إلا أن أكثر الناس يعرضون عن الدخول فيها.

ولنعد ثانية إلى أسماء الله الحسنى ولنتذكر هذه المرة مناقشتنا عما يتطلبه الإسلام من الإنسان: فمن خلال متابعة قراءتنا للقرآن نراه يذكرنا على الدوام بصفات الله وبالخصال التي يتوجب علينا أن نهذّبها في أنفسنا، ولن يطول الوقت حتى يتضح لنا أن هناك تقاطعاً مُعتبراً ما بين العنصرين؛ ذلك أن غالبية

الفضائل التي يجب علينا أن نطورها في أنفسنا من خلال أعمالنا تجاه الآخرين لها أصولها وكمالها في الله. فعلى سبيل المثال علينا أن ننمي في أنفسنا الإحسان، والخير، والجود، والشفقة، والتعاطف، والإخلاص، والمقدرة على الصفح، والكرم، واللطف، والعطاء، والكياسة، والنبل، والعدالة، والرقة، والمعرفة، ومحبة الآخرين، والرحمة، والسلام، وحماية الضعيف، والصدق، والثقة، والحكمة.

ومع ذلك فهذه الخصال تنبع من الله وصفاته في الكمال، وإذا ما طوّرنا هذه الخصال في أنفسنا، فإننا في الحقيقة نزداد قرباً من الله الذي هو مصدرها المطلق. ومن هنا فكلما تشربت نفوسنا بهذه الخصال، ازدادت معرفتنا بالله. وطالما أمكن لبني البشر أن يجربوا هذه الفضائل ويكتسبوها على مستوى يفوق مستوى المخلوقات الأخرى أصبح من المتاح لهم أن يرتبطوا مع الله بطريقة حميمية مميزة .

ولإيضاح هذه النقطة يمكننا استخدام القياس: افترض أن لدي حيوانين مدللين سمكة ذهبية (gold fish) وكلباً، وأن لدي ثلاث بنات. فالسمكة، لكونها أكثر محدودية من حيث التفكير والارتقاء، لاتستطيع أن تعرف وتدرك محبتي وعطفي إلا على نطاق محدود جداً مهما حاولت أن أمنحها من العطف والحنان. وأما الكلب، الذي هو حيوان أكثر تعقيداً وذكاءً من السمكة، فإنه يستطيع أن يشعر بالدفء والعطف الذي أمطره به بدرجة تفوق بكثير درجة خبرة ومعرفة السمكة. ومع ذلك فإن بناتي وهن يكبرن يصبح لديهن إمكانية الشعور بمقدار الحب والحنان الذي أكنّه لهن على مستوى لا يمكن لكلبي أن يدركه على الإطلاق، لأن بناتي يملكن القدرة على المعرفة المباشرة، من خلال عواطفهن وعلاقاتهن، للمشاعر الغنية والعميقة أكثر من كلبي. وعليّ أن أقول إن محبتي لوالديَّ اليوم هي أكبر من محبتي لهما عندما كنت طفلاً؛ ذلك أني منذ أصبحت أباً بدأت أعرف وأشعر بشكل أفضل بقوة الحب التي أعطاني إياها كل من أمي وأبي.

وإذا ما استطردنا في قياسنا هذا قليلاً فإننا نرى أنه ليس كافياً لبناتي أن يُحِطْنَ أنفسهن بعلاقات إنسانية أخرى فقط، مادمن لن يقدِّرن مقدار مشاعري تجاههن ما لم يعترفن بي ويتوجهن إلي على أنني والدهن، أي ما لم يدخلن في العلاقة ما بين الوالد والولد. إن بمقدوري أن أمنحهن كل مشاعر الأبوة في العالم، ولكنهن إذا ما رفضن تلك المشاعر الجمة أو تجاهلنها لجملة من الأسباب، فإنهن لن يدخلن في علاقة من الحب معي، وعندها لن يكون للعطف والرعاية التي أوليها لهن نفع كبير.

ولهذا أعتقد أن القرآن يصر على كل من الإيمان بالله والقيام بالعمل الصالح تجاه أخينا الإنسان؛ لأن كلاً من الإيمان والعمل الصالح ضروريان إذا ما أردنا أن نعرف الله. فإذا كان الملحد إنسانياً كبيراً، فقد يحظى بمحبة وإعجاب جيرانه وأصدقائه، وربما الشعور بالرضا تجاه نفسه، وكذلك الشعور بمعنى الحياة، ولكنه مع ذلك يبقى خالياً من الناحية الروحية. أنا لا أصر على القول بأن شخصاً كهذا سوف يكون مصيره المعاناة المستمرة؛ لأن ذلك يعتمد على عوامل يستحيل لنا أن نعرفها أو نعرف مقدارها، مثل قيود شخصيته والبيئة التي يعيش فيها والفرص المتاحة أمامه وغيرها من العوامل. وعلى كل فليس هدف القرآن مناقشة حالات من عدم الاستقرار والثبات كهذه على أنها خيارات متاحة، بل إن القرآن يرشد الإنسان إلى ما فيه الخير له ويحذره مما فيه الدمار له.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٥٧]. يتردد صدى هذه الحقيقة من خلال القرآن، فهي تذكر القارئ أن نهاية وغاية كل سعينا الدنيوي هو إعادة الاتحاد هذا، وفي المحصلة فإن ما يهم هو علاقتنا مع الله. ولكن من الخطأ القول: إن هذه العلاقة هي كل ما يهم؛ ذلك أنه، وكما قد بيَّنا، ترتبط علاقتنا مع الله ارتباطاً وثيقاً باستجاباتنا نحو أخينا الإنسان. فالشعائر والإلهام والتأمل والتذكُّر (انظر الآيتين ١٩١ من سورة آل عمران، و١٠٣ من سورة النساء) جميعها تلعب أدواراً حاسمة في تقريبنا إلى الله، ولكن

يجب ألا نغفل دور ارتقائنا في الفضيلة. وكلما ارتقى المؤمن في الصفات التي تنبع من الله، كانت علاقته مع الله أكبر، ومن ثمّ كانت قدرته على أن يتلقى ويستبطن جمال وقدرة الله المطلقتين أعظم في كل من هذه الحياة، وعلى نحو لا يقارن في الحياة الآخرة حيث الأقنعة الدنيوية وكل ما يلهي تزول جميعاً.

إن هذا أكثر من مجرَّد مقاربة صلاحنا بحكمة الله المتعالية، إذ إنها تتطلب علاقة حميمة ومعرفة لا يمكن لشخصين من البشر أن يشاطراها. والمثل المعروف يقول: "لكي تبدأ بفهمي، فإنه يتوجّب عليك أن تمشي ميْلاً وأنت مُنْتَعِلٌ حذائي،" وهذا يعني أننا لا نستطيع في الحقيقة أن نعرف شخصاً آخر ما لم ندخل، إلى حد ما، في حياته ونجرّبها من وجهة نظره الشخصية. ولأنّ هذا الأمر محال — إذ إننا دوماً نقع خارج تلك الخبرة — فإن هذا يعني أن قدرتنا على التعاطف مع الآخرين محدودة جداً. وبالتأكيد، لن نكون قادرين على معرفة الله بشكل تام، ولكننا نستطيع أن نشعر بوجوده بطريقة عميقة على نحو مميَّز.

ولقد أخبر النبي ﷺ أصحابه ذات مرة: "إن لله مئة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخَّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة".[1] والقصد من هذا الحديث إظهار مدى عظمة رحمة الله، وكذلك يشير الحديث أن الرحمة التي نظهرها ونشعر بها ما هي إلا جزء متناه في الصغر من رحمة الله المطلقة. وهكذا فالله يمنحنا القدرة على الاشتراك في رحمته وتجربتها من خلال الخبرة المباشرة في حياتنا الدنيا، ليس فقط بوصفنا متلقين، بل بوصفنا مانحين لها أيضاً؛ ذلك أننا عندما نكون رحماء تجاه مخلوق آخر، فإن ذلك الكائن يكون متلقياً لرحمة الله من خلالنا.

---

(١) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم (كتاب التوبة) كما جاءت ترجمتها في رياض الصالحين للإمام النووي، النسخة المترجمة لمحمد ظفر الله خان، ص ٩٤.

وهذا ينسحب على غالبية أسماء الله الحسنى أيضاً، أي إذا كنا صادقين فإننا بذلك نجرّب جزءاً ضئيلاً من الحقيقة التي تأتي من الله، وإذا بلغنا الحكمة فإن الحكمة جميعها تنبع من الله؛ وإذا بلغنا من القوة شأواً فلا قوة إلا بالله، والأم تشترك في الخلق على مستوى سيبقى دوماً لغزاً غامضاً للإنسان، ومن هنا فإن تجربتها في صفة الخلق لابد أنها عميقة بشكل خاص. وربما نستطيع قول الشيء نفسه على تجربتها مع (الرحمن) و(الرحيم). فالعديد من علماء المسلمين القدامى قد شعر بأن الأنثى تكون أكثر حساسية لبعض الصفات المقدسة من الذكر والعكس بالعكس، فأسماء مثل القدير والمولى والمعطي كان يعتقد أنها أكثر ملاءمة للذكر.

ويخبرنا القرآن أن الله ينفخ شيئاً ما من روحه في روح كل إنسان (انظر الآية ٩ من سورة السجدة)، وهذا يعني أن كل إنسان يملك في داخله بذرة من بذور الصفات المقدسة، أو بمعنى آخر إن الفضائل التي يعيش الإنسان تجربتها إنما هي نفحة من نفحات الأسماء الحسنى. والمفهوم القائل: إنه كلما سعى الإنسان وراء الفضيلة، كانت قدرته أعظم ليعيش تجربة المقدس، ويقترب من ضوء قول رسول الله ﷺ الذي يؤكد: "إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه فإن زاد زادت فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه"[١].

وهدف المسلم المؤمن هو أن يصبح باستمرار متلقياً ومرسلاً لبهاء الله المطلق، وأن يقترب ما استطاع من مصدر كل ما هو جميل، وأن يقبل أن يكون رسولاً لمن له الأسماء الحسنى، ومن هنا يكون بحق خليفة الله على الأرض كما جاء في الآية الثلاثين من سورة البقرة.

---

(١) من حديث ابن ماجه والترمذي كما جاءت ترجمته في هدي من الرسول لـــمظهر القاضي (جامايكا، ن ي: مطابع ICNA، ١٩٩٠م)، ص ٨٤.

يبدو أننا عدنا إلى حيث بدأنا أول مرة، فهذه المناقشة برمتها عن غاية الحياة كما وردت في القرآن بدأت بقصة الإنسان كما جاء في الآيات من ٣٠ إلى ٣٩ من سورة البقرة. وقد يفترض المرء من قبيل السهو أو الخطأ غير المقصود أن هذه المناقشة بدأت بسؤال الملائكة لله عن هدفه من خلق هذا المخلوق، وبالتالي ريبتها من هذا المخلوق ونقدها له حتى قبل أن يُخلق. وفي الحقيقة إن ما ألهمنا للبحث عن مثل هذه المناقشة هو إرادة الله لخلق الإنسان والتي جاءت بتوكيد مفعم بإيجابية وتفاؤل كبيرين ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/٣٠] لدرجة دفعت بالملائكة أن تسأل ربها عن ذلك المخلوق.

كيف يمكن للإنسان، ذلك المخلوق المدمر والقابل للفساد أن يكون نائباً وممثلاً لله (على الأرض)؟ فمن بين جميع المخلوقات، كيف يمكن للإنسان أن يتصرف وكيلاً ومبعوثاً لربه؟ يبدو أن تاريخ الإنسان وطبيعته على نقيض من هذا الاصطفاء. ولكننا عندما ننظر إلى الجنس البشري من وجهة النظر هذه، فإن مثلنا مثل الملائكة، نرى جانباً واحداً من الحقيقة، ونغفل قابلية الإنسان للخير والتضحية بالنفس وقدرته على المجاهدة للعيش بأرقى مستويات الفضيلة. فكل شخص يملك في داخله القدرة على التلقي والتمثيل، وأن ينقل للآخرين الرحمة والتعاطف والعدالة والحق والسخاء والمحبة التي تنبع أصلاً من الله، ومن ثمّ نكون بذلك رسله على الأرض.

ويؤكد القرآن أن الطبيعة الإنسانية تحتوي هذا التوجه وهذه الإمكانية، (كما في الآية ٣٠ من سورة الروم)، ولكنها تتطلب خياراً يتوجب علينا إعادة اتخاذه ومواجهته باستمرار. إن وظيفة الخليفة لا تُمنح ببساطة، بل يجب أن تقبل طواعية ويجب الالتزام بها مدى الحياة. والقرآن لا يطلب من الإنسان الكمال، بل يطلب إلينا أن نثابر في اجتهادنا للتزوّد بالتقوى ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً،

وألا نركن لأنفسنا (انظر الآيات ١٩٧ من سورة البقرة، و٢ من سورة المائدة، و٢٦ من سورة الأعراف) أو نقنط في سعينا هذا (انظر الآيات ٥٥-٥٦ من سورة الحجر، و٥٣ من سورة الزُّمر).

الاعتراض الأول

قد يكون لمفهوم القرآن عن الحياة دعوته وترابطه المنطقي المحدَّدان، ولكن دعنا لا نسمح لأنفسنا أن نكون رومانسيين ونقبل بذلك. إن فكرة أن الارتقاء في الفضيلة يؤدي إلى سكينة في النفس وهناءة العيش، وأنه يضفي جمالاً دائماً على الحياة أمر مسلم به، وإن كون فكرة الارتقاء هذه من شأنها أن تسمح لنا أن نتلقى ونجرب صفات الله المطلقة إلى أعظم درجة ممكنة أمر لاشك منطقي. ومع ذلك، أليس هناك مشكلة واضحة وساطعة في هذا الإدراك؟ ولماذا لم يخلقنا الله بهذه الفضائل منذ البداية؟ ولماذا لم يبرمج فينا الرحمة والصدق والتعاطف واللطف وما إلى ذلك من الفضائل، ويتجاوز هذه المرحلة الدنيوية من وجودنا؟ على هذا نكون عدنا بأنفسنا إلى سؤال الملائكة وهو: لماذا يارب لم تجعل الإنسان شيئاً أعظم مما هو عليه، شيئاً كالملائكة؟

وللإجابة عن كل هذا، لن نحتاج إلى كثير من البحث، بل لننظر فقط في أنفسنا ذاتها. فإذا كنا لا نعرف شيئاً آخر عن الفضائل التي نناقشها، فإننا بالتأكيد نعلم أنها لا يمكن أن توجد في أحد الكائنات الراقية جداً إذا كانت هذه الفضائل قد تم برمجتها فيه فقط. فالفضيلة إذا ما بُرمجت لا تبقى فضيلة بالمفهوم الذي نعرفه، بل شيئاً آخر. بمقدورنا أن نبرمج حاسوباً (كمبيوتراً) أن يكون صحيحاً دوماً، ولكننا عندئذ لا يمكننا أن نعدّه كمبيوتراً صادقاً، كما أننا لا نستطيع أن ننظر إلى سماعة الطبيب على أنها رحيمة برغم أنها تساعد المريض. والقرآن يقدم الملائكة على أنهم مخلوقات لا تملك حرية الإرادة، ولكن الإنسان يستطيع أن يرقى إلى مستويات أعلى من الملائكة بكثير أو يهوي إلى أعماق أدنى منها.

إن الفضائل مفاهيم مجردة يصعب تعريفها، ولكنني أعتقد أننا نستطيع أن نتفق أنه كي نرقى في الفضيلة، فلا بد لذلك من ثلاثة أشياء وهي **الإرادة الحرة** (أو القدرة على الاختيار)؛ **والفكر** (بحيث يكون المرء قادراً على تقدير نتائج اختياراته)؛ و **المعاناة والشدة** (وهما لا يقلاّن أهمية عن الإرادة الحرة والتفكير). وكما رأينا سابقاً، فإن القرآن يشدد وبقوة على هذه العناصر الثلاثة عندما يناقش عملية تطور الإنسان الروحي. فلكي يكبر الإنسان في العطف أو الشفقة مثلاً لابد له من المعاناة، وبدوره فالعطف يتطلب الاختيار، أي القدرة على الوصول إلى شخص ما بحاجة للعطف أو تجاهله. والتفكير ضروري بحيث يكون المرء قادراً على تحديد القدر اللازم من نفسه، والذي يمكن أن يستثمره للتعاطف مع من يعاني. وعلى نحو مماثل، فلكي يكون المرء صادقاً فإن ذلك يتضمن خيار عدم الكذب، وتبرز أهمية ذلك إذا كان إخبار الحقيقة قد يؤدي إلى ضياع أو معاناة شخصية، والذي يمكن التنبؤ به من خلال استخدام المرء عقله. فكم وكم نسمع في المسرحيات والأفلام والأغاني عبارات مثلما تقول المرأة للرجل (أو بالعكس): "لم تكن تحبني لأنني عندما كنت فقيرة وبائسة ومشتتة تخليت عني و لم تفكر إلا في نفسك!" فمقولات كهذه تعترف بالدور الأساس للمشقة والخيار والتفكير في الحب. والشيء نفسه يمكن أن يقال في قَسَم الزواج الذي يطلب من العروسين إن كانا مستعدين لأن يلتزم كل بواجبه نحو الآخر: "في الغنى والفاقة وفي الصحة والسقم حتى الممات." وهذا الأمر ينطبق على كل الفضائل، حيث تبقى هذا العناصر الثلاثة حاسمة لارتقائنا فيها.

فعندما كانت ابنتي الكبرى جميلة طفلة صغيرة مرضت مرضاً شديداً ذات ليلة. والطريقة الوحيدة التي كان عليَّ أن أساعدها بها لكي تنام هو أن أحملها على كتفي، وأدندن لها بصوت هادئ بينما أجول البيت جيئة وذهاباً، وحينما كنت أتوقف عن الدندنة أو أحاول إنزالها عن كتفي كانت تستيقظ في الحال وهي تبكي. وهكذا وطوال تلك الليلة ولمدة ثماني ساعات متواصلة واصلت حمل ابنتي على تلك الحالة حتى زالت عنها الحمّى قبيل الفجر، وعندها

استسلمت للنوم من تلقاء نفسها. عند ذلك وبالطبع كنت منهكاً تماماً، وكان ظهري يؤلمني جداً، وبح صوتي من ألم حنجرتي، وكان عليّ أن ألتحق بعملي في غضون ساعة من الوقت. وعندما ذكرت هذه الواقعة لها مؤخراً، سألتني جميلة: "ألم تغضب مني يا أبتِ بجنون؟" لقد دهشتُ لسؤالها، ذلك أنه لم ينتبني أي شعور بالغضب ولا للحظة واحدة تلك الليلة. أجبتها: " أغضب منك يا حبيبة قلبي! بل أعطيتك كل ما أستطيع من المحبة تلك الليلة، وإنها لذكرى سوف تبقى عزيزة عليَّ دوماً".

إن المحبة والتعاطف والاهتمام تولد جميعاً من تجارب كهذه، وإن فيها جمالاً وقيماً "تعدل الدنيا وما فيها" كما يقول النبي[1] ﷺ وهذه التجارب أيضاً غالباً ما تحتوي مناسبات لدمل جراحات سابقة والتعويض عن خسارات ماضية.

انكسرت رجل ابنتي الثانية سارة عندما كان عمرها لا يتجاوز العام الواحد، وكان عليَّ أن أبيت معها في المشفى لتلك الليلة. وهذه الطفلة كانت قد ولدت بعد جميلة بسرعة حيث إن الفارق الزمني بينهما لا يتجاوز العام، في الوقت الذي ازداد عبئي التدريسي بشكل كبير، حتى شغلني كثيراً عن ابنتي هذه بحيث لم أكن لأقضي وقتاً طويلاً معها حتى تلك الليلة. فعندما كانت أختها الكبرى جميلة طفلة صغيرة كنا نادراً ما نفترق، ولكن الآن وقد مضت سنة كاملة من حياة سارة قلما قضيت وقتاً كافياً معها.

وفي تلك الليلة أمسكت سارة بيدي طوال الليل؛ وإذا ما حاولت التملص من قبضتها كانت تزعق، حيث كانت التشنجات العضلية في رجلها تقض مضجعها، وتحرمها من النوم. وكان عليّ أن أنحني على حاجز سريرها كي أصل إلى يدها، وكان الحاجز يحفر في جنبي. وكانت تلك ليلة مزعجة لم أخلد فيها للنوم أو الراحة.

(١) هذه من التعابير التي كان الرسول ﷺ غالباً ما يرددها. انظر رياض الصالحين، ص ٢٢١-٢٢٢.

استسلمت للنوم من تلقاء نفسها. عند ذلك وبالطبع كنت منهكاً تماماً، وكان ظهري يؤلمني جداً، وبح صوتي من ألم حنجرتي، وكان عليّ أن ألتحق بعملي في غضون ساعة من الوقت. وعندما ذكرت هذه الواقعة لها مؤخراً، سألتني جميلة: "ألم تغضب مني يا أبتِ بجنون؟" لقد دهشتُ لسؤالها، ذلك أنه لم ينتبني أي شعور بالغضب ولا للحظة واحدة تلك الليلة. أجبتها: " أغضب منك يا حبيبة قلبي! بل أعطيتك كل ما أستطيع من المحبة تلك الليلة، وإنها لذكرى سوف تبقى عزيزة عليَّ دوماً".

إن المحبة والتعاطف والاهتمام تولد جميعاً من تجارب كهذه، وإن فيها جمالاً وقيماً "تعدل الدنيا وما فيها" كما يقول النبي[1] ﷺ وهذه التجارب أيضاً غالباً ما تحتوي مناسبات لدمل جراحات سابقة والتعويض عن خسارات ماضية.

انكسرت رجل ابنتي الثانية سارة عندما كان عمرها لا يتجاوز العام الواحد، وكان عليَّ أن أبيت معها في المشفى لتلك الليلة. وهذه الطفلة كانت قد ولدت بعد جميلة بسرعة حيث إن الفارق الزمني بينهما لا يتجاوز العام، في الوقت الذي ازداد عبئي التدريسي بشكل كبير، حتى شغلني كثيراً عن ابنتي هذه بحيث لم أكن لأقضي وقتاً طويلاً معها حتى تلك الليلة. فعندما كانت أختها الكبرى جميلة طفلة صغيرة كنا نادراً ما نفترق، ولكن الآن وقد مضت سنة كاملة من حياة سارة قلما قضيت وقتاً كافياً معها.

وفي تلك الليلة أمسكت سارة بيدي طوال الليل؛ وإذا ما حاولت التملص من قبضتها كانت تزعق، حيث كانت التشنجات العضلية في رجلها تقض مضجعها، وتحرمها من النوم. وكان عليّ أن أنحني على حاجز سريرها كي أصل إلى يدها، وكان الحاجز يحفر في جنبي. وكانت تلك ليلة مزعجة لم أخلد فيها للنوم أو الراحة.

---

(١) هذه من التعابير التي كان الرسول ﷺ غالباً ما يرددها. انظر رياض الصالحين، ص ٢٢١-٢٢٢.

وبينما كنت أتأمل هذه الطفلة وهي تصارع الألم، وتعاني منه لساعات، اكتشفتُ سارة لأول مرة تلك الليلة. فبينما كنت أحملق في عينيها البنيتين الواسعتين، وأتأمل تعابيرها وردود فعلها من خلال إمساكي بيدها والتحدث معها، وجدت الشبه الكبير الذي يربط بيني وبين ابنتي هذه من حيث الشخصية. شعرت بخجل كبير في نفسي؛ لأنني لم أعطها الوقت الكافي لأعرفها وتعرفني، وأدركت عند ذلك ما كنت فقدت، وكم كان كلٌّ منا بحاجة للآخر. أقسمت تلك الليلة أن أبدأ العمل بعلاقاتي مع أولادي وألاّ أنتظر أحداثاً كهذه تقربنا بعضنا من بعض.

إن هاتين الحادثتين كانتا بمنـــزلة امتحانين صغيرين لي في حياتي وقد علماني الكثير الكثير. وإنني لأتساءل عن مدى عظمتها؛ إذ لابد أن تكون عظيمةً خبرةُ الأمومة. فإذا كنت أنا قادراً على أن أكتسب النفع الكبير من هاتين الحادثتين، فما أعظم إمكانية الكسب الشخصي من حمل الطفل لمدة تسعة أشهر؟ وربما لهذا السبب أخبر النبي محمد ﷺ أصحابه بأن الأمومة تجعل الجنة تحت أقدام الأمهات.

وهذا الأمر أيضاً يساعدني على فهم سبب تشديد الإسلام على العلاقات الأسرية؛ إذ إن هذه العلاقات هي بالنسبة إلينا الأشد عطفاً وهي أكثر ما نحتاج، وهي التي تزودنا ببعض الفرص الهامة للارتقاء الشخصي. والنبي ﷺ يقول: إن الزواج نصف الدين؛ ذلك أن الرجال والنساء لا يحصلون على تمام شخصياتهم مالم يصبحوا أزواجاً ووالدين. وتأمل أيضاً في الآية القرآنية التي تقول: إن الزواج يمنح الزوجين بطريقة خاصة قدرة تبادل المحبة والرحمة، وكيف علينا أن نفكر في هذه الآية من آيات الله:

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/٢١].

إننا — آباءً وأطفالاً — نستطيع أن نجرّب المجال الأوسع من الأسماء المقدسة الحسنى بوصفنا معطين ومتلقّين، على التوالي. فعندما نبلغ منتصف العمر ونكون في الوقت نفسه آباء وأولاداً (حين يكون الأب والأم لا يزالان على قيد الحياة)، نصل نقطة ما من حياتنا تسمح لنا أن نتعلم من الله من خلال كلا المنظورين. والنصّان القرآنيان التاليان يوضحان هذه المرحلة من حياتنا:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وَبالْوالِدَيْنِ إحْساناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً ، وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّياني صَغِيراً﴾ [الإسراء: ١٧/٢٣-٢٤].

﴿وَوَصَّيْنا الإنْسانَ بِوالِدَيْهِ إحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إنِّي تُبْتُ إلَيْكَ وَإنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٤٦/١٥].

فالنص (القرآني) الأول يربط ما بين عبادة الله والعطف على الوالدين، ويذكرنا باهتمامهم ورقّتهم وتضحيتهم، ومن ثم فهم يستأهلون أقصى درجات احترامنا. في حين يرينا النص الثاني أن إكرام المرء لوالديه هو تعبير عن الامتنان والشكر لله. وهذا النص يشيد بدور الأم وذلك بسبب شدة ما تكابده من الألم والمعاناة في تنشئة أولادها.

فالإسلام يرى أن هناك انسجاماً ما بين الجسد والعقل والروح ومبادئ موحّدة تحكم هذه العناصر الثلاثة. فمدربو الرياضة غالباً ما يخبرون اللاعبين "ليس من كسب دون معاناة، No pain, no gain" يعنون بذلك أنه من أجل تطوير لياقتنا البدنية، يجب أن نملك الإرادة لكي نعاني. ويخبر المدرسون الطلاب أنه يتوجب عليهم أن يعملوا بجد لكي ينموا عقلياً. والمسلمون يفهمون أن القانون نفسه ينطبق على التطور الروحي. إن الارتقاء الأخلاقي والروحي يتطلب

ضبط الإرادة، واستخدام المرء لعقله وتطويره له، وأن يعيش المشقة والمعاناة، وهذه الأخيرة يجب ألا تثني المسلم، وذلك لقول النبي ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».[١]

الاعتراض الثاني:

إذن فنحن متفقون على أن الفضائل مثل المحبة والعطف والصدق واللطف لا يمكن برمجتها، وإذن لكي نرقى في هذه الخصال يجب أن نمتلك المقدرة على الاختيار والتعليل، وأنه لابد من مواجهة الامتحان. أليس هناك إذن مثال واضح في الطرف المقابل؟ وهل يرقى الله في هذه الخصال؟ وهل يزن الله الأمور ويختار ما بين البدائل؟ وهل يعلل الله الأشياء؟ وهل كان عليه أن يتعلم هذه الخصال؟ وهل يستطيع الله أن يجرب المعاناة؟

إن هذا الاعتراض يخلط ما بين الخالق والمخلوق، والمعطي والمتلقي، فالله الخالق يوصف بأنه الأزلي، والمطلق، والكامل، والمتجاوز حدود الزمان والمكان. ففعاليته ليس من شأنها أن تنقص من قدره شيئاً أو تزيده. فهو المصدر الدائم والحافظ لكل الوجود. وتشير أسماؤه الحسنى إلى أنه الكامل والمصدر الحقيقي الوحيد للصفات التي يتوجب علينا مضاعفة جهدنا لتلقيها وتجربتها. إنه المصدر المطلق لكل الرحمة والعطف والحكمة والحقيقة إلخ.. والتي تنساب خلال الخلق جميعاً .

فالإنسان بالتعريف مخلوق يصير ويكبر. والخلق، تبعاً للقرآن، يمر من مرحلة إلى أخرى (انظر الآيات ٥ من سورة الرعد، و٨٨ من سورة القصص، و١٠ من سورة السجدة)، ومن هنا فالإنسان، بشكل خاص، كائن متغيّر، وحقيقة أن الله لا يتغيّر هي بديهة قرآنية (انظر الآيتين ٦٢ من سورة الأحزاب، و٦٣

---

(١) في صحيح مسلم من حديث هداب بن خالد الأزدي وشيبان بن فروخ جميعاً عن سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب.

من سورة فاطر). فالله هو الأصل الوحيد لجميع الفضائل حيث إن وجوده يبرهن على وجود هذه الفضائل. والله لا يرقى في قدرته ليجرّب الرحمة، فهو الذي يمنحنا الرحمة التي نتبادلها فيما بيننا. وهو لا يزيد في الحكمة، فهو الذي يهدينا للحكمة التي تصدر عنه. وهو لا يطور قدرته، بل هو الذي يعطي القدرة للآخرين. وبعيداً عن الإتيان بمقولة مضادة، فإن وجود الله يدل على الصفات التي نسعى للوصول إليها.

لنحيا ونتعلّم

لقد رأينا كيف أن القرآن يؤكد على مقدرة التعلم عند الإنسان وقيمة الحياة التدريسية في الارتقاء الروحي والأخلاقي عند البشر. إن مسألة أن يضل الإنسان في خيارات مسيرة حياته أمر لا بد منه، ولكن الله، كما في القرآن، لا يتوقع منا أن نكون معصومين من الخطأ، وبدلاً من ذلك فقد منحنا القدرة على التعلم والاستفادة من أخطائنا. والقرآن يحذّر من مخاطر المعصية، بل يشرح أيضاً أن المرء إذا ما أدرك معاصيه وتاب منها، وآمن وعمل صالحاً بعد ذلك، فإن الله يبدل سيئاته حسنات: ﴿إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٠]. ويبدو أن هذه الآية تتضمن فكرة القيمة الإيجابية لاعترافنا بذنوبنا والتوبة منها. ولا شك أنه من الأفضل الابتعاد عن الشرور ما استطاع المرء إلى ذلك سبيلاً وعن طواعية، ولكن إذا ما خبر على نحو شخصي نتائجها المؤلمة المدمرة، فإن الحكمة والمثوبة من جراء الصد عنها تنغرسان في قلبه ووجدانه. إن حاله هو حال الطفل الذي يبتعد عن المدفأة بعد أن يكون قد اكتوى بنارها، إنه في هذه الحالة يتحاشى المدفأة ليس طاعة لوالديه بقدر ما هو ابتعاد عن ما يعرف ضمناً أنه مؤذ وضار. ويصف القرآن كيف تعلّم المصطفون الأخيار من معاصيهم الماضية، فإبراهيم عليه السلام يكتشف التوحيد من خلال سلسلة من المحاولات الخاطئة

(انظر الآيات ٧٥-٨٢ من سورة الأنعام)[1] ، وموسى عليه السلام يقتل نفساً ثم يتوب ويتعلم من ذلك (انظر الآيات ١٥-١٩ من سورة القصص)، وكذلك داوود عليه السلام يتعلم درساً هاماً يعينه على التوبة عن معصية اقترفها (انظر الآيات ٢١-٢٦ من سورة ص)، ومعاتبات القرآن للنبي محمد ﷺ لاشك أنه قصد منها توجيهه وتوجيه أمته.

والله لايطلب منا الكمال قبل أن يشملنا بعفوه، بل بالأحرى كلما ارتقينا في الصلاح والإيمان، ازدادت فرصة الاقتراب من عفو الله وأصبحت قلوبنا مفتوحة لتلقيه. وهذا هو الجهد الذي يبذله المؤمن طيلة حياته في سبيل إقامة علاقة حميمية مع الله مااستطاع إلى ذلك سبيلاً. ومادمنا في الحياة فإن ارتقاءنا الشخصي ليس له حدٌ أعلى يمكن الوصول إليه؛ ذلك أنه لايمكننا الوصول إلى مرحلة لايمكننا فيها أن نكسب من فعل الخير. والمسلم يعتقد أن العمل الذي لاخير فيه عمل غير ضروري، وأنه مهما كان عمل الخير صغيراً فإنه سوف ينفعه في هذه الدنيا ويوم القيامة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٩٩/٧-٨].

والقرآن يؤكد أن الله لا يسعى كي يحرم الرجال والنساء من فضله، بل إن الله يرغب في هدايتهم إلى ذلك الفضل، ويتعقبهم على نحو متواصل وبشكل غاضب إن هم أعرضوا عن ذلك. فالله يدعو ويذكّر ويتحدى ويناقش ويُخجل ويُغري ويهدد، والله يبتلي العاصين بالمصائب ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (انظر الآيات ١٦٨ من سورة الأعراف، ٤١ من سورة الروم، و٢١ من سورة السجدة، و٢٨ من سورة الزخرف).

---

(١) ينسب المؤلف إلى إبراهيم عليه السلام اكتشاف التوحيد عن طريق المحاولات الخاطئة وهذا غير صحيح ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان يتّبع مايسمى أسلوب التنزّل، وهو الوصول بقومه إلى التوحيد عن طريقة المحاكمة العقلية. كما أنه ينظر إلى بعض ماصدر عن موسى وداود وإلى معاتبات النبي (عليهم السلام أجمعين) على أنها معاصٍ وهذا غير صحيح[المترجم].

وأما أولئك الذين استجابوا لدعوة القرآن، فإن القرآن يقدم لهم أفضل ما يمكن وهي النصيحة الروحية العملية. فأوّلاً يجب على المرء أن يتجنب كبائر الإثم (كالقتل والزنا وخداع المسكين، إلخ..). فإذا ما تجنّب المرء هذه الآثام مع الإيمان بالله فإن مثواه إلى الجنة في الآخرة:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٤/٣١].

﴿فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٤٢/٣٦-٣٧].

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٥٣ /٣٢].

وبعد التوبة، يجب على المرء أن يحاول إصلاح نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا تحسباً من الوقوع في أي انحطاط روحي. وفي السياق نفسه، فإن القرآن يبين أن عمل الخير يعوِّض عن عمل الشر (انظر الآيات ١١٤ من سورة هود، و٢٢ من سورة الرعد، و٥٤ من سورة القصص). فالفكرة هنا أنه إذا ما حدث أن خطونا خطوة نحو الوراء، فإن علينا في الحال أن نحاول المضي خطوات عديدة نحو الأمام كي لا نُحرم التقدم. والرمز الرئيس المتعلق بالآخرة هنا هو ميزان يوم القيامة حيث توضع حسنات المرء في كفة وسيئاته في الكفّة المقابلة. فإذا ما رجحت كفّة الحسنات على السيئات، أي إذا كان المرء صالحاً بالأصل، فإن له جنة الخلد. وعلينا ألا ننسى أن الله يضاعف أجر الحسنات ولا يجزي السيئات إلا بمثلها (انظر أيضاً الآيتين ٨٤ من سورة القصص، و٤٠ من سورة غافر).

إن كل هذا يبدو أنه مبني على التجربة والاختبار؛ إذ إنه من المستحيل بالنسبة إلينا أن نقيس بدقة وإحكام درجات أعمالنا الصالحة وأعمالنا السيئة. ومهما يكن فإن القرآن لا يزودنا بمعرفة دقيقة عن الارتقاء الروحي، بل يقدم لنا نموذجاً يمكن إدراكه يعيننا على الإحاطة بذلك. فالمسلم هو أول من يعترف باعتماده الكلي على الله وبثقته برحمة الله وعطفه؛ ذلك أنه يعرف أن وجوده على الأرض له غايته وهدفه. إن هذا الإدراك يعينه على متابعة هذا الهدف، برغم أن هدف الحياة هذا ربما لا يكون واضحاً بالنسبة إليه أو ربما لا يكون هو نفسه قد شغل نفسه في مسعى منه لفهم معنى الحياة.

ويقول المسلمون: إن كان إيمانك لا يتزايد فمعنى ذلك أنه سوف يتناقص، أو ربما يكون قد تناقص فعلاً. فلو كان بمقدورنا أن نرصد خطاً بيانياً للارتقاء الروحي لشخص ما مع الزمن، فإن المسلم سوف يرى هذا الخط في انحناء مستمر بحيث يكون، في أي نقطة كانت، في صعود أو هبوط مستمر، أو ربما يكون في نقطة انعطاف حرجة. وبحسب هذا المنظور فإن الإيمان ليس حالة ثابتة، بل يجب على المؤمن أن يحترس من غفلة الانزلاق في مهاوي المنحدرات وأن يراجع باستمرار الحالة الراهنة من تقواه وورعه.

فقد يسأل مسلمٌ مسلماً آخر: "كيف حال إيمانك؟" وطبعاً ليس هناك مقياس محدد، ولكن هناك عدد من النقاط التي قد تساعد على التشخيص: فمثلاً أسأل نفسي: "هل أشعر أنني أكثر قرباً أم بعداً من الله في الصلوات الخمس التي أديتها مؤخراً؟" و"هل أتصدق بمال أكثر أو بأقل هذه الأيام؟" و "هل أشعر بطمأنينة أكبر في نفسي أكثر من الماضي أم لا؟" وبتحليلٍ نفسي كهذا يأمل المسلم أن يبقى على ما يصفه القرآن باقتحام العقبة [البلد: ٩٠/ ١١]. ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ، بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً ، فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ، وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ ، وَالْقَمَرِ إِذا اتَّسَقَ ، لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ ، فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ١٤-٢٠].

التجربة والخطأ:

غالباً ما توصف الحياة بأنها فصل دراسي عظيم، وهي البيئة القصوى للتعلم. وهذا الوصف يتوافق بشكل جيد مع القرآن. والله، وهو المعلم الأكمل، لا يزودنا بالأدوات الأساسية في التعلم وحسب، ولكنه يرشدنا كي نتعلم ونرقى من خلال البحث الشخصي أيضاً. وهكذا فالقرآن يوضح أن الله ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٩٦/٤-٥] وبرغم أن مهارة اكتساب القراءة والكتابة كانت تطوراً إنسانياً بطيئاً وتدريجياً، إلا أن الله ترك شأنها للإنسان. فتعليم الله دقيق وفعّال لدرجة أن الإنسان غالباً ما ينسب الإنجازات الفكرية كليّة لنفسه، ولذلك فالقرآن يردف: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٩٦/٦-٧].

وفي الحقيقة إن الحياة الدنيا تزودنا بشعور، لاشك مزيّف، من الاستقلال والبعد عن الله، شعور يدفعنا كي نتعلم ونطبق ما نتعلم على مايبدو لنا أنه أمر من عند أنفسنا. إن هذا أشبه ما يكون عندما يترك المعلم فصله الدراسي لكي يراقب عن بعد من خلال مرآة عاكسة لجهة واحدة ليرى كيف يتفاعل طلابه عندما يواجههم حل مسألة ما؛ ونتيجة لعدم قدرة التلاميذ للاحتكام لمعلمهم فإنهم يُرغمون على حل مسائلهم باستقلالية في حين يكون المعلم طيلة الوقت في حالة مراقبة دائمة لتقدمهم في حين يتدخل فقط عندما يرى أن ذلك ضروري. إن طريقة التدريس هذه بالغة التأثير حيث لا يوجد بديل للخبرة المباشرة.

وفي وضع كهذا فإن إحدى الطرق الرئيسة التي نتعلم من خلالها هي طريقة التجربة والخطأ. وعندما أتكلم عن التجربة والخطأ هنا فإنني بذلك لا أشير إلى الامتحانات والأخطاء التي نصادفها على الصعيد الفكري وحسب، بل على الصعيدين الروحي والأخلاقي أيضاً، برغم أن هذه الأصعدة تتداخل فيما بينها ويكمل بعضها الآخر. فعندما نرتكب خطأً ما له مضمونه الأخلاقي فإن ذلك

يصبح معصية يزداد أذاها وخطرها بإدراكنا لمدى ظلمها للآخرين (انظر أيضاً الآيتين ١٧-١٨ من سورة النساء). ولكن إذا ما تبنا وتجنبنا الوقوع بمثل تلك الأخطاء لاحقاً فإن هذه الأخطاء يمكن أن تساعد، كما رأينا سابقاً، في رقيّنا الروحي. وهكذا يصبح بمقدورنا أن نتعلم من خلال هذه الأخطاء ونرقى من خلالها. فبعدم إمكانية الخطأ أو إدراكه أو إصلاحه فإن مآل روحانيتنا إلى الركود. فالوقوع في الخطأ وإصلاحه أمر حيوي لتطورنا في هذه المرحلة الدنيوية لدرجة أن النبي محمداً ﷺ يقول فيما يرويه عن ربه: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم".[١]

والتجربة الدنيوية هي وصفة أخرى رئيسة للخطة المقدسة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ [البقرة: ٢/١٥٥]، و ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٤]، و﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٦]، و ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ﴾ [المائدة: ٥/٤٨]، و ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٥/٩٤]، ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤٧/٤]. فالقرآن يوضح أن الله خلق الكون بأكمله من أجل أن يختبر الإنسان (انظر الآية ٧ من سورة هود)، وأن الله خلق الموت والحياة على الأرض للغاية نفسها (انظر الآية ٢ من سورة الملك). ولأن هذه الاختبارات لا يمكن بحال من الأحوال أن تزيد أو تنقص في ملك الله، فلابد أن الله جعلها من أجل صفائنا الفكري والروحي، وبذلك فإن الكون ووجودنا فيه قد صُمما لإنتاج هذا الامتحان وهذه الفرصة من التعلم.

ويُصوّر القرآن يوم القيامة (انظر الآية ٤ من سورة الفاتحة) على أنه اللحظة التي ندرك فيها نتائج سعينا. وتصوير القرآن لها ذو صيغة أكاديمية لا تخيب، فهو تصوير يشبه نهاية الفصل الدراسي أو يشبه يوم تخرّج في حرم كليّة جامعية.

---

(١) في صحيح مسلم من حديث محمد بن رافع حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن جعفر الجزري عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة.

فعند ذلك يتميّز البشر إلى ثلاث طبقات (انظر الآيات ٧-٥٦ من سورة الواقعة): فالسابقون في الإيمان هم الذين تفوّقوا في استسلامهم إلى الله وهم المقرَّبون منه. وأصحاب اليمين هم الذين عملوا من الخير في هذه الدنيا ما يمكّنهم من دخول الجنة، ولكنهم لا يصلون إلى درجة الامتياز التي يحظى بها السابقون. وأما أصحاب الشمال فهم الذين أخفقوا في اختبار الحياة الدنيوية، وهم الذين سوف يلقون العذاب في الآخرة. وأما سجلات الأعمال كلها، صغيرة كانت أم كبيرة، فإنها سوف تعلن على الملأ. وأما العاصون فسوف يُقذف في قلوبهم الرعب في تلك الأثناء عندما يستشعرون مصيرهم (انظر الآية ٤٩ من سورة الكهف). فوجوه الذين أخفقوا في هذه الحياة سوف تكون خاشعة وعاملة وناصبة، في حين تكون وجوه الذين اجتازوا اختبار الحياة بنجاح مبتهجة وفرحة (انظر الآيات ١-١٦ من سورة الغاشية). والناجحون سوف يؤتون سجل حياتهم الدنيا (كتابهم) بيمينهم، وسوف يُرُونه بمرح وسرور للآخرين؛ وأما الراسبون الذين استولى عليهم الحزن والحرج فسيُؤتَون كتابهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم (انظر الآيات ١٩-٣٠ من سورة الحاقة و١٠ من سورة الانشقاق). فعندما يُمنح الناجحون سجلهم بيمينهم سوف ينصرفون مسرورين إلى أهليهم ليروهم ذلك، وأما الراسبون فسوف يدعون ثبوراً (انظر الآيات ٧-١١ من سورة الانشقاق).

إن هذه التوصيفات قد حفرت عميقاً في ضمائر المسلمين الذين غالباً ما يقرنون الحياة بمسألة التحضير للامتحان. وفي حين أن هذه الصورة يستطيع أن يفهمها المحنك والساذج على حد سواء، فإن المسلم يفهمها كالآتي: إن الحياة تقدم لنا سلسلة متواصلة من الاختبارات، وإن نجاحنا أو إخفاقنا الكليّين في الاستجابة لها سوف يترجم إما إلى حالة من السعادة وإما إلى حالة من الشقاء في الآخرة. وهذا يدعم وجهة النظر القائلة بأن الحياة الدنيا هي إحدى مراحل خلقنا التعليمية والتطويرية.

المعصية على انها تحطيم للذات:

إذا كانت غاية الحياة هي الارتقاء في الفضائل التي تصل درجة كمالها في الله بحيث يمكن لنا أن نتلقى ونستشعر صفاته إلى أقصى درجة ممكنة، أي بمعنى أن نصبح أقرب إلى الله، وإذا كانت الأعمال الصالحة تدفع في سبيل هذا الارتقاء والأعمال السيئة تنقص من قدره، فإن ما سوف يتبع، كما لاحظنا، هو أن الذي سوف يلقى الربح الأعظم أو الخسارة القصوى من عمل الخير أو فعل الشر هو الفاعل نفسه. وهذه الفكرة قد عبَّر عنها القرآن بشكل واضح في العديد من الأماكن، ولنذكر على سبيل المثال:

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ ، ذَلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ٣ /١٨١-١٨٢، والأنفال ٨/٥١].

﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ٦/١٠٤].

﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٢٧/٩٢].

﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦].

﴿إِنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٣٩/٤١]. (انظر أيضاً الآيات ١٠٨ من سورة يونس، و١٥ من سورة الإسراء، و٩٢ من سورة النمل).

فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تقول: إن قلب من يعمل السوء (أي حسه الروحي والأخلاقي) يصبح أسود ومغلفاً وقاسياً، ومن ثم لا يمكن للإيمان أن يبلغه، وأن قلوب من يعمل الفضيلة تصبح مصقولة ورقيقة ومتلقية لنور الله

الهادي تخطر في البال سريعاً[1] . والآيات القرآنية التي تؤدي هذه الفكرة بأكبر قوة هي تلك التي تؤكد بأن العاصين إنما يدمرون أنفسهم بآثامهم، وبأنهم يرتكبون الظلم (المعصية، الجور، الضرر، الإجحاف، الطغيان) بحق أنفسهم:

﴿وَما ظَلَمُونا وَلَكِنْ كانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٥٧، والأنفال ٧/١٦٠].

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٩، والطلاق ٦٥/١].

﴿وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/١١٧].

﴿ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٩/٧٠، والأحزاب: ١٦/٣٣، والعنكبوت: ٢٩/٤٠، الروم: ٣٠/٩].

﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١١/١٠١].

﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

ومن هنا فالمعصية في الواقع هي شكل من أشكال تحطيم الذات، وعندما نرتكبها فإننا نجور على أنفسنا ونظلمها، وذلك بأن نحرمها من الارتقاء الروحي ونمنعها مما هو خير وأبقى. وكما رأينا سابقاً، وكما تقول الآية الأخيرة [الزمر: ٣٩/٥٣] فإن الضرر الناجم عن ظلم النفس ليس بالضرورة أن يكون أبدياً؛ ذلك أن الطريق لإصلاحه يبقى مفتوحاً. وإصلاح النفس يتضمن التوبة والإقلاع عن الذنوب، ويجب ألا يغيب عن أبصارنا أهم العناصر جميعاً وهو مغفرة الله.

---

(١) من حديث ابن ماجه والترمذي كما جاءت ترجمتها في هدي من الرسول لمظهر القاضي (جامايكا، ن ي: مطابعICNA ، ١٩٩٠م)، ص ٨٤. وانظر على سبيل المثال الآيات ٧٤ من سورة البقرة، و١٣ من سورة المائدة، و ٨٧ من سورة التوبة، و ٥٧ من سورة الكهف، و ٤٦ و٥٤ من سورة الحج، و ٨٩ من سورة الشعراء، و ٥٣ من سورة الأحزاب، و ٢٣ من سورة الزمر، و ١١ من سورة التغابن، و ١٤ من سورة المطففين.

فعندما يغفر الله لنا فإنه يقوم بأكثر من مجرد تجاهل ذنوبنا أو محوها، فالله يستجيب لأوبتنا ويهب لمساعدتنا (انظر الآية ٣١ من سورة آل عمران)، والله يعيننا على إصلاح الأذى الذي جنيناه على أنفسنا (انظر الآية ٧١ من سورة الأحزاب)، ويأخذ بأيدينا للتجديد الروحي (انظر الآية ٢٨ من سورة الحديد). وفي القرآن نجد أن الاسم المقدس (الغفور) يقترن على الغالب بـ (الرحيم)، ومن هنا فإن مغفرة الله تتضمن الحنو على التائب بالعطف، وهذا ما يدمل جراح النفس. فالفعل (تاب) (بمعنى رجع أو اتجه إلى مصدره (توب) يطالعنا بالتركيب الكيميائي بين التوبة والمغفرة، لأن هذا الفعل مع حروف متعددة ليصف التوبة والمغفرة في القرآن. فعندما نتوب، فإننا نتوجه إلى الله تائبين طالبين رحمته وعونه فيتوجه إلينا برحمته وعطفه ومغفرته. والله يوصف بالتوّاب، أي الذي يتوجه للآخرين. فمغفرة الله هي استجابته للعاصي، كما جاء في قول النبي ﷺ : إن من أتى الله مشياً أتاه هرولة. فالمبادرة إذن يجب أن تأتي من العاصي، والخطوة الأولى نحو الصلاح هي الاعتراف بالذنب؛ لأنه يتوجب علينا أن ندرك ونعترف بخطأ سلوكنا ونقر بحاجتنا إلى عون الله لكي نبدأ بالتعافي والعودة إلى الوضع السوي. إن هذا يشبه ما يقوله مستشارو منظمة معالجة المدمنين (Alcoholics Anonymous counselors) للعائلات البائسة من مدمني المخدرات: ما لم يعترف المدمن أن لديه مشكلة، وأنه يحتاج للمساعدة، فلا أحد يستطيع إصلاحه.. فالصدق هو المفتاح هنا. والتعافي من المعصية هو في الغالب عملية مضنية وشاقة، يعين على أدائها تدخل عفو الله ومغفرته. فهي تعني البدء بعملية التوبة واختبار آلام الارتقاء ثانية، وتتطلب العمل والجهد. وهي ليست لحظة فردية، أو تركيبة من شأنها أن تصلحنا بين عشية وضحاها، ولكنها التزامنا الصادق كي نعيد توجيه حياتنا ونحسّن من أنفسنا. وهكذا فالقرآن يوضح أن التوبة في اللحظات الأخيرة من العمر هرباً من عذاب الآخرة لا تجدي نفعاً؛ لأن الباعث على هذه التوبة ليس الرغبة الصادقة في الإصلاح حيث لا يبقى في مثل هذه الحالة متسع من الوقت لتحسين النفس وإصلاحها:

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ [النساء: ٤/١٨].

وفرعون (موسى عليه السلام) يزودنا بحالة من هذا الطراز:

﴿وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائِيلَ وَأَنا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ١٠/٩٠-٩١].

فتوبة كهذه يقوم الإنسان بها في اللحظات الأخيرة من العمر هي ليست فقط عبثية وتدل على نقص في فهم غاية الحياة والتوبة، بل إنها لتزيد من جريمة العاصي؛ لأنها تثبت أن ذلك العاصي كان يدري دوماً بوجود الله، أو على الأقل بإمكانية وجوده، ولكنه فضَّل العيش بحياة أنانية مدمرة بدلاً من البحث عن علاقة مع الله:

ثلاث آيات

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً﴾ [نوح: ٧١/١٤]. إن القرآن يقدم ثلاث حالات مترابطة من القياس، وهي تحمل مغزى عن معنى وجود الإنسان الدنيوي، وهذه الحالات هي **الحياة في الرحم – الحياة على الأرض، والولادة – البعث، والموت – النوم.**

الحياة في الرحم – الحياة على الأرض: ويوازن القرآن بين مرحلتين من خلقنا، وهما مرحلة التطور ما قبل الولادة، ومرحلة نضجنا بعد الولادة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٢-١٦].

﴿يا أَيُّها النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْها الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٢٢/٥]. (انظر أيضاً الآية ٦٧ من سورة غافر).

﴿ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ، أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ، ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٧٥/٣٥-٤٠].

فهذه الموازنة تقودنا لعدد من التبصرات الهامة، ففي حين أن نموّنا ما قبل الولادة نموّ جسدي بالدرجة الأولى، فإن تطورنا الدنيوي هو بشكل رئيس تطور أخلاقي وروحي. وفي حين أن ولادتنا في هذه الحياة توضح بشكل كامل نضجنا الجسدي في الرحم، فإن بعثنا في الحياة الآخرة يوضح بشكل كلي أيضاً نضوجنا الروحي الحالي بطريقة قياس موضوعية. ومن هنا فإننا نجد توصيفات رمزية ليوم القيامة تشير إلى أن أعمالنا الروحية على هذه الأرض سوف تتضح من خلال وجودنا ذاته في الحياة الآخرة. فأعمالنا عندئذ سوف تثبَّت في أعناقنا (انظر الآيات ١٣ من سورة الإسراء، و٣٣ من سورة سبأ، و٨ من سورة يس). وأما ألسنتنا وأيدينا وأقدامنا فسوف تشهد على أعمالنا (انظر الآيتين ٢٤ من سورة النور، و٦٥ من سورة يس)، وسوف نأكل من ثمرات أعمالنا (انظر الآيات ٣٩-٦٨ من سورة الصافات)، ومن عميت روحه في هذه الدنيا فسوف يحشر أعمى في الآخرة (انظر الآية ٧٢ من سورة الإسراء)، وأما الذين عاشوا في نور الله في هذه الدنيا فسوف يسعى نورهم بين أيديهم يوم القيامة (انظر الآيتين ١٢ من سورة الحديد، و٨ من سورة التحريم). فكل عمل نقوم به في الدنيا سوف يظهر تأثيره في الآخرة (انظر الآيتين ٧-٨ من سورة الزلزلة).

ومن المهم أن نلاحظ أن خلقنا لا يصوّر على أنه لحظة عابرة في الزمان، بل هو لحظة تتطور على مراحل. فتطورنا الجسدي في الرحم (كمرحلة أولى) من شأنه أن يهيئنا للتطور الروحي في المرحلة التالية، وهذه المرحلة بدورها سوف تحدد حالة صيرورتنا ونحن ندخل الحياة الآخرة .هل سيكون هناك فرص تطور إضافي في الحياة الآخرة؟ ربما، فالقرآن يطلب من المؤمنين أن يدعو رهم ﴿رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا﴾ [التحريم: ٦٦/٨].

ومن الأقوال الأمريكية الشائعة قولهم: "إنك ما تأكل،" بمعنى آخر، إن نظام غذاء المرء يؤثّر بشكل كبير على صحته الجسدية. والمسلم بدوره قد يطور هذه المقولة إلى حقيقتين بدهيتين هما: "إن ما تعمله في هذه الحياة يحدد نوعك بصفتك شخصاً" و "في اليوم الآخر، يوم البعث، سوف تكون حسب ما تقوم به من عمل الآن".

الولادة–البعث: ﴿وَيَقُولُ الإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ، أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسانُ أَنّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ [مريم: ١٩/٦٦-٦٧]. والقرآن يحتوي على إشارة مثيرة للاهتمام إلى الميتتين اللتين سوف يذوقهما كل فرد منا: ﴿قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا﴾ [غافر: ٤٠/١١]. ولقد شعر بعض مفسري القرآن أن الموتة الأولى تتوافق مع إنهاء حالة الوجود عند الحمل، ولكن هذا تفسير متكلّف إذ إنه من الطبيعي أن يسبق الموت حالة من الحياة. ويعتقد مفسرون آخرون أن الموتة الأولى تتمثل في إنهاء حالة الحياة في الرحم عند لحظة الولادة، وهذا التفسير أكثر معقولية، وخاصة مما تبين في ضوء الآيات التي ذُكرت آنفاً، وكذلك مما يعرفه علماء الأجنة الآن عن البون الشاسع ما بين الوجود داخل الرحم والوجود ما بعده (لدرجة أن نظام دوراننا يعكس نفسه بعد ثوان من الولادة!). إن وجهة النظر هذه تؤيد الموازنة الأخيرة؛ ذلك أن كلتا الموتتين هي حالة من التحول إلى مستويات أخرى من الوجود ترتبط بمراحل تطورنا السابقة .

إن كلتا حالتي التطور في الرحم وفي الحياة، والنهايتان المتوافقتان لهاتين المرحلتين تتضمنان الألم والمعاناة. فالأم بلا ريب تكابد الألم والعذاب خلال فترة الحمل، ولكن هذا الألم يكون أشد بكثير عند الولادة. ولاشك أن الجنين بدوره يمر بمرحلة شديدة من المعاناة عند الولادة. ولكن ما هو رائع هنا أنه وبعد دقائق من الوضع تبدو الأم، والطفل بدرجة أكبر، وكأنهما نسيا العذاب المرير الذي مرّ به كل منهما للتو. وأتذكر كم جهدت وعانيت بعد ولادة كل من بناتي، وكيف تعافت زوجتي وبناتي بعد ذلك برغم الألم الشديد الذي مرّت كل منهن به. ويبدو أن بناتي لا يتذكرن شيئاً من محنة الولادة تلك وما بعدها. وربما يكون في ذلك آية أو حكمة تتعلق بأولئك الذين يدخلون الجنة في الحياة الآخرة. هل سيبدو لهم فجأة كل عنائهم الدنيوي وشقائهم وكأنه كان مجرد سراب أو حلم برغم أن كل ذلك كان حقيقة واقعة؟ ربما يكون الحال كذلك كما توحي به الموازنة التالية.

الموت–النوم: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْها الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢/٣٩]. ولحظة البعث كما يصورها القرآن هي أشبه ما تكون بالنهوض من نوم عميق. فنفخة في الصور سوف تبعث من في القبور (انظر الآية ٧٣ من سورة الأنعام)، والكافرون سوف يهرعون من أجداثهم التي يصفها القرآن بـ(مرقدهم) بهلع ورعب. وسوف يصعق الناس ويغمى عليهم (انظر الآية ٦٨ من سورة الزمر)، وسوف يفقدون الوعي، وستبدو لهم الحياة الدنيا على أنها لم تكن سوى مجرد سراب أو وهم (انظر الآية ٨٨ من سورة الرعد)، تماماً مثل حالة المرء الذي يتذكر حلماً، إذ إن تفاصيل الحلم لابد أن تكون ضبابية. ولسوف يضطرب البصر وتختلط الرؤيا كما لو أنه قد نهض من نومه لتوّه (انظر الآية ٧ من سورة القيامة)، ثم يحد البصر ويشتد فيتبيّن الواقع الذي آلوا إليه (انظر الآية ٢٠ من سورة ق). ويبدو أن الصالحين لن يتذكروا إلا النذر اليسير عن صراعاتهم في الحياة الدنيا، ولن يذكر المغضوب

عليهم إلا القليل القليل عن ملذاتهم الدنيوية. والحديث المشهور عن الرسول ﷺ في هذا المجال قوله: "يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط".(١)

ومن هنا فإن حياتنا على الأرض سوف تبدو كالحلم، فكل الآلام التي عانيناها والصراع والعذاب الذي كابدناه لفترات طويلة لن يكون سوى مجرّد ذاكرة قصيرة وبعيدة وغامضة، شيء أشبه ما يكون بحالة من يستيقظ بعد كابوس. فالحلم المزعج يكون حقيقياً عندما نعيشه، ولكننا عندما نستيقظ نشعر بالارتياح الآني؛ لأننا عند ذلك ندرك واقعاً أعظم. ويبدو أن بعث المؤمن سوف يكون تجربة مشابهةً إلى حد ما، ولكنها أشد وقعاً بكثير. فحياتنا الدنيوية جميعاً ليست أحلاماً أو أوهاماً، لكن ما نمر به واقعي جداً، ونتائج أعمالنا سترتسم على أرواحنا، وستكتب وتحصى على وجودنا، ولكن، وبرحمة الله، فإن المشقة التي كابدها المؤمنون الصادقون (في الحياة الدنيا) سوف تمحى من تذكّرهم (انظر الآية ٣٥ من سورة فاطر). إن المؤمنين الصادقين، مثلهم مثَل الطفل الوليد، ينسون وجودهم السابق برغم أنهم يحملون معهم إلى الحياة الآخرة تطورهم الأولي.

﴿إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦]: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/١٦٢]. إن مفهوم الإسلام في العبادة يكمّل وجهة نظر الإسلام في الحياة. أذكر محادثة جرت بيني وبين صديقة لنا منذ

(١) من صحيح مسلم في صفة القيامة و الجنة، وكذلك في رياض الصالحين للإمام النووي، النسخة المترجمة لمحمد ظفر الله خان، ص ١٠٣.

وقت ليس بالبعيد سألتني: "كيف يمارس المسلمون عبادتهم؟" أخبرتها بأننا نذهب إلى العمل من أجل كسب العيش لنا ولأسرتنا، ونحضر فعاليات المدارس التي يشترك فيها أطفالنا، وإذا ما عملنا حلوى في البيت فإننا نهدي قطعة منها لجيراننا، ونصحب أطفالنا إلى المدرسة كل صباح في السيارة.

قالت: "كلا، كلا، كيف تعبدون الله؟".

قلت: إننا نحب أزواجنا، ونلقي التحية على من نصادف في الشارع بابتسامة، ونعين أطفالنا على أداء واجباتهم المدرسية، ونبقي الباب مفتوحاً للشخص الداخل من ورائنا لمكان ما.

قالت شارحة: "أقصد العبادة، العبادة".

سألتها: ماذا كانت تقصد بالضبط؟

قالت بإصرار: "أقصد الشعائر".

أجبتها بأننا نمارس الشعائر أيضاً، وأن هذه الشعائر تشكّل جزءاً هاماً من عبادة المسلم. لم أكن أحاول إحباطها، ولكنني أجبتها بتلك الطريقة كي أشدد على مفهوم الإسلام الشامل في العبادة.

وقد حدّث النبي ﷺ أصحابه قائلاً: "كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس" فبهت الصحابة (رضي الله عنهم)، إذ كيف يمكن للمرء فعل عدد كبير من الصدقات كل يوم، فأردف النبي قائلاً: "تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، قال: والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة[١]".

---

(١) في صحيح مسلم، باب الزكاة، في رياض الصالحين للإمام النووي، النسخة المترجمة لمحمد ظفر الله خان، ص ٥٩.

وغالباً ما تترجم كلمة (صدقة) إلى الإنجليزية بـ (charity) أي (إحسان) وهي مشتقة من الجذر نفسه في العربية لمصطلح (الصدق) أي أن تكون صادقاً ومخلصاً، ومن ثم فإنها تعني عمل يقين أو إخلاص نحو الله، ومن هنا فإن فعل الصدقة بالنسبة إلى المسلم شكل من أشكال العبادة. وفي مناسبات أخرى قال النبي ﷺ للصحابة: «بأن تبسمك في وجه أخيك صدقة، وإطعام الطعام صدقة» وفي بضع أحدكم صدقة" فاستعجب الصحابة من هذا لأنه يتضمن رغبة حسيّة، "فقالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟"، فقال لهم النبي "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟" فأجابوا بنعم فقال: "فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر[1] ".ثم إن الصحابة سألوا النبي ﷺ يوماً عن أي العمل في سبيل الله أفضل؟ فأجابهم في مناسبات متفرقة أن الجهاد في سبيل الله، وكلمة حق عند سلطان جائر، وإكرام الوالدين وبخاصة في الشيخوخة، وولادة المرأة لطفلها (وإن ماتت في ولادتها كانت من المؤمنات الصادقات) كلها تعد من أفضل الأعمال.

فكل لحظة من لحظات الحياة تقدم للمسلم فرصة جديدة للعبادة، وهو بدوره يطمح ليجعل من حياته الدنيوية نموذجاً للعبادة المستمرة، كما جاء في الآية القرآنية ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣/٦]، وهذه الفكرة محفورة بعمق في شخصية المسلم. وهكذا نجد المؤمن يكرس حتى أبسط أفعاله من أجل الله بصيغة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. فمن سائق عربة مصري يريد أن يدير مفتاح سيارته، إلى أم مغربية تمد يدها لتحمل طفلها الباكي، إلى عامل باكستاني يرفع كوب الماء إلى شفتيه كي يشرب، فالكل يقول ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. فكل عمل صحي ونافع يمكن له أن يكون شكلاً من أشكال العبادة لله، وكل عمل صالح يقوم به المرء يحاول فيه جاهداً الاستسلام لله يمكن أن يصبح لحظة من لحظات الإيمان بالله.

---

(١) المصدر السابق.

فالمؤمن يعرف أن طمأنينته الداخلية وسعادته ورقيه وازدهاره كل ذلك ينسجم مع مستوى درجة الخضوع لله، التي يمكن أن يصل إليها هذا المؤمن. وعلى هذا تصبح العبادة بالنسبة إليه مترادفة مع فعل العمل الصالح، ومن ثم، وفي المحصلة النهائية، كل ما يجر النفع الشخصي يصبح عبادة.

إن العديد من الباحثين الغربيين في الإسلام (من غير المسلمين) قد اعترض على الآية القرآنية ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦] حيث رأوا فيها نرجسية كبرياء وحسد مطلقين، وهذه تعد أسوأ جانب من جوانب تصوير العهد القديم لله. ومع ذلك فالمسلم الذي يمتلك الفهم عن غاية الحياة، وكذلك هذا المفهوم العام عن العبادة سوف يقرأ هذه الآية القرآنية نفسها ويجيب قائلاً: " أجل صدق الله فأي غاية في الحياة بعد ذلك سوى عبادة الله؟".

اسئلة إضافية

لقد سافرنا بعيداً في رحلتنا هذه، ومع ذلك وبطريقة ما ربما لم نكن بحاجة إلى الشروع في هذه الرحلة أصلاً. ولكننا، مثل شخصيات الأفلام، علينا أن نغامر لكي نكتشف أن مفتاح السعادة هو داخل أنفسنا. ويرى العديد من الذين اعتنقوا الإسلام مؤخراً أن الإسلام دواء ناجع وطبيعي لدرجة أنهم يسألون أنفسهم: لماذا لم يفهموا ذلك قبل إسلامهم ومن ثم لماذا تأخروا في إسلامهم؟

رأينا كيف يبيّن القرآن أن الحياة الدنيا مرحلة أساسية في خلقنا، وهي تمثّل مرحلة تعلم نستطيع من خلالها أن نطوّر خصالنا الروحية والفكرية، ونزيد من قدرتنا على التعلم والتلقي، ونتمثل صفات الله بحيث نستطيع من خلالها الدخول في علاقة حب معه لا يمكن أن تدانيها أي علاقة في الوجود. ولاحظنا أن عقل الإنسان وخياراته وآلامه هي المواد الأساسية في هذه المرحلة، وأن علاقتنا مع الآخرين مرتبطة بشكل عضوي بعلاقتنا مع الله. وعرفنا كيف أن أخطاء البشر ومعاصيهم وتوبتهم جميعاً مع مغفرة الله وتأثيره المستمر والواسع

جميعها تساعدنا في رقيّنا وتطورنا. فبالنسبة إلى العديد منا فإن معظم الاعتراضات التي أثرناها في البداية قد ذابت في طريق الرحلة هذه، وبرغم أنه ما يزال لدينا بعض الأسئلة التي لم تتم الإجابة عنها، فسوف ندرك أن هذه المواضيع ناجمة عن قدرتنا العقلية المحدودة، وعجزنا عن أن نفهم الحقيقة الماثلة أمام أعيننا، وأنه إذا ما أعطينا الوقت الكافي للتفكير ودراسة القرآن فقد نكون قادرين على إيجاد الأجوبة المرضية والمقنعة.

لم تشارف رحلتنا على الانتهاء بعد، وأما تتمة الكتاب فهي رؤية المؤلف من خلال مشاطرته بقية الرحلة إلى الإسلام في أمريكا. وفي الطريق سوف نأتي على القرار الذي لابد منه والذي يطالبنا القرآن باتخاذه. وبعد ذلك سوف نناقش أركان الإسلام الخمسة، والدفع الذي تعطيه هذه الأركان إلى أولئك الذين اتخذوا قرار اعتناق الإسلام. وسوف نقابل أيضاً المؤمنين بالله والامتحانات التي يستطيعون من خلالها اختبار صدق الآخرين حيالهم. وأخيراً سوف ننظر نظرة خاطفة على مستقبل المسلمين في أمريكا. ولكن وقبل أن نتابع المسير سوف نفكر في بعض الأسئلة التي تتعلق بنظرية العدل الرباني، الثيوديسيا (theodicy)[١] ، والتي غالباً ما يثيرها بعض المسلمين المعاصرين وغير المسلمين ممن يهتمون بالإسلام. وقد اخترت تلك الأسئلة التي غالباً ما أسأل عنها. والإجابة على هذه الأسئلة نتائج طبيعية لما قد اكتشفناه للتوّ، في حين تتطلب بعض الأسئلة الأخرى نظرة جديدة على القرآن من زاوية مختلفة. وبعض هذه الأسئلة تمت مناقشتها في مكان آخر[٢]. وسوف أعيد هنا ما قد كتبته هناك، والسبب في تضمينها هنا هو لإكمال الدراسة .

---

(١) (Theodicy) الرباني أو اللاهوت الغيـبـي). أصل الكلمة مشتق من الإغريقية (thoes+dik) والتي تعني عدالة + الإله، وهي فلسفة أو نظام من شأنها تبرير صفات الله المقدسة والتي تبرر عدالة الله في خلقه للشرّ المادي منه والمعنوي. أول من استخدم المصطلح هو الفيلسوف الفرنسي ليبنز (Leibniz) عام ١٧١٠م في عنوان كتاب له.[المترجم، عن قاموس أوكسفورد الكبير].

(٢) انظر كتابي الصراع من أجل الإيمان.

فيما يتعلق بالقدرة الكلية:

إذا كان الله كلي القدرة (على كل شيء قدير) فهل يمكن له أن يصبح إنساناً، أو ينهي وجوده، أو أن يكون غير عادل، أو يخلق حجراً ثقيلاً جداً بحيث لا يستطيع هو أن يحركه؟ إن هذه الأحاجي أو الألغاز السخيفة غالباً ما تنشأ عن طرح افتراضات متناقضة وغير ضرورية حول بعض صفات الله، أو نسبة بعض الصفات الإضافية غير الجائزة له (سبحانه وتعالى). فعلى سبيل المثال إن مفهوم القرآن عن قدرة الله الكلية ليس مقولة أن الله يستطيع فعل أي شيء اعتباطي على الإطلاق، برغم أن ذلك يتحدى جميع قوانين الحقيقة المنطقية. وبدلاً من ذلك يوضح القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (انظر الآيات ٢٠ من سورة البقرة، و٢٩ من سورة آل عمران، و١٧ من سورة الرحمن، و١٧ من سورة الأنعام، و٧٧ من سورة النحل، ١ من سورة الملك)، ومن هنا فإنه من المستحيل لشيء مخلوق أن يوجد خارجاً عن نطاق قدرة الله أو مستقلاً عنها، مثل حجرة كبيرة لا يمكن تحريكها.

فالخلق هو أمر خاضع لصفات الله ومنسجم معها. ففي حين أن الله يفعل ﴿ما يَشاءُ﴾ (انظر الآيات ٢٥٣ من سورة البقرة، و١ من سورة المائدة، و١٠٧ من سورة هود، و١٤ من سورة الحج) فإن ما يشاؤه الله ليس أمراً اعتباطياً أو تكبّرياً، بل متوافقاً مع أسمائه الحسنى. ومن هنا فإن القيام بأعمال سخيفة أو غبية أمر لا يليق بكمال الله. وعلى نحو مماثل فإن صفاته لا يتعارض بعضها مع بعض. فإذا كانت القدرة الكلية تتضمن القدرة على أن يصبح إنساناً، أو ينهي حياته، أو أن يكذب، أو أن يكون ظالماً، فإن اسمه (جل جلاله) **القدير** سوف يكون عندئذ متعارضاً مع أسمائه الحسنى **الصمد** و**القيوم** و**الحق** و**الحكيم**. ولذلك فإن الإجابة على كل من الأحاجي الواردة أعلاه هو أن مفهوم القرآن عن القدرة الكلية لله لا يتضمن مثل تلك الأفعال.

ومشكلة القضاء والقدر تتضمن مكائد مشابهة ولكنها أكثر دهاءً ومنطقية، وهذه ناجمة عن افتراض وجود قيود زمنية على الله.

القضاء والقدر

إن مفهومي الزمن والخلود وعلاقتهما مع الله كانا موضعي جدال فلسفي شديد خلال تاريخ الديانات. وهذا ما يفيض محمد إقبال بالحديث عنه في كتابه (**إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام**)[1] ، والذي يحاول فيه إيجاد تفسيرات جديدة تتوافق مع الفكر الحديث ومع مصادر العقيدة الإسلامية. ولقد لاقت هذه المحاولة الكثير من الثناء من قبل الكثير من العلماء المسلمين وغير المسلمين، برغم اختلاف كلا الطرفين معه حول جدوى أفكاره. يقول إقبال: إنه يجب علينا ألاّ نستهين بأهمية هذه المحاولات حيث إن العديد من المتناقضات اللاهوتية نابعة من فهمنا لهذه المفاهيم. فمن جهة، لا نستطيع إلاّ أن ننسب الزمن إلى الله مادامت الكتب المقدسة تفيد بذلك. ومن جهة أخرى، يجب أن ننبه أنفسنا إلى القصور الكامن في فهمنا.

إن أكبر التعقيدات تنشأ عندما ننسب في تعاملنا مع الزمن بعض القيود الإنسانية إلى الله. فما دام أن الله يتجاوز حدود المكان فمن الطبيعي ألاّ نربط بينه وبين تحديدات مكانية أو فضائية. فمثلاً علينا ألاّ نقول حرفياً إن الله ينـــزل إلى الأرض أو يمشي في الحديقة، وبالمقابل علينا ألا نصرّ أن الله كائن له ثلاثة أبعاد، وأنه يسافر من نقطة إلى أخرى في الفضاء. وبالطريقة نفسها علينا ألا نلح بالقول: إن الله له ماضٍ وحاضر ومستقبل، ذلك أن هذا يعني أن وجوده، كوجودنا، هو **ضمن حدود الزمان**؛ وهذا – من ثم — يتعارض مع سموّه المطلق. وحتى أكثر الناس غلواً في الإلحاد، في محاولة منه لإثبات عدم منطقية مفهوم الله، لن يفترض أن الله قد يستقل حافلة من مدينة إلى أخرى؛ لأن هذا الملحد يدري

(١) محمد إقبال: إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام مقدمة The Reconstruction of Religious Thought in Islam، (لندن: دار محمد أشرف للطباعة ١٩٨٢م).

تماماً أن فكرة كهذه لا يمكن لأي مؤمن أن يقبل بها. وبالقدر نفسه من الخطأ الافتراض أن كينونة الله أو وجوده محصور بنقطة أو فاصل زمني محدودين.

ويصعب قليلاً قبول فكرة أن معرفة الله يمكن أن تضم في الوقت ذاته نقطتين مختلفتين في الفراغ. وهذا ربما عائد لاعتقادنا بـأن صفة تجاوز الفراغ تتضمن موقع الأفضلية المميّزة الذي تستطيع أن ترى من خلاله دون أن يراك أحد (vantage point) ونستطيع مقارنة هذه الحالة، حسب تصورنا الناقص، بخبرة كون أحدنا عالياً فوق الأرض، ويعلم في الوقت نفسه بالأحداث في كل مكان. وعلى عكس الفراغ، فإننا لا نستطيع الحركة مع الزمن، أي إننا لا نستطيع أن نسافر مع الزمن إلى الوراء أو إلى الأمام. فعندما نقول بعد ساعة من الآن فإننا نعني بعد ساعة من الآن وهذه حقيقة لا يمكن تغييرها. لذلك يكون من الصعب جداً فهم أن مسألة وجود الله هي مستقلة عن الزمان أو خارج حدوده، كما هو الواقع بالفعل؛ لأنه يستحيل علينا أن نصدّق أن وجوده محصور ضمن أبعاد الزمان والمكان اللذين خلقهما هو لنا كي ننمو ونرقى فيهما. ومرة أخرى أقول إنه بسبب موقع الأفضلية المميّزة لله فإن علمه يحيط بكل الأحداث بغض النظر عن أبعاد هذه الأحداث سواء في الزمان أو المكان.

وهناك نقطة أخرى رئيسة وهذه مثبتة بشكل جيد في القرآن، وهي أن إدراكنا للزمن ليس صحيحاً من الناحية الموضوعية. فعلى سبيل المثال يوصف يوم القيامة على أنه يخص نظاماً مختلفاً من الزمن، وفجأة نفهم من هذا النظام أن تصوراتنا السابقة عن الزمن لم تعد صحيحة و لم تكن[أصلاً] مطلقة:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾ [النازعات: ٤٦/٧٩].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ﴾ [يونس: ٤٥/١٠].

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٢/١٧].

﴿يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً﴾ [طه: ١٠٣/٢٠].

﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ [طه: ٢٠/١٠٤].

﴿قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ، قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعادِّينَ ، قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٢-١١٤].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذَلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٣٠/٥٥].

فالمفسرون يرجعون دوماً جميع الإشارات إلى يوم القيامة في صيغة المستقبل؛ لأنه من منظورنا أن يوم القيامة سوف يحدث في المستقبل. ولكن في الحقيقة هناك عدة نصوص تستخدم الزمنين الماضي والحاضر للإشارة إلى يوم القيامة. ويؤكد المعلّقون أن هذا أسلوب أدبيّ يشدّد على أن هذه الأحداث لا بدّ واقعة. إن استخدام صيغتي الحاضر والماضي في الإشارة إلى يوم القيامة يدعم فكرة أن يوم القيامة سوف يحدث في بيئة مختلفة جداً لن تنفع فيها تصوراتنا الحالية عن الزمان والمكان. إن فكرتنا عن الزمان زائفة ويظهر هذا أكثر إذا ما قارنّا بين ما يمكن أن نسميه (أيّام الله) وأيام الدنيا، حيث يظهر لنا أن (يوماً) عند الله ﴿كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٣٢/٥] و ﴿كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٧٠/٤]. لن أحاول هنا أن أقدم نموذجاً أو تفسيراً للعلاقة الدقيقة بين الله والزمن، بل إن عليّ أن أقترح أن أي محاولة من هذا القبيل سوف تكون عقيمة ولا يمكن تحقيقها لأن تصوراتنا عن الزمن ليست حقيقية بشكل موضوعي، وإذا ما حدثت مثل هذه الافتراضات فسوف تنشب الخلافات.

إن السؤال: ماقيمة الصلاة إذا كان الله قد حدّد سلفاً مستقبل البشر؟ يفترض بطريقة ما أن الله له مستقبله، وهذا يعني أن السؤال يفترض أن الله قائم في الزمن وينعم النظر في مستقبل مقدَّر مسبقاً والصلاة قائمة. ولكن لكي يكون للمرء مستقبله فإن وجوده يجب أن يكون محتوىً ضمن الزمن، وبالنتيجة، أن يكون متناهياً أو محدوداً. والسبب في أن هذا السؤال يؤدي إلى التناقضات

هو أنه يفترض تناقضاً في المكان الأوّل وهو أن الله في الوقت نفسه يسمو فوق الزمان ومحدود فيه. فأي موضوع يفترض في الوقت ذاته مقدمتين غير متوافقتين سيؤدي دوماً إلى نتائج متضاربة. فلو افترضنا أن الدائرة هي مربع، فمع هذا الافتراض لا بد لنا أن نسأل "هل للدائرة زوايا؟"، فإذا ركزنا النقاش على دائرية الدائرة (كون الدائرة مستديرة)، فإن الجواب سيكون: "لا ليس للدائرة زوايا،" أما إذا ركّزنا على خصائص المربع فسوف يكون الجواب: "نعم، للدائرة زوايا." فإذا ما كانت اعتبارات أي سؤال ستقود بالنتيجة إلى تناقض، فإنه ينبغي أن نسأل أنفسنا سؤالاً قبله وهو: هل لهذا السؤال من معنى؟

إن مصطلح (القضاء والقدر) وحده أمر مثير للجدل، فإذا ما استخدم ليعني أن الله قد برمج جميع أحداث المستقبل فإن الافتراض الضمني يعني أن الله موجود في الزمن. وإن كان ذلك يعني أن حكمة الله ومعرفته قد أحاطت بكل شيء وأن لا شيء في هذا الوجود له اعتراض على ذلك، فإن ذلك يعني أن نسلّم بالقضاء والقدر. ولكن هذا ليس هو المعنى الأولي لكلمة (يقضي، يقدّر) والتي تعني (يحدد مسبقاً). وكذلك هذا لا يتعارض مع فكرة أن الله يستجيب لدعائنا وصلاتنا. وعند العديد من الباحثين المسلمين والمستشرقين أصبحت الكلمتان القرآنيتان (قدر) و (تقدير) تعنيان: "قانون الله المطلق من الخير والشر،" وبمعنىً آخر، أن الله قدّر علينا كل أفعالنا وحتى خياراتنا الأخلاقية. ولكن، وكما يقول محمد علي: إن هذه العقيدة "ليست معروفة لا للقرآن ولا لاشتقاقات اللفظ في اللغة العربية. إن الإيمان بالقضاء والقدر هو نتاج تطور لاحق، ويبدو أنه كان نتيجة لاحتكاك الإسلام بالفكر الديني الفارسي".[١]

(١) محمد علي، دين الإسلام The Religion of Islam، (نيودلهي .S. Chand co) ص. ٣١٧-٣١٨.

وحسب مايقول الراغب الأصفهاني فإن كلمتي (القدر) و (التقدير) تعنيان: "إيضاح قياس الشيء" أو بإيجاز (القياس). وأما في القرآن فإنهما تعنيان القوانين الإلهية المنظّمة للخلق والموازنة له:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٨٧/١-٣].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٥٤/٤٩].

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٦/٣٨-٣٩].

﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ٨٠/١٧-١٩].

إنني لا أدّعي هنا أن الله أخضع الكون إلى قوانين طبيعية محددة ثم تخلى عنه ليسير وفق مجراه ونظامه، فليس هناك من قارئ للقرآن يقبل بهذا الشعور. ففي القرآن إن الله هو الرّب، وهو المعين وهو العزيز وهو المنظم والحاكم لكل شيء. وهو مصدر القدرة الكلية الحاضرة لتناغم وتوازن الطبيعة. فسلطته وتأثيره في خلقنا مستمران ونافذان في كل شيء، ولكن لاشيء من هذا كله يتعارض وحقيقة كون أن الله منحنا القدرة لاتخاذ قرارات أخلاقية وأن نقوم بتنفيذها، أو أن الله يعيننا إذا ما طلبنا العون منه.

حول أصول الشر والإغواء

من أين يأتي الشر؟ إذا كان الشر يأتي من عند الله فإن ذلك يتضمن أن الله [والعياذ بالله] غير كامل، ولكن إذا كان الشر لا يأتي من عنده، فإن ذلك يعني أن شيئاً ما يمكن أن يوجد في الكون مستقلاً عنه. وما دمنا قد عرّجنا على هذا السؤال عندما ناقشنا الخيار الإنساني، فإننا سوف نلخّص وبسرعة ملاحظاتنا السابقة ونضمن بعض التعليقات الإضافية.

فكما رأينا، إن الشر ليس مطلقاً لكي يوجد بمنأى عن إرادة الله وفي صراع أزلي معه. بل ينشأ الشر من الطبيعة الإنسانية التي تناسب الارتقاء الروحي والأخلاقي. فما نعدّه نحن شراً أو طغياناً أو ظلماً أو خداعاً أو جوراً أو جشعاً أو عدم مبالاة بآلام الآخرين هو نتيجة لخيارات الإنسان. إن الشر هو نبذ الصفات المقدسة ومعارضتها، وكذلك تبعاً له نبذ ومعاداة ما فيه خير مصالحنا. وهذا يساعدنا على شرح الوصف القرآني لمن لا يؤمنون بـــ (الكفار)، وهذا المصطلح يعني ضمناً: الذي لا يؤدي الشكر على العطايا أو من يرفضها. فعندما يُجابه الذكاء والاختيار الإنسانيّان بتحديات في الحياة الدنيا، فإنهما غالباً ما يختاران الشر، برغم أن هذين العنصرين يتحدان في بعض بني البشر ليقدما أمثلة رائعة عن الطّيب والصلاح. وكما يوضح القرآن، إن قدرات الإنسان، وبخاصة قدرته على المعصية والشر، هي من عند الله. فالله قد منحنا القدرة على اختيار الشر تماماً بالطريقة نفسها التي منحنا القدرة على اختيار الخير، ولكن الخيار هو خيارنا، وإن حدوث الخير أو الشر إنما يكمن في هذا الخيار:

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ، ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٤/٧٨-٧٩].

فلأن يختار الإنسان الشر يعني أن نفسه انتصرت عليه، ومن ثم يكون الإنسان قد ظلم نفسه. ولكن ليس شرطاً أن يكون هذا الظلم أبدياً، ذلك أنه من خلال التوبة والعمل الصالح وبمغفرة الله وعونه نستطيع أن نتعلم ونرقى من خلال أخطائنا. إن امتلاكنا الخيار ما بين الخير والشر، مع وجود الشر، هو عنصر أساسي في مرحلة التعلم هذه من خلقنا. فالشر في هذه الحياة ليس في صراع مع الله، ولكنه يؤدي أغراض الله بالنسبة للبشر. والشيء نفسه ينطبق على الغواية.

إن قراراتنا ليست مبنية على معلومات حسية، فجميع الشعوب وفي كل الأزمان كانت دوماً مدركة لتأثيرات خارجة عن نطاق الإحساس العادي

(extrasensory influences)، والتي من شأنها أن تقدم مقترحات حاذقة ودقيقة للعقل البشري. ففي الماضي كانت دراسة هذه القوى كليّاً ضمن دائرة الدين، في حين نجد اليوم أن علم النفس الحديث يهيمن على هذه الدراسة. وكانت الأديان في السابق تميل للنظر إلى هذه التأثيرات النفسية على أنها مستقلة عن الإنسان، ولكن العلم الحديث يعتقد أنها تنتمي إلى منطقة ما دون الوعي من عقولنا. ولن أحاول هنا حسم الخلاف بين وجهتي النظر أو أن أوفّق بين الإسلام ونظريات علم النفس التي صدرت مؤخراً؛ إذ إن اهتمامي ليس في الأصل الدقيق لهذه التأثيرات أو تطورها أو موقعها، بل أقول بصراحة: إن هذه التأثيرات سوف تبقى على الدوام لغزاً للعلم يصعب معرفته.

ولكن هدفي يبقى محصوراً في مناقشة دور الغواية والإغراء في تطور الإنسان. ومن الطبيعي أن العرب في زمن النبي ﷺ كان لديهم عالم الأرواح الخاص بهم ومصطلحاتهم في وصف الظواهر النفسية. ومن الطبيعي أن القرآن تبنى هذا النظام ثمّ كيَّفه بما يتناسب والدعوة. ومن أجل فهمٍ أفضل للغواية أجد من الأفضل أن نراجع بعض المصطلحات:

فكلمة (جن) كانت عند العرب القدامى مصطلحاً شاملاً لمخلوقات وقدرات خارجة عن نطاق خبرتهم المباشرة أو إدراكهم. وهي مشتقة من الفعل (جَنَّ) والذي يعني: (يغطي، يخفي، يخبئ، يحمي). وبالنسبة إلى عصر النبي فإن هذه الكلمة تعني: "المخلوقات التي لا يمكن إدراكها بالحواس [١]". ويعتقد محمد علي أن هذه الكلمة تدل على: "روح أو قوة خفية أو غير مرئية ". ويشير محمد علي إلى أن العرب كانوا يستخدمون المصطلح (جن) للإشارة إلى بعض البشر، مستشهداً ببعض الدارسين العرب المختصين بعلم الألفاظ الذين قاموا بإيضاح أن كلمة (جن) يمكن أن تستخدم لتشير إلى "معظم الناس،" أي

(١) المصدر السابق، ص. ١٨٨.

السواد الأعظم من الخلق أو عامة البشر[١] ".ويضيف محمد علي قائلاً: "حسب قول العربي [القديم]، إن السواد الأعظم من الناس تعني بالنسبة إ ليهم العالم غير العربي. وكانوا يدعون الغرباء بالجان، لأنهم لم يكونوا يرونهم[٢] ".

وخلال العصور نُسج الكثير من الخرافات والقصص الشعبي في كل من الشرق الأوسط والشرق الأقصى حول هذه الكلمة، وحول المصطلحات التي سوف نناقشها بعد قليل. وبرغم أن هذه التطورات تجعل من الصعوبة بمكان معرفة المعنى الذي كانت تعنيه هذه الكلمة لمستمعي القرآن الأوائل، إلا أنه يبدو أنها تعني كل مخلوق لا يمكن إدراكه بالحواس. ومن استخدام هذا المصطلح في القرآن والسنة، يبدو أن المصطلح كان يستخدم على الأغلب للإشارة إلى عالم الأرواح، وهو عالم من المخلوقات الحساسة غير المرئية للبشر، لكنها كانت تؤثر بهم وأحياناً تتفاعل معهم.

وهناك كلمة قريبة من كلمة (جن) وهي كلمة (شيطان) والتي غالباً ما تترجم إلى الإنجليزية بـــ (satan) وبشكل عام فإن كلمة (شيطان) تعني أي مخلوق أو قدرة متمردة عاصية. وفيما يتعلق بكلمة (شيطان) فإن الطبري يقول في تفسيره للقرآن عنها: "إن لفظة شيطان في كلام العرب تشمل كل عاص (متمرد) من بين الجن والإنس والبهائم وكل شيء... ويدعى المتمرد من بين كل شيء وكل نوع بهذا الاسم، لأنه في سلوكه وأفعاله يختلف عن بقية أنواع جنسه، وهو أقرب ما يكون من الفساد[٣]".

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩١.

(٢) المصدر السابق، ص. ١٩١-٩٢. أريد القول هنا بأن الجن أمة من الأمم مثل أمة الإنس منهم المؤمن ومنهم الكافر وأنزل الله فيهم قرآناً، وقد سمى سورة من القرآن باسمهم (سورة الجن) وقد آمن منهم من آمن بالرسول ﷺ و لقد حكى القرآن ذلك [المترجم].

(٣) تفسير الطبري، ٤٧/١، كما في النسخة المترجمة إلى الإنجليزية الصادرة عن مطابع جامعة أوكسفورد، ١٩٨٧م.

وكلمة (شيطان) في أصلها الاشتقاقي في العربية تعني: "كل مطرود منبوذ،" ويقال: إن أصل الكلمة مأخوذ من الفعل (شَطَنَ) وعبارة "شَطَنَتْ داري من دارك" أي "كان بيتي بعيداً عن بيتك ".[1] ومرّة أخرى نقول: إن تعبير (شيطان) يمكن أن يستخدم ليشير إلى الناس. ففي تفسيره للآية ١٤ من سورة البقرة يستشهد الطبري بقول ابن عباس: "كان هناك بعض الرجال من اليهود إذا ما لقوا واحداً أو أكثر من صحابة رسول الله ﷺ كانوا يقولون لهم: ''إنا معكم ونتبع دينكم،'' ولكنهم كانوا إذا ما خلوا إلى بعض أصحابهم، الذين كانوا شياطينهم، كانوا يقولون: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون".[2] ويستشهد الطبري أيضاً بقول قتادة ومجاهد اللذين قالا: إن هؤلاء الشياطين كان "رؤوس الشر فيهم، وأصحابهم من بين المشركين والمنافقين ".

والفرق الرئيس بين الجني والشيطان هو أن الجني قد يكون مسالماً، وقد يكون مدمراً، في حين أن الشيطان هو شرير دوماً، والشيطان، خصوصاً في عالم الأرواح، هو شرير أو جنيّ متمرد. ومهما يكن فإن قدرة الشيطان محدودة في القرآن نوعاً ما، فهو مصدر الاقتراحات الشريرة التي تدخل قلب المرء (انظر الآيات ٤-٦ من سورة الناس)، وهو الغويّ الأكبر، ولكن فيما وراء ذلك يوضح القرآن أن ليس للشيطان أي سلطة على الإنسان (انظر الآيات ٢٢ من سورة إبراهيم، و٤٢ من سورة الحجر، و٩٩ من سورة النحل، و٦٥ من سورة الإسراء)، وأن كيده ضعيف (كما في الآية ٧٦ من سورة النساء)، وكما في قوله تعالى: ﴿وَقالَ الشَّيْطانُ لَمّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٢].

(١) المصدر السابق، ص. ٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص. ١٣١.

وإغراءات الشيطان يقابلها في أدبيات الإسلام الإلهام الملائكي. والملائكة (ومفردها ملاك)، من بين أشياء أخرى، تحث وتعين على الأعمال الصالحة عند البشر من الرجال والنساء. ويبدو من القرآن والسنة وكذلك من المعاجم القديمة أن كلمة (ملاك)، بخلاف كلمتي (شيطان) و(جن) تنطبق فقط على الكائنات الروحية الأثيرية. ويبدو أن العرب كان لديهم بعض الاعتقادات الراسخة فيما يتعلق بالملائكة والتي يرفضها القرآن، إذ كانوا يعتقدون مثلاً أن الملائكة هي بنات الله، ومن ثم هي مخلوقات شبه مقدسة (انظر الآية ٥٧ من سورة النحل)، وكانوا أيضاً يعتقدون أن الملائكة إناث (انظر الآيات ٤٠ من سورة الإسراء، و١٥٠ من سورة الصافات، و٢١ من سورة النجم).

إن هذه المصطلحات الثلاثة تمثل الطاقات أو القدرات الروحية التي تؤثّر في النفس. فالملائكة والشياطين والجن مسؤولة عن العديد من تحريضات النفس في الخير أو الشر أو المتكافئة ما بين الخير والشر والتي نتعرض لها. فالملائكة تلهمنا الشهامة والتضحية بالنفس، والشياطين هي مصدر الإيحاء بالشر وتدمير النفس. وأما تأثير الجن فقد يكون إيجابياً أو سلبياً، وذلك حسب ما نتعامل معها، ذلك أنها تثير فينا ميولنا الدنيا أو الأكثر هيمية مثل بواعثنا للبقاء الذاتي، والسلطة، والثراء، والأمن، واحترام الآخرين. فعلاقة هذه المخلوقات وعملها يصفها النبي ﷺ بحكمة وبلاغة إذ يقول: إن كل مخلوق يخلق وله شيطان قرين يحرّك مشاعره الدنيا وله ملاك قرين يوحي له بصالح الأعمال وأنبلها. وعندما سأل الصحابة النبي إن كان له شيطان قرين فأجاب: "نعم، لكن الله أعانني عليه حتى أسلم لا يأمرني بشيء إلاّ حسناً".[1]

فالتحريضات الخيِّرة والدنيوية التي نتلقاها يكمل ويوازن بعضها بعضاً. ذلك أن الاستسلام الكلي للبواعث على الشهامة والكرم والذي ينمّي رقينا الأخلاقي والروحي من شأنه أن يدمر أنفسنا؛ لأنه يجعلنا نتجاهل حاجاتنا الشخصية. إن

---

(١) مسند ابن حنبل (القاهرة: مطبعة الميمنة، بدون تاريخ) ١/٣٨٥، ٣٩٧، ٤٠١.

الرغبات الدنيا ضرورية لبقائنا الدنيوي، ولكننا إذا تركنا لها العنان كلية فسوف نصبح أنانيين جداً. فالنوعان كلاهما من البواعث (السامية والدنيوية) يعملان جنباً إلى جنب ليبعثا على رقينا الأخلاقي والروحاني؛ إذ إن ما يجعل من عمل ما خيِّراً هو أنه يتضمن التغلب على الرغبات الدنيوية أو تنحيتها جانباً لفترة من الزمن. والشخص الموفَّق، كما جاء في حديث النبي ﷺ، هو الشخص الذي يستطيع أن يضبط هذه التأثيرات الدنيوية الجنّية (الصادرة عن الجن) ويوازيها بالتأثيرات الملائكية (الصادرة عن الملائكة). عندئذ سوف يؤدي كلا التأثيرين إلى رقيِّه في الصلاح والتقوى. فعندما يميل شخص ما بعيداً باتجاه الاقتراحات الدنيوية (الجِنيّة) فإنه يجعل من نفسه فريسة سهلة لتأثيرات الشر(الشيطان). فمثلاً، إن حاجتنا للبقاء قد تفسح المجال لاستغلال الآخرين والجشع، وإن حاجتنا للسلطة تفسح مجالاً للطغيان، وحاجتنا للثروة تفسح مجالاً للطمع، ورغبتنا في الأمن تفسح مجالاً للعنف، ورغبتنا فى الاحترام تفسح مجالاً للعجرفة. إن شخصاً كهذا، وكما رأينا سابقاً، يصبح من الناحية الروحية مدمراً لنفسه، جاعلاً بذلك من التأثيرات الشيطانية عدوّاً مبيناً للإنسان. (انظر الآيات ١٦٨ من سورة البقرة، و٢٢ من سورة الأعراف، و٥ من سورة يوسف، و٦ من سورة فاطر).

إن هذه التأثيرات النفسية الثلاثة غالباً ما يكون وقعها علينا دفعة واحدة، وهكذا فهي تحدد وترفع من أخلاقية العديد من القرارات، وتعطي جميعها باعثاً ودافعاً للتطور الروحاني. ومن وجهة نظر الإسلام، فإن ما ندعوه بالإغراء أو الإغواء إنما هو أحد أنواع المؤثرات الخارجة عن نطاق الحس العادي التي نتعرض لها، وبارتباطها مع النماذج الأخرى، فإنها تدعم وتسرّع من رقيّنا، وكباقي كافة العناصر الأخرى من حياتنا، فإنها تنسجم مع ما كتبه الله لنا.

ولقد أشار بعضهم عليّ في إحدى المناسبات بأن هذه العناوين وهذا المخطط يمكن مقارنته ببعض نظريات علم النفس الحديثة، وخاصة نظرية فرويد (Frued)

التي تصف "الهو The id "، و"الأنا الذات The ego"، و"الأنا العليا .The Super ego

" ربما يكون الحال كذلك، ولكنني شخصياً لا أجد في نظرية فرويد ما يثير الدهشة أو الاهتمام على الإطلاق.

فأولاً: إذا كان هناك تشابه ما بين النظامين فلاشك أن هناك اختلافات كبيرة. وثانياً: أنا لا أعدّ أفكار فرويد حديثة حقاً، ولا يمكن عدّها اكتشافاً بالمعنى الدقيق للكلمة؛ لأن وجهة النظر التي قدمتها هي جزء من حكمة قديمة ومضمنة في تراث العديد من الديانات. إن ما حاول فرويد أن يفعله هو بناء سياق أو وضع دنيوي لشرح وتحري التأثيرات النفسية فقط. ومن وجهة نظر أخرى فإنني، بصفتي معتنقاً للإسلام، أكتب من وجهة نظر دينية محددة.

الا نحتاج لنبي آخر؟

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٥/٣].

﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللّهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٠].

نزلت الآية الثانية من هاتين الآيتين في السنة الرابعة من الهجرة وهي تتضمن نبوءة ومقولة عن حقيقة حاضرة. فلم يكن للنبي ﷺ وريث من الذكور يخلفه، أو من شأنه أن يصبح مرشحاً تتطلع إليه الأمة وريثاً لعباءة النبوءة، برغم أن الصحابة شعروا بالحاجة العاطفية والنفسية الماستين لذلك يوماً ما. ففي اليوم الذي قبض فيه الرسول ﷺ استنكر عمر بن الخطاب، وهو من كبار الصحابة، وصحابة آخرون قبول فكرة أن النبي ﷺ قد التحق بالرفيق الأعلى، حتى قام أبو بكر الصديق وخطب فيهم، وأثابهم إلى رشدهم. وفي السنوات التي تلت، كان هناك العديد ممن تحرّى في ذريّة النبي ﷺ من يصبح قائداً من عند الله، أحداً ما قريباً منحه الله الشخصية القيادية. ولكن القرآن والتاريخ وقرارات الرسول في آخر أيامه جعلت من ذلك أمراً عسيراً.

ولقد توفي أولاد الرسول جميعاً خلال حياته إلا الصغرى فاطمة والتي بدورها لم تعش طويلاً بعده. فلو أن النبي ﷺ اختار علياً، وهو صهره وابن عمه، خليفة له من بعده لكان هذا الأخير تبوأ مكانة مقدسة في أعين معظم المسلمين. ويبدو أن محمداً ﷺ ترك شأن ذلك للأمة كي تختار قائدها الجديد بنفسها من بعده. ولم يتولَّ عليٌّ الحكم إلا بعد ثلاثة من خلفاء النبي ﷺ (أبي بكر وعمر وعثمان). وكان يمكن لأحد أبناء علي وفاطمة أن يتولى منصب الخلافة ولكنهما توفيا مبكراً، فقد توفي الأصغر (الحسين) بشكل مأساوي وذلك من خلال معارضته للخليفة السادس (يزيد) دون أن يتولى أي منصب سياسي. ومهما يكن فقد تطلعت أقلية من المسلمين إلى شخصيات عدة من نسب علي وفاطمة على أنها شخصيات قيادية نبوية، برغم أن الغالبية كانت ترى أن القيادة الإسلامية يجب أن تكون لها أهمية ومسؤولية دينية، ولكن ليس لها بالضرورة أي تفويض مقدس.

فلو أن أحد أبناء محمد ﷺ عاش بعده، أو أن إحدى بناته عاشت لفترة طويلة بعده (علماً بأن الجزيرة العربية عرفت نساء حاكمات في حقبة ما قبل الإسلام)، أو أن أحد أحفاده تولى منصباً سياسياً بعده لربما كان تاريخ المسلمين السياسي مختلفاً تماماً عما كان عليه أو عما هو عليه الآن. ولكن رفض محمد ﷺ تولية خليفة سياسي بعده، وحقيقة عدم تولي أحد من أحفاده الحكم بعده خلال بضعة العقود الأولى بعد وفاته، كان من شأنها أن تدعم فهم غالبية المسلمين لدلالة الآية القرآنية القائلة إن محمداً ﷺ هو ﴿خاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ بشكل واضح لا يقبل التغيير.

والقرآن يوضح أن الله اختار من كل أمة نبياً واحداً على الأقل خلال حقبة ما من تاريخ تلك الأمة (انظر الآيات ٤٧ من سورة يونس، و٧ من سورة الرعد، و٣٦ من سورة النحل، و٢٤ من سورة يس). والقرآن يتضمن أيضاً أمثلة لأمم كانت تأتيها الرسل تترى؛ لأنها كانت تشوّه أو تنسى الرسالة

المقدسة التي كانت تأتيها من عند الله. وفي السنّة النبوية هناك أحاديث تقول: إن عدد الأنبياء الذين أرسلهم الله للبشر يربون على مئة ألف نبي. ويخبرنا القرآن أن رسالة محمد ﷺ كانت تصحيحية ومجددة، فالوحي الذي أُنزل عليه أكد الحقائق الجوهرية التي تضمنتها الكتب الأولى المقدسة — وبشكل رئيس كتب اليهود والنصارى — وصحح الأخطاء الرئيسة الواردة فيها (انظر الآيات ٩١ من سورة البقرة، و٩٢ من سورة الأنعام، و٣١ من سورة لقمان).

إن هذا يبدو وكأنه تقويم تشاؤمي عن قرارات البشر الروحية والأخلاقية، فمنذ بداية الخلق والجنس البشري مذنب بسبب نسيانه وانحرافه وضلاله وعدم قدرته على المحافظة على كتب الله السماوية والتمسك بها. ومع أن القرآن، كما يؤكد المسلمون، هو التنـــزيل نفسه تماماً كما نطق به الرسول ﷺ حُفظ بلغته الأصلية، وخال من أي إضافات لاحقة أو أي مراجعات، وهو بين أيدينا الآن كما هو من عهد النبي، أقول: ألسنا بحاجة إلى نبي آخر، شأننا في ذلك شأن معظم الأمم خلال التاريخ؟ بمعنى آخر: هل يُعقل أن يترك الله الإنسان على حين غرة، مع علمه بنـــزعة البشر الطبيعية للضلال عن الحق، يسير على هدى نفسه حتى نهاية الخلق، بعد أن هدى الله الإنسان بشكل مباشر منذ البداية وحتى فترة محمد ﷺ حين بعثه الله رسولاً على أنه آخر الرسل؟

وقد يردّ المسلم على هذا بقوله: إن القرآن يتميَّز عن الكتب المقدسة الأخرى بنقائه، في حين قد تحتوي كتب أخرى على أقوال قريبة مما بشّر به أنبياء سابقون لدرجة الحرفية في بعض المواضع، ولكن هذه الكتب هي خليط متجانس من القصص الشعبي والشعر والتفسيرات والتعليقات، تصحبها أخطاء في الترجمة والنسخ والتحرير والنقل والإضافات الغريبة، بحيث أصبح من المستحيل معرفة النص الأصلي من غيره من النصوص. ومن جهة أخرى يصرّ المسلم على أن القرآن لا يحتوي على أي شيء سوى ما نطق به النبي ﷺ عن طريق الوحي الذي كان يتنـــزل عليه. ومعظم الباحثين المعاصرين في الإسلام

من غير المسلمين يقرّون بذلك أو بشيء شبيه من ذلك. على هذا، وحسب مناقشتنا، فإننا نمتلك كلمة الله الخالصة المحضة كي نهتدي بها، ومن ثم فإن أي تنــزيل جديد ليس من شأنه أن يكون ضرورياً. وطبعاً قامت ديانات أخرى بتطوير وجهات نظر حول غاية التنــزيل ووسيلته مختلفة تماماً عن الفهم الإسلامي. ولكنني لست أنوي هنا أن أناقش أو أقابل بين وجهات النظر هذه؛ بل إنما أريد أن أقدم شرحاً عاماً عن كون بعثة محمد ﷺ هي خاتم البعثات والنبوءات.

هل يجيب هذا الشرح بشكل وافٍ عن السؤال الذي سبق طرحه؟ وماذا عن الحاجة لتفسير وتطبيق التنــزيل في عالم دائم التغيير، وكذلك المصاعب التي من شأنها أن تنشأ والتي لم يناقشها الكتاب الكريم بشكل واضح؟ يجيب المسلم: إن لدينا نموذج حياة النبي ﷺ، وسنته (أحاديثه وأفعاله) التي تم جمعها وفحصها وموازنتها بعد أن تم إخضاعها للنقد التاريخي بدقة متناهية، وذلك خلال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى.

ومع ذلك، فإننا من المؤكد سوف نواجه أوضاعاً لم يصادفها الناس زمن النبي ﷺ، ومن ثم لم تتم معالجتها، وهذا أمر طبيعي حيث مضى الآن أكثر من ألف وأربعمئة عام على وفاته؟ ويجيب المسلم: أنه عندنا القانون الإلهي المقدس، أي الشريعة المبنية على أساس القرآن والسنّة، وهي نظام حياة متكامل بناه عبر العديد من القرون علماء وفقهاء ليغطي كل أمر يمكن حدوثه. هل يمكن بعد هذا الدفاع عن أي ادعاء يقول: إن الفقهاء القدامى تنبّؤوا بكل مشكلة من مشكلات المستقبل؟ يعترف المسلم أن الجواب طبعاً: لا، ولكننا نستطيع أن ندرس منهجيتهم، ونحاول أن نكرر جهودهم ونسخر الأحكام والأنظمة الإسلامية لتخاطب ظروفنا الراهنة.

إن هذه يجب أن تكون الاستجابة المحتملة، ولكننا كلما ابتعدنا عن القرآن، كان اعتمادنا على خيارات الإنسان وقراراته والتي، على ما يبدو، لابد أن تكون متباينة وعرضة للأخطاء. واليوم نجد المسلمين يتناقشون ويتخاصمون

فيما بينهم حول مئات المواضيع في سعيهم لتطبيق نظم الحياة المعاصرة في حياتهم. وعلي أن أعترف أن هذه المناقشات ليست حول مفاهيم أساسية في الإسلام، بل تتضمن على نحو شبه تام ما يعده غير المسلمين مواضيع دنيوية مثل: دور النساء والرجال في المجتمع، ونظام البنوك والاستثمار، والعلاقات مع غير المسلمين، وانشغال المسلمين بالأنظمة السياسية الغربية وهموم أخرى، ولكن هذه الأمور في غاية الأهمية للأمة. إن مجادلات كهذه من شأنها أن تخلق توتراً وشقاقاً شديدين، وكما قال لي أحد الطلبة المسلمين من جامعة كانساس (Kansas): ليت النبي ﷺ بيننا اليوم ليحسم الخلاف فيما بيننا حول هذه المواضيع!" ومن هذا المنظور إذن، هل نحن بحاجة إلى نبي آخر حقاً؟

إن أي جواب هنا من شأنه أن يكون تصورياً، لأن القرآن لايستجيب لهذا السؤال بشكل واضح، وقد يكون هناك العديد من الأسباب أكثر من أن يكون هناك أساس منطقي لهذا السؤال. فمن الممكن أن تكون المحاولة الجماعية لاستنباط برنامج أو نظام عيشٍ مستمدٍ من القرآن الكريم والسنة النبوية تمريناً روحياً وعقلياً واجتماعياً عظيماً يتطلب التعاون والتسامح والتواضع والصدق. إن إمكانية الرقي التي سوف تنجم عن محاولة كهذه قد تفوق مزية أن يرسل الله نبياً جديداً ليبتَّ في كل شاردة وواردة من أسباب الخلاف.

وقد يكون هناك عاملٌ آخر وهو أن البيئة المعاصرة غير قادرة على تقديم شخصية على مستوى من النقاء والصفاء بحيث ترقى لدرجة أن تكون نبيّاً. ربما أصبحت الحياة من التعقيد والفساد بحيث لايمكن لأحد منّا بلوغ الحساسية الروحانية وقدرة التلقي من مثل موسى وعيسى أو محمد، عليهم السلام أجمعين[١].

---

(١) يفهم من قول الكاتب هنا وكأن النبوة مهنة يتخذها الإنسان القادر عليها، أو درجة يرقى المرء إليها. وربما جهل أو تجاهل أن النبوة اصطفاء الله لعبد من عباده ... ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٥]. وفي صحيح البخاري، باب الصلاة، أن رسول الله ﷺ قال: "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر-

إن هذا التفسير يذكرنا بالعديد من أحاديث النبي ﷺ التي تتنبأ بأن الحياة والزمان سوف يفسدان أكثر فأكثر، مثل قوله ﷺ: ((خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم))، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة، ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يفون ويظهر فيهم السمن ".[1] ونذكر هنا أيضاً الآية القرآنية التي تؤكد بأن المبرّزين في الإيمان السابقين هم في معظمهم من عهد النبي ﷺ ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ﴾ بينما هذا النوع من المؤمنين سوف يكونون ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ (انظر الآيات ١٠-١٤ من سورة الواقعة)، وكذلك الآية القرآنية التي تتنبّأ بأن العديد من المسلمين سوف يهجرون القرآن (انظر الآيات ٣٠ من سورة الفرقان).

ويمكن الحصول على تبصرة إضافية عن طريق فحص — وبشكل أوثق — ما يقوله القرآن عمّا جعل نبوّة محمد ضرورية. فالقرآن يقدم نفسه ورسالة محمد ﷺ على أنهما تتويج وإتمام لتواصل الله المباشر مع البشر من خلال أشخاص ملهمين مقدسين. فقصص القرآن عن أنبياء سابقين تؤكد وتدعم رسالة محمد ﷺ ووصف القرآن للمحن والعقبات التي واجهها هؤلاء الرسل السابقون تشبه في أغلبها أحداثاً من معاناة محمد ﷺ نفسه، ووصاياهم التي نادوا بها قومهم تردد أصداء آيات ذكرت في مواضع مختلفة من القرآن. هذا يظهر أن المعارك التي خاضها الأنبياء ما بين الخير والشر، والإيحاء والرفض، والحق والزور كانت هي دوماً واحدة.

إن الحقيقة الوحيدة والأهم التي تحكم جميع الخلق والتي وعظ بها جميع الرسل هي: "لا إله إلا الله" والتي تتضمن أن الأشياء المتعددة التي اختارها الناس

وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة)).

(١) في صحيح البخاري، باب المناقب، من حديث إسحاق عن النضر عن شعبة عن أبي جمرة عن زهدم بن مضرب عن عمران بن حصين رضي الله عنهما Mohammad Asad, The Message of the Qur`an (Gibraltar: Dar al Andalus ١٩٨٠م) ترجمة وشرح محمد أسد Mohammad Asad في كتاب أيام الإسلام الأولى The early Years of Islam دار الأندلس: جبل طارق، ١٩٨١م)، ص١٩.

مواضيع للعبادة لم يكن لها أي سلطة أو قدرة، وأن الفرقة والكره اللذين كان يقود إليهما تبجيل خاطئ التوجيه كهذا، ليسا ضروريين على الإطلاق وإنما نجما عن لاشيء سوى الشر وأوهام تدمر النفس اختلقها الإنسان نفسه. إن ذلك يعني أن ليس هناك سوى معيار روحاني وأخلاقي واحد يحكم الإنسانية، وأن ليس سوى مقياس واحد لقيمة المرء، يقول تعالى: ﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣/٤٩]. فأهم شيء تتضمنه هذه الآية أن الحواجز التي نقيمها بين أنفسنا والآخرين هي مغالطات، لأنه يتوجب علينا جميعاً أن نستجيب للإله العظيم نفسه.

وفي جزيرة العرب في القرن السابع كان لكل قبيلة آلهتها التي كانت تستقي منها التفضيل والأمن وتستغيث بها في الصراعات المصيرية بين القبائل. وكان لابد من عقيدة التوحيد التي جاء الإسلام بها كي توحد الفصائل المتحاربة كما يذكرهم القرآن بلهجة حادة:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها﴾ [آل عمران: ١٠٣/٣].

فالتوحيد الإسلامي لا يطلب منا أن نقبل بأن "لا إله إلا الله" وحسب، بل أن نؤمن بها على أنها نتيجة طبيعية وحتمية: كافة الخلق من رجال ونساء هم في الحقيقة متساوون تحت سلطة الله. وهذان المطلبان، وحدانية الله ووحدة الإنسانية، كان من الصعب لأي تراث ديني في التاريخ، من مثل حال اليهودية والنصرانية، أن يتمسك بهما مبدأً في الحياة، كما يوضح القرآن بشكل قوي. فقصة بني إسرائيل هي قصة شعب كان يتلقى عقيدة التوحيد خلال معظم تاريخه برغم وجودهم في بيئة تسودها أغلبية وثنية. فقد كان هناك تأثيرات خارجية غالباً ما تخترق جاليتهم وتجعلهم ينحرفون أحياناً عن تعاليم أنبيائهم.

ويظهرهم القرآن أمةً في صراع دائم بين الوحدانية الخالصة وضغوط الوثنية. وهذا يشرح، ولو جزئياً، حاجتهم الماسة لعزل أنفسهم عن الوسط الاجتماعي المحيط بهم، ومحاولتهم الحفاظ على نقائهم الثقافي والعرقي. ولكنهم أصبحوا يرون في أنفسهم أنهم شعب الله المختار من دون الناس، وبمفهومهم التوراتي، يرون أنفسهم على أنهم أبناء الله. وكنتيجة لهذا، لم يستطيعوا أبداً قبول آخر نبي أرسله الله؛ لأنه لم يكن من أصل يهودي، برغم أنه أكّد وأقرّ الرسالة الجوهرية لكتبهم المقدسة. والقرآن يلومهم بشكل مستمر لصدهم عن النبي محمد ﷺ بهذا الخصوص. وباختصار نقول: إن اليهودية، برغم أنها نجحت في الحفاظ على الإيمان بوحدانية الله، فإنها لم تكن قادرة على قبول فكرة وحدة الإنسان من دون الله.

والنصرانية بدورها تعود إلى الجذور التوراتية نفسها، ولكنها ديانة أكثر عالمية من اليهودية، إذ إن تماسكها مستمد من الحنين الروحاني الشديد إلى معرفة الله وبلوغ محبته. وهكذا، ففي حين أن اليهود ووثنيي شبه الجزيرة العربية كانوا منغلقين بعناد على رسالة خالفت تقاليدهم، إلا أن القرآن يظهر النصارى على أنهم كانوا أكثر تأثراً بقوته الروحية (انظر الآيات ٨٥-٨٩ من سورة النساء).

وأكبر صعوبة واجهتها هذه العقائد العالمية هي التباين الكبير بين الشعوب التي تشربت واعتنقت هذه العقائد. فمعتنقو ديانة ما جديدة يجلبون معهم لغتهم وأفكارهم ورموزهم وعاداتهم الثقافية والتي من شأنها جميعاً أن تشوّه العقيدة العالمية المعنية. ومن وجهة نظر المسلمين، فإن هذا ما حصل للنصرانية، فبرغم أنها تحتضن وبشغف جميع البشر، فإن عقائدها تساوم على التوحيد الخالص وتميل بسهولة بالغة إلى إشراك آخرين مع الله. وبهذه الطريقة فإن الخبرة اليهودية والنصرانية تجسّد المشكلة التي تواجهها كافة ديانات العالم، وهي المساومة على التوحيد أو العالمية بنسب متفاوتة في محاولة منها أن تحتفظ بواحدة دون الأخرى.

ولقد مر الإسلام بحالة من الصراع وما زال من جرّاء هذه التوترات الداخلية، وفي النهاية تم اتخاذ الإجراءات المشددة من قبل التيار الرئيس لحماية المَعْنيين المتضمنين في التوحيد. فقد تم تنظيم كافة عناصر الحياة ضمن قانون ديني حيث تم فيه دحض التفكير الفلسفي والصوفي، وكذلك مُنعت فيه أفكار البدع الناجمة عن التقليد. واستمر الضغط بشكل أكبر إلا أن المسلمين الراشدين نجحوا في معظم الأحوال بالإبقاء على المصادر الرئيسة دون أي تعديل فيها بحيث حفظت كروحٍ معلقة لتنقل من ثمّ إلى الإنسان المعاصر سليمة دونما أي تغيير أو تبديل. ومهما كانت كلفة الحضارة الإسلامية التي بذلتها في سبيل الخطوات الشاقة التي بذلها علماء المسلمين فإن أهم ملمحين رئيسين في التوحيد، وهما وحدانية الله ووحدة الإنسانية، قد اتحدا بنجاح في الإسلام، وتم نقلهما إلى الأجيال المستقبلية بنجاح. وبالنسبة إلى المسلم، فإن وحدانية الله ووحدة الإنسانية تشكلان مثالاً يتضح من خلاله كيف أن الله ومن خلال الإسلام أكمل فضله على بني البشر (انظر الآية ٣ من سورة المائدة).

إن هذا الاهتمام للحفاظ على عنصر التوحيد ووحدة الإنسانية يساعد على شرح قضية خَتْم النبوّة بمحمد ﷺ فلو كان هناك ديانة ما تتوقّع تنـــزيلاً ما في المستقبل، بقي الباب مفتوحاً لبروز أنبياء مزيفين، وقد حدث هذا فعلاً، إذ برز أفراد مخادعون ومنخدعون كان من شأنهم إضلال الآخرين وإحداث انقسامات في مجتمعاتهم. فوجود مصدر قوي لشرخ ما لا بد أن يهدد وحدة المؤمنين بشكل أعمق وأطول من تهديد أي خلاف قد ينشأ عن سبب قانوني. فكل ديانة رئيسة، بما في ذلك الإسلام، قد عرفت مثل هذا الخطر ولكن اختتام النبوة بمحمد ﷺ قد كبح وبشكل كبير مثل هذا المنحى. فقد يحظى قائد مسلم بالإعجاب والولاء هذه الأيام من قبل العديد من الأتباع ولكن يكاد يكون من المستحيل بالنسبة إليه أن يحظى بثقتهم العمياء، أي الولاء المطلق الذي يحظى به من يملك هداية مقدسة حسب إدراكهم، وفي مثل تلك اللحظة التي يدعي فيها

قائد ما مثل هذه الهداية فإن حركته لابد وأن ينقلب مصيرها إلى دين تافه نسبياً لاصلة له بالأمة الإسلامية.

ومؤخراً استغرب واستنكر العديد من المسلمين التنظيم الذي أسسه رشاد خليفة في مدينة (Tucson) في ولاية أريزونا (Arizona) حين أعلن هذا نفسه رسولاً جديداً مبتعثاً من عند الله. ولكن المسلمين جميعاً أعرضوا عنه، وتجاهلوه، ومات، ولم يكن له من الأتباع سوى حفنة صغيرة. ويشير العديد من العلماء الغربيين من غير المسلمين إلى وجود حركات منشقة مشابهة مثل البهائية أو القاديانية على أنها ملل إسلامية، برغم أن هذه التسمية غير مناسبة ومضللة. فالعالم الإسلامي لايعدّ هذه الجماعات وجهات نظر بديلة أو مهرطقة داخل الأمة، بل هي شيء غريب عن الإسلام تماماً. ولم تجلب أي من هذه الجماعات أي أتباع معتبرين (برغم أنهم يكسبون أنصاراً جدداً من أناس آخرين من غير المسلمين مثل المعتنقين الجدد)؛ لأن الإيمان بمحمد ﷺ على أنه خاتم الرسل هو أحد أهم العقائد الرئيسة في الإسلام. فالشهادة (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) هي أقرب شيء إلى العقيدة في الإسلام. والمسلم الملتزم يرددها في صلاته تسع مرات على الأقل في اليوم والليلة. ففي الجزء الأول منها يشهد المسلم بأنّ لا إله إلا الله، في حين يشهد في الجزء الثاني أن محمداً رسول الله، حيث في هذا الجزء الثاني يفهم المسلم ليس فقط أن محمداً رسول الله، بل أيضاً آخر الأنبياء والوحيد الذي يجب أن يتبع. وهكذا فالشهادة في الإسلام تربط التوحيد في الإسلام بأخروية رسالة محمد ﷺ ومن وجهة نظر المسلمين، فإن ما استدعى مهمة محمد ﷺ النبوية هو الحاجة على الأرض، وباستمرار المعنيين المتضمنين في التوحيد وهما وحدانية الله ومن دونه وحدة الإنسانية. وختَم النبوّة بمحمد ﷺ كان ضرورياً لكي نحفظ ونصون هذه الشهادة من أي انقسام قد ينجم فيما بعد.

الفصل الثالث

اتخاذ القرار

عمر بن الخطاب[1] قد يكون صديقك الأغلى والأكثر إخلاصاً، أو قد يكون عدوّك الأكثر مهابة والأقل رحمة. كان عمر يومئذٍ رجلاً في فتوة الرجولة بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، وقد حاز إعجاب معظم الناس في بيئته بعد أن اكتسب إجلال الناس له ومخافتهم منه. وكان مفتول العضل، قوي الشكيمة، حاد الطبع، سريع الغضب، وكان اندفاعياً لدرجة أنه في حين كان يتصارع آخرون للتأكد من بعض الحقائق (حول مسألة ما)، يكون هو قد ألزم نفسه بطريقة مناسبة للعمل. فقد كان بمقدوره تنفيذ قراراته لدرجة كانت تبدو فيها وكأنها ردة فعل أكثر منها قرارات .

كان الأمر بالنسبة إليه واضحاً تماماً، فليس هناك من سبيل للمساومة، فقد كان من غير الممكن أن يتعايش المجتمع المكي كما عرفه عمر، حيث كان من أشرافه، مع دعوة محمد ﷺ ومن الطبيعي أنه كان مدركاً لتهديدات الثأر والضغائن والدم الفادحة والتي لم تكن لتنتهي، وأن مكّة كانت على وشك أن تصبح يثرب أخرى، وأن محمداً ﷺ كان يشكل الخطر الأعظم وأنه لابد من إيقافه عند حدّه قبل أن يستفحل الأمر كثيراً.

---

(١) عمر بن الخطاب أصبح أحد أشد أتباع محمد وأقربهم منه. وتورد المصادر عدداً من الروايات حول إسلامه. انظر محمد حسين هيكل: حياة محمد، ترجمة إسماعيل فاروقي (إنديانا بوليس: كتب North American Trust، ١٩٧٦م)، ص ١٠٣-١٠٤.

كان الجو حاراً وجافاً عندما انطلق عمر في الطريق المغبرة والملوثة إلى حيث يجتمع محمد ﷺ وأصحابه، وكانت الطرقات مقفرةً حيث القوم يمكثون في بيوتهم من حر الهاجرة. فكَّر في نفسه، كيف يمكن (للأمين) أن يصبح خطراً يهدد المجتمع المكي الذي يعهده؟ حيث إن عهده به أنه كان انعزالياً، و لم يكن ليبدي أي طموحات سياسية أو بوادر من شأنها أن تزعزع الاستقرار في المجتمع المكي الواحد، وماذا حصل لعقول أبناء قريش كي يتَّبعوه؟ ويسأل نفسه: كيف يمكن لإحدى القبائل العربية، وهي قريش، أن يخرج منها من يفرِّق أمرها، ويعيب رأيها ويسفِّه أحلامها؟ ما الذي حدا به؟!

وفجأة يسمع من يناديه: "إلى أين أنت ماض في عجلة ياعمر؟" ويلتفت عمر إلى من كان يهرول خلفه محاولاً اللحاق به، لقد كان نعيم بن عبد الله. يجيبه عمر: **"إنني ذاهب لأضع حداً لهذا الطاعون الذي أصاب مدينتنا، إنني ذاهب لأقتل محمداً." حاول نعيم أن يحذِّره من سوء عاقبة عمل كهذا، ولكن عمر كان مصمماً على فعلته، ومضى إلى حيث محمد وصحبه.** وهنا قال له نعيم: "أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم أولاً، فإن أختك وزوجها قد أسلما."

فرجع عمر عامداً إلى بيت أخته والشرر يتطاير من عينيه، وغضبه يزداد مع كل خطوة يخطوها، وعندما وصل بيت أخته أدرك حقيقة الأمر بعد أن بلغ غاية جهله. ودخل البيت عليهما وعندهما من يقرأ عليهما القرآن، فلما أحسّوا دنو داخل عليهم أخفت أخته الصحيفة. وسألها عمر عما كانوا يقرؤون، ولما أنكرت صاح بهم وبطش بأخته وزوجها، وهاج إذ ذاك هائج الزوجين وصاحا: "نعم، أسلمنا، فاقض ما أنت قاض." واضطرب عمر حين رأى ما بأخته من الدم وغلبه برّه وعطفه، فارعوى وسأل أخته أن تعطيه الصحيفة التي كانوا يقرؤون. فلما قرأها تغيّر وجهه وأحس الندم على صنيعه، ثم اهتزّ لما قرأ في الصحيفة وأخذه إعجازها وجلالها. فخرج وقد لان قلبه يريد مجلس محمد، لا ليقارع بالسيف هذه المرة، بل ليعلن إسلامه ويصبح واحداً من أعظم أتباعه.

ويسجل التاريخ الإسلامي لنا العديد من الحوادث التي اعتنق فيها أفراد عظام الإسلام، ولكن إسلام عمر كان بلاشك واحداً من أهم هذه الحوادث دراميّة. فقد كان نقطة تحوّل في تاريخ دعوة محمد ﷺ، وكذلك تحولت صورة الإسلام في أعين القرشيين من جماعة دينية متحفظة مزعجة إلى دعوة تحدٍّ علنية للمؤسسة الحاكمة. وأما رد فعل قريش الوثنية فقد كان الاضطهاد الشديد لمحمد ﷺ وأتباعه، مما حدا بالمسلمين للهجرة إلى يثرب.

ولكن لم يمض وقت طويل قبل أن يصبح التحوّل إلى الإسلام أكثر سهولة، إذ سرعان ما انتشر الإسلام عبر الجزيرة العربية وذلك خلال أجيال قليلة بعد موت النبي ﷺ لتمتدّ الإمبراطورية الإسلامية من شاطئ المحيط الأطلسي في شمال غرب إفريقية إلى منطقة البنجاب في الهند شرقاً. ولم يكن الفاتحون العرب في عجلة من أمرهم لكسب أتباع جدد للإسلام، ولكن الانضمام لهذا الدين تواصل بخطاً بطيئة ولكنها حثيثة. وأصبح لهؤلاء المسلمين الجدد حصانة محددة ومزايا متعددة. وسرعان ما نمت الحضارة الإسلامية وتطورت؛ لتقود العالم في العلوم والتعليم والازدهار المادي بحيث أصبح الإسلام رمزاً للثقافة الأسمى خلال الجزء الأعظم من التاريخ الإسلامي في كافة الأرجاء التي انتشر فيها الإسلام.

وأما الوضع بالنسبة إلى معتنقي الإسلام الغربيين فمختلف عن هذا تماماً اليوم. فعندما كانت أوروبة غارقة في عصور ظلامها كانت الحضارة الإسلامية في قمة عصرها الذهبي. ولكن الغرب في النهاية استعاد عافيته، في حين تراجعت الحضارة الإسلامية لتغطّ في نوم عميق وطويل. على هذا فالمواقع بالنسبة إلى الحضارات في بداية هذا القرن كانت تقريباً على عكس ما كانت عليه خلال العصور الوسطى. فهناك العديد من الغربيين ومن المسلمين أيضاً ممن يرى أن العالم الإسلامي الحالي متخلف جداً، ولايرقى إلى مستوى الحضارة الغربية (الأوروبية والأمريكية). وبالإضافة إلى ذلك، فإن فترة تنيف على ألف سنة من التوتر والنـــزاع وعدم الثقة والأحقاد المتوارثة التي تراكمت عبر القرون

كان الجو حاراً وجافاً عندما انطلق عمر في الطريق المغبرة والملوثة إلى حيث يجتمع محمد ﷺ وأصحابه، وكانت الطرقات مقفرةً حيث القوم يمكثون في بيوتهم من حر الهاجرة. فكّر في نفسه، كيف يمكن (للأمين) أن يصبح خطراً يهدد المجتمع المكي الذي يعهده؟ حيث إن عهده به أنه كان انعزالياً، و لم يكن ليبدي أي طموحات سياسية أو بوادر من شأنها أن تزعزع الاستقرار في المجتمع المكي الواحد، وماذا حصل لعقول أبناء قريش كي يتّبعوه؟ ويسأل نفسه: كيف يمكن لإحدى القبائل العربية، وهي قريش، أن يخرج منها من يفرّق أمرها، ويعيب رأيها ويسفّه أحلامها؟ ما الذي حدا به؟!

وفجأة يسمع من يناديه: "إلى أين أنت ماض في عجلة ياعمر؟" ويلتفت عمر إلى من كان يهرول خلفه محاولاً اللحاق به، لقد كان نعيم بن عبد الله. يجيبه عمر: **"إنني ذاهب لأضع حداً لهذا الطاعون الذي أصاب مدينتنا، إنني ذاهب لأقتل محمداً." حاول نعيم أن يحذّره من سوء عاقبة عمل كهذا، ولكن عمر كان مصمماً على فعلته، ومضى إلى حيث محمد وصحبه.** وهنا قال له نعيم: "أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم أولاً، فإن أختك وزوجها قد أسلما."

فرجع عمر عامداً إلى بيت أخته والشرر يتطاير من عينيه، وغضبه يزداد مع كل خطوة يخطوها، وعندما وصل بيت أخته أدرك حقيقة الأمر بعد أن بلغ غاية جهله. ودخل البيت عليهما وعندهما من يقرأ عليهما القرآن، فلما أحسّوا دنو داخل عليهم أخفت أخته الصحيفة. وسألها عمر عما كانوا يقرؤون، ولما أنكرت صاح بهم وبطش بأخته وزوجها، وهاج إذ ذاك هائج الزوجين وصاحا: "نعم، أسلمنا، فاقض ما أنت قاض." واضطرب عمر حين رأى ما بأخته من الدم وغلبه برّه وعطفه، فارعوى وسأل أخته أن تعطيه الصحيفة التي كانوا يقرؤون. فلما قرأها تغيّر وجهه وأحس الندم على صنيعه، ثم اهتزّ لما قرأ في الصحيفة وأخذه إعجازها وجلالها. فخرج وقد لان قلبه يريد مجلس محمد، لا ليقارع بالسيف هذه المرة، بل ليعلن إسلامه ويصبح واحداً من أعظم أتباعه.

ويسجل التاريخ الإسلامي لنا العديد من الحوادث التي اعتنق فيها أفراد عظام الإسلام، ولكن إسلام عمر كان بلاشك واحداً من أهم هذه الحوادث دراميّة. فقد كان نقطة تحوّل في تاريخ دعوة محمد ﷺ، وكذلك تحولت صورة الإسلام في أعين القرشيين من جماعة دينية متحفظة مزعجة إلى دعوة تحدٍّ علنية للمؤسسة الحاكمة. وأما رد فعل قريش الوثنية فقد كان الاضطهاد الشديد لمحمد ﷺ وأتباعه، مما حدا بالمسلمين للهجرة إلى يثرب.

ولكن لم يمض وقت طويل قبل أن يصبح التحوّل إلى الإسلام أكثر سهولة، إذ سرعان ما انتشر الإسلام عبر الجزيرة العربية وذلك خلال أجيال قليلة بعد موت النبي ﷺ لتمتدّ الإمبراطورية الإسلامية من شاطئ المحيط الأطلسي في شمال غرب إفريقية إلى منطقة البنجاب في الهند شرقاً. ولم يكن الفاتحون العرب في عجلة من أمرهم لكسب أتباع جدد للإسلام، ولكن الانضمام لهذا الدين تواصل بخطاً بطيئة ولكنها حثيثة. وأصبح لهؤلاء المسلمين الجدد حصانة محددة ومزايا متعددة. وسرعان ما نمت الحضارة الإسلامية وتطورت؛ لتقود العالم في العلوم والتعليم والازدهار المادي بحيث أصبح الإسلام رمزاً للثقافة الأسمى خلال الجزء الأعظم من التاريخ الإسلامي في كافة الأرجاء التي انتشر فيها الإسلام.

وأما الوضع بالنسبة إلى معتنقي الإسلام الغربيين فمختلف عن هذا تماماً اليوم. فعندما كانت أوروبة غارقة في عصور ظلامها كانت الحضارة الإسلامية في قمة عصرها الذهبي. ولكن الغرب في النهاية استعاد عافيته، في حين تراجعت الحضارة الإسلامية لتغطَّ في نوم عميق وطويل. على هذا فالمواقع بالنسبة إلى الحضارات في بداية هذا القرن كانت تقريباً على عكس ما كانت عليه خلال العصور الوسطى. فهناك العديد من الغربيين ومن المسلمين أيضاً ممن يرى أن العالم الإسلامي الحالي متخلف جداً، ولايرقى إلى مستوى الحضارة الغربية (الأوروبية والأمريكية). وبالإضافة إلى ذلك، فإن فترة تنيف على ألف سنة من التوتر والنـــزاع وعدم الثقة والأحقاد المتوارثة التي تراكمت عبر القرون

قد زادت الهوّة ما بين الشعوب الإسلامية والغربية، حيث يرى كلٌ الآخر على أنه الشيطان ورمز للانحطاط. ووسائل إعلام كلٍ منهما تصوِّر كلاً للآخر على أنه العدو اللدود الذي يتهدده، ومن ثمّ يأخذ في حسبانه أن ذلك هو النبوءة الخاصة التي تتحقق على الصعيد الشخصي. فالأمريكي أو الأوروبي الذي يدخل في الإسلام، يدخل هذا الدين في بيئة تكاد تكون برمتها معادية لخياره، بيئة يمكن مقارنتها بمكة في أول اثني عشر عاماً من بعثة النبي ﷺ أكثر من أي بيئة أنجبت مهتدين جدداً إلى الإسلام (proselytes) واعتناق الإسلام في الغرب قد لايشكل أي خطر لتلك المجتمعات بقدر الخطر الذي شكله إسلام عمر لمجتمع مكة، بل إن ذلك قد يشكل ردود فعل سلبية متشابهة عند أقارهم وعند من لهم علاقة بهم. لم أقابل في حياتي معتنقاً غربياً للإسلام أو شخصاً هناك إلا تردد كثيراً قبل اتخاذ قراره، والسبب الوحيد في ذلك هو الخوف من ردود فعل المجتمع. ومادامت النظرة القائمة الآن هي أن الغرب ينظر إليه على أنه ضد الإسلام، فإن الدخول في الإسلام في الغرب سيبقى في معظم الأحيان إجراءً تدرّجياً بطيئاً جداً. وهناك عدد قليل من الأمريكيين أو الأوروبيين ممن يتخذون قرارات سريعة باعتناق الإسلام، ولكن هؤلاء في العادة لايمكثون طويلاً في الإسلام. ومعظم الذين اعتنقوا الإسلام في الغرب يتذكرون العديد من نقاط التحول الرئيسة في طريق تحوّلهم إلى الإسلام وذلك قبل قيامهم باتخاذ القرار النهائي بوقت طويل. والحالتان التاليتان تمثلان أنموذجاً مطابقاً لهذا الإحساس، برغم أنهما تعبّران عن شخصين ينتميان لخلفيتين مختلفتين جداً:

(١): " أوصيك يامالكوم (Malcom) أن تكفّ عن تناول لحم الخنــزير بعد الآن، وألا تدخّن أي سجائر أخرى، ولسوف أدلك على طريقة تخرجك من السجن." من كان يظن أن هذه الملحوظة القصيرة التي جاءت في نهاية رسالة كتبها رينالد ليتّل (Reginald Little) إلى أخيه الأكبر سوف يكون لها ذلك الأثر الكبير ليس فقط على أخيه، ولكن على حياة الكثير من الأمريكيين من ذوي

الأصول الإفريقية؟ كانوا يلقبونه في السجن بـــ(الشيطان)، لأنه في هذه المرحلة من حياته أصبح كالشيطان بعينه لجميع أولئك الذين كانوا يعرفونه. وهذه الملحوظة التعليمية أضاءت جذوة أمل لم تنطفئ بعد. إن الإنسان قد يتجسَّد شيطاناً إذا كانت جميع تفاصيل حياته تبدو خارجة عن سيطرته. **ولكن من كان يدعى بـــ (أحمر ديترويت** Detroit Red) اكتشف الحرية واحترام الذات في اتّباعه لمثل هذه النصائح. وكان له فيما بعد أن يتذكر هذه الرسالة ويعدّها الخطوة الأولى في مرحلة جريئة عاصفة قادته إلى "أمة الإسلام" تحت اسم مالكوم إكس (Malcom X)، ثمّ إلى رحلة الحج إلى مكة حيث اكتشف ما يعنيه الإسلام حقاً، ثم ـــ وبالنهاية ـــ إلى اغتياله الظالم الذي كان يتوقّعه وهيّأ نفسه له أصلاً، وذلك عندما رفض الإذعان أو المساومة على ما بدا له أنه الحق دون سواه. ولكن مالكوم إكس خلّف بريقَ أثرٍ سار على هداه العديد من **المسلمين الأمريكيين من أصول إفريقية، فقد تحوّل من اتّباع تعاليم إلّيجا** (Elijah Muhammad) الراديكالية إلى وجهات النظر الإسلامية التقليدية السائدة)[١]

(٢): في قلعة متواضعة وفي إحدى القرى الصغيرة التي تقع في إحدى شعب الجبال المغطاة بالثلوج بين حرّات وكابول في أفغانستان، تحوّلت محادثة ما بعد الغداء إلى ذكر قصة داود وجالوت:

قال المضيف: "كان داود صغيراً، ولكن إيمانه كان عظيماً".

أجاب ليوبالد ويس (Leopald Weiss) مراسل الشرق الأوسط لوكالة فرانكفورت زيتونغ (Zeitung Frankfurt) وأنتم الآن كُثُر ولكن إيمانكم قليل." ولم يكن ليوبالد يشير بالتحديد إلى مرافقيه الثلاثة، بل إلى الأمة الإسلامية أجمع. ولكن ليوبالد شعر بالحرج من أن يكون قد أهان مضيفه، ثم أخذ يعتذر له

---

(١) أليكس هيلي :Alex Haley سيرة حياة مالكوم إكس (The Autobiography of Malcom X نيويورك: مطابع Grove Publications ، ١٩٦٦م).

اعتذاراً شديداً، شارحاً له أنه لو كان المسلمون متمسكين بدينهم ومخلصين له، لما كانوا – في رأيه – في حالة البؤس والانحطاط التي هم عليها الآن".

ولكن المضيف قال همس: "ولكنّك مسلم".

ضحك ليوبالد وأجاب قائلاً: "كلاّ، أنا لست مسلماً، ولكنني شاهدت في الإسلام من الجمال ما يجعلني أغضب أحياناً عندما أرى قومكم يضيعونه".

ولكن مضيفه لم يوافقه الرأي، بل قال: "كلا، كلا، إنك -كما قلت لك- مسلم، ولكنّك لا تعرف نفسك".

من خلال مخالطته لشعوب الشرق الأوسط لعدد من السنين، اكتشف ليوبالد الإسلام بعمق وعلى صعيد شخصي، لدرجة أضحت فيها طريقة تفكيره وعيشه ممتزجة بهذا الدين بشكل أضحى جلياً حتى للغرباء. لم ينفك عن التفكير في كلمات مضيفه الأفغاني طيلة الشهور التي تلت، وكانت تلك هي التي أيقظت فيه القرار الذي كان عليه اتخاذه. وفي غضون العام، نطق ليوبالد ويس بالشهادة. واليوم يعرف أكثر ما يعرف بـــمحمد أسد الذي كان لكتاباته الأثر الكبير على العديد من المسلمين في كافة أرجاء العالم.[١]

لم يصف أي من هذين الرجلين اعتناقه للإسلام على أنه وثبات من الإيمان؛ ذلك أن دخول كل منهما في الإسلام كان نتيجة تطور كبير امتد العديد من السنين. ويورد العديد من المعتنقين الغربيين الجدد للإسلام أنه كان عليهم أن يقتنعوا فكرياً بحقيقة الإسلام أولاً قبل اعتناقهم له. ففي رسائلها التي أرسلتها إلى أبي الأعلى المودودي تصف مريم جميلة مناشدة الإسلام الفكرية لها[٢] . وكذلك تضمن اعتناق مارمادوك بيكتال (Marmaduke Pickthal) نضوجاً فكرياً

---

(١) محمد أسد: الطريق إلى مكةThe Road to Mecca ، (جبل طارق: دار الأندلس، ١٩٨٤م).

(٢) المراسلات بين أبي الأعلى المودودي ومريم جميلة-Correspondence between Abi-L-A'la Al Maududi and Maryam Jameelah، (طباعة وتوزيع IFTA, Islamic Trust ، ١٩٨٢م).

من مثل الحالة التي مرَّ بها محمد أسد[١]. وأمينة أسيلمي (Amina Assilmi) ونانسي علي (Nancy Ali)، وهما متحدثتان مشهورتان في المؤتمرات الإسلامية الأمريكية تصفان خياريهما عندما قررتا أن تصبحا مسلمتين بمصطلحات هي في جوهرها عقلانية[٢]. وغاري ميلَر (Garry Miller) وهو أحد المعروفين جداً بمشاركاته في الحوار المسيحي-المسلم يخبرنا كيف اقتنع بالإسلام بشكل عقلاني أيضاً، وذلك بعد قراءته للقرآن من نسخة كان قد عثر عليها مصادفة في إحدى المكتبات في كندا[٣]. وهناك أيضاً نوح حاميم كيلَر (Nuh HaMim Keller) الكاتب الصحفي في مجلة **المسلم الأمريكي** يذكر كيف ساعدته دراسته للفلاسفة المعاصرين كي يصبح مسلماً[٤].

ويجدر بي أن أذكر انطباعات أخرى لبعض المعتنقين الجدد الآخرين ممن قابلتهم شخصياً، وكذلك بعض الأشياء عن نفسي مما يستحق الذكر. وفي معظم الأحيان نجد أن المعتنق الجديد للإسلام غير عابئ بعملية البحث الروحي عندما يبدأ اهتمامه بالإسلام أو إدراكه له. وقد يكون لهذا عدة أسباب:

---

(١) بيتر كلارك :Peter Clark مارمادوك بيكثال مسلم بريطاني Marmaduke Pickthal: British Muslim، (لندن: كتب Quarter Books، ١٩٨٦م).

(٢) أمينة أسيلمي: الإسلام في حياتي: ١٦ سنة من حياتي كمسلمة Islam in My Life-Sixteen Years as a Muslim)) سلسلة أفلام الغزالي للفيديو، رقم ٢٣١، ١٩٩٣م. وكذلك: نانسي علي: رحلتي من المسيحية إلى الإسلام (My Journey from Christianity to Islam) سلسلة أفلام الغزالي للفيديو، رقم ١٤١، ١٩٩٠م.

(٣) غاري ميلَر: (Garry Miller) انطباعات حول النقاش المسيحي - المسلم (Impressions on the Christian-Muslim Debate) سلسلة أفلام الغزالي للفيديو، رقم ٢٣١، ١٩٩٣م. وكذلك نانسي علي: (رحلتي من المسيحية إلى الإسلام My Journey from Christianity to Islam) سلسلة أفلام الغزالي للفيديو، رقم ٢٠٧، ١٩٩٣م.

(٤) نوح حاميم كيلَر: "أن تصبح مسلماً"Becoming a Muslim ، مجلة المسلم الأمريكي The American Muslim Magazine II، العدد رقم ١١-١٢ (١٩٩٤م): ١٧-٢١.

أولاً: إن الإسلام لا ينظر للإيمان على أنه خبرة روحية. فكما رأينا سابقاً، إن الجانب الروحي من الإسلام لا يشكل سوى جانب واحد فقط من جوانب الإسلام الذي هو مفهوم شامل وكليّ للحياة.

وثانياً: إن الإسلام لا يقدم قداسة (sainthood) آنية للأشخاص، فروحانية المرء تنضج عن طريق التمسك بحزم وثبات بنظام ومنهاج دينيَّيْن.

ثالثاً: إن الأهمية التي يوليها المسلمون للالتزام بالقانون الشرعي (الشريعة) قد تحبط من عزيمة أولئك الذين يشددون على الجانب الروحاني من الإيمان، إذ يعتبر هؤلاء الروحانيون أن الإسلام قانوني وشرعي أكثر مما ينبغي. فمعظم الأمريكيين والأوربيين المعتنقين للإسلام كانوا في البداية فضوليين وتوّاقين لمعرفة عقائد وممارسات المسلمين الذين صادف أن قابلوهم. فغالباً ما يذكر أولئك أن الصورة التي ترسمها وسائل الإعلام الغربية عن المسلمين والتصوّرات التي تتشكل عندهم من جرّاء اتصالاتهم الشخصية مع المسلمين كانت متباينة، الأمر الذي كان يولد رغبة شديدة لديهم بمعرفة هذا الدين. فالعديد من هؤلاء الغربيين يعترف بأنه كان قد تأثر كثيراً بأصدقاء مسلمين أو باهتمامات رومانسية، ولكنهم دوماً يضيفون لاعترافاتهم تلك أنه في الوقت الذي يدفعهم الشوق والفضول لمعرفة المزيد عن الإسلام كان هناك ما يدفعهم إلى الإحجام عن قبوله دون الاقتناع التام به حيث إن الشعور السائد عند المسلمين هو أن المنافق أشد خطراً على نفسه وعلى الأمة من كافر صادق.

ويشخّص العديد من معتنقي الإسلام أن دخولهم في هذا الدين كان إذعاناً وتسليماً بالحقيقة المدركة، ويمكن لنا أن نرى أن إسلام هؤلاء كان مسألة اختيار بين مصالحهم المادية والاجتماعية من جهة، وعلاقتهم مع الله من جهة أخرى. وعلى نحو نموذجي، نجد أن معظم معتنقي الإسلام الغربيين المعاصرين كانوا غير ملتزمين دينيّاً قبل دخولهم في هذا الدين، فقد كانوا أناساً نبذوا أو كانوا مخدوعين بنظرة مجتمعهم للعالم وبأهداف وأحلام ذلك المجتمع. وغالباً ما

كانوا ينضوون تحت لواء أفراد غير شعبيين ويشاطرونهم الرأي غير مكلّفين أنفسهم عناء البحث عن نور الحقيقة. ويصف العديد من هؤلاء المعتنقين الجدد أنفسهم بأنهم **كانوا يؤثرون الوحدة والعزلة قبل انضمامهم للجالية الإسلامية. وغالباً ما يكون هؤلاء مثاليين** (idealists)، لا يهمهم الجاه والنفوذ والشهرة بقدر ما تهمهم الحرية الشخصية والمُثُل. ومن ناحية الاتجاه السياسي، فغالباً ما يميل هؤلاء نحو أقصى اليسار الليبرالي (Liberal) الحر أو اليسار الراديكالي (Radical) المتطرف قبل تحوّلهم للإسلام. وهم في العادة أفراد شديدو الثقة بأنفسهم معتدُّون بآرائهم ومغامرون بتفكيرهم، وهم في الغالب يحبون البحث والتحقيق، وهم انفتاحيون حيال الأفكار الجديدة، ومع ذلك فقد يبدون عقائديين، ولا يساومون على المبادئ. ويورد قليل من هؤلاء المعتنقين الجدد مثل مريم جميلة أنه قد مرَّ بأزمة عاطفية قبل أن يبدأ اهتمامه بالإسلام، برغم أن هذه الحالة غير معيارية.

إن العديد من معتنقي الإسلام هؤلاء كانوا ملاحدة رسميين أو لاأدْريين، ومنهم مراد هوفمان، ومريم جميلة، ومحمد أسد، ومالكوم إكس، ونوح حاميم كيلَر، وأنا شخصياً. وفي أمريكا يبدو أن الغالبية العظمى من الأمريكيين البيض الذين يتحولون إلى الإسلام هم من عائلات كاثوليكية. وهذا الوضع ينطبق عليَّ وعلى معتنقين ممن هم أكثر شهرة مني أمثال غاري ميلَر وستيف جونسون (Steev Johnson) وجمال زارابوزو (Jamaal Zarabozo) ونانسي علي وأمينة أسيلمي ومراد هوفمان ونوح حاميم كيلَر. وبالنسبة للأمريكيين من أصول إفريقية فيبدو أن خلفياتهم الدينية هي مما ينسجم مع النسيج السكاني ديموغرافيات (demographics) للغالبية العظمى من أفراد الجالية الأمريكية السوداء غير المسلمة.

وفيما يلي محاولة لرسم جوانب من شخصية المعتنق الجديد الاحتمالية : غالباً ما تكون هذه الشخصية من الشباب نسبياً، ما بين الخامسة والعشرين والأربعين

من العمر. مثالية ومضحّية بالذات، ولكنها غير ملتزمة دينياً أو أخلاقيّاً، وتميل للعزلة بين الفينة والأخرى، **وتفضّل مصاحبة جمعيات المحرومين من بعض الامتيازات الشرعية أو القانونية. وهي في طبيعتها تتراوح ما بين من ينبذ المادة والصوفي الزاهد. وهي فعّالة ونشطة** (activist) وخاصة سياسياً، ومن الناحية السياسية هي شخصية ما بين الليبرالية والراديكالية، وهي مثقّفة ثقافة جامعية وتمتلك القدرة على التحول المفاجئ في وجهة النظر بشكل جدي ومفرط في الحماس. وهي فضولية جداً وشديدة الاعتزاز برأيها، ولكنها عنيدة أيضاً. وهي شخصية ميّالة للنقاش والجدل، وشديدة الاعتزاز بالنفس ونزّاعة للتأمل. وهي كذلك ميّالة للعقلانية في الدين على عكس الروحانية، وهي كثيرة النقد للآخرين، وتتراوح ما بين مخلص في التزاماته جميعاً إلى مفرط في الحماس حيال ذلك.

وبعض هذه الخصال قد تعمل ضد الفرد إذا ما قرر الانضمام إلى الجالية الإسلامية في الغرب. فالأهمية الكبرى التي توليها هذه الجالية لمسألة اتباع السنة قد يتعارض مع سلوك الشخصية البعيدة عن أي التزامات دينية أو أخلاقية. وبعض المعتنقين الجدد يعتقد أن كره النساء (misogyny) أمر شائع عند المسلمين، ومن ثمّ يتعارض مع النظرة الليبرالية الغربية (من المهم أن نلاحظ أن عدداً كبيراً من المعتنقات الغربيات كن من المتعصّبات لجنسهن ضد الرجال (feminists) قبل اعتناقهن الإسلام). وتميل الأمة الإسلامية المعاصرة للشك بالفلسفة، والقلق حيال ما يقوم به بعض المعتنقين الجدد من اتخاذها محاولة عقلانية أكثر مما ينبغي لفهم الدين[1] . وبرغم أن الجالية الإسلامية أصبحت كبيرة إلى حد ما في الغرب (هناك أكثر من خمسة ملايين مسلم في أمريكا الشمالية وحدها)، فإنها ما تزال

---

(١) للاطلاع على المزيد من تاريخ العقلانية والفلسفة في الإسلام انظر كتاب فضل الرحمن في الإسلام (Fazlur Rahman Islam) مطابع جامعة شيكاغو، (١٩٧٩م،ص ٨٥-١٠٠، وكذلك انظر هــ. ر. جيب :H. R. Jibb المحمدية Muhammadanism (لندن: مطابع جامعة أوكسفورد،)، ص ١٠٧-٢٧.

(خجولةً) من الناحية السياسية، ومن ثمّ فإن المعتنقين الجدد هم أميَل إلى الإحباط بسبب ما يرون أنه سلبية مفرطة في الجالية الإسلامية حيال هذه الناحية.

وكما ذكرنا للتو، فإن مسألة أن يعلن فرد ما إسلامه بشكل رسمي وعلني، نادراً ما تكون سهلة في الغرب. ولكن يبدو أنه كلما كانت الصعاب كبيرة في اتخاذ مثل ذلك القرار يكون تمسك المعتنق الجديد بدينه الجديد أقوى والتزامه به أشد. وربما يعود السبب إلى كون هؤلاء قد أخذوا في اعتبارهم جميع هذه المصاعب، وقبلوا بالمشاكل التي قد تنجم عن مثل هذا التحول إلى الإسلام في كل من أمريكا وأوروبة. إن الزمن الذي أمضاه جميع الأشخاص الذين ورد ذكرهم آنفاً كان طويلاً جداً بالنسبة إلى الجميع ما عدا واحداً منهم، وهذه الحالة قد تكون استثناءً يثبت القاعدة، أو ربما لا يكون كذلك. فمن الوهلة الأولى بدا اعتناق مالكوم إكس للإسلام وكأنه اندفاعٌ مفاجئ، حيث بدا وكأنه قد قبل الإسلام في السجن على الفور، وذلك بعد قراءته لرسالة أخيه رينالد. ولكن هذه نتيجة خاطئة، فاعتناق مالكوم لما رآه في النهاية بحسبانه الإسلام الحقيقي الجوهري كان عبارة عن عملية تطوّر طويلة جداً دامت أكثر من عقدين من السنين، تتوجت أخيراً برحلة الحج التي قام بها إلى مكة. الأمر الذي يجعل من اعتناقه شيئاً مميَّزاً هو التصميم الذي سلّم نفسه به إلى الإسلام باعتناقه له. فقد كان مدركاً تماماً للأخطار الشخصية الجسيمة التي كانت ستنجم عن إسلامه، ومع ذلك فعندما اقتنع بالإسلام لم يُظهر أي تردد قط للدخول فيه.

إذن، ماأهم العقبات التي تبرز في طريق التحول إلى الإسلام في الغرب؟ وما أهم الأسباب التي تجعل الناس يترددون في اعتناق هذا الدين حتى حينما يناشدهم الدين ذلك؟ هذه أنماط أسئلة مهمة بالنسبة إلى المسلمين الذين يعيشون في الغرب، حيث العديد منهم يشعر أن من واجبه التمسك بدينه

والدعوة له–ومع ذلك فهي أسئلة نادراً ما يسألها المعتنقون الجدد. **وإذا ما كان المعتنقون الاحتماليون يتوقعون أي أذىً من مجتمعاتهم، فربما تكون الجالية الإسلامية قادرة على مساعدتهم في تهدئة هذه المخاوف أو معالجتها. وإذا ما كانت الجالية الإسلامية تقوم بأعمال معيّنة من شأنها أن تحبط من عزيمة المعتنق الجديد الاحتمالي بسبب اعتناقه للإسلام، فمن المعتقد أن الجالية الإسلامية تريد أن تعرف ماهية هذه الأعمال والتصرفات التي من شأنها أن تسيء لهذا المعتنق الاحتمالي.**

* * *

الإسلام في الغرب

استلقيت على ظهري في فراشي في الظلمة، ولكن لم أقدر على النوم، فأخذت أحدق في السقف. لم أكن أقدر على تحمل مثل هذه الحالة من الملل، وهذه سمة ورثتها عن أمي. ولم أقدر على تحمُّل ليلة أخرى مؤرقة. كنت أشعر بضربات قلبي عندما أضأت النور بجانب سريري. شعرت بالاضطراب بينما كنت أدير قرص الهاتف لأتصل بأمي البعيدة عني في مدينة أخرى. لم تكن محادثتي معها سهلة، فقد كنت عصبي المزاج، ولم أكن أشعر بالارتياح، ولكن أمي سألتني في النهاية قائلة: "ما الخطب ياجف Jeff ؟" كانت أمي سنام الدين في أسرتنا، فعندما كنّا صغاراً كانت تجرّنا جميعاً إلى الكنيسة كل يوم أحد، وكانت المدارس التي أرسلتنا إليها من الابتدائية إلى الثانوية جميعها مدارس كاثوليكية، وكانت تتصدّق بالمال للكنيسة كل أسبوع، وكانت ترعى حقوق الجيران جميعاً وخاصة العجزة منهم، ولم تتلفّظ قط بكلمة تجديفية، وبذلت كل ما لديها من جهد كي تمنع أولادها أن ينشؤوا تنشئة سيئة، وكي تحميهم من شرور الرذيلة ودروب الهلاك التي كانت تدمّر الكثير من الأطفال في مدن مثل بريدجبورت (eport Bridg)، وكونّيكتيكات (Connecticut) . لقد كانت أكثر من أم بالنسبة إلي، فقد كانت صديقاً ومثلاً أعلى لي. لقد خيّبت أملها مرّة من قبل، ولكنها كانت دوماً تقول: إنها فخورة بي وتكن لي كل الاحترام .

قلت لها: "لقد فعلت شيئاً يا أمي، وأعتقد أنك يجب أن تكوني أول من يعلم بذلك." شعرت وكأني أفضي بشيء كأنما أخجل منه، شعرت وكأني اقترفت إثماً أو ارتكبت جريمة. قلت لها: "لقد أصبحت مسلماً".

صعقت للخبر، وشعرت بألم عميق. بقيت ربع ساعة وأنا أشعر كمن قد حصر في ركن، أحاول البحث عن كلمات أسوِّغ بها سبب إقدامي على مثل ذلك الفعل. شعرت وكأنني كنت سخيفاً جداً، ولم أكن لأملك أعصابي. حاولت أن أطلق بعض النكات لأطمئنها أنني لم ولن أتغيَّر قط. ولكنني تغيَّرت، وكنت أعلم أنني تغيَّرت فعلاً. ثم إني تظاهرت أني مندهش بردود فعلها، فقلت لها: "لقد كنت ملحداً، وكنت أظن أنك ستفرحين بأني أخيراً عدت إلى رشدي، وأصبحت الآن أؤمن بالله." ولكنها قالت سائلة: "كيف لك أن تعبد محمداً؟ كيف تستطيع أن تعبد إنساناً؟"!

وبسؤال أمي هذا وجدت مخرجاً. فحتى تلك اللحظة كان ينتابني شعور بالذنب والارتباك لما سببته لثقافتي وتراثي وأمي، فقد كنت قلقاً للغاية حول الطريقة التي سوف ينظر بها المجتمع إلي، وكيف ستلتصق صورتي بكثير من المفاهيم الخاطئة التي يلصقها الأمريكيون بالمسلمين. ولكن الطاولة استدارت فجأة عندما أصبحت الكرة في ملعبي، وحينها انتابني شعور عارم من الثقة فبدأت هجومي، قلت لها: "أعتقد بأن الأدوار معكوسة يا أمي، فالمسلمون لا يعبدون محمداً ﷺ، وما كان عليك أن تجيبيني بمثل ذلك." استمرت المحادثة، وكنت أنا سيِّد الموقف بعد ذلك. كان لنا جولات هاتفية مماثلة أخرى، ثم إني سافرت إلى كونَّيكتيكات في الإجازة الفصلية، وكان بيني وبين أمي مساجلات كثيرة، ولكنني كنت المنتصر فيها دوماً، مادام أنه كان لدي الأسباب المقنعة التي دفعتني للإلحاد في سن السادسة عشرة ومن ثم إلى اعتناق الإسلام في الثامنة والعشرين. وأخيراً تحوَّل الصراع الديني بيننا إلى حوار ثم أصبح كل منَّا يحترم وجهة نظر الآخر.

ثم إن أمي أصبحت فضولية جداً عن دياني، وطلبت مني أن أرسل لها نسخة من محاضراتي عن الإسلام المسجلة على أشرطة الفيديو. وفي إحدى زياراتها لـــكانساس (Kansas) حيث أسكن، سألتني إن كان بمقدورها حضور محاضرة عن الإسلام كان مخططاً لي أن ألقيها في الجامعة. وبعد خروجنا من المحاضرة وفي طريقنا إلى البيت أخذت أمي تشرح لي كيف أن على المرء أن يبقى متمسكاً بإحدى ديانات ثقافته، وأنه ليس بمقدور كل إنسان أن يقوم بما قمت به أنا، وأن الله الرحمن الرحيم يعلم ذلك وسوف يغفر لنا ذلك. كان ما قالته أمي هجوماً مباغتاً عليّ، وأسقط في يدي فلذت بالصمت. ثمّ أضافت قائلة وهي تنظر من نافذة السيارة: "أعتقد أن دينك قد يكون له معنىً أكثر من ديني، وأنا أفهم كيف يتناسب الإسلام وطريقة تفكير أناسٍ مثلك، ولكنني لا أستطيع أن أصبح مسلمة." ثم إني خاطبتها بسرعة قائلاً: "ولكنك تعلمين أنني لم أقترح الإسلام على أحد في محاضرتي." فقاطعتني مجيبة: "أعلم أنك لم تقترح".

إن أكبر عقبة يصادفها المعتنق الاحتمالي لقبول الإسلام هي قلقه حيال ردود فعل المجتمع تجاه مثل ذلك القرار، وقد كانت معظم الأسئلة التي يطرحها عليَّ أناس يفكرون في اعتناق الإسلام تدور حول ردود فعل أسرتي وأصدقائي تجاهي عندما أصبحت مسلماً. والانطباعات الأولى لأقارب وأصدقاء معتنقي الإسلام الجدد في الغرب كانت دوماً تتضمّن بعضاً من الإصابة بالصدمة وخيبة الأمل والخوف. وبعض المسلمين الجدد يُقابَلون بحقد أعمى وحنق عليهم من مجتمعهم، وذات مرة حدث أن قوطع بعض هؤلاء بشكل كلي من قبل أقاربهم وأصدقائهم. ولكن في معظم الحالات نجد أن كثيراً من أهالي وأقارب المعتنقين الجدد يقبلون ذلك ويعدونه مجرد مسألة شخصية، بل إن بعضهم يحترم ذلك خصوصاً إذا ما وجد هؤلاء أن ذلك المعتنق الجديد أصبح أكثر سعادة وطمأنينة وسكوناً بمعتقده الجديد. وإذا كانت العلاقة بين المعتنق الجديد وذويه أو أصدقائه قوية قبل إسلامه، فإنها غالباً ما تبقى كذلك حتى بعد إسلامه،

وبالإضافة إلى ذلك يمكن للمعتنقين أن يقللوا من حدة التوتر في أثناء نقاشهم للإسلام، وذلك بعقلانيتهم وبعدهم عن العدوانية، وهذا عمل ليس بالهين ذلك أن المواقف التي تواجه المسلمين الجدد غالباً ما تكون عدوانية وحاقدة، ومن ثم يكون موقف هؤلاء أن الجزاء من جنس العمل، مع أن القرآن لا يؤيد أسلوباً كهذا:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بها وَيُسْتَهْزَأُ بها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٤٠/٤].

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥/١٦].

﴿وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنا وَإِلَهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦/٢٩].

إن الحاجة لاستخدام "الحكمة والموعظة الحسنة" عندما يمثّل المرء الإسلام تؤدي عملها على أتم وجه وذلك بتوسيع معرفة المرء بالإسلام، وكذلك بديانات العالم الأخرى. وبهذه الطريقة يمكن تحاشي مناقشات حول مواضيع هي ليست موضع خلاف كبير، ومن ثمّ يمكن أن يتركز الحوار بشكل أوضح حول قيم ووجهات نظر مشتركة، وكذلك حول مواضيع ذات موضع خلاف جوهري.

والعديد من معتنقي الإسلام في الغرب يخشى التمييز العنصري في العمل؛ ولذا فهم يخفون إيمانهم عن أرباب عملهم وعن زملائهم في العمل. وبالنسبة إلي، فقد عبّر بعض الزملاء عن امتعاضهم وعدم رضاهم فيما يختص بالتزامي بالإسلام، ولكنني لا أعتقد أن ذلك قد أثّر على عملي كثيراً. ولاشك أن هناك آخرين ممن لاقى واحتمل العناء الكبير في الغرب من جرّاء اعتناقه الإسلام

وخاصة النساء. فالرجل يمكن أن يصبح مسلماً دون تغيير كبير في مظهره الخارجي، ومن ثم يمكنه إخفاء هويته الدينية عندما يشاء، ولكن الجالية الإسلامية تشدد كثيراً على الأخوات المعتنقات الجدد كي يتقيَّدن باللباس الإسلامي التقليدي المحافظ، برغم أن ذلك غالباً ما يودي بهن للمعاناة الشاقة، ويجعلهن فريسة سهلة للتهديدات والإهانات. إن زوجتي ليست معتنقة جديدة للإسلام، ولكنها مسلمة أصلاً، ومع ذلك فقد طُوردت وشُتمت وضُربت، و لم يوظِّفها أحد بسبب لباسها. فعندما يعتنق رجل ما الإسلام فقد يُنظر إليه على أنه غريب الطبع والأطوار نوعاً ما، وربما يُنظر إليه على أنه مستقل التفكير أو متمرد، بل ربما يُنظر عليه على أنه شجاع؛ ولكن عندما تعتنق امرأة ما الإسلام فإن اليد التي تهزُّ المهد تعدّ مجرمة بخيانتها للثقافة. ويبدو أن كل مجتمع يثبّت شرفه وأعرافه وتقاليده واستقراره على نسائه، ولذلك إذا ما خرجت الأنثى عن الخط تفتّح أبواب الجحيم، وتدور الدوائر على ذلك المجتمع. إن معتنقة الإسلام الجديدة في الغرب تقع — أكثر مما يقع فيه المعتنقون من الرجال — بين ناري ثقافتين؛ إذ تصبح بمثابة الحبل في لعبة شد الحبل بين عدوّين متخاصمين، بين مُجْتَمَعَيْن: المجتمع الغربي المهيمن، والمجتمع الإسلامي المحافظ الذي ينضوي تحت ثقافة ذلك المجتمع. والمجتمعان كلاهما يتحاربان في اتجاهين مختلفين، كل يحاول تأكيد نفسه وإثبات ذاته من خلالها. إن مثل هذا الضغط الملموس من كلا المجتمعين يؤدي بالعديد من النساء ممن يرين الكثير من الإيجابيات في الإسلام أن يبقين غير مسلمات، وبدوره كذلك يؤدي بالعديد من النساء اللائي اعتنقن الإسلام أن ينأين بأنفسهن عن الجالية الإسلامية.

إن الجالية الإسلامية في الدول الغربية بوسعها أن تعمل الكثير كي تزيل الضغوط التي يشعر بها ويلقاها أولئك الذين ينضمون إلى دينهم.

أولاً وقبل كل شيء، يمكنها أن تلعب دوراً أكثر فاعلية في محاربة التمييز. فحتى الآن نجد أن الجالية الإسلامية هي واحدة من أكثر الجاليات سلبية في

الغرب. وإذا ما صادف أن اختار مسلم أمريكي أو أوروبي أن يناضل ضد التمييز، فغالباً ما يكون ذلك معركة فردية[١].

ثانياً: يجب على الجالية الإسلامية في الغرب أن تخفف من الضغط على أعضائها من الإناث من حيث التقيد الشديد بأنظمة اللباس الإسلامي التقليدي. فالمخاطر والمعاناة التي تواجهها بعض أولئك النسوة قد تكون قاسية جداً، وليس هناك نظام اجتماعي راسخ من شأنه أن يدعمهن ويحميهن. إن فرض اللباس والسلوك المحتشمين يجب أن يكون كافياً في الوقت الراهن.

وثالثاً: يجب أن يصبح المسجد أكثر ما يصبح ملاذاً ودعامة للمسلمين الجدد، ويجب أن يكون مكاناً لهؤلاء يَلْقَوْن فيه الراحة والتشجيع. ففي زمن النبي محمد ﷺ كانت المساجد تؤدي دوراً كهذا. ولكننا اليوم نجد أن المسلمين الجدد لايشعرون أنهم غرباء في ثقافتهم الغربية وحسب، بل غالباً ما يشعرون بالغربة في المكان الذي يجب أن يكون مركز حياة الجالية الإسلامية بعينه. وهذا ينطبق أكثر ما ينطبق على حالات النساء المعتنقات الجدد؛ ذلك أنهن - كما النساء بشكل عام — غالباً ما يجبرن على الشعور بأنهن غير مرغوب بهن في المسجد.

أعرف سيدة شابة من كاليفورنيا (California) كانت قد ذهبت مع أمها إلى المسجد كي تعرف المزيد عن الإسلام. وعندما شاهد الرجل الذي فتح لهما الباب سيديتين أمريكيتين أمام الباب أوصد الباب في وجهيهما. وطالب مسلم من جامعة سان فرانسيسكو (San Francisco) أعلن ذات مرة أنه إذا رأى امرأة تصلي في المسجد، فسوف يلقي بها أرضاً خارج المسجد. وقد أخذت بعض النساء المعتنقات الجدد ذلك التهديد على محمل الجد ثم انقطعن فجأة عن أداء صلاتي المغرب والعشاء في المسجد.

---

(١) لا يسعني إلا أن أشيد بالمجلس الإسلامي الأمريكي American Muslim Council ((AMC)) وكذلك بمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية Council on American Muslim Relations (CAIR) لجهودهم الحثيثة لمحاربة التمييز والاضطهاد ضد المسلمين.

وكما لاحظنا، فإن التغريب عن الأقارب والأصدقاء والتمييز العنصري في العمل يبدوان على أنهما مصادر القلق الأكبر التي تصادف أول ما تصادف معتنقي الإسلام الاحتماليين في الغرب، وأن التغلّب على هذه المصاعب يبدو صعباً للغاية. وفي حين يقر معظم المعتنقين الجدد بأن ردود الفعل التي صادفوها في مجتمعاتهم كانت باردة، فإنهم يعترفون أيضاً بأن هناك مخاوف أكبر لابد قادمة إليهم. وإذا ماتغلب المرء على هذه المخاوف وهذا القلق فإن واحدة من أهم العقبات تزول من أمامه حتى يصبح مسلماً، أو يحافظ على إسلامه إن كان كذلك. هناك العديد من المرتدين الغربيين عن الإسلام، والكثير من هؤلاء يدّعي بأن الجالية الإسلامية كانت إحدى المشكلات التي أدت بهم للارتداد عن هذا الدين.

* * *

تأكيد المفاهيم الخاطئة

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/١١٠].

للثقافة الغربية مفاهيمها المسبقة والمحددة عن الإسلام وأتباعه متأصلة بعمق في خبرتها الطويلة على أنها هي المنافس الرئيس للعالم الإسلامي[١] . قد يتخلى إنسان ما يبحث عن الله عن حقده الشخصي الزائف حيال دين ما، أو أن ينحي ذلك جانباً، ولكن المؤمن سرعان ما يستطيع التأكيد على /أو إشعال/ نزعات سابقة بغض النظر عن الخلفية الدينية أو اللادينية لسلوك الجالية. وفيما يلي مناقشة لما أعتقد أنه بعض المشكلات الكبرى التي يلقاها أناس مهتمون بصدق بالإسلام من الجالية الإسلامية.

---

(١) نورمان دانيال: Norman Daniel الإسلام والغرب: صناعة الصورة (Islam and the West: The Making of an Image an) أوكسفورد: مطابع One World ، ١٩٩٣م.

ديانة عربية

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٧٩/٤].

﴿يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠/٤].

﴿قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨/٧].

﴿هَذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢/١٤].

﴿وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨/٣٤].

وهناك العديد من الآيات في القرآن تشير إلى الشخصية العالمية للإسلام وإلى مخاطبة ونصح كافة البشر (الخطاب في العربية هو "يا أيها الإنسان، يا أيها الناس"). ومن الطبيعي أن يكون أتباع النبي ﷺ المباشرون من العرب، وبناء عليه، وكما يؤكد القرآن، طبيعي أن يكون التنـــزيل في العربية (انظر الآيات ٢ من سورة يوسف، و١٩٥ من سورة الشعراء، و٧ من سورة الشورى، و٣ من سورة الزخرف، و١٢ من سورة الأحقاف). إن ما قام به الرعيل الأول من المسلمين (الجالية الإسلامية الأولى) بنجاح منقطع النظير في حماية وصيانة التنـــزيل في لغته الأصلية، وفي جمعها وحفظها لآلاف التفاصيل من أقوال النبي ﷺ وأفعاله اليومية أكّدت أن لغة وثقافة الجزيرة العربية في القرن السابع (الميلادي) هي التي أثّرت وسوف تؤثر في حياة المسلمين أجمع وللأبد. فكل مسلم جديد لا بدَّ وأن يتعلم بعض العربية، ما يكفيه على الأقل لإقامة صلواته مادامت العربية هي اللغة التي يجب أن تُمارس بها الطقوس الدينية في الإسلام. وفي محاولة منهم لتطوير نظام حياة إسلامية في الغرب فإن العديد من المسلمين الجدد يشعرون أنه من المفيد أيضاً تعلم قواعد اللغة العربية بشيء من التعمق كي

يعينهم ذلك في فهم القرآن والسنة دون أي مساعدة خارجية. **وبرغم أنه يتوجب على المرء تعلم بعض النصوص القصيرة من القرآن عن ظهر قلب كي تعينه في أداء الصلاة، ورغم أن دراسة مصادر النصوص الإسلامية الأكاديمية تحتاج لمعرفة واسعة باللغة العربية، فإن هذا لا يعني على الإطلاق أن الإسلام هو دين عربي محض، حسب المفهوم السائد في الغرب.** وفي الحقيقة فإن أغلبية المسلمين في العالم (حوالي ٨٥٪) هم من غير العرب، ولا يعرفون العربية بشكل فعلي، ومع ذلك فإن هذا التصور الزائف عن الإسلام (الإسلام دين عربي) هو ذنب المسلمين أكثر مما هو ذنب غير المسلمين.

ويبدو أن الثقافة العربية الشرق أوسطية تهيمن على الجاليات الإسلامية في أمريكا وأوروبة بدرجة تفوق ما يتطلبه البحث والشعائر والتقوى. وفي العديد من المؤتمرات الإسلامية التي تعقد في البلدان الغربية يتم فصل النساء عن الرجال، ويقوم العديد من المشاركين بارتداء الزي الشرق الأوسطي (وخاصة المعتنقين الجدد)، وغالباً ما يستخدم العديد من المتحدثين الكثير من مفردات العربية في محاضراتهم برغم أن غالبية الحضور قد لا يتكلمون العربية، وبرغم أن الترجمات الإنجليزية معروفة ومتوفرة. والأمر نفسه ينطبق على المحاضرات الإسلامية التي تقدم للجمهور العام والتي تنظّمها وتدعمها مؤسسات إسلامية.

أذكر محاضرة حضرتها في الجامعة عندما بدأ اهتمامي بالإسلام، وكان المتحدث أمريكياً معتنقاً للإسلام، وكان يرتدي ملابس أشبه ما تكون بالزي السعودي، وكان يُضمِّن خطابه وعلى نحو مستمر مصطلحات عربية كان يلفظها بشكل غير صحيح كما لو أن جميع الحضور يجب أن يكونوا على معرفة بها، وهذا ما خلق فجوات كبيرة في فهمي لتلك المحاضرة بحيث أضحت المحاضرة بالنسبة إلي غير مفهومة. غادرت المحاضرة بشعور وهو أنني إذا أردت أن أصبح مسلماً يتوجّب علي أن أصبح عربياً أو على الأقل أجنبيًا. ويبدو أن هذه هي الرسالة التي يتلقاها العديد من المسلمين سواء أكانت الجالية تقصد

ذلك أم لا تقصده. لقد اعتاد ستيف جونسون وهو معتنق أمريكي أن يحاضر بكثرة عن الإسلام، وقد قال لي مرة إنه سمع أخاه يقول لصديقه على الهاتف: "نعم بالتأكيد، لقد أصبح أخي ستيف عربيّاً." وبالنسبة إلينا، يمكننا طبعاً فهم أبعاد مثل هذه الفوضى.

ومعظم المعتنقين الجدد يتخّذون أسماءً عربية برغم أن المعتنقين الأوائل للإسلام من غير العرب حافظوا على أسمائهم الأعجمية من أمثال سلمان الفارسي وبلال الحبشي دون أن يعترض النبي ﷺ على ذلك قط. وقد قابلت بعضاً من المعتنقين الجدد ممن أصبح وبسرعة مذهلة قادراً على التكلم بلكنة أجنبية (عن لغته الأصلية)، برغم أنهم لم يسبق لهم أن غادروا أمريكا و لم يسبق لهم أن تعلموا لغة أجنبية أيضاً. وفي إحدى المناسبات اصطحبت صديقاً لي مسلماً من اليمن إلى محاضرة ألقيت في مركزنا الإسلامي المحلي. وبينما كنّا نصغي للمحاضرة مال نحوي وهمس في أذني قائلاً: "لقد سافرت إلى الهند والباكستان وأعرف لهجتهم جيّداً، هل المتحدث من الباكستان؟" قلت له: "كلاّ، فأنا أعرفه جيداً، وهو من الجيل الخامس من الإسكندنافيين المهاجرين إلى سان دييغو (San Diego).

وعندما يظهر بعض الأتقياء من المسلمين الأمريكيين في الأنباء فغالباً ما يرتدون حلّة شرق أوسطية عربية. إن المدافعين عن قضية تفجير مركز التجارة العالمي كانوا يظهرون في معظم الأحيان باللباس الغربي، برغم أن عدداً قليلاً منهم فقط كانوا أمريكيين. وكات ستيفن (Cat Steven) وهو يوسف إسلام بعد إسلامه يظهر دوماً وهو يرتدي عمامة وثوباً طويلاً. ومؤخراً وفي لورانس (كانساس) قاد معتنق أمريكي يحمل اسماً عربياً إضراباً عن الطعام ضد مؤسسة هولْ مارك (Hallmark Coporation) بعد توزيع هذه الأخيرة بطاقات تهنئة شعر أنها تحمل صورة تسيء إلى الإسلام، وفي كل مرة كان يظهر فيها على التلفاز كان يرتدي جلباباً مصرياً. وأما البطاقة التي أثارت غضبه فكانت عبارة عن صورة امرأة أمريكية مصابة بمرض العُصاب (neurotic) اعتنقت الإسلام

وتحجّبت على الطريقة الإيرانية وبدّلت اسمها إلى (ياسمين) ثم هاجرت إلى طهران. لاشك أن للمسلمين كل الحق في الاحتجاج على البطاقة التي تحمل اسم مكة بتورية لا تنم عن الذوق، ولكن المفارقة أن الغضب العارم الذي تم التعبير عنه بشكل مرئي عزّز النمط الذي قدمته البطاقة وهو: لكي يصبح المرء مسلماً فإنه لابد أن يصبح شرق أوسطياً.

* * *

البلد البوتقة

هناك عدد من العوامل التي تسهم في هيمنة الثقافة الشرق أوسطية — وخاصة العربية والشرق أوسطية — على الجالية الإسلامية في الغرب. فأولى أهم الحقائق هي أن غالبية المسلمين الذين يعيشون في الدول الغربية هم من المهاجرين العرب والباكستانيين والهنود والإيرانيين والأتراك. **ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء فخورين بثقافتهم وحريصين على حفظ تراثهم ضمن أسَرهم وعائلاتهم وجالياتهم.** وكما هو الحال مع المهاجرين من أراض غير غربية، فإن المجتمعات الغربية قد تبدو لهم في معظم الأحيان غريبة ومخيفة، وهذا ما يزيد من حاجتهم للتمسك بجذورهم.

إن الإسلام قوة اجتماعية قوية جداً في أوطان هؤلاء المهاجرين، حيث امتزجت — مع الزمن — الثقافة بالدين في تلك المجتمعات، وهكذا يصبح من المحتمل أن يعد كل مهاجرٍ مفاهيم ثقافته الخاصة وممارساتها وتطبيقاتها أصدق تعبير عن الإيمان، ومن ثمّ فإنه يعبر عن عدم ارتياحه لمنظورات المسلمين التي تختلف عنها. وقد نتوقع أنه إذا كانت غالبية الأعضاء في جالية إسلامية محلية ما، أو في منظمة إسلامية معينة ينتمون إلى ثقافة عامة من بلد (أو بلدان) ما، فإن سياسة هذه الجالية أو تلك المنظمة سوف تعكس الخلفية الثقافية للبلد الذي تنتمي إليه. ومع ذلك لا يمكن اعتبار هذا على أنه قاعدة. فمن أجل تحاشي

أي صدامات داخلية غالباً ما تطبّق الجالية أو المنظمة الإسلامية **الخيار الثقافي الأكثر محافظة والذي يتم الدفاع عنه ولو كان عدد مؤيدي هذا الخيار قلائل، وذلك أنه فيما لو كان هنالك خطأ ما فإن المسلمين يفضّلون أن يكون ذلك الخطأ وهم على الجانب المحافظ.** والنتيجة هي أن الثقافة الثانوية أو الأدنى (subculture) تصبح في هذه الحالة أكثر بعداً عن الثقافة الغربية التي تحيط بها.

وجميع الجاليات الإسلامية في أوروبة وأمريكا تكاد تشتمل على معتنقين جدد نشؤوا في تلك المجتمعات، ولكن تأثيرها على ممارسات ووجهات نظر جالياتها غالباً ما يكون غير ذي جدوى. وفي معظم المساجد والمراكز الإسلامية نجد أن عدد المعتنقين الجدد للإسلام ما يزال قليلاً جداً. وكذلك غالباً ما ينظر إلى النقد الذي يوجهه المعتنقون الجدد لممارسات ووجهات نظر المهاجرين المسلمين على أنه محض غربي، ومن ثمّ غير إسلامي.

قد يتغير كل هذا في غضون عشرين سنة من الآن مادامت الغالبية العظمى من المسلمين في الغرب ربما لن تكون من المهاجرين أو المعتنقين الجدد. وسوف يكون هؤلاء ليسوا فقط من مواليد أسر إسلامية بل مواطنين من مواليد غربية أيضاً. وذلك الجيل سوف يكون قادراً على المزج بين كلتا الثقافتين (الإسلامية والغربية)، ومن ثمّ من المحتمل جداً أن تعكس تعبيراتهم عن الإسلام تأثيرات قوية من كلتا الثقافتين. وهؤلاء قد يكونون — على نحو نموذجي — قادرين على خلق انسجام ما بين إيمانهم بالإسلام وخلفياتهم الثقافية الغربية، ولكن ذلك يعتمد بشكل كبير على انفتاح عقول ذويهم، وكذلك على سرعة تكيّفهم مع البيئة ومدى معرفتهم الدينية. وكلما كانت ثقافة الوالدين صارمة في فهمهم للإسلام كانت الصعوبات التي تواجه الأولاد كمسلمين يعيشون في الغرب أشد.

* * *

التأسّي بالنبي ﷺ

وهناك عنصر هام آخر يمكن إضافته للشخصية الشرق أوسطية في الجالية الإسلامية المعاصرة في الغرب، هو الموقف الحالي السائد بين المسلمين حيال السنة النبوية. فالمسلمون يقدّسون محمداً ﷺ ويعدّون حياته المثل الأكمل في التسليم لله والخضوع له في كل الأمور. فالعديد من المسلمين (وكان عبد الله بن عمر من أبرزهم) يقومون بتقليد حتى أكثر الأعمال دنيوية من أفعال النبيﷺ ويرون ذلك ذا ميزة روحية عظيمة. وهكذا تراهم يجتهدون مااستطاعوا كي يمشوا وينامو ويسرّحوا شعورهم ويلبسوا ويضحكوا، إلخ.. تماماً كما كان يفعل النبي ﷺ برغم أن هذه الأفعال لاتمت بصلة مباشرة إلى اهتمامات شرعية أوشعائرية. إن هذا النمط المكثّف من تقليد النبي ﷺ واسع جداً بين المسلمين، وهناك الكثيرون ممن يدافع وبحماس عن مثل تلك التقليد بين الجاليات الإسلامية في الغرب. ولكن غالباً ماتكون هذه المحاكاة أكثر من مجرد تبجيل للنبي محمد ﷺ.

إن الجالية الإسلامية الأمريكية تتألف بمجموعها تقريباً من مهاجرين أجانب، أو معتنقين أمريكيين من أصول إفريقية. وكل هؤلاء يشعر أن الحضارة الغربية قد أهانته وانتهكت ثقافته. فالأمريكيون من أصول إفريقية، كانوا ضحايا نظام العبودية الهمجي في أمريكا، وبعد تحررهم أنكر البيض عليهم حتى أكثر حقوق الإنسان أساسية. والمهاجرون المسلمون لايعانون من التشويش والاضطراب والصدمة التي يعاني منها معظم الوافدين الجدد وحسب، بل من مشاعر شديدة من الإهانة التي تأتي من تعالي الغرب اليهودي - المسيحي المهيمن الذي بدد شملهم وحط بهم إلى درجة وحالة (العالم الثالث). وهذا الأمر ساعد على توليد رغبة عاطفية جامحة في كلتا المجموعتين من المسلمين الأمريكيين للبحث عن ثقافة بديلة: فارتداء لباس مميَّز والتسمّي بأسماء غير يهودية أو مسيحية واستخدام كلمات عربية بشكل متكرر وكذلك التمسك بعادات من شأنها أن

تخالف التيار الأمريكي العام أصبحت جميعاً شجباً واحتجاجاً دينيين ضد الثقافة الغربية المهيمنة وعودة إلى — أو على الأقل تذكيراً — بماضٍ كان أكثر إشراقاً واستقراراً عندما أنعم الله ومن خلال نبيّه محمد ﷺ بالعظمة والقوّة على العرب أولاً، ثمّ على الشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام فيما بعد.

فالعديد من المسلمين يرى في إحياء عادات النبي اليومية فائدة روحانية عظيمة، ولكن لهذا أبعاده السيكولوجية والاجتماعية أيضاً لأنها تزوّد المسلمين بتقاليد وتاريخ وثقافة مميزة. فبالنسبة إلى المهاجرين، هي ثقافة تربطهم بها صلات واضحة الأسباب، وبالنسبة إلى العديد من المعتنقين الجدد فإن المدهش حقاً هو قدرتهم للولوج فيها بسهولة من خلال تعلّمهم للقليل من التعابير والتصرفات التي تخص هذه الثقافة. ولانستطيع أن نجد مناقشة عقلانية ضد هذا التطبيق الحرفي المتشدد لأسلوب حياة النبي ﷺ والحقيقة التي تسوّغ شرعية هذا النهج هو أن عدداً كبيراً من المسلمين يكتسبون القوة والطمأنينة واللحمة الاجتماعية والروحانية العالية من خلال هذا النهج. إنه أمر واحد من أمرين اثنين، إما المحافظة على موافقة تقليد أسلوب حياة النبي بشكل دقيق يشتمل على كافة أفعاله مهما كانت، وإما الإصرار على أن أي استجابة أخرى — غير استجابتهم — لاتّباع سنته هي استجابة خاطئة؛ ومع ذلك فهذا الموقف عامّ بين المسلمين.

وهناك قلة من المسلمين — وعليّ أن أعترف بأني واحد منهم — يجب أن تبقى عارفة بالسياق التاريخي لأقوال وأفعال النبي ﷺ، وأنه إن كان علينا أن نقتدي بها بشكل صحيح يجب أن ننتبه إلى الاختلافات العديدة مابين عصره وعصرنا. إن هذه المجموعة من المسلمين تفضل أن تبحث عن الدروس العامة الأخلاقية والروحانية من خلال دراسة سيرة النبي ﷺ، على أن تقلد بشكل أعمى أفعاله اليومية التي لابد له كإنسان أن يقوم بها. وأما الذين يتبعون نهجاً متشدداً لتقليد كل صغيرة وكبيرة في حياة النبي ﷺ فحجّتهم أنه في اتّباع ذلك

أنجع وسيلة لاستقاء المنافع الروحية والأخلاقية. وأما الهدف الرئيس لأصحاب المنهج الأكثر تحرراً فهو المغزى والأثر الكامن فيما وراء أفعال النبي ﷺ، ومن ثمّ العمل على تطبيقها. وهذا النهج الأخير الأقل محافظة في تطبيق سنة النبي ﷺ يبدو على أنه اختيار ذاتي ولايروق كثيراً للمسلمين المتشددين. وأما النهج الأكثر محافظة فيبدو غير منطقي؛ لأنه مقيّد جداً بالنسبة إلى المؤمنين الأكثر حريّة الذين يشعرون بأننا نقدم عكس ماكان يقصده النبي محمد ﷺ إذا ما تجاهلنا الخلفية التاريخية والاجتماعية لأفعاله ﷺ.

أذكر مؤتمراً إسلامياً حيث قام أحد الحضور بطرح سؤال على متحدث إسلامي كان يرتدي بزّة أوروبية، إن كان هذا المتحدث ينهج نهجاً غربياً أم لا بارتدائه تلك البزّة، ولماذا لايرتدي ملابس شرعية كما كان يفعل النبي ﷺ؟ ويبدو أن السؤال أذهل المتحدث وأحرجه و لم يستطع أن يجيب جواباً منطقياً. ومهما يكن فإن ذلك المتحدّث بارتدائه بزّة غربية ساترة محتشمة بينما يحاضر عن الإسلام في أمريكا لايعني أنه يخالف سنّة النبي ﷺ؛ ذلك أن النبي إنما كان يرتدي زيّاً يناسب ثقافته. فالنبي ﷺ لم يظهر فجأة أمام الصحابة وهو يرتدي ملابس أجنبية أو غير مألوفة على نحو غريب، وإنه لو كان فعل ذلك لكان ربما خلق عقبة غير ضرورية للتفكير برسالته.

حضرت محاضرة في مسجد في سان فرانسيسكو شدّد فيها المتحدث على الأهمية القصوى لاتباع السنة النبوية في استخدام اليد اليمنى أثناء الطعام. وأثناء المناقشة التي أعقبت المحاضرة سألته مازحاً: ماذا على المرء أن يفعل إذا كان يريد أن يأكل مستخدماً الشوكة والسكين؟ ولدهشتي لم يضحك المتحدّث فحسب، بل إن سؤالي سبب جدلاً كبيراً جداً. فبعضٌ دافع عن استخدام السكين باليد اليمنى مادمنا نستخدمها أكثر من الشوكة، وقال آخرون: بل يجب أن نضع الشوكة في اليد اليمنى لأنها هي التي تنقل الطعام إلى الفم، وبعض آخر قال: لايهم أين وضعت الشوكة أو السكين. أما آخرون فقد

أفادوا بأنه من الأفضل عدم استخدام أدوات الطعام على الإطلاق؛ لأن النبي ﷺ لم يستخدمها قط.

في جزيرة العرب في القرن السابع — كما هو الحال اليوم — كان الناس يستخدمون اليد اليسرى للاستنجاء. وكانوا يستخدمون الماء حين يتوفّر وإلا فبعض من الحصى أو بعض اللحاء أو حتى الرمل الجاف. ولأن العرب كانوا يأكلون بأيديهم من إناء واحد، فقد كان من اللياقة على المرء أن يستخدم يده اليمنى فقط، وأن يأكل مما يليه في قصعة الطعام. وفي زمن النبي ﷺ كان هناك أناس من البدو الأجلاف، وكان النبي ﷺ غالباً مايوصيهم ويرشدهم إلى الطريقة المثلى في النظافة وحسن التصرف. وفي الغرب الآن عادة مايأكل كل فرد من طبق (وعاء) خاص به، وذلك باستخدام أدوات المائدة المتعددة من سكاكين وشوك وملاعق وما إلى ذلك بحيث لاتلامس أيديهم الطعام أبداً، وهذه الطريقة في الطعام نظيفة ومؤدبة (والنظافة والأدب كانا من الأمور التي يحرص عليها النبي ﷺ أشد الحرص) ولاأعتقد أن الإمساك بالشوكة في اليمنى أو اليسرى أثناء الطعام هو أمر عظيم يستحق تلك الضجة. ولو كانت طريقة الطعام هذه شائعة عند العرب، ربما حظيت باستحسان النبي ﷺ أما إذا أصرّ المسلم على الأكل بيده من الطعام مباشرة مع غير المسلمين في الغرب فربما يكون في ذلك إساءة كبيرة للآخرين مادام بمقدوره اتباع الخيار الأكثر نظافة ولياقة في هذا المجال.

* * *

الإخفاق في التواصل

ذات مساء بينما كنت في المركز الإسلامي حيّاني أحد المسلمين الأمريكيين وسألني عن حالي، أجبته بالإنجليزية : (very well, thank God) أنا بخير أشكر الله، وكيف حالك أنت؟" أجابني في الحال: "الحمد لله،" ثم كرر سؤاله قائلاً: "وكيف حالك أنت؟" أعدت إجابتي بقولي: "بخير أشكر الله".

بدا وكأنه غير راض عن إجابتي، وبعد عدة ثوان كرر عليّ السؤال نفسه، وبدوري أجبته الإجابة نفسها. ثم إنه بعد عدة ثوان من المحادثة كرر عليّ السؤال نفسه، "كيف حالك؟" فأجبته الجواب نفسه "بخير أشكر الله." أدركت أنه لن يستسلم حتى يحظى بجواب مرضٍ. صمت قليلاً ثم إني قلت له بالعربية "الحمد لله." وبنظرة ملؤها القبول والرضى أومأ برأسه وقال: "الحمد لله".

إنني في الحقيقة لا أمانع في استخدام بعض التراكيب العربية التقليدية المشهورة والشائعة بين المسلمين، ولكنني غالباً ما أفضل ولأسباب عاطفية وروحية استخدام لغتي الأصلية مادمت أشعر بأن ذلك أقل تصنّعاً وأكثر طبيعية وخصوصاً بين أبناء وطني من الأمريكيين. ومع ذلك فقد أصبح استخدام بعض التعابير العربية من بين الإجراءات الظاهرية التي تنم عن تقدم المعتنق الجديد في الإيمان.

قال لي أحد أصدقائي الذي كان مهتماً بالإسلام في مرحلة ما إنه اكتشف المفتاح الذي يقود المرء ليصبح عضواً يحظى بالقبول التام في الجالية الإسلامية وذلك بأن :" ألبس قبّعة شرق أوسطية وأطلق لحية طويلة وداوم على 'الحمدلة' وعلى قول 'ما شاء الله' و'السلام عليكم' و'جزاك الله خيراً' في مواضعها." وقال لي صديق أمريكي آخر اعتنق الإسلام: إن بعض المسلمين يعتقدون أن الله إنما يفهم اللغة العربية فقط.

ومادامت اللغة العربية هي لغة القرآن ولغة الشعائر الإسلامية ومادامت — بطريقة ما — اللغة المشتركة بين جميع المسلمين، فإن على المسلمين أجمع أن يبذلوا ما في وسعهم في سبيل تعلم العربية. ولكن هذا يجب ألا يقصر على بضع عبارات يتم التلفظ بها بطريقة ببغائية آلية، ويتم التملق بها بطريقة مسرحية في عدد من المواضع المحددة. وبشكل خاص أريد القول: إنه إذا كان المرء يحاول التواصل مع أشخاص لا يفقهون العربية فمن الأفضل عدم استخدام كلمات

عربية لا يفهموها، فالنبي ﷺ حض أتباعه على مخاطبة الناس بشكل واضح وبسيط وعدم استخدام لغة لا يفهموها مخافة أن يكون ذلك فتنة.

* * *

امور سطحية

من أشد الجماعات الإسلامية محافظة في الغرب: جماعة التبليغ (وهي حركة نشأت في الهند والباكستان)، والجماعة السلفية (ومركزها السعودية). والبند الرئيس في برنامج هاتين الجماعتين هو العودة الكاملة إلى سنة النبي ﷺ، ومهما يكن فإن الممارسات التي تميّز أعضاء هاتين الجماعتين عن المسلمين الملتزمين قليلة جداً ومعظمها يتعلق باللباس والترجُّل وعادات الطعام والفصل بين الرجال والنساء[١] . وبرغم أن معظم المسلمين الذين يعيشون في كل من أمريكا وأوروبة لايتّبعون في العادة الممارسات التي تروّج لها هاتان الجماعتان في حياتهم اليومية، فإنهم يعترفون في أغلب الأحيان أنه من الأفضل اتباع نهجيهما، وأما الأشخاص الذين يتّبعون الممارسات المتشددة لهاتين الجماعتين فإن أقرانهم من المسلمين يعدونهم الأكثر تديّناً من بين المؤمنين، ومن ثمّ فإنهم غالباً مايتبوؤون المراكز القيادية في جالياتهم المحلية.

ومع الاهتمام الواسع الذي تحظى به وجهة النظر الأكثر محافظة، ولأن المسلمين المحافظين هم في الغالب المسيطرون على المساجد والمنظمات، فلاغرابة

(١) هناك العديد من العادات الثابتة عن النبي ﷺ والتي يمكن تطبيقها وممارستها بشكل عملي، ولكن هذه العادات إما غير معروفة لدى المسلمين أو أن هؤلاء يتجاهلون تطبيقها. فمثلاً مما هو معروف عنه ﷺ أنه لم يرفع صوته أو يده قط على أزواجه ومع ذلك فاضطهاد الزوجات أمر شائع حتى بين المسلمين المتدينين. وكان مما يعرف عنه ﷺ أيضاً دقته بمواعيده، حيث الوفاء بالوعد كان شيمته ﷺ، في حين نجد أن المسلمين أصبحوا مشهورين بخلفهم للمواعيد. وكذلك حارب النبي ﷺ العادة التي كانت متأصلة في نفوس العرب منذ الجاهلية من أن الأبناء هم مصدر فخر واعتزاز، وأن البنات هن في أغلب الأحيان مكمن الخزي والعار للعائلة. ولكن يبدو أن توجيهاته ﷺ في هذا المجال غالباً ما يتم تجاهلها. هناك العديد العديد من الأمثلة الأخرى التي يمكن أن أوردها ولكن ليس هناك متّسع.

إذن أن ينظر الغرباء، وكذلك الوافدون الجدد إلى الجالية الإسلامية إلى ممارسات هؤلاء المحافظين الإسلامية (من ارتداء ملابس شرقية وإطلاق اللحى والجلوس على الأرض وتناول الطعام باليد والفصل بين الرجال والنساء واتخاذ أسماء عربية) على أنها أمور جوهرية في الإسلام. وليس من الغرابة أيضاً أن يعتقد غير المسلمين والحالة هذه أن الإسلام هو محض ديانة شرق أوسطية غربية. وبرغم أن المسلمين يقولون بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فإن الانطباع العام عند غير المسلمين هو اعتقادهم أن المسلمين إنما يريدون من البشر جميعاً أن يحصروا أنفسهم في زمان ومكان وحيدين من التاريخ.

* * *

الدين والثقافة

وهناك عنصر آخر يذكي التصور الغربي على أن الإسلام ديانة شرق أوسطية خالصة هو الميل عند المسلمين في الجمعيات الإسلامية إلى أن ينسبوا مختلف العادات التي اكتسبوها من بلدانهم إلى الإسلام. فقد أخبرني أحد الطلبة المسلمين من خريجي الجامعة مرة بأنه إذا ارتكبت امرأة مسلمة الزنا فإن ذلك يعد في الإسلام معصية أكبر مما لو ارتكب ذلك الرجل. ربما الأمر كذلك بالنسبة إلى ثقافته، ولكن مقولته تتعارض بشكل صارخ مع نصوص صريحة في القرآن والسنة. ومؤخراً أكد لي شاب سعودي بأن الإسلام يمنع النساء من قيادة السيارة. قلت له إن هذا هو الرأي السائد في بلده، ولكن معظم المسلمين في العالم لا يوافقونه الرأي. ومنذ زمن ليس بالبعيد لامني أحد المسلمين الأمريكيين الجدد لعدم ارتدائي ملابس تتوافق مع سنة النبي ﷺ، قلت له: إن ما يوافق بعض الناس لابد أن يخالف آخرين لأن الحلّة المغربية التي كان يرتديها كانت مختلفة تماماً عن نمط اللباس الذي كان الحجازيون يرتدونه زمن النبي ﷺ،

وفي الحقيقة لم أصادف أحداً قط حتى الآن ممن يرتدي الملابس التي كانت معروفة في حجاز القرن السابع الميلادي.

ومسألة الخلط بين الثقافة والدين أمر ليس بالجديد، كما أنه ليس بالضرورة أن يكون مستهجناً دوماً، بل إنني أرى أنه، إلى حد ما، أمر لايمكن التخلي عنه، وخصوصاً عندما يحاول المؤمنون إنشاء نظام شامل من السلوك المتوافق مع الشريعة؛ ذلك أن ثقافتنا هي التي توجّه أعرافنا وتقاليدنا. وغالباً مانسمع مسلمين أمريكيين وأوروبيين يعلنون أن الإسلام ضمن للمرأة حقّها في الانتخاب وفي عقود الزواج أو حلّها وفي تولي مناصب حكومية، وضمن لها حقها في العمل، وذلك قبل نظيرتها في الغرب بقرون عديدة. ومع ذلك ومن خلال زيارات عدة قمت بها إلى الخليج العربي اكتشفت أن معظم العلماء — إن لم يكن جميعهم — يصرّون على العكس تماماً. ومن الواضح هنا أن التوجهات الثقافية لكل من علماء الغرب والعلماء في الدول الخليجية تؤثّر في تفسيراتهم. أنا لا أدّعي بأن هذه المجموعة من العلماء على صواب أو أن تلك على خطأ، أو أن إحدى وجهتي النظر هي محض ثقافة وأن الأخرى هي الإسلام؛ بل إنني أعتقد أن الدين والثقافة ينبئآن بكلتا وجهتي النظر. فالحكم الديني يمكن أن يكون مناسباً في سياق ثقافي معين ولكن ليس دوماً. فالعديد من علماء السعودية مثلاً يصرّون أنه — حسب مقتضيات الشريعة — على المرأة أن تغطي وجهها في الأماكن العامة. **ومادام أنه لايوجد نص صريح في القرآن أوالسنة يشير إلى تغطية الوجه بشكل كامل، فإن هؤلاء يبنون حجّتهم على قياسات وتعليلات مستنبطة من / وناجمة عن الإساءات الاجتماعية التي قد تنجم إن كشفت النساء عن وجوههن**[1] . إن علماء السعودية هم خير من يعرف ثقافة بلدهم، وهم خير من يستطيع الحكم على التأثيرات التي قد تنجم في حال التساهل في أمر ستر المرأة الكامل في الحجاب في المجتمع السعودي[2]. ولكن الناس في

(١) من الجدير بالذكر أن المذهب الحنبلي بشكل عام يرفض مثل هذا التعليل، علماً بأن معظم علماء السعودية هم من أتباع المذهب الحنبلي.

(٢) تغطية الوجه عند المرأة في الإسلام مسألة خلافية بين الفقهاء. انظر حجاب المرأة المسلمة لناصر الدين الألباني.

الغرب سوف يواجهون المصاعب إذا ما طبقوا العديد من النقاط التي يطرحها علماء السعودية. فعلى سبيل المثال، أشك في مسألة أن يوافق الغربيون — مسلمون أو غيرهم — أن رؤية عيني المرأة تثير الرجال في الغرب، أو أن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى غَيْرةٍ جامحة أو أي مشكلات اجتماعية أخرى. بل إنني أشعر، ومن وجهة نظر أخرى، أن الرجال والنساء يقبلون بوجهة النظر المخالفة، وهي أن غطاء الوجه يؤذي المرأة لأنه يعوق الرؤية لديها.

غالباً مايطرح علي الشباب المسلم في أمريكا السؤال التالي: "كيف نفصل الثقافة عن الدين؟" فأجيبهم بأن هذا أمر صعب جداً، ففي حين يكون من المهم الانتباه لوجود تأثيرات لاتتماشى مع الدين، فإننا يجب أن نتوقّع أن السلوك والفهم الإسلاميَّيْن لن ينفصلا عن الثقافة. فالثقافة المحلية (ثقافة المرء الأصلية) هي التي توحي لنا بالمواقف الدينية لتلك الثقافة، وفيما إن كان الإسلام سوف يؤثّر في تطورها الثقافي أو ما دون الثقافي.

في هذه الأيام عندما يحاول مسلم يعيش في الغرب أن يناقش حكماً ما من أحكام الشريعة التقليدية في الإسلام، أو عادة من العادات الإسلامية الراسخة أو مفهوماً أو إدراكاً ما، فغالباً ما يجابه بالاتهام التالي: "إنك تحاول أن تغيّر هذا الدين،" إذ إن هناك خوفاً عاماً بين المسلمين الذين يعيشون في الغرب من أن الثقافة غير المسلمة المحيطة بهم سوف تخل من أمر ممارستهم للإسلام أو تدنسه. ومع ذلك فإن هذا القلق هو نفسه الذي حدا ببعض المؤمنين أن يعيدوا قراءة بعض الأعراف ووجهات النظر الإسلامية الراسخة، حيث إن خوفهم ناجم عن أن الجالية الإسلامية إنما تؤذي نفسها من خلال تمسكها الشديد وغير الضروري ببعض الممارسات والأفكار ماقبل الإسلامية، التي أصبحت راسخة في الإسلام منذ أمد طويل. ولاشك أن كلتا الحالتين من القلق لها مايسوّغها، وأن أنجع وسيلة لمواجهة كلا الخطرين هو عدم الإحجام عن السؤال والنقد وعدم إحباطهما، بل على العكس يجب على الجالية الإسلامية أن تحض على السؤال وعلى النقد لأننا نكون أكثر عرضة **للخطأ عندما نرفض أن ننتقد أنفسنا.**

فالدين من بين أنظمة الفكر جميعاً هو الأضعف حيال جعل العادات والأفكار مثالية وبعيدة عن الواقعية. فالفرق بين المصدر النصّي والتفسير في الدين هو أمر غائب في معظم الأحيان. وغالباً ما نوازي بين فهمنا لمسألة ما والحقيقة عينها، وبين العقيدة والتنـــزيل. ولكن يبقى هناك فرق شاسع في المرجعية بين المقولتين: الإسلام يقول: "لاإله إلا الله،" والإسلام يقول: "يجب ألا يختلط الرجال مع النساء المحرمات،" ومع ذلك فالعديد من المسلمين يرفضون وجود أي اختلاف جوهري بين المقولتين .

* * *

ديانة تكره النساء:

كنت أتسوّق في الخُبَرْ (السعودية) مع عائلتي إحدى أيام الأربعاء وهو آخر يوم عمل في الأسبوع هناك. كان الوقت قبيل المغرب. وكان الهواء مثقلاً بالغبار والرطوبة وكان الجو ما يزال حاراً جداً خارج مركز التسوّق مثل أشد أيام الصيف حرّاً في كانساس. كانت الممرات تعج بالناس من كل جنس ولون. بدا الناس حادّين في مزاجهم وحازمين ومنهمكين في السعي وراء قضاء حاجاتهم وشرائها بأقل سعر ممكن، فقد كانوا كمن يراهن على الفرس الفائز.

لاحظت كيف أن الأزواج كانت تفصلهم عن زوجاتهم بعض المسافة إذ لم يكونوا ليمسكوا بأيدي بعضهم بعضاً، أو حتى يتبادلوا أي حديث ودّي فيما بينهم. شاهدت رجالاً وقد تشابكت أيديهم بعضهم مع بعض ونساءً قد تشابكت أيديهن بعضهن مع بعض، ولكن ليس بين الرجال وزوجاتهم. ودهشت أيضاً للتناقض بين ملابس الرجال والنساء، فقد كان النسوة يرتدين عباءات سوداوات وقد غطت جميع أجسادهن ما عدا أيديهن في حين غطّين رؤوسهن بحجاب أسود. وكان هناك العديد من النسوة ممن غطّين وجوههن تماماً بالحجاب الأسود؛ وكان هناك عدد من بينهن ممن كن يرتدين قفّازات

سوداً. وكان هناك عدد من الأوروبيات والأمريكيات ممن خاطرن بالمشي في ذلك المركز وهن كاشفات رؤوسهن. وكان معظم الرجال من غير السعوديين يرتدون ملابس غربية — قميص وبنطال — في حين كان الرجال السعوديون يرتدون الزي الوطني وهو الثوب الأبيض الطويل الأنيق. وأما الأولاد جميعاً فقد كانوا جميعاً يرتدون قمصاناً قصيرة الأكمام وبناطيل الجينز أو الشورتات، وأما البنات الصغار فكن يرتدين بلوزات وفساتين وتنّورات قصيرة. وكان ثمة بعض السعوديين والآسيويين والجنود الأمريكيين يتحركون بسرعة في كافة ردهات المركز جيئة وذهاباً وصعوداً وهبوطاً إلى مختلف المحال التجارية، وهم يهمهمون بالعربية والإنجليزية. في ذلك المركز بمقدورك شراء كل شيء من الملابس والأدوات الكهربائية وأدوات الرياضة والمجوهرات وأدوات المنازل المختلفة والساعات والعدسات والدمى وأنواع الطعام والأجهزة السمعية والبصرية وأجهزة الكمبيوتر — كل شيء ماعدا الكتب؛ ذلك أن المكتبات كانت محدودة جداً، بما في ذلك مكتبات بيع الكتب العربية. وأما خارج المركز فقد زحفت السيارات القديمة منها والحديثة الفارهة، وهي تطلق مزاميرها محاولة إفساح الطريق من المارّة المنهمكين والمنشغلين ممن كانوا يسيرون في الشوارع. وفجأة ووسط الزحام انطلق صوت الأذان من مكبرات المسجد المجاور يعلو فوق كل صوت، ثم انطلق الأذان من مسجد مجاور آخر يبعد قليلاً عن ذلك المسجد ثم من كافة المساجد المجاورة في الحي كله .

هدأت الحركة في الشوارع وأغلقت المحال التجارية أبوابها بعد أن أُخلي الزبائن منها. وسرعان ما أخذ جميع الرجال من المسلمين دون النساء طريقهم إلى المسجد تماماً كما يتجه الناس إلى الملاجئ في حال حدوث غارة جوية ما. وأما النساء والرجال غير المسلمين فقد اتخذوا مواقفهم خارج المركز في الممرات، فمنهم من اتكأ على أعمدة الإنارة أو على الجدران، ومنهم من جلس على الرصيف. وبعضهم أخذ يدخن، والآخر يثرثر، والجميع كان ينتظر انتهاء الصلاة.

كنت قد وصلت إلى الشرق الأوسط منذ فترة وجيزة، ولدهشتي تلك الليلة وجدت النساء المسلمات لم يذهبن إلى المسجد، وبدلاً من ذلك أمضين وقتهن تماماً كما فعل الكافرون: ففي حين انطلق الأزواج إلى المسجد وبسرعة، بقيت نساؤهم خارج المحال التجارية وفي الممرات أوفي السيارات ينتظرن انتهاء وقت صلاة المغرب آنئذ. وعندما وصلنا المسجد دخلت زوجتي وبناتي الثلاث قسم النساء، وكان عبارة عن غرفة صغيرة جداً ومظلمة ولها نافذة ذات زجاج محجَّر يطل على بهو المسجد حيث يصلي الرجال، دخلت المسجد من الباب الرئيس، وكان فسيحاً، وقد اكتظَّ بصفوف المصلين وكان مُضاءً أيما إضاءة بمئات الثريات المتلألئة، في حين كانت أرض المسجد مغطاة بالسجاد الشرقي الفاخر المزركش بالأحمر، في حين استند السقف على أعمدة من الرخام يصل ارتفاعها إلى أربعين قدماً. اتخذت مكاني للصلاة في الصف الأخير مع جماعة المصلين في المسجد. وعندما انتهت الصلاة قابلت زوجتي وبناتي خارجاً أمام مدخل قسم النساء من المسجد، وكان قد صلّى معهنَّ حوالي خمس وعشرين من النسوة الأخريات. بدت بناتي مضطربات وخائفات بعض الشيء. وأما ابنتي الصغرى فقد بكت خلال الصلاة ظناً أنني ضعت. وفي طريق العودة إلى الظهران في الباص جلست زوجتي مع بعض صديقاتها تتحدثن، في حين جلست أنا وبناتي في المقعدين المجاورين. توجهتُ نحو النساء بالسؤال الذي كان يقض مضجعي منذ صلاة المغرب وهو : لماذا لم يؤد الصلاة في المسجد سوى العدد القليل من النساء، في حين أدى جميع الرجال صلاتهم فيه؟ ففي الولايات المتحدة كان دوماً يقال لي: إن النساء لم يكنّ يأتين إلى المسجد، لأنه لم يكن في الجالية الإسلامية في لورانس بولاية كانساس سوى العدد القليل من النساء المسلمات، وأن معظمهن لديهن أطفال صغار لا يمكن تركهم في البيت بمفردهم والقدوم إلى المسجد. وكانت زوجتي تقول لي دوماً: إن ذلك مسألة ثقافية؛ أما الآن فأردت أن أعرف بنفسي رأي هؤلاء النسوة اللائي قدمن من بلدان إسلامية مختلفة.

وذكرت إحدى صديقات زوجتي أن النساء يتوقفن عن الصلاة لبعض الوقت من كل شهر. ولكني أجبتها أن ذلك ينطبق على أقل من ربع السيدات المسلمات اللاتي كن حاضرات، أي إن أكثر من ٩٥% من هؤلاء النسوة لم يصلين المغرب. وقالت أخرى: إن (المطوِّع) أمر الرجال بالذهاب إلى المسجد دون النساء، وعندما سألتها عن السبب تبسَّمت بحياء قائلة: إن للنساء أعذارهن وليس للمطوع من سبيل لمعرفة ذلك. ولكنني قلت لها: إن معظم هؤلاء الرجال كانوا متحمسين للذهاب إلى المسجد لأداء الصلاة. وسيدة أخرى كانت تجلس في المقعد خلف زوجتي قالت: "إن معظم النساء المسلمات نادراً ما يذهبن إلى المسجد، وبدورهم فإن الآباء نادراً ما يشجعون الإناث للذهاب إلى المسجد، كما يفعلون مع إخوتهم من الذكور عندما يكونون صغاراً." وقالت السيدة التي تجلس بجوارها: "إن النساء في الحقيقة يؤمرن بعدم الذهاب إلى المسجد، وأنه من الأفضل لهن أن يصلين في البيت، وأن هناك حديثاً شريفاً يدعم هذا الرأي." قلت لها: إنني "أعرف الحديث، ولكنني لم أعثر على نص له في المراجع المشهورة،" وأردفت قائلاً: "حتى وإن كان الحديث موثقاً بشكلٍ جيد، فإنني أشك أن النبي ﷺ كان يثني الصحابيات عن الذهاب إلى المسجد؛ ذلك أن هناك عدداً من الروايات الموجودة في صحاح الحديث تفيد بأنه خلال حياته ﷺ وحياة الخلفاء الراشدين من بعده كانت الصحابيات يحضرن صلوات الجماعة وبأعدادٍ كبيرة، بل كنَّ ينشطن في المسجد." وقلت لهن أيضاً: "إنه يصعب عليَّ أن أصدّق أن هؤلاء الصحابيات اللاتي خاطرن بأنفسهن وأموالهن ومحبتهن لأسرهن لا لشيء سوى اتباع النبي سوف يتجاهلن على نحو عرضي نصيحته لهن بأداء صلواتهن في بيوتهن إن كان فعل ذلك حقاً." وكان هناك سيدة أخرى في الباص قالت معلقة بلهجة غاضبة ملؤها المرارة والأسى: "لقد كنت أشعر دوماً أن الدين يكره النساء؛ لأنه أعطى الرجال كل شيء، ولم يعط النساء سوى القليل، لدرجة أنه أعطى بيوت عبادته للرجال من دون النساء ".

لقد شاهدت خلال أربع عشرة سنة خلت العديد من الغربيين ممن كان مهتماً على نحو جوهري بالإسلام ويسعون سعياً حثيثاً للإيمان به، إلا أن ما كان يجعلهم يعرضون عن هذا الدين هو أفكارهم الخاطئة عن مواقف المسلمين تجاه المرأة. ولقد صادفت من هذا الأمر الكثير لدرجة تدفعني للاعتقاد بأن هذا الأمر قد يكون بحق أكبر عقبة تحول دون انتشار الإسلام في الغرب. فمن بين جميع المواضيع المتعلقة بالإسلام نجد أن وضع المرأة في الجالية الإسلامية هو من بين أكثر المواضيع التي تمت الكتابة عنها ومناقشتها. وهناك العديد من وجهات النظر المتباينة حول هذا الموضوع. فبين المؤلفين غير المسلمين تتجه الآراء حول الإسلام في أقاويل مثل: "المرأة التي تترك في البيت تبقى دوماً أقل شأناً من الرجل[١] ، " إلى "ما يقوله القرآن حول موضوع النساء يمكن اعتباره ثورياً بحق[٢] ، " إلى "بالنسبة لحقوقهن كمواطنات — ثقافتهن ومعاناقمن ومهنهن — فالقرآن يفتح طريق المساواة التامة بين الرجال والنساء[٣] " .ويبدو أن بعض علماء المسلمين متفقون على أن المرأة المسلمة لها وضعها المكافئ للرجل المسلم تماماً، ولكن معظمهم يرى أن أدوار ومزايا كلٍ من الجنسين مختلفة تماماً عن الآخر، إضافة إلى أن هناك خلافاً حول طبيعة هذه الأدوار والمزايا. ويكفي القول: إن التباين الكبير في التفسيرات ووجهات النظر يشير إلى أن دور المرأة في الجالية الإسلامية لم يكن وليس من شأنه أن يكون ثابتاً. فتاريخ النساء المسلمات يرينا أن أدوارهن قد تغيّرت كثيراً على مرّ الزمان والمكان، وأن هناك دلائل تشير إلى أن هناك المزيد من التغيرات سوف تحصل فيما بعد، وأن بعض هذه التغيرات قد يكون درامياً.

---

(١) نبيّة آبوت: عائشة أحب النساء إلى محمد Aishah the Beloved of Muhammad ، (كتب الساقي، ١٩٨٥م)، ص.١٠٧.

(٢) بيرزيغان: نساء الشرق الأوسط المسلمات يتحدثن Middle Eastern Muslim Women Speak ، تحرير إليزابيث فيرنيّة وباسمة قطّان، ص ٢٣ من المقدمة.

(٣) هوستن سميث: ديانات البشر The Religions of Man ، (كتب Harper & Row: نيويورك، ١٩٥٨م)، ص٢٤٥.

يبدو أني أتجه إلى كتابة أطروحة مطوّلة عن النساء في الشريعة الإسلامية، ولكني لا أنوي القيام بذلك؛ ذلك أن كتابي الأول يحتوي بعضاً من ذلك وليس عندي ما أضيفه سوى القليل[١] ، كما أنني لا أشعر ولأسباب وردت في المقطع السابق أن الشريعة الإسلامية تشكل أي عائق من شأنه أن يكون عقبة أمام الكثيرين ممن يبحثون عن الإيمان في الغرب. بل أرى أن ما يثني هؤلاء الغربيين عن مثل ذلك البحث هو مواقف المسلمين العامة تجاه المرأة.

* * *

الاختلافات بين الجنسين

أمضيت أنا وعائلتي عاماً كاملاً في الظهران (السعودية) وكان على بناتي أن يذهبن إلى مدرسة إسلامية خاصة بالبنات. وفي اليوم الذي بدأت فيه المدرسة ألقت المديرة كلمة موجزة حثّت خلالها الطالبات على إظهار الاحترام لمعلماتهن، وعلى العمل بجد ونشاط، ثمّ ذكرتهن بالحديث الشريف القائل: إن النساء ناقصات عقل ودين[٢] . والنقطة الوحيدة التي فهمتها بناتي من خلال خطاب مديرة المدرسة أنهن مهما حاولن العمل بجد وعناء، فإنهن لن يستطعن منافسة الرجال من الناحية الفكرية.

ولقد سمعت في العديد من المناسبات متحدثين مسلمين ممن يدّعي أن النساء لا يرقين إلى مستوى الرجال من الناحية الأخلاقية والروحية، ولكنني لا أجد في القرآن ما يوحي بذلك؛ والأدلة التي تدعم ذلك من الحديث الشريف محدودة جداً، كما أن التجربة العامة تدحض ذلك. وكما قال لي أحد الطلبة من المسلمين الأجانب، بعد أن أصغينا لمحاضرة حول كبائر الإثم عند النساء، قال: "أنا لا أقيم وزناً لكلام ذلك المحاضر، فالنساء في مجتمعاتنا هن خير من الرجال في هذا الشأن، والجميع يعرف ذلك".

---

(١) انظر كتابي الصراع من أجل الإيمان، الصفحات ١٥١-١٩٢.

(٢) لمناقشة هذا الحديث الشريف انظر المصدر السابق، الصفحات ١٥٣-١٥٥.

إن معظم الرجال من المسلمين يسلّم بوجود طبيعة لاعقلانية عند الإناث. وغالباً ما يعتقد هؤلاء أن النساء يفقدن السيطرة التامة على أحاسيسهن خلال فترة حيضهن. وهذا التصور عن النساء يحتج به بعضهم في مناقشاتهم التي يشددون من خلالها على أن المرأة يجب ألا تتولى أي مناصب قيادية، وأنه لا يمكن الاعتماد على شهادتها في المحاكم. أتذكر محاضرة عامة كانت بعنوان (المرأة في الإسلام) ألقاها أحد المسلمين في جامعة سان فرانسيسكو حضرها عدد كبير. وقال فيها المحاضر: إن النساء يفقدن أعصابهن خلال فترة حيضهن، ولدعم مناقشته استشهد بمحاكمة إجرامية في فرنسة لم يقبل فيها القاضي شهادة امرأة بعد أن تبيّن له أن تلك المرأة كانت في فترة حيضها حال وقوع تلك الجريمة. وقد علّق أحد الحضور من غير المسلمين ممن كان يجلس بجانبي قائلاً: "إن مقولة المحاضر هذه تؤكد أن الفرنسيين جنسيّون (sexists) ، مثلهم مثل المسلمين تماماً".

ويعتقد الغربيون أن رجال المسلمين يعاملون زوجاتهم بوضاعة ومهانة والعكس بالعكس. فغالباً ما يرفض المسلمون والمسلمات أن يحيي بعضهم الآخر إذا ما تلاقوا في الشارع، برغم أن النبي ﷺ كان يلقي السلام على من يلقاه من الرجال والنساء[1]. فلا أحد يشجّع النساء للذهاب إلى المسجد برغم

---

(١) يجب علينا أن نلاحظ هنا أن ما يعده الغربيون مهيناً قد لا يعد كذلك من قبل المسلمين، فعلى سبيل المثال، يشعر الغربيون أن غطاء الرأس (الحجاب) الذي ترتديه المرأة المسلمة يحط من قدرها في حين ترى كثير من المسلمات أن ذلك مصدر عزة وفخار، بل إن المسلمين يجدون في زي المرأة الغربية ما يقلل من قدرها وعفتها. وعلى نحو مماثل فإن العديد من مسلمات الشرق الأوسط يعتبرن أن تحية الرجل الأجنبي لهن في الشارع مهانة. وترى كثرة من المسلمات في بعض الدول المتشددة أن في عزلة المرأة عن الرجال صوناً لها ومناسبة للشعور بمزيد من الحرية، في حين أن ذلك أمر مشين بالنسبة لنظيرتها في الغرب. أنا لا أعدّ سلوك المرأة المسلمة أمراً يحط من قدرها على الإطلاق، ولكن أقول إن محيط الثقافة الأوسع، حيث تعيش المرأة المسلمة في الغرب، هو الذي يعدّ ذلك مهيناً ويحط من قدرها. ويجب على المسلمين أن يكونوا مدركين لهذا الأمر، وخاصة عندما يأخذون في اعتبارهم مسألة فرض عاداتهم وتقاليدهم على الآخرين، وبخاصة عندما يتصرّفون بأمر، من شأنه أن يزعج الآخرين، باسم الدين في حين أن ذلك قد لا يكون بالضرورة صحيحاً من وجهة نظر الإسلام على الإطلاق.

أن النساء في عهد النبي ﷺ كن يشهدن صلاة الجماعة على نحو منتظم. وقد نُصِحَتْ بعض الأخوات ممن أعرف ألاّ يحضرن الصلاة في المسجد، وقد علقت إحداهن على ذلك قائلة: "وكأنما المسجد هو نوع من النوادي الخاصّة بالرجال فقط".

ويجد معظم الناس من الغربيين، وكذلك المعتنقون الغربيون أن عزل المرأة أمر مهين جداً للذكور والإناث على حد سواء. وفي مناسبة غداء في بيت أحد الأصدقاء المسلمين فتحت زوجة مضيفنا خطأً باب الغرفة التي كانت تجلس النسوة فيها بينما كنت أعبر الممر بالصدفة. حملقت بي لبضع ثوان ثم أطلقت صرخة حادة عالية وأوصدت الباب بقوة. لابد أنها تصرّفت بهذه الطريقة من أجل ضيوفها من النساء؛ ذلك أنني كنت قد صادفتها في الشارع مرّات عدة دون أن تبدي أي خجل أو وجل مني[1] . ولقد عبّرت لي بعض الفتيات المسلمات اللاتي نشأن في أمريكا أن آباءَهن يعطون إخوتهن من الذكور قدراً من

---

(١) تخبر الآية القرآنية [الأحزاب: ٥٣/٣٣] الصحابة والصحابيات ألا يدخلن حجرات زوجات النبي ﷺ دونما استئذان كما كان يفعل بعض منهم. ويقول قدماء المفسرين: إن سبب نزول هذه الآية هو الحرج الذي أصاب النبي ﷺ وأزواجه في أكثر من مناسبة. ومن هنا فالآية تخبر الصحابة أنه إذا أرادوا أن يكلّموا أزواج النبي ﷺ فإنه يتوجب عليهم أن يبقوا خارج حجراتهن وأن يكلموهن من وراء ستارة (حجاب) تفصل بينهم وبين زوجات النبي ﷺ ويناقش بعض المسلمين أن هذه الآية هي دستور الممارسة العامة وراء عزل النساء عن الرجال خلال عهد النبي ﷺ، ولكن لهذه المناقشة نقاط ضعفها، ومن هذه النقاط: أولاً، ليس واضحاً أن الآية تفرض نوعاً من العزل الصارم الذي يمارس اليوم، أو حتى بالنسبة لزوجات النبي ﷺ فالآية ربما تشير فقط إلى كف النبي ﷺ وأزواجه عن بعض الأوضاع غير المريحة وذلك بمنحهم نوعاً من الاستقلالية. ويجب ألا ننسى أنه في هذه المرحلة من بعثة النبي ﷺ كانت هناك كتل من البشر تتجمع في الساحة المجاورة لبيوت النبي. وثانياً، وقع الآية لا يوحي بحكم عام، ذلك أن السورة نفسها تحتوي على عدد من الأوامر التي تختص بزوجات النبي ﷺ فقط. وثالثاً، نعلم من رواة الحديث أن العديد من الصحابة لم يكونوا يعزلون الإناث؛ وأنه وإن كان بعضهم يفعل ذلك، فإنهم لم يكونوا يفعلونه على نحو منتظم. ورابعاً، يقول الإمام مالك في الموطأ (الذي كتب في نهايات القرن الثاني الهجري) إنه لا يرى بأساً في أن يجلس النساء والرجال معاً شريطة أن يكون مع المرأة أحد من محارمها. وكان الإمام مالك يقول: إن هذه هي "سنتنا في المدينة." (وفي زمن الإمام مالك كانت كلمة سنة مرتبطة بالأعراف المحلية المتأصلة، أما فيما بعد فأصبحت كلمة سنة تقتصر على أقوال وأفعال النبي ﷺ فقط).

الحرية أكبر مما يعطونه للإناث. وقد وصفت إحداهن وضع البنات المسلمات ممن بلغن سن البلوغ على أنه نوع من الاعتقال المنـــزلي.

ولاشك أن لكل ثقافة نصيبها من الاعتقادات المهينة حول الرجال وحول النساء. وحتى وقت قريب، كان الغرب المسيحي أحد أسوأ هذه الثقافات في هذا المجال، ولكن التغييرات الدرامية في المجتمع الغربي هي التي أدت إلى تغيّر في المفاهيم. فالثورة الصناعية والحربان العالميتان الأولى والثانية قد أسهمت جميعاً في إخراج المرأة من منـــزلها لتنضم إلى قوة العمل الخارجية، وقد أثبتت المرأة من خلال ذلك أنها تستطيع أن تنافس الرجال على نحو فعّال. وبحصول المرأة على فرص أكبر وأفضل للتعلم، فإن العديد من أنماط التصورات عن فكر المرأة بدأت تتحطم. وسرعان ما أخذت المرأة مواقعها الجديدة في مجالات كانت تعدّ في السابق حكراً على الرجال مثل مجالات التجارة والرياضيات والطب. وسرعان ما تبدد الاعتقاد السائد بأن النساء أكثر عاطفية من الرجال، بل أصبحت الفكرة العامة عن النساء أنهن قادرات على إظهار عواطفهن والتعامل معها بطريقة مختلفة. فالرجال ليسوا أقل عاطفية من النساء ولكنهم يظهرون مشاعرهم بطرق أخرى كاللجوء إلى العنف والصراخ في معظم الأحيان، يدل على هذا أن الغالبية العظمى من جرائم العنف والجرائم العاطفية في أمريكا إنما ترتكب من قبل الرجال.

إن مراجعة الغرب لمواقفه حول الجنسين إنما كان سببه تغيّرات حدثت على نحو كلي تقريباً داخل الثقافة الغربية، إضافة إلى عدد محدود جداً من المؤثرات الأجنبية. وهناك تحد واختبار كبيران في العالم الإسلامي لوجهات النظر التقليدية فيما يختص بالجنسين، ولكن ما يلعب الدور الكبير هنا هو استيراد الثقافة الغربية ومواجهتها. وحيث إن التقنية الحديثة والمفاهيم الغربية لم تخترق المجتمعات الإسلامية إلا مؤخراً، فإننا نتوقع لأنماط الذكر والأنثى التقليديين أن يستمرا لبعض الوقت. ويجب ألا ننسى المشاعر القوية المعادية للغرب في العالم

الإسلامي، التي جعلت جماهير المسلمين كثيرة الشك بالأفكار الغربية. فالدعوة لتحرير المرأة غالباً ما تُرى على أنها ظاهرة غربية فريدة، ومحاولة خارجية لهدم الثقافة الإسلامية. ويوجد في العالم الإسلامي الآن هجمة مضادة لتحركات المرأة المعاصرة، ونجد أن المواقف التقليدية فيما يختص بالمرأة والرجل قد أثبتت نفسها ولابد لها أن تسود المجتمع الإسلامي في المستقبل المنظور.

إن الغالبية العظمى من المعتنقين الغربيين للإسلام هم ليبراليون من الناحية السياسية والاجتماعية، ولا عجب في هذا مادام أن بعض المحافظين يرون أن اعتناق الإسلام هو مسألة تحوّل جذرية. فالعديد من الرجال والنساء الذين اعتنقوا الإسلام كانوا من أنصار تحرر المرأة (النسويينfeminists) قبل ذلك، كما أن العديد من هؤلاء لم يتخلّ عن ذلك برغم اعتناقهم للإسلام، وإن انضمامهم للجالية الإسلامية يخلق وضعاً متأرجحاً. ومن الاتهامات الكبرى التي يوجهها الغربيون الذين اعتنقوا الإسلام ثم ارتدوا عنه أن المسلمين يكرهون النساء. وباستمرار الجالية الإسلامية في تجاهلها لهذه الشكوى ومحاولة تبريرها بمحاضرات مثالية حول الوضع الأمثل للمرأة المسلمة، فإن الغالبية العظمى من الأمريكيين والأوروبيين لن ينظروا بعين الرضا التامة إلى الإسلام. أنا لا أقول على الإطلاق بأننا يجب أن نجازف بأمور الدين من أجل كسب معتنقين جدد، بل إنني أدافع عن فكرة مفادها أنه على المسلمين أن يعيدوا النظر بتلك المواقف والممارسات الضرورية والأساسية حيال المرأة وبتلك التي هي غير ضرورية أو أساسية والتي من شأنها أن تقف عقبة في وجه الباحثين عن العقيدة بإخلاص.

* * *

الطابور الخامس

بعد اعتناقي الإسلام بنحو شهرين تقريباً بدأ الطلبة المسلمون في الجامعة التي كنت أدرّس فيها بإلقاء محاضرات عن الإسلام مساء كل جمعة في المسجد. وقد

ألقى المحاضرة الثانية هشام؛ وهو طالبٌ لامعٌ في الطب كان قد قدم إلى أمريكا منذ عشرة أعوام للدراسة. وكنت أحب وأحترم هشاماً كثيراً. كان شاباً ممتلئ الجسم نوعاً ما مرحاً وذا وجهٍ حسن. وكان أيضاً طالباً غيوراً على الإسلام. في تلك الليلة تحدث هشام عن واجباتٍ ومسؤوليات المسلم، وتكلم بإسهاب على الشعائر وعلى واجبات المؤمن الأخلاقية. كان كلامه مثيراً، وكانت قد مضت ساعة كاملة ونحن نستمع إليه، وفي النهاية اختتم حديثه بالملاحظة الصارمة التالية والتي لم نكن نتوقعها. قال هشام: "وأخيراً يجب ألا ننسى — وهذا أمرٌ هام جداً — أننا بوصفنا مسلمين من واجبنا السعي والاشتراك إن أمكن ذلك، في قلب أي حكومة غير إسلامية — أينما كانت في العالم — وذلك من أجل استبدال حكومة إسلامية بها." قاطعته قائلاً: "ياهشام! هل يفهم من حديثك أن على المواطنين المسلمين في أمريكا السعي لتدمير الحكومة الأمريكية؟ هل تريدهم أن يصبحوا طابوراً خامساً في أمريكا، وأن يشكلوا مجموعة ثورية سرية تسعى لقلب الحكومة في أمريكا؟ هل تقصد من حديثك أنه عندما يعتنق أمريكي الإسلام فإنه يتوجب عليه أن يلتزم بالخيانة السياسية؟" ظننت أنني بمواجهة هشام بذلك السيناريو القاسي فإنه سوف يلين، أو يلطّف من حدة تطرف عبارته. نظر إلى الأرض وهو يفكر ملياً في سؤالي، ثم تطلّع إليّ بنظرة تذكرني بتعابير طبيب ينظر إلى مريضه وهو يريد أن يقول له: إن الورم الذي لديه هو مرض خبيث، ثم أجاب قائلاً: "نعم، نعم، ذلك هو الصواب".

إن الاعتقاد بأن الإسلام يروّج للعنف فكرة متأصلة في التجربة الغربية لدرجة أننا نستطيع أن ندعو ذلك بديهية ثقافية، وأعتقد أن ليس هناك غربي تقريباً ممن لا يؤمن بالفكرة القائلة: إن الإسلام يحرّض المسلمين على استخدام القوة في سبيل نشر الدعوة. ولقد سيطرت هذه الفكرة — بل هذا الخوف — على أذهان الغربيين لعدة قرون من حضارة أعدت لتغزو العالم عسكرياً وثقافياً. فبعد وفاة النبي ﷺ بقليل وذلك عام ٦٣٢ ميلادية انطلقت الجيوش العربية من الجزيرة العربية في واحدة من أسرع غزوات التاريخ وأشدها رهبة في النفوس.

ومع حلول عام ٦٣٧ للميلاد تحوّلت كل من سورية والعراق إلى دولتين إسلاميتين ثم تلتهما مصر عام ٦٤٢ للميلاد. ثم تتابعت الحملات الإسلامية غرباً وشرقاً، وقبل انصرام القرن الهجري الأول اتسعت رقعة الإمبراطورية الإسلامية لتشمل ليس فقط من المحيط الأطلسي وشمال إفريقية إلى الخليج والهند، بل امتدت لتضم إسبانيا وجنوب فرنسة. وبعد ذلك كان الصراع المستمر ما بين المسلمين والأوربيين في العديد من المعارك ولكن الغلبة كانت للمسلمين في معظم الأحيان حيث استمر ذلك التفوق لعدة قرون. أما أوربة فقد أخذت تستعيد مكانتها ببطء وتُؤدَة، وما لبثت أن لحقت بالركب لتتفوّق على الحضارة الإسلامية في ميادين العلوم والتكنولوجيا والقوة العسكرية. وكان طرد المسلمين من الأندلس عام ١٤٩٢م نقطة التحول الحاسمة في تاريخ الإمبراطورية الإسلامية والمؤشر الدال على المزيد من الكوارث التي كانت تحدق بالأمة. ومع حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨ للميلاد بدأ عهد جديد في تاريخ المسلمين، وهو عهد الاستعمار الأوروبي؛ وفي النهاية وقع معظم العالم تحت السيطرة الأوروبية. وبعد الحرب العالمية الثانية وبعد صراع مرير ومتواصل أخذ المسلمون بالاستقلال عن المستعمرين، لينبثق عن ذلك عدد كبير من الدول الإسلامية المستقلة. إن تجربة الاستعمار الغربي للدول الإسلامية خلّفت جروحاً عميقة من الذل والهوان في قلوب العديد من مسلمي اليوم.

وفي الأصل فإن التصور الغربي عن الإسلام كدين يحض على العدوان المسلح قد يكون ردة فعل عاطفية حيال التهديد الإسلامي للسيطرة على أوروبة. وفي مرحلة من مراحل التاريخ كاد يقترب هذا التهديد من الحقيقة (يجب ألا ننسى أن الجيوش الإسلامية حاصرت فيينا (Vienna) أواخر القرن السابع عشر). ولكن خلال فترة الاستعمار الأوروبي أصبحت مسألة تصوير الإسلام على أنه دين العنف، وأن المسيحية دين الرأفة والرحمة إحدى أهم وسائل الحملات التبشيرية في محاولة منها لتنصير شعوب إفريقية وآسيا المسلمة. ولاشك أن هذا التناقض لا يخفى على أكثر المسلمين سذاجة إذ كيف يمكن أن يصوّب المرء البندقية على

امرئ ما في الوقت الذي يدّعي من يصوها أن عقيدته تعارض كافة أشكال استخدام القوة .

واليوم يحاول بعض المؤرخين الغربيين التشكيك في فكرة كون الإسلام ديناً يحض على العنف؛ ذلك أن تاريخ المسلمين لم يعد أكثر عنفاً من تاريخ الثقافات الأخرى[1]. وفي حين أن معظم المسيحيين ربما لا يصفون المسيحية بأنها ديانة تحض على العنف، ولكن في الحقيقة يصعب وصف الغرب المسيحي بأنه كان أكثر إسلاماً من العالم الإسلامي. فعدد الفظائع التي ارتكبتها الحكومات الغربية وجيوشها باسم الدين يكاد لا يحصى؛ وهذا الأمر ينطبق على عدد الذين أجبروا على اعتناق المسيحية بالقوة. وهناك فترات من التاريخ يمكن اتهام المسلمين فيها بذنب الاضطهاد الديني، ولكن على العموم، وكما أثبت المؤرخون الغربيون، فإن سجل المسلمين يعد مشرّفاً إذا ما قورن بسجل المسيحيين في هذا المجال. فحالات الاضطهاد الديني المدعومة من قبل الدولة أو حالات التخلي عن المسيحية والدخول في الإسلام عنوة تكاد تكون نادرة في العالم الإسلامي[2]. فالعديد من الكتاب الغربيين من القدماء والمعاصرين قد أشار إلى تقسيم العالم بموجب الشريعة الإسلامية ما بين دار الإسلام ودار الحرب على أن ذلك مرده إلى طبيعة الإسلام العدوانية. وهذه التركيبة القانونية-السياسية تقسّم العالم إلى منطقتي نفوذ متنافرتين، وهما دار الإسلام (وهي الأراضي التي يحكمها المسلمون طبقاً للشريعة) ودار الحرب (تلك التي لا تخضع للسيطرة الإسلامية والتي يجب أن تُضَم، ولو بالقوة إن احتاج الأمر، إلى الحكم الإسلامي). وتبعاً لهذه النظرية فإن هناك حالة من الحرب الدائمة ما بين الأقاليم المسلمة وغير المسلمة. ويزعم الكثيرون ممن هم في المؤسسات الأكاديمية ووسائل الإعلام الغربية أن مرد ذلك إلى شخصية الإسلام الميالة إلى الحرب والقتال.

---

(١) انظر على سبيل المثال مقدمة كتاب: يهود الإسلام (The Jews of Islam) لمؤلفه برنارد لويس (Bernard Lewis) برنستون: مطابع (Princeton University، ١٩٨٤م)، الصفحات ٣-٤.

(٢) المرجع السابق، الصفحات ٢٧-٦٢.

وليس من السهل أبداً دحض مثل هذه المناقشة ، فالمسلمون يستطيعون تذكير الغربيين دائماً أن القائمين على أمور الكنيسة في الماضي كانوا يدافعون عن سياسات الحكومة العدوانية والهمجية على أساس ديني، مع أنه يمكن الرد على هذا بالقول: إن تلك السياسات لم تكن مسيحية في الأصل مادام زعماء الكنيسة لا يوافقون ذلك اليوم. ومهما يكن فإن الغالبية العظمى من زعماء المسلمين المتدينين ما يزالون يؤمنون بمفهوم دار الإسلام ودار الحرب التقليدي، وهذا ما يجعل هذا المفهوم جوهرياً بالنسبة إلى الإسلام. إن هذا الأمر يشكل مشكلة شخصية صعبة جداً بالنسبة إلى المعتنقين لأنه يتبدى لهم أنه إذا أصبح أحدهم مسلماً فإنه يتوجب عليه أن يصبح عدوّاً لبلاده. ولكننا فيما يلي سوف نولي هذا الموضوع اهتماماً أكبر.

إن ما هو مسلّم به بين عامة البشر تقريباً أن قتل نفسٍ عمل مريع وخطير جداً[١]. ولذلك وجد الناس في كل زمان ومكان —وما يزالون— أنه من الضروري عملياً إيجاد أو خلق مناقشات دينية أو أخلاقية تسوّغ أعمالهم العسكرية. فعندما بدأ علماء المسلمين بتطوير نظرية سياسية-دينية تختص بشؤون الحرب كان عليهم التطرق إلى حقيقتين عظيمتين وهما: الفتوحات الإسلامية الكبرى في الماضي وخطر العدوان المستمر على طول حدود الإمبراطورية الإسلامية. وباعتقادي يمكن القول: إنه حتى وقت متأخر جداً كانت كل قوة سياسية عظمى ترى نفسها في وضع المعتدي أو المعتدى عليه، بمعنى أنه إن لم تكن حدود دولتك آخذة في الاتساع، فإنها عندئذ تكون عرضة لخطر التقلص. وقد أشار علماء المسلمين إلى غزوات النبي ﷺ وفتوحات عمر ابن الخطاب على أنها دعم لنظرية دار الإسلام ودار الحرب، وقد قام هؤلاء العلماء بوضع مجموعة من المبادئ والقواعد الشاملة والمفصّلة التي تتعلق بالحرب، والتي تمنع القتل أو الاعتداء على المدنيين العزّل وتنهى عن تدمير أراضي وممتلكات

(١) والقرآن يقرن قتل نفس بغير حق بقتل البشر جميعاً، كما ورد في الآية ٣٢ من سورة المائدة.

العدو السلمية، وتوصي بالمعاملة الإنسانية للأسرى وتحرّم استخدام البطش واستعمال القوة لإرغام الناس على التخلي عن دينهم والدخول في الإسلام. فأحد الأهداف الرئيسة للمشرّعين المسلمين كان إدخال أراضٍ غير إسلامية تحت سلطة الشريعة بأقل الخسائر البشرية والمادية الممكنة، وكانوا على اقتناع تام بأن الشريعة تقدم نظام حكم لا يدانيه نظام وأنها تمنح الأمم المغلوبة طريقة عيش أفضل وأكثر عدلاً، ناهيك عن القول بأنها تجعل هؤلاء أكثر قرباً من الإسلام للتعرف على حقيقة الإسلام وربما اعتناقه.

وفي كتابه **مقدمة في التاريخ** (The Outlin of History) يقدم هـــ. ج. ويلز (H.G. Wells) الصورة نفسها تقريباً عندما يقول: "فإذا كان القارئ يعيش على أوهام فيما يختص بأرقى الحضارات رقيّاً سواء الرومانية أو الفارسية أو الهيلنستية أو المصرية، لأنه قد غمره فيض إحداها، فمن الأفضل له أن يطرد هذه الأوهام بالسرعة القصوى. فلقد انتشر الإسلام لأنه كان أفضل نظام اجتماعي وسياسي على مر الأزمان والعصور، ولقد ساد الإسلام لأنه حيثما اتجه كان يلقى شعوباً لا مبالية سياسياً، شعوباً مسلوبة ومظلومة ومضطهدة وغير مثقّفة وغير منظّمة، وكان يجد حكومات أنانية وغير منطقية وبعيدة كل البعد عن شعوبها. لقد كان الإسلام الفكرة السياسية الأنقى والأحدث والأشمل والتي لم يسبق أن طُبق مثلها بشكل فعلي في العالم. ولم يسبق لأي فكرة سياسية أخرى أن قدّمت لبني البشر علاقات وشروطاً أفضل للعيش من الإسلام"[١].

ولست هنا بصدد الدفاع عن نظرية دار الإسلام ودار الحرب أو حتى الجدال فيها، كما أن هدفي لا يكمن في إقرار إن كانت هذه التركيبة التي وضعها فقهاء المسلمين صحيحة أم لا، برغم أنني أعتقد أن الخوض في ذلك قد يكون تمريناً مفيداً. إن هدفي هنا يتلخص في دحض فكرة السمو بهذه النظرية أو أن نجاوز بها الحدود، كما يقول بعض المسلمين والعديد من نقاد الإسلام

---

(١) هـــ. ج. ويلز :H.G. Wells مقدمة في التاريخ The Outline of History ، الصفحات ٦١٣-٦١٤.

على حد سواء. إن ما أعنيه بهذا هو أن العديد من الباحثين غير المسلمين (ممن يشجب الإسلام على أنه دين العنف أصلاً) وكذلك العديد من القادة والباحثين المسلمين الذين يزعمون أن هذه النظرية السياسية العسكرية التقليدية هي من جوهر الدين الإسلامي، وأن الإسلام يعدّها صالحة لكل زمان ومكان. وكلا الفريقين يزعم، وكل له دوافعه المختلفة، أن الشك بصلاحية هذه التركيبة التقليدية لزماننا يعني إنكار صلاحية الإسلام لهذا الزمان. والسؤالان الرئيسان اللذان يجب على كلا الفريقين إعادة النظر فيهما على ما أعتقدهما: هل هذه التركيبة السياسية - الشرعية هي جوهرية للإسلام؟ وهل هي بحق مناسبة لهذا الزمان والعصر؟ وبالنسبة إلى المسلمين، إن كانت الإجابة عن السؤال الأول بالإيجاب فلابد أن تكون كذلك بالنسبة إلى السؤال الثاني، فلنبدأ بالسؤال الأول. إذن لاشك أن القرآن لا يحض على السلبية والاستسلام، وفي حين أننا نجد في القرآن آيات تحث المؤمن على الصفح والغفران (انظر الآيات ١٠٩ من سورة البقرة، و١٩٩—٢٠٠ من سورة الأعراف، و٣٧ من سورة الشورى، و١٤ من سورة الجاثية)، نجد آيات أخرى تؤكد على أن الحرب ضرورية أحياناً. فمثلاً يؤكد القرآن أن الحرب التي تُشن دفاعاً عن النفس لها ما يسوّغها:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٢٢/٣٩-٤٠].

والقرآن يهيب بالمؤمنين أيضاً أن يحاربوا الظلم والطغيان:

﴿وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ [النساء: ٤/٧٥].

ولكن يبدو لي أنه من الصعب، وبناء على ما جاء في القرآن، تسويغ حرب تشن لأي سبب سوى الدفاع عن النفس أو لنصرة المظلوم أو إغاثة الملهوف. وفي الوقت الذي كان فيه النبي ﷺ يكافح مشركي مكة ولمدة ثماني سنوات، كان القرآن يتنـــزل بآيات تتعلق بالحرب وبعلاقة المسلمين مع غيرهم. والغالبية العظمى من هذه الآيات جليّ وواضح، حيث تنهى المسلمين عن شن أي حرب إلا للأسباب التي سبق ذكرها:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/١٩٠-١٩٢].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/١٩٣].

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦].

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ [النساء: ٤/٩١].

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٨/٦١].

فالنصوص القرآنية هذه تأذن وبشكل واضح للمسلمين بالقتال، ولكن فقط في حالات الدفاع عن النفس أو مجابهة الاضطهاد والظلم. والمهم هنا هو أن ثلاثة من هذه النصوص قد وردت في السورة الثانية (سورة البقرة) التي تلخص المواضيع الرئيسة في الإسلام؛ والآيات ٣٩-٤٠ من سورة الحج التي سبق ذكرها ربما تكون خير دليل لموقف القرآن حيال الحرب فهي احتياطية واحترازية وواقعية. وفيما وراء ذلك نكاد لا نجد في القرآن من الآيات ما يدعم استخدام القوة والشروع بالعدوان وسيلة لإرغام الدول غير الإسلامية على القبول بالإسلام مبدأ في الحكم.

وغالباً ما يستخدم علماء المسلمين الآية الخامسة من سورة التوبة والتي تدعى (آية السيف) دليلاً على أن الإسلام يحض على التوسع العسكري. ونجد أن جميع المفسرين يجمعون على سبب نزول هذه الآية وهو أنه بعد سبعة أعوام من هجرة المسلمين إلى المدينة وقّع النبي ﷺ مع مشركي مكة صلح الحديبية، ولكن بعد عام من ذلك نقضت قريش العهد فنــزلت هذه الآية التي تحرّض المسلمين على قتال المشركين:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/٥][١].

(١) ومن النقاط الهامة التي يجب أن نذكرها فيما يختص بهذه الآية أنها منعت سفك الدم؛ ومما هو معلوم في ذلك الوقت أنه كان لقريش العديد من العيون في المدينة، وكانت قريش تعتمد عليهم في تتبع أخبار المسلمين وخطط النبي ﷺ السياسية (وغالباً ما كان النبي ﷺ يطوّع ذلك لمصلحة المسلمين). وعندما علمت قريش بهذا الإعلان الخطير لشن الحرب عليها دب الذعر في نفوس أبنائها وسرعان ما أرسلت إلى النبي ﷺ من يفاوضه بأمر استسلامهم السلمي. وكانت النتيجة فتح مكة دون قتال. وبعد ذلك أعلن النبي ﷺ العفو العام عن جميع من كان في مكة من أعدائه. ويبدو أن أحد الأسباب الرئيسة لورود لهجة الوعيد الواردة في آية السيف هذه هو بث الرعب في نفوس قريش وإرغامها على الاستسلام.

وبنظرة خاطفة على سياق هذا النص نخلص للقول بأنه موجه ضد أولئك الذين ينقضون العهد عن طريق الغدر بالمؤمنين. وأما الآية السابقة لهذه الآية فهي:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/٤].

وبعد ذلك نقرأ قوله تعالى:

﴿فَما اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/٧].

ويبدو لي أن ليس هناك أي تعارض على الإطلاق ما بين آية السيف والآيات الأخرى التي ذكرتها للتو (الآيات ١٩١-١٩٣ و٢٥٦ من سورة البقرة، و٩١ من سورة النساء، و٦١ من سورة الأنفال) والتي تحرم العدوان العسكري؛ وهذه الآية تعالج موضوع نقض العهد من قبل العدو، ولا تعد مسوّغاً للتوسع العسكري على حساب الآخرين[1]. ومع ذلك فهناك العديد من المفسرين المسلمين ممن يشعرون بأن هذه الآية تأذن للمسلمين بالقيام بالعدوان ضد الحكومة التي ترفض الخضوع لحكم الإسلام. وللتوفيق ما بين الاختلاف الظاهري بين آية السيف والآيات الأخرى التي تحرّم العدوان فقد اقترح هؤلاء المفسرون نسخ العديد من الآيات، وكما يقول محمد علي: "إن ١١٤ آية تتخلل ٥٤ سورة تحض على السلام قد نسختها الآية الخامسة من سورة التوبة".

وفي كتابه (**الفريضة الغائبة**) يقول محمد عبد السلام فرج الذي أعدم في الخامس عشر من أبريل/نيسان ١٩٨٢م مع آخرين اتهموا باغتيال الرئيس المصري أنور السادات:

---

(١) تستخدم بعض الآيات من سورة التوبة (مثل الآية ٢٩ والآية ١٢٣) لتبرير غزو الدول المسالمة في سبيل إخضاعها للحكم الإسلامي ولهذا فإن هؤلاء لا يعارضون بذلك الآيات الواردة أعلاه (ومن ثم يفترضون منهج نسخ واسع النطاق) وحسب، بل كما يناقش محمد علي على نحو مطوّل، يتجاهلون سياقي النـزول والتاريخ. انظر محمد علي: دين الإسلام، الصفحات: ٤٠٥-٤٤٣.

قال مفسرو القرآن شيئاً واحداً عن آية معيّنة في القرآن يدعونها (آية السيف) وهي ﴿فَإِذا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ...﴾. فابن كثير يقول في تفسيره: "وهذه الآية هي (آية السيف) التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عقد وكل مدة، وقال العوفي: عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت سورة براءة".

ويقول المفسر محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي: إن هذه الآية "ناسخة لكل موادعة في القرآن. وقيل: إنها نسخت أيضاً ﴿فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾. هذا الأمر أن تسالم المشركين ورد في ١١٤ آية موزعة على ٥٤ سورة، وكل تلك الآيات نسختها الآية التاسعة من سورة التوبة، وكذلك الآية ٢١٦ من سورة البقرة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ﴾[١]".

إن النظرية التي تشكل أساس مناقشة محمد عبد السلام فرج، وهي نظرية بحق، هو أن بعض آيات القرآن تنسخ آيات أخرى زماناً ومكاناً. وبرغم أن نظرية النسخ هذه تحظى بقبول العديد من علماء المسلمين، فإنني أرى فيها العديد من نقاط الضعف[٢]. فبداية يمكن القول: إنه ليس هناك حديث موثّق للنبي ﷺ يفيد أو يؤكد أن آية قرآنية قد نسخت آية أخرى للأبد. ويرى جميع أهل الحديث من المسلمين أن الأحاديث المتعلقة بالنسخ ضعيفة[٣]. فإذا ما شعر

(١) محمد أركون: تجديد الفكر الإسلاميRethinking Islam ، ترجمة روبرت لي (Robert Lee) مطابع، (Boulder Westview١٩٩٤م). ويبدو أن أركون قد نقل فحوى كلام ابن جزي ولم يلتزم بنصّه وقد أوردت كلام ابن جزي كما ورد في تفسيره.

(٢) القول في مسألة النسخ ونظرة الأقدمين إليها يمثلها قول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها...﴾ قال: يعني ما ننسخ من آية إلى غيره فنبدله ونغيره وذلك أن يحول الحلال حراماً والحرام حلالاً والمباح محظوراً والمحظور مباحاً ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولامنسوخ. انظر تفسير الطبري، الجزء الأول، الصفحة ٤٥٧. [المترجم].

(٣) محمد علي: دين الإسلام، الصفحات: ٢٨-٣٠.

صحابي ما أن آية ما قد نسخت آية أخرى وللأبد فإن ذلك ليس سوى تفسير شخصي. وبالنسبة إلى المسلمين فإنه لا تنسخ آية آية أخرى إلا إذا كان هناك حديث شريف يدعم ذلك، ولا أعتقد أن هناك أحاديث معتمدة بهذا الشأن. وغالباً ما يستشهد بالآية ١٠٦ من سورة البقرة والآية ١٠١ من سورة النحل لدعم نظرية النسخ هذه برغم أن السياق في كل منهما يشير إلى أنهما أنزلتا على أنبياء بعثوا قبل النبي ﷺ، فعلى أقل تقدير فإن هذا تفسير طبيعي ومقبول[1].

وهناك نقطة ضعف أخرى في نظرية النسخ وهي وجود الخلاف بين علماء المسلمين أنفسهم حول الآيات التي نُسخت بالضبط وإلى أي مدى، وفي كل الأحوال تقريباً نجد أن ثمة عالماً يؤمن بنسخ آية ما، في الوقت الذي لا يرى فيه آخر نسخ تلك الآية. ويقول محمد علي: إنه حتى مع الصحابة نجد أنه "وفي معظم الأحيان حيث يمكن رفع الأثر إلى واحد من الصحابة ممن يعتقد بأن آية ما قد نسخت، هناك أثر آخر يمكن رفعه إلى صحابي لدرجة يمكن فيه القول بأن تلك الآية لم تنسخ"[2]. صحيح أنه عندما كانت تصادف النبيّ والصحابةَ ظروف جديدة أو تتغير أوضاعهم غالباً ما كانت تتنـــزل آيات تعالج الموقف الجديد. وبعد ذلك كان يقوم المسلمون بالتعديل والتغيير المناسب في سلوكهم، ولكن ليس هناك داع لأن نستنتج من هذا أن نصاً قرآنياً قد نسخ نصاً آخر وللأبد. فأحياناً نجد أن تنـــزيلاً معيناً يكون استطراداً لحكم سابق أو امتداداً له، كما هو الحال في الآيات التي نزلت في تحريم الخمر. ففي مثل هذه الحالة يكون الأمر الإلهي المنـــزل الأول والثاني يكمل بعضهما بعضاً. وفي مناسبات أخرى نجد أن القرآن يراجع أوامر سابقة في ضوء الظروف المتغيّرة — كما هو الحال في الآية الخامسة من سورة التوبة — ولكننا نجد هنا أيضاً أنه مادام هناك أوامر إلهية مختلفة تعالج ظروفاً مختلفة، فليس ثمة سبب للتخمين بوجود تعارض بينها.

---

(١) المصدر السابق، الصفحات: ٣٨-٣٤.

(٢) المصدر السابق، الصفحة: ٣٠.

وفي الحقيقة يمكنني القول: إنه ليس هناك حاجة لنظرية النسخ[١]. إن نظرية النسخ هذه كانت تستخدم لحل ما كان يشعر به علماء المسلمين من أنه أوامر قرآنية متناقضة، ولكن إذا دقق المرء بسياق المبادئ القرآنية جميعاً فسوف يرى أنه لا تعارض بينها على الإطلاق، والدليل على ذلك أن القرآن نفسه يؤكد على عدم وجود أي تعارض بين آياته (الآية ٨٢ من سورة النساء). وأما الحالات التي شعر بعض العلماء بوجود تعارضات فيما بينها، فإن هذه الحالات تعالج وعلى نحو ثابت أوضاعاً مختلفة جداً. وعلى هذا فعند تفسير مثل هذه الأوامر القرآنية يجب علينا ألا نتجاهل سياق الموضع، لأن مثل هذا التجاهل من شأنه أن يسهّل عملية تخطئة حكم استثنائي بحكم عام والعكس بالعكس، ومن ثم قد يدرك المرء أن هناك تعارضاً ما بين نص قرآني وآخر في الوقت الذي لا يوجد فيه مثل هذا التعارض على الإطلاق.

وأخيراً، فإن نظرية النسخ تبدو وكأنها تزعم أن الله قد أنزل معلومات غير ضرورية في آخر تنـــزيل محكم للإنسان وهو القرآن، وأنه كان عليه أن يصحح نفسه من وقت لآخر أثناء عملية التنـــزيل تلك، وهذا إدراك من الصعب جداً تصوره مع صفات الله التي تتجلى من خلال القرآن. ولم أندهش عندما أخبرني عدد من معتنقي الإسلام الجدد أنهم صُدموا وتزعزع إيمانهم عندما اكتشفوا هذه النظرية بادئ الأمر[٢].

ومن أجل ذلك أشعر أن ليس هناك حاجة حقيقية أو مسوغ لوجود نظرية النسخ التقليدية؛ ومع ذلك فمن دون هذه النظرية لا يمكن الاستشهاد بالقرآن

---

(١) للاطلاع على مناقشة تؤيد نظرية النسخ، انظر كتاب الرسالة للإمام الشافعي، ترجمها للإنجليزية ماجد خضوري (بالتيمور مطابع John Hopkins ، ١٩٦١م).

(٢) هذا كلام خاطئ، حيث أن النسخ يرتبط بتدرج الأحكام مراعاة لأحوال البشر. والدليل على ذلك التدرج في تحريم الخمر والربا وسد منابع الرق. أما في الأخبار فلا ناسخ ولا منسوخ كما قال الطبري. [المترجم].

لتبرير أي حرب سوى تلك التي يجب أن تشن للدفاع عن النفس أو محاربة الطغيان. وإن ما يدعم هذا الرأي هو أن الاستخدام الواسع لنظرية النسخ إنما نحتاجه لتبرير نموذج التوسع العسكري الذي تدعمه مقولة دار السلام ـــ دار الحرب. ومن الواضح أن النصوص القرآنية المتعلقة بالحرب تعارض وبشدة أي عدوان يشن دون وجود مسوغ. ويمكن تمثيل هذه المناقشة بالرسم البياني التالي:

واجب المسلمين الديني هو إخضاع غير المسلمين للحكم الإسلامي

↑

نظرية دار الإسلام ودار الحرب

↑

نظرية النسخ في آيات القرآن

وهناك خطوط أخرى للمناقشة تدعم أطروحة أن المسلمين مكلفون بإخضاع غير المسلمين للحكم الإسلامي، ولكنني بدأت بنظرية النسخ لأن القرآن بالنسبة إلى المسلمين هو المصدر الرئيس للهداية الأخلاقية والأدبية، وسلطة القرآن بالنسبة إلى من يؤمن به هي فوق كل سلطة، ومصدره فوق كل المصادر التي يمكن للمرء أن يستقي منها مبادئ وممارسات الدين[1].

وبشكل عملي فإن جميع المحاولات الأخرى لإثبات أنه يجب على المسلمين إخضاع غير المسلمين للحكم الإسلامي تتقاطع عند المرحلة الثانية من الرسم البياني السابق، أي إن الاستنتاج القائل بأن الإسلام يحض على إخضاع غير المسلمين لحكمهم هو نتيجة لمفهوم دار الإسلام ودار الحرب، أو متأثر بشكل كبير به، وغالباً ما يستشهد هنا بالنبي ﷺ أو بعمر بن الخطاب. ولكننا إن قمنا هنا أيضاً بفحص دقيق لقراراهما السياسية فإننا لن نصل بشكل حتمي إلى ذلك المفهوم. ولنبدأ بدراسة خطط النبي العسكرية.

---

(١) المصدر السابق، الصفحة: ١١٧.

فقد اضطرت الجالية الإسلامية الوليدة في مكة بعد سنوات من القهر والاضطهاد على أيدي مشركي قريش للبحث عن ملجأ آمن خارج مكة. وفي البداية أمر النبي ﷺ مجموعة من أتباعه بالهجرة إلى الحبشة (Abyssinia) حيث ضمن لهم النجاشي (The Negus) الحرية الدينية. وربما كان على هؤلاء المهاجرين التحضير لوصول بقية المسلمين فيما لو أصبح مقامهم في مكة لا يحتمل. وكانت ردة فعل قريش على الهجرة الأولى تلك بأن قامت بتصعيد اضطهادها لمن بقي من المسلمين في مكة. وفي الوقت الذي بدا فيه أن النبي وأتباعه يبحثون عن ملجأ آمن في مكان ما برزت الفرصة التي لم تكن متوقعة، وهي دعوة سكان يثرب (المدينة العربية الشمالية من مكة)، والتي دان العديد من سكانها بالإسلام، النبي للهجرة إلى مدينتهم وتولي الحكم فيها بعد أن مزقتها أحقاد وضغائن القبائل العربية التي تقطن فيها. وسرعان ما تحوّل اسم يثرب ليصبح (المدينة) وهي اختصار (مدينة النبي)، وانتقال النبي إليها يعرف بالعربية بـــ (الهجرة)".

ويسجل مؤرخو المسلمين أن كلاً من مشركي مكة والمسلمين المهاجرين قد شكك بعواقب هذه الهجرة، فقد عرف كل فريق أنها لن تكون نهاية النـــزاعات فيما بينهما، وأن الخروج إلى المدينة كان في زمانهم وبيئتهم معادلاً لإعلان الحرب. وتشير السجلات التاريخية إلى أن مشركي مكة وأتباع النبي قد تبادلا وعيد الحرب بينما كان المسلمون يغادرون مكة. وعندما بقي النبي في مكة بعد رحيل معظم أتباعه تقريباً، حاولت قريش مرتين توجيه ضربة أولية وحاسمة ضد المسلمين، ولكن محاولتهم الأولى لقتل النبي في فراشه فشلت. وأما محاولتهم الثانية فقد تمكن النبي وأبو بكر من تضليل فرسان قريش التي انطلقت في أثرهما محاولة الإمساك بهما وقتلهما. ولذلك عندما وصل النبي المدينة كان لدى المسلمين اقتناع تام أنهم أصبحوا الآن في حالة حرب مع قريش وأن عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ببسالة في المعركة. عند ذلك نزلت آيات القرآن وكانت

أول إذن يسمح للمسلمين بالرد على العدوان والبغي في هذه الظروف الحرجة جداً: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٢٢/٣٩-٤٠].

وكما يبدو من هذه الآية فإن صراع النبي العسكري مع قريش كان من الوهلة الأولى دفاعياً وانتقامياً، فقد كانت قريش قد كشفت للتو عن نواياها العدوانية. وبالنسبة إلى المسلمين، فقد حان الوقت لهم لكي يردوا ذلك العدوان. وبعد ثماني سنوات من ذلك، وبعد حفنة من المعارك مع قريش، وكذلك بفضل حنكة النبي ﷺ السياسية وجهوده المستمرة في نشر الدعوة، تمكن النبي ﷺ من إخضاع قريش. والحصول على تفاصيل غزوات النبي على قريش ومن والاها هو أمر في غاية السهولة، ولذلك فلن أقوم بسرد ذلك هنا، بل أريد أن ألفت انتباه القارئ إلى المعتدي أو البادئ بالعدوان. وتظهر السجلات التاريخية أن كل قبيلة تحاربت مع المسلمين كانت هي الباغية أولاً أو المحرضة لمعتدٍ أو باغٍ. وأذكر هنا على وجه الخصوص أنه لا يوجد على الإطلاق دليل على أن النبي أعطى خلال حياته لقبيلة مجاورة مسالمة الخيار بين أحد أمرين: قبول حكمه أو قبول الحرب عليها. ومع ذلك لم تمنع هذه الحقيقة الكتّاب المسلمين وغير المسلمين من تقليب كتب الحديث والسيرة بحثاً عن دليل لمفهوم دار الإسلام ودار الحرب.

وغالباً ما يستشهد بعض الكتاب بأن آخر غزوات النبي وهي غزوة تبوك كانت إحدى خطط النبي ﷺ الإمبريالية. كانت تبوك الحد الفاصل بين بيزنطة والجزيرة العربية، وقد قاد النبي ﷺ في تلك الغزوة — التي كانت رحلة طويلة وشاقة — جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل. ولكن في الحقيقة كانت هذه الغزوة رداً على تقارير وردت عن مخطط بيزنطي للهجوم على الجزيرة العربية،

كما كانت تقول الشائعات الدائرة في شمال الجزيرة عندئذ[١] . وعندما وصل النبي ﷺ إلى تخوم بيزنطة وجد أن الرومان لم يبتدروا أي هجوم، فما كان منه إلا أن عاد أدراجه إلى المدينة دون أن يهاجم الرومان على الإطلاق. فسلوك النبي في هذه المناسبة يؤكّد أن الإذن بقتال النصارى الوارد في الآية ٢٩ من سورة التوبة كان أيضاً خاضعاً للشرط الوارد في الآية ١٩٠ من سورة البقرة، وهو أن المسلمين يجب ألا يكونوا معتدين[٢] ".وعلى نحو مماثل، يعتقد بعض الكتّاب أن قصة إرسال النبي رسائل إلى حكام وملوك الدول المجاورة إنما كان أمراً قريباً من مفهوم دار الإسلام ودار الحرب يدور في خلد النبي ﷺ [٣] ومع ذلك نجد أن تلك الرسائل لم تحتو على أي تهديد أو وعيد بالحرب إن هم أبوا أن يستجيبوا لطلب النبي ﷺ بالقبول. وأن ما تظهره تلك الرسائل وحسب هو أن النبي ﷺ لم يدخر وسعاً أو يألُ جهداً في تبليغ الرسالة السماوية بكافة الطرق السلمية الممكنة.

ولقد قام بعض الكتّاب باستخدام عدد من أحاديث النبي ﷺ للدفاع عن مفهوم دار الإسلام ودار الحرب، ونلاحظ وعلى نحو نموذجي أن هذه المناقشات تتجاهل سياق هذه الأحاديث أحياناً وأحياناً أخرى تستقي منها مضامين غير واضحة وغير ضرورية. ومثال الحالة الأولى من أخطاء السياق قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا

---

(١) وقبل ذلك بعام أرسل النبي ﷺ قوة استطلاعية للتحقق من شائعات حول غزو البيزنطيين لشمال الجزيرة العربية. وفي مؤتة اشتبك المسلمون في معركة غير متكافئة مع الجيش البيزنطي الكبير حيث قتل في تلك المعركة عدد من كبار الصحابة. ومع انكشاف الأمر بدا أن هدف البيزنطيين من تلك المعركة لم يكن المسلمين بل بعض القبائل العربية الشمالية التي كانت موالية لبيزنطة في بداية الأمر ولكنها بدأت تتحدى سلطتها فيما بعد. ويبدو أن البيزنطيين أخطؤوا بظنهم أن الكتيبة الإسلامية تلك كانت حلفاءهم السابقين الذين شقوا عصا الطاعة والتي كان هدف البيزنطيين فيها تأديبهم.

(٢) محمد علي: دين الإسلام، الصفحة: ٤١٦.

(٣) المصدر السابق، الصفحات:٤١٧-٤١٨.

بحق الإسلام وحسابهم على الله ".[١] ولا يستخدم الفقهاء هذا الحديث بشكل حرفي؛ لأن ذلك من شأنه أن يتضمن تحويل الناس عن دينهم — بما فيهم النصارى واليهود — بقوة السيف، وهذا مخالف للشريعة الإسلامية. وهذا الحديث يشير وبكل وضوح إلى سورة التوبة، حيث أُمر النبي ﷺ، وكما تم إيضاحه سابقاً، أن يقاتل القبائل التي نقضت صلح الحديبية ولكن مع إضافة الشرط الوارد في الآية ١١ من سورة التوبة: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١/٩][٢].فهذه الآية والحديث الشريف يكرران صدى المبدأ الإسلامي الراسخ وهو: إذا قبل قوم ما بالإسلام ديناً فإنهم يصبحون جزءاً من الأمة ومن ثمّ تتوقف ضدهم كافة أشكال الحرابة. وفي الحديث نجد بعض الصحابة يسأل النبي ﷺ عن مدى فعالية هذا الحكم بشكل عملي، حيث إنه كما سأل أحد الصحابة، قد يدخل بعض الناس في دين الإسلام رياءً ونفاقاً، ولكن النبي ﷺ يصر على هذا المبدأ وهو أن من دخل في الإسلام يصبح جزءاً من الأمة[٣]. وبناءً على ذلك فإن التأسي بالنبي ﷺ لايعني أنه يتوجب على المسلمين فرض الإسلام على غير المسلمين بالقوة، فأقواله وأفعاله ﷺ كانت دوماً منسجمة مع مبدأ القرآن العام وهو وجوب عدم الاعتداء على الآخرين دونما أي سبب. وهذا الأمر ينطبق على الخليفة الثاني للنبي ﷺ عمر بن الخطاب.

ففقهاء المسلمين يعترفون بأربعة مصادر رئيسة لتشريع المبادئ والممارسات الإسلامية وهي بالترتيب من حيث الأهمية: القرآن الكريم، والسنة، والقياس،

---

(١) من حديث عبد الله بن عمر في صحيح البخاري ومسلم.

(٢) من أجل إتمام الفكرة أورد هنا اقتباس الآيتين التاليتين لهذه الآية: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ، أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٩/١٢-١٣].

(٣) من كتاب رياض الصالحين للإمام النووي، ترجمه للإنجليزية س. م. ن. عبّاسي.

والإجماع[١] . وبرغم أن اجتهادات الصحابة وأفكارهم الشخصية وأقوالهم ليست من مصادر التشريع الإسلامي فإن المسلمين ما يزالون يولونها كل الأهمية وخاصة قرارات ووجهات نظر الخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم). فعلاقتهم بالنبي ﷺ كانت قوية جداً وتضحياتهم في سبيل الدعوة كانت عظيمة ويفترض المسلمون أن أحكامهم فيما يتعلق بالمسائل الدينية لا يمكن لها أن تخالف تعاليم النبي ﷺ على الإطلاق. فالفتوحات العظيمة التي وقعت خلال فترة عمر تمثل للعديد من المسلمين سابقة قوية لمفهوم دار الإسلام ودار الحرب، برغم أن الحروب التي خاضها المسلمون ضد الفرس والروم لم تبدأ في عهد عمر بل في عهد الخليفة الأول أبي بكر. كما أن أبا بكر نفسه لم يحارب هاتين الإمبراطوريتين لأنهما لم يمتثلا لحكم الإسلام، بل رداً على دعمهما لبعض القبائل العربية التي ثارت ضد المسلمين وتحريضهما لها.

وبعد وفاة النبي ارتدت بعض القبائل العربية وثارت على المسلمين متحدية بذلك السلطة السياسية للدولة المسلمة. وقد وقع معظم ذلك العصيان المسلح على الحدود الغربية من بلاد الشام حيث كانت تدعمه الإمبراطورية البيزنطية؛ وفي الشرق كان في البحرين حيث كانت تدعمه الإمبراطورية الفارسية[٢] . وهكذا، فقد وجدت الدولة الإسلامية نفسها مهددة من قبل هاتين الإمبراطوريتين، وعليه فقد امتدت معركة أبي بكر ضد القبائل المرتدة في الواقع إلى حرب واسعة النطاق مع بيزنطة وفارس.

وعندما تسلّم عمر السلطة كانت الحرب مع فارس وروما قد ابتدأت للتو. وتحت قيادته سقطت أقاليم واسعة في قبضة المسلمين وبسرعة فائقة. لقد

---

(١) أقصد هنا فقهاء السنة وأما من أراد أن يرجع إلى فقه الشيعة فهناك كتاب الشيعة للطبطبائي، ترجمه للإنجليزية س. هـ. نصر (إيران: مطابع الأنصارية).

(٢) محمد علي: دين الإسلام، الصفحة: ٤١٦-٤١٧. وكذلك انظر: م. أ. رؤوف :M. A. Rauf مختصر تاريخ الإسلام A Brief History of Islam ، (مطابع جامعة أوكسفورد: ١٩٦٤م)، الصفحات ١٩-٢٠.

أنهكت مئتا عام من القتال بعضهما ضد بعض كلاً من الفرس والروم؛ وهذا يفسر، جزئياً، انتصارات جيوش المسلمين الباهرة على هاتين الإمبراطوريتين. وهناك سبب آخر يفسر انتصارات المسلمين أيضاً هو أن أعداداً كبيرة من الشعوب التي كانت تعيش داخل هاتين الإمبراطوريتين كانت تتوق إلى سقوط هاتين الإمبراطوريتين، وذلك من وطأة الظلم والاضطهاد التي كانت تعانيه منهما. فقد رأت معظم تلك الشعوب من الأقاليم المفتوحة في العرب محررين، ولا عجب أن نرى العديد من هؤلاء يقفون إلى جانب الجيش الإسلامي في الحرب[1].

وهناك بعض من الكتّاب المسلمين المعاصرين ممن يدّعي أن حملات أبي بكر وعمر ضد الإمبراطوريتين كانت دفاعية محضة، وهم يشيرون إلى أن كلاً منهما كانت البادئة بالعدوان وأن عمر أمر بتوقف الجيش الإسلامي عن التوغل في عمق أراضي هاتين الإمبراطوريتين في مناسبات عدة؛ وأن عمر عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش لأنه أفرط في القتل. ويشير هؤلاء الكتّاب أيضاً إلى أن فتح مصر قد تم دون رغبةٍ من عمر.

أنا لا أنكر هذه الحقائق التاريخية، ولكنني لست مقتنعاً بأن حروب المسلمين مع هاتين الإمبراطوريتين كانت دفاعية محضة. ربما كان الوضع كذلك أثناء خلافة أبي بكر، وإلى حد ما في حروب عمر مع فارس. ففي كتابه **(تاريخ الخلافة)** يعترف موير (Muir) المعروف بعدائه الشديد للإسلام "أن الحقيقة بدأت تظهر وهي أن عمر إنما دفعته الضرورة كي يرفع الحظر عن التقدم العسكري. ففي سبيل الدفاع عن النفس لم يبق لعمر من سبيل سوى القضاء على كسرى (Chosroes) والاستيلاء على ملكه[2]». ومع ذلك، فإن روايات المسلمين

(١) غريغوري س. كوزلوسكي: Gregory C. Kozlowsky تاريخ الإسلام المُحكم A Concise History of Islam، (مطابع : Acton, MA: Coply ١٩٩١م، الصفحات ٢٩-٣٠).

(٢) و. موير: W. Muir تاريخ الخلافة History of the Caliphate، الصفحة ١٧٢.

الكلاسيكية، وخاصة الواردة في (**تاريخ الطبري**) لا تظهر عمر على أنه كان فاتحاً متردداً[١] . وبرغم أن الكثير من هذه الروايات عن الفتوحات ليست تاريخية محضة فإنها ترسم الصورة الإجمالية لدور عمر وتبدي أنه كان محط ثقة كبيرة، وتقول الروايات: إن عمر كان يسيّر الجيوش إلى ميدان المعركة الواحد تلو الآخر، ويتابع أخبار المعارك عن طريق الاتصال بقادة الجيش في الجبهات، ويبعث الشجاعة في نفوس الجيش ويحرضهم على القتال، ويحثهم على الصبر ويبشرهم بالنصر، ويعزل قادة، ويولي آخرين، ويناقش شروط الصلح مع الأعداء المستسلمين. وانطباعي هو أن عمر أدرك الفرصة المناسبة ليحوّل ما كان في البداية أعمالاً حربية دفاعية إلى انتصارات حتمية وربما نهائية. وأعتقد أنه كان يشعر بأن عمله ذاك له ما يسوّغه، ففي النهاية كان الروم والفرس هم المذنبين والباغين، كما أن شعوب الأقاليم المفتوحة استقبلت الجيش الإسلامي بحرارة على أنهم فاتحون ومخلّصون وأن عدد الذين أزهقت أرواحهم من المدنيين في تلك الحروب كان قليلاً في معظم المعارك وأن العدو لم يركن للسلم قط.

وبرغم أني لا أرى في نهج عمر ما يخالف مفهوم دار الإسلام ودار الحرب، فإنني في الوقت نفسه لم أر في أعماله وخلال فترة خلافته ما يؤيد هذا المفهوم على الإطلاق. فالتصدي لمعتدٍ غاشم آثم أمر، وإعلان الحرب على جار آمن لأنه لم يمتثل للإسلام هو أمر مختلف تماماً. وهكذا فقد بحثنا حتى الآن ثلاثاً من نقاط المناقشة الرئيسة التي يستخدمها المسلمون لتسويغ تركيبة دار الإسلام ودار الحرب[٢] . والمناقشة المبنية على أساس القرآن تبدو وكأنها معقدة جداً لأنها

---

(١) تاريخ الطبري، المجلدان ١٢ و١٣، خلافةHistory of the Caliphate ، ترجمه للإنجليزية يوهانز فريدمان (١٩٩٢م)Yohannes Freidman و غوتيير جوينبولGautier H.A.Juynboll، (١٩٨٩م).

(٢) غالباً ما يلجأ المسلمون لدعم نظرية دار الإسلام ودار الحرب، وحجتهم في ذلك هنا هو أن جميع علماء المسلمين يقبلون بها؛ ولكن هذا الإصرار غير صحيح مادام أن هناك عدداً من علماء المسلمين لا يؤيد هذه النظرية. وهذه الحقيقة يتم الالتفاف عليها عن طريق حصر الإجماع بحقبة محددة من التاريخ أو بشخص يمتلك مؤهلات معيّنة بحيث يتم استبعاد العلماء الذين لا يوافقون أمراً ما. ولكن العديد من المسائل العقلانية قد تنشأ من جراء إضفاء قيود لها، فمثلاً في التاريخ الإسلامي الأول كان جميع العلماء المسلمين متفقين على فرضية كون الأرض منبسطة؛ وحتى وقت متأخر كانوا يعتقدون أن الأرض هي مركز النظام الشمسي، وبرغم وجود الإجماع بين علماء المسلمين على هاتين الفرضيتين ولعدة قرون، فليس من شك أن هاتين الفكرتين كانتا خاطئتين.

تتطلب القبول بنظرية النسخ -موضع الشك وغير الضرورية - وتطبيقاتها. فالقراءة الطبيعية للقرآن تقودنا لنتيجة واحدة وهي أن هذا الكتاب الكريم يعارض العدوان العسكري وأن نهج النبي لا يؤيده أبداً، لأنه ﷺ ما هاجم قط جاراً له مسالماً رفض الدخول في الإسلام. ويمكننا أن نلاحظ أن المؤرخين المسلمين يقولون إنه كان هناك قبائل كافرة في زمن النبي ولكنها لم تحاربه قط، بل كانت تتحالف مع المسلمين وكان المسلمون يقاتلون في سبيل الدفاع عنهم ونصرهم[1]. وأخيراً، فإن الفتوحات التي تمت في عهد خلافة كل من أبي بكر وعمر لا ينطبق عليها السيناريو الذي تفرضه نظرية دار السلام ودار الحرب كما أنه لا يمكن تسويغها بمثل ذلك السيناريو.

لا أعتقد شخصياً أن مفهوم دار السلام ودار الحرب جوهري في الإسلام، فمصادر النصوص الإسلامية لا تقود المسلمين في النهاية إلى هذه السياسة الخارجية. يبدو أنني عدت لتوكيدي الأول الذي قلت فيه لن أحاول تحديد ما إن كانت هذه التركيبة الكلاسيكية صحيحة أم لا. ولكن الكلمة الرئيسة هنا هي "كان" لأني أعتقد أنه كان ثمة ظروف مخففة (extes enuating circumstanc) في سالف الزمان كانت تسوّغ هذا التقسيم. هل صحيح أن علماء المسلمين في الفترة الكلاسيكية كانوا يرون في جيرانهم من غير المسلمين أعداء، وأنهم كانوا ينتظرون إشارات الضعف الأولى أن تظهر عند هذا الجار أو ذاك كي ينقضوا عليهم؟ وهل كانت الأمة الإسلامية في تلك الأيام في بيئة سياسية إما هي الغالبة فيها وإما هي المغلوبة؟ وهل تم تطوير نظرية دار السلام ـــ دار الحرب فقط لكي يسوّغ المسلمون من خلالها غزواتهم المستقبلية؟ وهل تم صياغة تلك النظرية في محاولة لشرح غزواتهم السابقة وإعطاء معنى لذلك؟ أعتقد أن هدفي من خلال هذا الفصل هو أن أدافع عن موقفي المعارض لكون هذه النظرية من صلب العقيدة الإسلامية. وهذا يقودنا إلى السؤال التالي: هل مفهوم دار السلام ودار الحرب مناسب لمسلمي اليوم؟ بالنسبة للقارئ العام غير المسلم قد يبدو

---

(١) محمد علي: الصفحة ٤٢٣.

الجواب واضحاً. فعنده أن فكرة كون المسلمين ملزمين دينيّاً بالهجوم على دول غير معادية مثل سويسرة أو لوكسمبورغ أو الإكوادور أو البرازيل إذا كانت هذه الدول لا تقبل بتطبيق الشريعة الإسلامية في بلادها هي فكرة لا يكمن القبول بها أبداً. والمسلمون الذين لا يؤمنون بأن هذا التقسيم الكلاسيكي (دار السلام ودار الحرب) جوهري للإسلام ربما يوافقون الرأي القائل بأن هذا غير ضروري لمسلمي اليوم. وأعتقد أنه حتى المسلمين الأكثر محافظة من المحتمل جداً أن يترددوا ولو للحظة واحدة في تطبيق هذه الحالات الافتراضية.

لقد تغيّر الكثير من الأشياء منذ الماضي حينما كانت تطبق الشريعة الإسلامية. ويعترف الآن معظم المسلمين ليبراليين كانوا أو معتدلين أو المحافظين بالحاجة الماسة لتعديل الشريعة بما يناسب العصر الحاضر. فهناك، على سبيل الخصوص، العديد من العناصر في القوانين المتعلقة بالحرب التي تبدو غير عملية اليوم، ومثال ذلك القيود الصارمة التي تفرضها الشريعة في الحرب من عدم تدمير ممتلكات العدو أو إيذاء المدنيين، يصعب جداً الالتزام بها في حرب قد تشن اليوم بأسلحة التدمير الشامل، كما اكتشف زعماء إيران الدينيون في الحرب العراقية-الإيرانية الأخيرة. فلكي تكسب المعركة ضد العدو في الحروب المعاصرة قد يكون من الضروري تجاوز القيود التي تفرضها الشريعة الإسلامية في الحرب.

ومع ذلك، إذا سمح المسلمون لأنفسهم بتعديل بعض العناصر من نظرية الشريعة في الحرب والسياسة، عند ذلك يبدو لي أن عليهم إعادة دراسة مفهوم دار السلام ودار الحرب، حيث إنني لا أعتقد أنه جوهري للإسلام، أشعر أنه يتوجب علينا بوصفنا مسلمين ألا نصر على القول بأنه صالح لزماننا الحالي. ولكن حتى وإن كان المعتنق الجديد لا يقبل بمفهوم دار السلام ودار الحرب فإنه لا يكون قد اجتاز معضلة الولاء للجالية. هل يمكن له أن يكون مواطناً صالحاً في ظل حكومة غربية وفي الوقت نفسه مسلماً صادقاً؟ هنا قد أواجه الاعتراض الذي ناديت به للتو، وهو أنني لا أنصح بمفهوم دار السلام ودار الحرب

للمسلمين المعاصرين. هذا صحيح، ولكن إذا ما رفضت المقدمة التي بنينا عليها المناقشة فإن نتيجة المناقشة ربما تبقى صالحة وسارية المفعول.

وعندما يستشهد قادة الحركات الإسلامية حول العالم بمفهوم دار السلام ودار الحرب، فإن ذلك يكون في الغالب استجابة لما يتصورونه من تهديد خفي وآني للمسلمين، بمعنى أن الحكومات التي يطبّق المسلمون الناشطون عليها مفهوم دار السلام ودار الحرب في دعاياتهم السياسية هي الحكومات التي يرون فيها عدواً حقيقياً، ليس فقط لأن هذه الحكومات لن تخضع لشكل ما من أشكال الحكم الإسلامي، بل لأنها تفرض الظلم والمعاناة على الشعب المسلم. وهكذا، وبغض النظر عن المقدمات الأخلاقية والأدبية التي تفرضها النظرية اليوم، فإن النتائج التي يستشهدون بها صحيحة بحق لأنهم يعتقدون أن أعداء المسلمين هؤلاء يجب أن يسقطوا. فعلى رأس قائمة حقد الناشطين إسلامياً ممن يُدْعَون حكومات (معادية للإسلام) هناك **أولاً**: الأنظمة السياسية الاستبدادية التي يعيش تحت حكمها حالياً غالبية مسلمي العالم. **وثانياً**: حكومات الدول غير الإسلامية التي تهاجم المسلمين باستمرار أو تمارس الظلم عليهم بشكل فعّال كما تفعل صربيا مع البوسنة، وكما تفعل روسيا مع الشيشان، وكما تفعل إسرائيل مع الفلسطينيين، وكما تفعل الهند في كشمير. **وثالثاً**: هناك الحكومات التي يعتقد أنها تدعم هذه الأنظمة السياسية في اضطهادها وقمعها للمسلمين، وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسة وألمانيا وروسيا أيضاً .

وزعماء المسلمين المقاتلون الذين يدعون للإطاحة بهذه الأنظمة السياسية غالباً ما يربطون دعواهم بمفهوم دار السلام ودار الحرب. فإذا كانت دعواهم ترتكز فقط على هذه الحجة، فإن عليهم أن يبحثوا عن حجة أقوى منها يدافعون بها عن ظلم واضطهاد المسلمين؛ ذلك أن جميع مصادر التشريع الإسلامي دون أدنى شك، وخاصة القرآن تهيب بالمسلمين كي يتّحدوا لمقاومة العدوان والطغيان أينما كان. ومن الطبيعي أن تشكل المجموعة الثالثة من

الحكومات (المعادية للمسلمين) المشكلة الكبرى بالنسبة إلى المسلمين الذين يعيشون في الغرب، ويعتقد العديد من المسلمين أن الغرب العلماني متّحد ضدهم. وحقيقة ذلك أن الديمقراطيات العلمانية تحط من مستويات حقوق الإنسان والعدالة عندما تتعامل مع المسلمين. فمثلاً، تتجاهل الحكومات الغربية تطبيق قرارات الأمم المتحدة ضد إسرائيل دوماً، في حين تم تطبيق القرارات ضد العراق بأسرع ما يكون، وكانت النتيجة طبعاً حرب الخليج الثانية والتي أودت بمئات الآلاف من الضحايا العراقيين. وخلال تلك الحرب سأل أحد مراسلي الشرق الأوسط أحد أعضاء المجلس في البيت الأبيض، وذلك خلال مؤتمر صحفي إن كانت الولايات المتحدة مذنبة بازدواجية التعامل مع الدول الإسلامية وغير الإسلامية. وكان الجواب اعترافاً صريحاً برغم أنه ربما كان عفوياً، وهو أن الولايات المتحدة ليس لديها معايير محددة وثابتة، وهي في الحقيقة تتبع سياسات مختلفة حيال كل بلد. وبالنسبة إلى المسلمين، فإن ذلك اعتراف صريح أنه في العلاقات الدولية ليس للحكومة الأمريكية — أو حلفائها الغربيين — أي معايير أخلاقية على الإطلاق عند تعاملها مع المسلمين.

ربما نكون مبالغين عندما نقول: إن حكومات الغرب العلمانية متحدة ومتضافرة في جهودها للقضاء على الإسلام والمسلمين، ولكن لا أحد يستطيع إنكار حقيقة خوف هذه الحكومات ومعارضتها للعديد من الحركات الإسلامية؛ لأنها تشعر أن هذه الحركات تهدد مصالحها الاقتصادية والعسكرية في الشرق الأوسط. ولا يستطيع أحد إنكار أن سياسات هذه الدول ما فتئت تجلب الكثير من المعاناة للمسلمين. وبناءً على ذلك أليس من حق مسلمي هذه الدول أن يعدّوا أنفسهم أعداءً لحكوماتهم؟ لا شك أن قلة قليلة من المسلمين الذين يعيشون في الغرب يوافقون على ذلك، في حين تفضل الغالبية العظمى عدم التفكير بهذا. ولكن يوجد بديل ثالث وهو أن المواطنين الذين يعيشون في بلدان ديمقراطية علمانية يملكون القدرة، وربما الواجب، كي يعبّروا عن موقف جاليتهم فيما يخص المواضيع الدينية والسياسية. فالمسلمون الذين يعيشون في

الغرب هم أول من يعترف أنهم يتمتعون بحرية دينية وسياسية أكثر من المواطنين المسلمين في بلدانهم الأصلية أنفسهم؛ وهذا من شأنه أن يزودهم — على خلاف جميع المسلمين حول العالم — بفرصة فريدة وهامة للتأثير في المجتمعات التي يعيشون فيها. فإذا ما اتحدوا اجتماعياً ونسّقوا فيما بينهم سياسياً — وهذان أمران ما يزالون يحجمون عن القيام بهما حتى الآن — فإنهم يستطيعون التأثير وبشكل كبير في وجهات نظر مجتمعاتهم وفي مستقبل المسلمين في كل مكان. وأعتقد أن هذه هي الطريقة الأكثر عملية وتأثيراً، والتي يستطيعون من خلالها نصرة إخوانهم المسلمين البائسين. إن في إضاعة هذه الفرصة خسارة كبيرة حقاً.

إن أوضاع المسلمين الذين يعيشون في الغرب لا تشبه في أي حال من الأحوال أوضاع المسلمين في العصر المكي أو المدني من بعثة النبيﷺ، صحيح أنه في بعض الأحيان يواجه المواطنون المسلمون في الدول الغربية نوعاً من التمييز، ولكن هذا التمييز لا يشبه في أي من الأحوال ما كان يلقاه المسلمون الأوائل من الاضطهاد في مكة. وما من شك أيضاً أن المسلمين الغربيين ينعمون بالعديد من الحقوق السياسية والحرية الدينية، ولكنهم ليسوا مستقلين سياسياً كما كانت الجالية الإسلامية مستقلة في المدينة. ومع ذلك أعتقد أنه مادامت لهم هذه الحرية فإن عليهم ——— كما هو واجب كل مواطن آخر — بذل ما في وسعهم للتأثير في جماعتهم حسب ما يمليه عليهم ضميرهم. ويجب ألا ننسى أنه قبل أن يأذن القرآن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة والثأر لأنفسهم ضد من ظلمهم، حاول النبي والصحابة معه وبكافة السبل السلمية الممكنة إقناع قريش بالسماح للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية ونشر الدعوة في مكة، ولكن ذلك كان عبثاً، بل كانت النتيجة أنهم احتملوا الكثير من القهر والأذى في سبيل ذلك ولعدد من السنين. ويبدو أن المسلمين الذين يعيشون في الغرب يبشّرون أو يحلمون بتجاوز الدرس الذي قدّمه لنا النبي ﷺ وأتباعه في مكة، لكي يتحوّلوا مباشرة لما يجب أن يكون الملاذ الأخير.

جعل الخيار الصعب أصعب

ليس من السهل على الإطلاق أن يتخلى المرء عن مجتمعه؛ لأنه إذا فعل ذلك فسوف يشعر الأهل والقرابة والأصحاب بأنهم مهددون ومنبوذون؛ ذلك أن عاداتنا هي جزء من هويتنا الاجتماعية. ونتوقع دوماً أن يتشكك الغرباء بطرائق عيشنا، لأنهم لا ينتمون في الأصل لخبرة جماعتنا. ولكن عندما ينبذ أحدنا تلك الطرائق فلابد أن ثمة خطأً جسيماً في مكان ما.

لقد صمد الإسلام أمام هيمنة الثقافة الغربية لمدة أربعة عشر قرناً من الزمان[١] . وحتى هذا اليوم لا يثير ذكر ديانة ما الكراهية في نفوس الغربيين بسهولة كما يثيره ذكر الإسلام. وبرغم أن العديد من الأوروبيين والأمريكيين يمكن لهم أن يكونوا موضوعيين، بل ربما متعاطفين مع الديانات الأخرى، فإن عدداً قليلاً جداً منهم يمكن أن يكون موقفه كذلك حيال الإسلام والمسلمين. ويذكر العديد من معتنقي هذا الدين تجربتهم في الحيرة والتردد قبل اتخاذهم القرار باعتناق الإسلام لا لشيء سوى مجرد الخوف من أن يرتبط اسمهم بدين وشعب محتقرين في ثقافة قومهم .

ناقشنا سابقاً ما أشعر أنه تصورات الغرب الأساسية عن الإسلام والتي تقع في ثلاث نقاط رئيسة هي: **أولاً**، الإسلام دين عربي شرق أوسطي، أو ديانة أجنبية لا تتوافق مع الغرب. **وثانياً**، الإسلام دين يحتقر المرأة وينتقص من قدرها. **وثالثاً**، الإسلام دين يشجع على العنف والعدوان. وهذه الافتراءات الثلاثة ليست جديدة في الغرب، بل تعود إلى الماضي، وعلى أقل تقدير للعصور الوسطى[٢] . وقد تكون هذه الافتراءات مبنية على أشياء مختلفة، وربما كانت تعني أشياء متباينة على مر العصور، ولكنها، بشكل تقريبي، بقيت تصورات ثابتة عن الإسلام والمسلمين لديهم. وهذه الأفكار الثلاث متأصلة وراسخة

---

(١) أي لم تكن الثقافة الغربية مهيمنة طيلة القرون الأربعة عشر الماضية. [المترجم].

(٢) انظر هنا كتاب الإسلام والغرب Islam and the West لـــ دانيال. Daniel

بقوة في جذور الثقافة الغربية لدرجة يمكننا القول فيها: إن أخلص الباحثين عن الإيمان بالله في أوروبا وأمريكا لا يفكر بالإسلام بوصفه خياراً دينياً في بداية الأمر.

ويرفض جميع المسلمين تقريباً هذا التصور لخصائص عقيدهم، وهم يقولون: إنه ركام قرون من التشويه وتضليل الحقائق التي ينفثها المستشرقون الغربيون والأدب الغربي والساسة الغربيون والمبشرون المسيحيون؛ وغالباً ما يلقون باللائمة على وسائل الإعلام الحديثة والتي يدّعون أنها تخضع لسيطرة الصهيونية العالمية.

إن هذا الدفاع مفرط في البساطة وغير مقنع لأي شخص يمتلك المعرفة بالدراسات الإسلامية القديمة أو المجتمع الإسلامي الحديث، حيث أسهم هذان العنصران في تشجيع هذه التصورات. لقد حاولت القول: إنه بتقديس وجهة النظر الدراسية لقدماء المسلمين وتفسير الإسلام وتطبيقه من وجهة نظر ثقافية أكثر منها دينية، فإن المسلمين لم يسهموا في تكوين الموقف السلبي الغربي حيال عقيدهم وحسب، بل الأهم من ذلك ربما خلقوا أعباء وعقبات في وجه أناس يبحثون عن الله. ولقد قال لي أحد الزعماء المسلمين مؤخراً: "برغم كل العادات البالية التي أضافتها جاليتنا لهذه الديانة عبر السنين، وبرغم جميع التوترات والشدائد التي تسببها هذه الإضافات غير الضرورية، أتساءل: كيف يمكن لمن يعيش في الغرب أن يعتنق الإسلام!" ومع ذلك فأعداد المعتنقين الجدد لهذا الدين تتزايد باستمرار يوماً بعد يوم.

إن الإسلام اليوم هو الديانة الأسرع نمواً في الغرب. وهو أيضاً أسرع ديانة نمواً في التاريخ، ذلك أنه برغم كونها الأحدث بين ديانات العالم الكبرى فإنها الديانة التي تحظى بأكبر عدد من الأتباع في العالم. إذن، كيف يمكن لجالية دينية كالجالية الإسلامية تعاني من صدمة ثقافية وتعاني من الفوضى أن تستمر في كسب أتباع جدد كل يوم؟ ماذا عن عقيدة هذه الجالية التي تجعل العدد الكبير

من أتباعها ملتزمين ومتمسكين بها برغم أن أصحابها يعانون الكثير من الشقاق؟ ولماذا يستمر الناس بالانضمام إلى جالية مثل هذه الجالية تختلف بشكل جذري عن ثقافة مجتمعهم الذي لا يشعر بأي ارتياح تجاهها؟

* * *

القرآن

اعتقد أن الغرب الحديث قد مر بتجربة كبرى من ضياع الثقة. فالثقة بالحكومة والقيم التقليدية والتربية والعلاقات الإنسانية والكتب المقدسة والدين والله كله قد اضمحل وتلاشى بسبب الصراع من أجل التقدم المادي. وقد خلف هذا الضياع فراغاً كبيراً للمعنى والهدف، وأنجب العديد من الأفراد الذي لا يعترفون بأي نظام فكري، والذين أصبحوا فضوليين ومستعدين لأي وجهة نظر بديلة. فمن بين جميع الديانات والإيديولوجيات التي يمكن لهم أن يختاروا إحداها، يبدو أن الإسلام قد جذب منهم عدداً أكبر مما كانت تتوقع له إحصائيات الحصص. والسبب ربما يعود للاهتمام الكبير الذي توليه وسائل الإعلام الغربية للإسلام، وكذلك بسبب وصول أعداد كبيرة من المهاجرين من مجتمعات إسلامية إلى الغرب، وكذلك من خلال التفاعل الكبير والمتزايد بين الدول الغربية والشرق أوسطية هذه الأيام. ولاشك أن جميع هذه العوامل قد أسهمت في زيادة الاهتمام الغربي بالإسلام.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن المعتنقين الجدد يقدمون أسباباً عديدة لاختيارهم الإسلام، ويصفون السبل المختلفة التي قادتهم إلى اعتناق هذا الدين. وبغض النظر عن السبب الذي أثار اهتمامهم أولاً أو دفع بهم لاتخاذ القرار النهائي كي يصبحوا مسلمين، فإن هؤلاء المهتدين الجدد إلى الإسلام غالباً ما يعبّرون عن الإحباط الذي يشعرون به، والذي يحتملونه في صراعهم للتأقلم مع جاليتهم الدينية الجديدة. إن أهم سؤال يجب أن نتحقق منه بشأن هؤلاء لا يتعلق

بالكيفية التي دخلوا بها الإسلام، بل بالسبب الذي يجعل العديد منهم متمسكاً بقوة بهذا الدين؟ وغالباً ما يكون جوابهم أن القرآن هو السبب. وعملياً نجد أن جميع المعتنقين الجدد الملتزمين بالإسلام يعزون إيمانهم لعقيدة راسخة، وهي أن القرآن بكامله ما هو إلا تنـــزيل منـــزه من لدن رب العالمين. وقد يشيرون إلى بعض ملامح القرآن لكي يؤكدوا هذا المعتقد، ولكن غالباً ما نجد أن هذه الملامح قد تعلموها بعد أن تطوّر هذا الإيمان بالقرآن لديهم. وليس من السهل تعريف أو تفسير أي عنصر في القرآن من شأن المعتنق الجديد أن يشير إليه بشكل نموذجي على أنه سبب إيمانه بهذا القرآن. فبعد بعض السبر لأغوار القرآن يكتشف المعتنق الجديد أن أساس هذا الإيمان لا ينجم عن مجرد قراءة موضوعية لكتاب المسلمين المقدس (القرآن)، بل هو خبرته الخاصة به، أو لنقل نتيجة لتواصله مع هذا الكتاب الكريم. فالعديد من المعتنقين الجدد، وكذلك من المسلمين، يذكرون الإحساس الرائع الذي يشعرون به عندما يتواصلون مع التنـــزيل المحكم عند قراءتهم للقرآن، فهم يحكون عن مناسبات شعروا من خلالها وكأن القرآن يستجيب لحالاتهم العاطفية والنفسية، ويستجيب كذلك لردة فعل استجابتهم لبعض نصوصه وكأن القرآن يتنـــزل عليهم شخصياً، وفي كل لحظة يقرؤونه فيها، صفحة بصفحة حيث يكشف كل نص تال كيف أثّر بهم النص السابق. فقد وجدوا أنفسهم ينسابون وينهمكون في حوار حقيقي مع التنـــزيل، حوار ينبعث من أعمق وأصدق وأطهر أعماق الوجود، حيث تتكشف لهؤلاء، ومن خلال ذلك التواصل، خصال الرحمة والعطف والمعرفة والمحبة التي يشعر بها المخلوق من الخالق والإنساني من المقدس والمحدود من اللامحدود والإنسان من الله.

وكما يعلم العديد من المعتنقين الجدد، فليس بالضرورة أن يكون المرء مسلماً لكي يشعر بهذه الطاقة الداخلية للقرآن؛ ذلك أن العديد منهم يختار الإسلام ديناً بعد لحظات من هذا الشعور أو بسببه. ولقد عبّر العديد من الباحثين في الإسلام من غير المسلمين عن مثل هذا الشعور **الذي كان ينتابهم لدى قراءتهم**

للقرآن. فباحث العربية المعروف البريطاني آرثر ج. آربيري (Arthur J. Arberry) يذكر كيف أنه وجد في القرآن عوناً له في بعض الأوقات الصعبة التي مر بها في حياته، حيث قال: إنه حينما يستمع إلى القرآن يتلى بالعربية فكأنما يستمع إلى نبضات قلبه[1] . ويذكر فريدريك ديني (Fredrick Denny)، وهو كاتب غير مسلم، تلك "التجربة العجيبة غير الطبيعية" التي يشعر بها المرء أحياناً لدى قراءته القرآن، لحظات يشعر القارئ من خلالها "بحضور شيء ما غامض وأحياناً مرعب معه." وبدلاً من قراءة القرآن فإن القارئ يشعر وكأن القرآن "يقرؤه[2]"!

ومع ذلك فليس كل قراءة للقرآن تقود لمثل هذه التجربة، فالمسلمون يعتقدون أن تجربة كهذه تحتاج حالة معينة من العقل والروح ومن التواضع وصدق النية ومن الإرادة والاستعداد. فهم يقولون: إذا كان القارئ مدركاً لحالة ضعفه وهوانه أمام الله، وإذا كان لديه الاستعداد كي يرى نفسه على حقيقتها، وإذا كانت لديه القدرة كي يطرح جانباً صور الزيف التي كونها لنفسه، وتلك التي تكونت لديه من الآخرين، وإذا ما توصّل للحقيقة الواقعة وهي أن لا حول ولا قوة إلا بالله، عندئذ فقط يكون جاهزاً، بحول الله تعالى، كي يتحوّل ويتغير بفضل هذا القرآن الكريم. فكل جيل من المسلمين كان دوماً يشعر بأن القرآن يتناسب وعلى نحو نموذجي مع تطلعات زمانه، والكتب والمقالات التي كتبها مؤخراً بعض المعتنقين الجدد تظهر أن لديهم مثل تلك التطلعات. لا أستطيع تقديم شرح كاف عن سبب شعور المسلمين القدامى بمثل هذا الشعور، أو لماذا ينتاب هذا الشعور مسلمين آخرين في أجزاء أخرى من العالم، ولكنني سوف أحاول مشاطرة المعتنقين الجدد خبرتهم في مثل هذا الشعور.

---

(١) انظر المقدمة لترجمة آربيري للقرآن (مطابع جامعة أوكسفورد).

(٢) فريدريك ديني :Fredrick Denny الإسلام Islam ، (نيويورك: مطابع Harper & Row ، ١٩٨٧م)، الصفحة ٨٨.

فكما أشرت في الفصل السابق، عندما يفتح القارئ الغربي القرآن للمرّة الأولى فإنه سرعان ما يواجهه، وبطريقة درامية، أحد أعظم الأسئلة التي دفعت بالعديد من البشر في العصر الحديث لإنكار وجود الله، وهو موضوع سؤال الملائكة لله في القرآن ﴿قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ﴾ [البقرة: ٢/٣٠]. ثم يبدأ القرآن بالشرح، ولكن في بداية القرآن نجد الشرح مقتضباً، وذلك ما يجذب انتباه واهتمام القارئ، وما على القارئ الذي يريد الحصول على مزيد من الأدلة إلا أن يستمر في قراءة القرآن.

وبعد أن يقرأ القارئ الغربي عن آدم عليه السلام والذي تختلف قصته في القرآن في تفاصيل رئيسة عما يوازيها في الكتاب المقدس، يتساءل في نفسه: أين يضع الإسلام نفسه بالضبط من التراث اليهودي-المسيحي؟ ولكن القرآن يضع هذا في المنظور، **أولاً**: في قصة بني إسرائيل (انظر الآيات ٤٠-٨٦ من سورة البقرة)؛ وثانياً: في مناقشة مواقف وعقائد أهل الكتاب (اليهود والنصارى). ثم يتبع ذلك قصة بناء إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) للكعبة، والتي تربط الإسلام بالأب الأكبر لكل من هذه الديانات الثلاث (إبراهيم الخليل: عليه السلام انظر الآيات ١٢٢-١٤١ من سورة البقرة). ويخبرنا القرآن أن الإسلام هو تجديد للعقيدة الحنيفية الطاهرة للنبي إبراهيم عليه السلام (انظر الآيات ١٤٢-١٦٧ من سورة البقرة).

وطبيعي أن يحوّل القارئ الغربي بعد ذلك انتباهه إلى مسائل أكثر عملية مثل ممارسات المسلمين التي يسمع الكثير عنها مثل "قوانين الحمية" الصوم والجهاد والحج ووضع المرأة في الإسلام؟ ونجد نقاشاً لهذه المواضيع في آيات القرآن (انظر الآيات ١٦٨-٢٨٣ من سورة البقرة). ويجد القارئ بين هذه الآيات وتلك تذكيراً بوجود الله ووحدانيته، ودلائل حكمة الله ورحمته وقدرته وحاجة الإنسان الماسّة للتوجه إليه. ثم نجد أن القرآن يحاول غرس هذه الحقائق الأساسية في عقل القارئ على نحو مستمر ومتكرر ومركّز، بحيث يحاول الوصول إلى أقصى أبعاد روحه الداخلية، ثم يبعث فيه من جديد الواقع الذي يعيش ويتنفّس من خلاله.

وتُختتم السورة الثانية (البقرة) بالدعاء الذي تعلّم القارئ من خلاله كيف يسأل الله العون على مصائب الدهر، ويرجوه المغفرة التامة والرعاية. وأما السورة الثالثة (**آل عمران**) فتبدأ بهذا التوسل: إن رجاءنا الحقيقي وملاذنا هو في:

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالإِنْجِيلَ ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ﴾ [آل عمران: ٣/٢-٤].

فعندما ينتهي القارئ من سورة البقرة (السورة الثانية) تتكون لديه بعض المعرفة بالإسلام. ثم نجد في السور ١١٢ الباقية من القرآن تطويراً ودعماً واستطراداً وشرحاً للمواضيع الرئيسة الواردة في هذه السورة. وكما في الفصل الأول من هذا الكتاب، فإن القارئ سوف يجد أن هذه المواضيع متداخلة عبر النص. فالقرآن لا يدع القارئ يفكر في أحدها بمعزل عن الآخر، بل يطلب منه أن يرى ويدرك ترابطها بعضها مع بعض. ومع ذلك، نرى أن كل سورة من السور التالية تركز في معظم الوقت على واحد أو اثنين من هذه المواضيع الرئيسة. وأما السورة الثالثة (آل عمران) فهي تضع الخطوط العريضة للتاريخ الديني لبني البشر مع الإشارة الخاصة إلى أهل الكتاب، كما أنها تذكّر المسلمين بواجبهم لمحاربة الظلم والطغيان. وأما السورة الرابعة (النساء) فإنها تعود إلى موضوع حقوق المرأة وواجبات الأسرة. وأما السورة الخامسة (المائدة) فتتعلق بشكل رئيس باليهودية والمسيحية وتؤكد من جديد فساد هاتين الديانتين اللتين انبعثت تعاليمهما النقية الطاهرة، واكتملت من جديد في الإسلام .

وكلما تقدمنا في قراءتنا للقرآن نجد أن السور تقصر بالتدريج، كما أن توكيدها وأسلوبها يتغير أيضاً. وفي سور منتصف القرآن، تصادفنا بعض الأحكام والقواعد الأخرى الإضافية، ولكن التوكيد الرئيس يتحوّل إلى المزيد من القصص والأخبار التي تتعلق بأنبياء سابقين، وكذلك إلى المزيد من

الإشارات الدرامية إلى دلائل الإعجاز الطبيعية التي تعبر عن قدرة الله وحكمته وجوده، وهنا أيضاً نجد المزيد من التركيز على علاقة الإنسان بالله ورجوعه إليه. وكلما تقدمنا بالقراءة يصبح الأسلوب الأدبي في القرآن، والذي هو خير ما يمكن تذوّقه بالعربية، أكثر عاطفية وأشد وقعاً في النفس.

وكلما اقتربنا من النهاية يتركز الخطاب بشكل كلي تقريباً على القارئ وعلاقته بالله، وكذلك على العلاقة العضوية بين أعمال المرء ومصيره في الآخرة، حيث تلج هذه المواضيع من السور أذن القارئ على شكل ومضات من النشوة والتفجر العاطفي. فالجنة والنار والساعة ويوم القيامة والدنيا والآخرة وفناء الكون، ورجوعنا إلى الله، جميعها تتجه لتلتقي عند مصير واحد وهو نقطة الذروة عند قيام الساعة.

وهكذا نجد أن القرآن يدفع بالقارئ وهواجسه العملية والآنية عبر عوالم الأنبياء وآباء الأنبياء والمعجزات والآيات إلى اللحظة القصوى، حيث يتبدى فيها للقارئ أنه يقف بمفرده أمام ربه وخالقه؛ ويشعر العديد من أولئك الذين يقومون بهذه الرحلة بشيء من رهبة ذلك اللقاء وهوله بينما يقتربون في قراءتهم من نهاية القرآن. وسرعان ما يساورهم الشك بأنفسهم وينتابهم الخوف، ويشعرون بالوطأة عندما يقتربون من الخيار الذي يضعه القرآن أمامهم لا محالة. فالعديد منهم يخشى المجتمع ويراجع نفسه ليرى إن كان قد اعتراه سوء في عقله، ثم إنهم يتشككون بمقدرتهم على تحويل وجهة حياتهم والاستسلام لأمر الله. ومنهم من يشعر أن الوقت قد فات وأنهم أبعد من أن تشملهم رحمة الله ومغفرته. ومع ذلك نجد أن الله يطمئن القارئ عبر آيات القرآن وعلى نحو مستمر ألا يركن إلى هذا النوع من الشك والقنوط من رحمة الله ومغفرته:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦].

﴿فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥/٣].

﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣/٣٩].

﴿ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢/٦٨].

﴿وَالضُّحَى ، وَاللَّيْلِ إِذا سَجَى ، ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلَى ، وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدَى﴾ [الضحى: ١/٩٣-٨].

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ، وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ ، فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [الشرح: ١/٩٤-٦].

وفي الوقت الذي يطبق فيه الخيار المطلق على القارئ نرى كيف يضع القرآن أمامه الكلمات التي ما فتئت روحه تبحث عنها، فيأمره بقول:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١/١١٢].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١/١١٣].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ﴾ [الناس: ١/١١٤].

إذ يبدو من هذه الآيات وكأن الله يخاطب القارئ قائلاً له: قل هذه الكلمات وسوف آتيك، قلها ولسوف أحميك وأواسيك، توجه إليّ فلسوف أمنحك المودة، وسوف يعرف قلبك معنى السكينة والطمأنينة.

لقد وقف العديد منّا، بعد قراءته للقرآن، وقد سُقِط في يديه كمن أصابه الشلل وهو على حافة من اللاقرار، تمتد ما بين الإيمان والإعراض، وما بين

أحلامنا المادية ورجائنا بالآخرة، وما بين رغباتنا الدنيوية وحاجاتنا الروحية. ولقد مرت علينا ليال مؤرقة، وكنا كما بدا لنا نجري خلف السراب، وكانت تستحوذ علينا رؤى من ردود فعل الأهل والأصحاب، وكانت تخطر في بالنا بعض الآيات وكان ينتابنا القلق حول وظائفنا وأعمالنا، والأسوأ من ذلك كله فراغ الفراق عمّن لامس تنــزيله شغاف قلوبنا إذا ما أعرضنا عن اتباع الهدى. فمن بين أولئك الذين عرفوا هذا العذاب وخبروه أعرض بعضهم وولى إلى غير رجعة. ومع ذلك فقد كان هناك من تخلى عن المقاومة وأخذ يركض بأذرع مفتوحة ليعانق رحمة ربه، من أذعن واستسلم لنداء أعماقه ليغوص في محيط من العطف والمودة.

فأما أولئك الذين يختارون الإسلام فسرعان ما يكتشفون وللأبد أن عليهم أن يجيبوا على السؤال التالي: "كيف أصبحت مسلماً؟" وبالطبع سوف يقدمون شروحات جزئية مختلفة في أوقات مختلفة وذلك حسب السياق الذي تم فيه السؤال. وعلى كل حال، فإننا جميعاً الذين قمنا باتخاذ ذلك القرار لا نستطيع الإجابة بشكل كامل على هذا السؤال؛ ذلك أن حكمة الله وتدبيره أمر لا يمكن الإحاطة بهما. وقد تكون أصدق وأبسط إجابة نستطيع أن نقدمها هي الإجابة التالية: في لحظة من اللحظات الخاصة في حياتنا—لحظة لم نتنبأ من قبل أن نمر بها عندما نكبر— منّ الله بواسع علمه ورحمته وعطفه علينا، بعد أن وجد فينا من العذاب ما نكابد، ومن الألم ما نشعر به، ومن عظيم الحاجة إلى ملء الخواء الروحي الكبير في أنفسنا، وبعد أن وجد لدينا الاستعداد الكبير لقبول ذلك. وعلى كل حال فقد حقق الله ذلك لنا، فله الشكر والمنة إلى يوم الدين. حقاً سبحان الله والحمد لله.

الفصل الرابع

تغذية الإيمان

إن أول شيء يسأل عنه المعتنق الجديد بعد إعلان إسلامه هو ماذا عليّ أن أفعله الآن؟ والسبب في ذلك هو أن الاعتناق يتطلب التحقيق دوماً؛ والاعتناق بحاجة ماسة إلى طريقة أو برنامج كي تدوم هذه الخبرة من الشعور بالاستسلام إلى الله وإلى الأبد. وتطالعنا السنة بأحاديث شريفة عن بعض من أسلم في عهد النبي ﷺ، ممن جاء إليه يسأله عمّا يتوجب عليهم فعله بعد أن أصبحوا مسلمين. وغالباً ما كان، عليه الصلاة والسلام، يخبرهم أن الإسلام بني على خمسة أركان وهي: الشهادة والصلاة والصوم والزكاة والحج[1].

وسرعان ما يبدأ المهتدي الجديد من خلال هذه الأركان الخمسة؛ وهي بالنسبة إليه تمثّل الاختبار الأول للالتزام بالإسلام؛ إذ تُعد مركز النظام الإسلامي للنماء الأخلاقي والروحي. والفصل التالي يشاطر بعضاً من انطباعات المؤلف وتجربته الشخصية بهذه الأركان الخمسة وخبرته بها. وسوف نناقش كل شعيرة (ركن) من هذه الشعائر على حده، ولكن لابد أولاً من تقديم بعض التعليقات العامة.

وتلامس أركان الإسلام الخمسة مجتمعة العديد من نواحي وجود المؤمن على هذه الأرض، فهي تلامس روحانيته وأخلاقه، ونظافته الشخصية، وعلاقاته الاجتماعية، وعلاقاته الجنسية، واهتماماته السياسية، وأموره المالية وتنظيم وقته، وعادات طعامه ولباسه ومخططات ترحاله، ونواحي أخرى عديدة أيضاً. وبهذه

---

(١) كما ورد في صحيح البخاري و صحيح مسلم وكذلك في الأربعين النووية.

الطريقة فهي تذكّر المسلم وتعينه في توجيه جميع جهوده نحو الله، وأن يجعل جميع أعماله وأفعاله على الأرض خالصة لله. وأركان الإسلام تقوّي من شخصية المؤمن لأنها تتطلب تصميماً كبيراً وضبطاً للنفس؛ إذ يتوجَّب على المسلم لكي يؤديها أن يتوقف عن السعي وراء أعماله الدنيوية في أوقات محددة وعلى نحو متكرر.

ويلعب عامل الزمن دوراً رئيساً في شعائر الإسلام. فالإسلام يحض بقوة على أداء أعمال العبادة التطوعية التي يمكن للمؤمن أداؤها كلما رغب في أوقات محددة. وأما الذين يؤدون الشعائر في أوقاتها وبشكل صحيح فسرعان ما يكتشفون أنهم قاموا بتنظيم حياتهم. وهذه الشعائر تصبح كالساعة الداخلية يقوم المؤمن من خلالها بضبط مواقيت حياته وتنظيمها. فكل شعيرة — مثلها مثل الأيدي المختلفة على ساعة ميقاتية — مرتبطة بمقياس مختلف ولأَجَلٍ مسمى. فالشهادة التي لا يستغرق وقت النطق بها أكثر من مجرد ثوان هي أقصر الشعائر الإسلامية. ولابد للذين يريدون الدخول بالإسلام من التلفظ بها، ويتم ذلك طبعاً بشهادة اثنين ذوي عدل من المسلمين[١]. وكذلك تلفظ الشهادة في جلوس التشهد من الصلاة، وفي حين أن النطق بالشهادة واجب في هاتين الحالتين، فإنها متطلب دائم في الإسلام؛ وإذا ما أعرض المسلم عن النطق بها عمداً فإنه يخرج من حظيرة الإسلام. ومن هنا فالشهادة شعيرة دائمة، وهي التزام المؤمن بتوحيد الخالق والإقرار بنبوة محمد ﷺ لحظة بلحظة.

وأما الصلاة فهي فرض على المسلم خمس مرّات في اليوم والليلة، قبل شروق الشمس (صلاة الفجر)، وعند الظهيرة (صلاة الظهر)، وبعد الظهر (صلاة العصر)، وبُعيْد غروب الشمس (صلاة المغرب)، وفي الليل (صلاة العشاء). والوقت الذي يستغرقه أداء أي من هذه الصلوات قصير جداً — لا يتجاوز بضع دقائق — حيث تكون الصلوات المفروضة من حيث الطول والتكرار ما

(١) وتلفظ الشهادة كذلك في أذن المولود.

يكفي لجعل المؤمن دائم التركيز — خلال اليوم والليلة — على الهدف الحقيقي للحياة من جهة، ومن جهة أخرى دون أن تشكّل عبئاً ثقيلاً يحول بين المؤمن وملاحقته لأمور دنياه.

وصوم رمضان يقع خلال الشهر التاسع القمري من التقويم الإسلامي. فخلال هذا الشهر بأكمله يمتنع المسلمون عن الطعام والشراب والجماع من الفجر وحتى المغرب[١] . وخلال هذا الشهر يحاول المسلمون كذلك الانشغال بالمزيد من العبادات والطاعات. في حين إنه من الصعب صوم شهور السنة جميعها، فإن شهر رمضان يوحي للمسلمين بأن يكرسوا كل شهر من شهور حياتهم الدنيا لطاعة الله.

والزكاة ضريبة خيرية تخضع لنسب محددة تطبق على ثروة المسلم المتراكمة. وعندما يدفع المؤمنون الزكاة، فإنهم يطمحون إلى تطهير أموالهم التي اكتسبوها خلال عامهم المنصرم.

وأما الحج فهو الرحلة إلى مكة في موسم الحج، والذي يتوجب على كل مسلم القيام به مرّة واحدة في العمر إن كان يملك الوسيلة للقيام بذلك. والحج هو مطمح كل مؤمن، وهو فرصة له كي يزور الحرم الذي يتوجه إليه في صلواته؛ وأن يكبِّر الله مع إخوانه المسلمين الذين يقدمون لأداء تلك العبادة من كل حدب وصوب .

وهكذا ومن خلال هذه الشعائر الخمس نرى كيف يكرّس المسلمون أوقاتهم وينظمونها. فمع الشهادة، يكرّسون كل لحظة من لحظات حياتهم بالتوجه إلى الله، إن كلاً منهم يشهد بيقين أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ومع الصلاة يكرّسون أيامهم، ومع الصوم يكرّسون شهورهم، ومع الزكاة

---

(١) يقول المؤلف خطأً: إن المسلمين يمتنعون عن الطعام والشراب... منذ شروق الشمس (والصحيح من الفجر) إلى المغرب، لا أدري على أي المراجع اعتمد في ذلك، أو لعله خانته العبارة فوقع ذلك منه سهواً. [المترجم].

يكرّسون سنيّهم، ومع الحج يكرّسون كامل عمرهم. وبرغم أن للوقت مكانة هامة في هذه الشعائر، فإنها — بطرق عدة — تتجاوز حدود الزمان والمكان، وذلك لأنها تذكّر المسلمين على الدوام أنهم يتحركون بخطى ثابتة وئيدة نحو **النهاية الحتمية لمصيرهم على هذه الأرض وهو الموت؛ ومن ثم إلى الحياة التالية، وإلى نظام خلق مختلف جداً عن نظامنا الدنيوي؛ حيث الزمان سوف يغدو غريباً ووهمياً**[1].

وأما الشعائر — سواء من حيث شكلها أو مضمونها — فإنها تساعد المتعبد أن يكون دائم الحيطة حيال ذلك. وفي الحقيقة فإن العديد من الآيات القرآنية والأدعية التي يتلوها المسلمون أثناء تأديتهم لهذه الشعائر تستحضر مواضيع عديدة تتعلق بالآخرة والرجوع إلى الله. وإضافة إلى ذلك، فإن العديد من السبل التي يسلكها المسلمون والمعاناة التي يكابدونها والمراسيم التي يقومون بها خلال هذه الشعائر تتماشى مع توصيفات من القرآن وأحاديث للنبي عن يوم القيامة. وبهذه الطريقة تصبح الشعائر بالنسبة إلى المسلم تحضيراً أو نوعاً من التمرين استعداداً لذلك اليوم العصيب يوم القيامة. وتصبح الشعائر كذلك أداة يخضع المتعبدون من خلالها لنوع من التجربة الأولية قبل الوصول إلى ذلك اللقاء الحاسم حين يلقى المؤمن ربه.

إن الشعائر الإسلامية تتجاوز الماضي أيضاً، وذلك عندما تعود بالمؤمن إلى أيام النبي ﷺ، والصحابة (رضوان الله عليهم). وتجد المسلمين حريصين كل الحرص على أداء الشعائر الخمس تماماً كما علمها النبي للصحابة. ولذلك فإن الطريقة التي يمارس بها المسلمون — الواحد تلو الآخر — هذه الشعائر منذ عهد النبي وإلى اليوم هي واحدة لدى الجميع. وهذا يقودنا للقول بأن شعائر الإسلام الخمس هي التي تسوّي بين جميع أفراد الأمة الإسلامية، وتوحّد بينهم بطريقة تتجاوز حدود الزمان والمكان والعرق واللغة. ويدرك المسلمون أيضاً أن ما يمارسونه من شعائر لا يعود لعهد النبي ﷺ وحسب؛ بل إلى بداية تاريخ عبادة

(١) راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب حول القضاء والقدر والزمان.

البشر لله. وينبئنا القرآن بأن جميع الأنبياء كانوا دوماً يصرّون على وحدانية الله، وأن علينا ألا نغفل عن الهدي الإلهي الذي أنزل من خلالهم. فهؤلاء الأنبياء جميعاً كانوا يقومون بأمر ربهم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم تقرّباً إلى الله زلفى؛ وكانوا يهيبون بأتباعهم القيام بذلك على أتم وجه. وفوق ذلك يخبرنا القرآن بأن نبي الله إبراهيم عليه السلام هو أوّل من أذّن في الناس بالحج، وأنه وولده إسماعيل (عليهما السلام) أعادا بناء الكعبة، أوّل بيت بني لعبادة الله الواحد الأحد على وجه الأرض. ولذلك عندما يؤدي المسلمون شعائرهم فهم يدركون أنهم لا يمارسون وحسب الدين الذي علمهم إياه النبي ﷺ، بل يعودون بذلك إلى الدين الحنيف الذي يتجاوز حدود الزمان والذي أنزله الله على جميع الأنبياء أي دين الاستسلام إلى الله وهو الإسلام.

إن الإسلام هو دين الاستسلام لله؛ وهذا شعور طالما عرفه المسلمون من خلال ممارستهم لهذه الشعائر بشكل شخصي ومباشر. فشعائر الإسلام الخمس هي في صلب إيمان كل مسلم، حيث يحاول كل متعبد أن يستحضر فيها كل آلامه وجهده وآماله وشوقه. وتشكّل هذه الشعائر رابطة من نوع ما بين علاقات المؤمن بأخيه الإنسان وعلاقته مع ربه، لأن أعماله الصالحة ومحبته لله تتعزز من خلال هذه الشعائر. فمن خلال الشعائر الخمس كان المسلمون دوماً قادرين على التعرف بعمق وعن كثب على الطاقة المطلقة لرحمة الله. وهذا ما يساعدنا على فهم سبب تمسّك المسلمين الشديد بالحفاظ على الأشكال الأصلية لهذه الشعائر، لأن لديهم القناعة التامة بأن أي تعديل — مهما كان يسيراً— في شكل هذه الشعائر من شأنه أن يبدد خبرتهم بما هو مقدس.

* * *

الدعوة للإيمان

من بين أيام ولادة بناتي الثلاث أذكر أكثر ما أذكر يوم أن ولِدَتْ فاتن، والسبب الرئيس في ذلك هو أنها أصغرهن سنّاً، وبالتالي هي آخر من ولد من بينهن. فالتجربة التي مررت بها خلال حمل زوجتي لابنتينا الأُولَيَيْن لاشك ساعدتني أن أكون أكثر ضبطاً لنفسي خلال فترة الحمل الثالث. وبرغم أن ولادتها جاءت بشكل غير متوقّع نوعاً ما، فقد كنت بارد الأعصاب هذه المرة كي أقوم بواجبي بشكل صحيح، وأن ألاحظ معظم ما كان يجري من حولنا في غرفة الولادة (فخلال ولادة ابنتيّ الأُولَيَيْن أُغمي عليّ، وكان على أقاربي أن يقوموا بالواجب برغم أنه من المفترض أن أكون قد تعلمت جيداً من الدروس التي كانت تعطى للحوامل قبل ولادتهن).

وفي طريقنا وبينما كنت أقود سيارتي إلى مشفى ذكرى لورانس (Lawrence) (Memorial) (Hospital) صباح ذلك اليوم الصيفي الجميل، شعرتُ وزوجتي أن أعراض الولادة الخفيفة التي كانت تنتابها لحين ليست سوى مجرد إنذار زائف. فقد قلنا لأمِّها إننا ربما نعود إلى البيت في الحال. وقد مازحت الطبيبة قائلاً: "إن كان على الطفل أن يأتي اليوم فما عليه إلا أن يسرع، لأنه كان لدي أن أعطي درساً لطلابي بعد ساعة من الزمن." أجابتني الطبيبة قائلة: "أعتقد أن بمقدورك أن تعطي محاضرتك في موعدها فطفلك قادم الآن!" وسرعان ما بدأت آلام المخاض تزداد شيئاً فشيئاً وبقوة؛ وفي غضون أربعين دقيقة من وصولنا إلى المشفى كان صوت فاتن يدوّي في المشفى معلنة قدومها إلى هذا العالم.

استلقت الطفلة مجهدة في حضن أمها، في حين كانت الطبيبة والممرضات يكملن بقية إجراءات الولادة. ثم قامت إحدى الممرضات بلف الطفلة بحرام من الصوف لتدفئها، ووضعت قبّعة على رأسها غطّت أذنيها أيضاً، ثم حملت الطفلة واتجهت نحوي، قالت: "هل تريد أن تحملها؟" أجبتها: "بالطبع".

إنه لمن المدهش حقاً كيف تستطيع أن ترى حضوراً كبيراً للشخصية في تلك الوجوه الناعمة الصغيرة. ففي المرة الأولى التي حدَّقت فيها بوجه جميلة (البنت الكبرى) رأيت البريق والفضول فيه؛ وفي وجه سارة (البنت الثانية) رأيت الرقة واللطافة. وعندما نظرت في وجه فاتن، كنت أرى وبوضوح استقلالية شخصيتها وقوة تصميمها.

مشيت بضع خطوات نحو ركن الغرفة وأنا أحمل مولودتنا الجديدة، بحيث لا أكون في طريق أحد. رفعتها وهي بين ذراعيّ برفق شديد وحنيت رأسي بحيث لامست شفتاي أذنها اليمنى. ثم همست في أذنها، كما يفعل الملايين من الآباء المسلمين قائلاً:

الله أكبر الله أكبر

الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله

أشهد أن محمداً رسول الله

حيَّ على الصلاة

حيَّ على الصلاة

حيَّ على الفلاح

حيَّ على الفلاح

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله.

وهذا هو الأذان، ومفرداته هي أولى الكلمات التي يجب أن تُهمس في أذن كل مولود يولد في العائلة المسلمة[١]. فعندما يقوم الوالدان بهذا الدعاء لمولودهما، إنما يقومون بذلك وقلوبهم تدعو الله أن يشب هذا المولود في طاعة الله والإيمان به. وهذا يدل على دعوة المولود وردّه إلى طبيعته الحقيقية (الفطرة)، وإلى الروح التي نفخها الله، وإلى العهد الذي شهدت به كل روح قبل خلقها أمام قول ربها: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٢]. وفي حين يدرك الوالدان أن مولودهما لن يكون معصوماً عن الخطأ عندما يكبر، وأنه قد يهمل بعضاً من واجباته الدينية في فترة ما من حياته؛ فإنهم يعبّرون بهذا الأذان عن عميق أملهم أن يستجيب ولدهم للدعوة الأولى التي سمعها في هذه الدنيا.

والأذان سمة إسلامية نموذجية من حيث الطريقة التي ينادى بها للصلاة والتي يُذَكَّرُ من خلالها المؤمنون بأهداف الإسلام العامة. وفي حين أنه قد يُقْرع ناقوس أو بوق ليعلن عن دخول أوقات الصلاة في الديانات الأخرى، فإن طريقة الإسلام في الدعوة إلى الصلاة تقدم أعظم معنىً يمكن تقديمه، ذلك أن الأذان يلخص بإحكام ويربط مواقف الإسلام حيال الله والنبي ﷺ والعبادة والحياة. ومن أجل هذا يبدو من المناسب أن نقدم في القسمين التاليين شعيرتي الإسلام الأوليين من خلال الأذان.

* * *

الشهادة

"الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر"

(الله أكبر) هي توكيد الإسلام الأسمى والمحور الأعظم الذي يعتمد عليه كل شيء، وهي تحدد جميع المقولات الأخرى عن الله وخلقه، وهي تصوّر كل

---

(١) يؤذّن للمولود في الأذن اليمنى ويؤذّن للإقامة في أذنه اليسرى، ومفرداتها هي: الله أكبر الله أكبر؛ أشهد أن لا إله إلا الله؛ أشهد أن محمداً رسول الله؛ حيَّ على الصلاة؛ حيَّ على الفلاح؛ قد قامت الصلاة؛ قد قامت الصلاة؛ الله أكبر الله أكبر؛ لا إله إلا الله.

مسلم عن الله؛ والسبب الرئيس لعبادته له وخضوعه لسلطته ويقينه به. وهي أساس روحانية وتقوى المسلم. ولكن مقولة "الله أكبر" تجعلنا نسأل: الله أكبر ممن؟ ومن ماذا؟ وكون هذه المقولة مفتوحة النهاية أمر محيِّر للوهلة الأولى، فقد نسأل: لماذا تركت مفتوحة هكذا دون إكمال؟ ولكننا لا نفهم ذلك إلا عندما نبدأ بوضع عناصر عدة في محاولة لإكمالها. فالمقولة تدعونا، بل تطلب منا، محاولة إكمالها. ولكن ليس من شأن أي محاولات كهذه إلا الإخفاق؛ ذلك أن عظمة الله المطلقة لا يمكن لنا أن نطولها بمقارناتنا؛ والقرآن الكريم يؤكد ذلك: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤/١١٢].

وقد نسأل: هل الله أكبر من كل الخلق؟ وهل الله أكبر بالرحمة والعطف والمعرفة والحكمة والحب والعدل من أكثر خلقه تراحماً وعطفاً وحكمة ومحبة وعدلاً؟ وهل الله أكبر من أعظم قوّة نستطيع تصوّرها؟ إن (الله أكبر) تؤكد باستمرار أن الله أكبر وأعظم في أي مقارنة يمكن أن نفكر بها؛ وأكبر من أي شيء وكل شيء يمكن لنا أن ندركه؛ وأكبر من أي تصوّرات يمكن أن يتخيَّلها رجال الدين، وأكبر من أي توكيدات يقول بها العقائديون، وأكبر من أي مقولات يقول بها الفلاسفة، وأكبر من أي شيء يمكن لكلمات البشر أن تصفه.

إن (الله أكبر) تتضمن كل شيء، لأنها تتسع لكل مديحنا وتعظيمنا؛ وكونها مفتوحة النهاية، فهي تدعونا لكي نتخيَّل، ولكنها في الوقت نفسه تصرّح بعجزنا الحقيقي عن إدراك عظمة الله. فمن منظور (الله أكبر) تقف جميع المخلوقات الأخرى على مستوى أرضي واحد أدنى من الله على نحو لا محدود. ولذلك نجد أن العبارة التالية من الأذان (أشهد أن لا إله إلا الله) — والتي هي في الوقت نفسه تشكل الجزء الأول من الشهادة — تأتي نتيجة طبيعية لـ (الله أكبر)؛ إذ كيف يمكن لها أن تكون غير ذلك؟ فإذا كان الله هو الأكبر وهو الأسمى والأعظم رحمة وعطفاً وحناناً وقدرة وعدلاً والأقرب من كل شيء منّا؛

والأعظم محبة وحكمة ومعرفة من كل شيء وعلى نحو لا محدود، إذن لماذا على المرء أن يبحث عن إله آخر؟ وحامٍ قوي آخر؟ وهدف سامٍ آخر؟ ولماذا يبحث المرء عن آلهة أو أرباب أو وسطاء آخرين ما بينه وبين الله، أو بينه وبين أشخاص آخرين سواء أحياء كانوا أو أمواتاً يتوجهون إليهم في صلواتهم؟ فهل صفات الله وقدرته ناقصة [حاشاه] بحيث نخترع له شريكاً؟ بالنسبة إلى المسلمين الإجابة واضحة وهي (لا إله إلا الله)؛ ومن هنا فالعبادة لا تكون إلا له وحده. فالمصطلح الإسلامي هنا هو كلمة "عبادة" وهو مشتق من كلمة "عبد" ويشير المسلمون بفخر واعتزاز لأنفسهم على أنهم "عبيد الله." وللوهلة الأولى يبدو هذا وصفاً مهيناً لعلاقة المؤمن مع الله، ذلك أن تصوّرنا عن مفهوم "العبد" أنه شخص ما يسخَّر ويُمتَهن وربما يُحتَقر أيضاً. ولكن قلقنا الأولي حيال هذا المصطلح قد يكشف شيئاً ما داخل أنفسنا، يتناغم مع مفهوم الإسلام للعبادة. وترانا نمتعض —— على نحو غريزي —— أن مخلوقاً ما يتوجَّب عليه أن يختار كي يكون عبداً لمخلوق آخر كأن يكون هذا الأخير طاغية مثلاً، أو أن يكون عبداً لشيء كالطمع أو المخدرات؛ أو لقدرة أو سلطة ما؛ أو أن يكون المرء عبداً لشهوته. فهناك شيء ما بداخلنا ينبذ فكرة العبودية باعتبارها مرضاً أو أمراً مهيناً. فنحن نشعر بمقدار ضعف هذا الشخص وهزال وجوده، وذلك لأن سعادته تعتمد على سادة له هم أنفسهم مخلوقات ضعيفة أو أشياء واهية ومتقلبة وربما خيالية زائلة. ونجد أنه حتى الملحدون أنفسهم يثمِّنون موقف من يرفض عبادة أي مخلوق سوى الله من حيث إنه يُخضع نفسه لهذا المخلوق أو يجعل من نفسه خادماً وعبداً له.

ومع ذلك يبدو أننا جميعاً بحاجة كي نؤمن بأحد ما أو شيء ما. فالحياة دون معنى أو اتجاه بائسة حقاً. ويبدو أنه يتوجب أن نحيا من أجل هدف أو شيء ما عزيز علينا ونموت من أجله، سواء كان هذا الهدف أو الشيء مبدأ سياسياً أو خطة (حياتية) أو أمة أو حلماً أو فكرة أو مالاً أو سلطة أو جاهاً أو أسرة أو شهرة أو ثأراً. أعتقد أن التقديس هو جبِلّة في الإنسان، وأن قدرنا هو

أن نكون عبيداً سواء شئنا ذلك أم أبينا؛ وغالباً ما تكون رغباتنا بعيدة عن المنال والتحقيق. ولكن حتى وإن كان من الممكن بلوغها فإنها في الواقع لا يمكن أن تصل إلى مستوى توقعاتنا؛ وبالتالي تصبح في النهاية كسراب، أو ليس أكثر من مجرد أشياء تختلقها تخيلاتنا الزائفة (انظر الآية ٣٩ من سورة العنكبوت).

فالحياة كما يراها المسلم هي خيار متواصل ما بين السادة، أي ما بين الذين تخلقهم أنت لنفسك والله الواحد القهار الذي خلقك. فعندما تصنع أنت آلهتك بنفسك فإنك تخلق لهذه النفس ظلمها وهواها؛ ولكن عندما تخضعها للواحد الأحد فإنك تحصّن نفسك من شتى أنواع المخاوف والهلع الذي يقود البشر إلى عبادة الأوثان.

وفي الحقيقة ومن وجهة نظر الإسلام، فإن جميع المخلوقات هي عبيد لله سواء وعت ذلك أم لم تع من حيث إنها تسير وفق مقتضى حكمته، ولا تستطيع أن تنجز شيئاً في الحياة غير الذي أراده هو لها. فالله ليس فقط يريدنا أن ندرك هذه الحقيقة، بل أن نستفيد منها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً وذلك باستغلال نعمه علينا وهدايته لنا والتي من شأنها جميعاً أن تقرّبنا إلى الله زلفى. فعندما نصبح عبيداً حقيقيين لله نصبح عبيداً للصفات والخصال المقدسة أيضاً، ونصبح أيضاً عبيداً للمحبة والعدالة والحقيقة المطلقة. فعبادة المخلوق بالنسبة إلى المسلم أمر خارج عن حدود العقل تماماً؛ **وهو أمر مهين ومذل، ولكن أن يكون المرء عبداً لله فهو شرف عظيم حقاً، وغاية يسعى المسلم لبلوغها طوال حياته. وهذا هدف قد يكون صعب التحقيق أحياناً. ولا شك أن القرآن لا يقدم صورة تفاؤلية كبيرة عن الإنسانية في هذا المجال. فما أسهل على الإنسان أن ينحرف** عن جادة الصواب ويتخذ من الأوثان أرباباً، ذلك أن القرآن يشير إلى صعوبة تمسّك المؤمن بالعقيدة حيث يقرن ذلك باقتحام العقبة (انظر الآيات ٤-١٧ من سورة البلد). فالإسلام (الخضوع لله) يتطلب العمل الشاق وتهذيب النفس والتصميم وفوق ذلك كله اتباع هدي الله. وهذا يقودنا إلى الجزء التالي من الأذان، وهو

في الوقت نفسه يشكل الجزء الثاني والأخير من الشهادة (أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله).

فالقسم الأول من الشهادة، وهو (أشهد أن لا إله إلا الله) هي إفادة حقيقية كاملة. فهي تشهد بالحقيقة الكونية التي تنطبق علينا جميعاً بصرف النظر عن إقرارنا أو عدم إقرارنا بها. فقبل أن تخلق الإنسانية وقبل أن تخلق الأرض وقبل أن يخلق الكون الذي نعيش فيه، لم يكن هناك سوى إله واحد ولن يكون هناك آخر. والقسم الثاني من الشهادة (محمد رسول الله) يعتمد على القسم الأول وهو أيضاً إفادة حقيقية؛ ولكنه أيضاً مقولة التزام بالنسبة إلى القسم الأول وكذلك التزام بالمجتمع الذي ينتمي إليه أتباع محمد ﷺ. فالقسم الأول من الشهادة يعلن وحدانية الله وأما القسم الثاني فينبئنا باهتمام الله الكبير بالإنسان. والقسم الأول يعلن تفرّد الله بالربوبية وأن لا شيء مثله، والقسم الثاني يرينا الطريق إلى معرفته. والقسم الأول يعلن الهدف، والثاني يرينا الطريق إلى الهدف. ولقد أراد الله لنا أن نعرفه؛ ومن رحمته وفضله علينا كلّف محمداً ﷺ لكي يأخذ بيدنا للوصول إليه.

ومنذ اللحظة الأولى التي ينضم المرء فيها إلى الجالية الإسلامية سواء كان ذلك منذ الولادة أو عن طريق اعتناق هذا الدين، فإن الشهادة تبقى سمة حاضرة دوماً في حياة ذلك الشخص. ففي الأذان يُرفع الصوت عالياً بالشهادة. ويتلفظ المسلم بالشهادة عند النوازل، وينطق بها على الأقل تسع مرّات في اليوم في صلواته المفروضة، وكذلك يتلفّظ المؤمن بها على نحو عفوي خلال لحظات الاندهاش والتعجب، ويتنهّد بها بهدوء عندما يفكّر بعظمة الله وجبروته. وإضافة إلى ذلك فإنها تصبح مقولة نظام حياة أساسه القرآن وتعاليم النبي ﷺ، وبالنسبة إلى المسلمين فإن القرآن هو كلمة الله المنــزلة وأما سنّة النبي ﷺ فهي تطبيق لما أوحى به الله إلى رسوله. فعندما سئلت عائشة عن خُلق النبي ﷺ قالت: "كان خُلُقه القرآن." إن جوابها هذا ليعبِّر أصدق تعبير عن رؤية المسلمين للعلاقة بين القرآن الكريم ورسول الله ﷺ.

إن الشهادة هي ما يبدأ به المسلم حياته سواء كان ذلك بشكل فعلي أو رمزي؛ وهي حجر الزاوية التي تبنى على أساسها عقيدة المجتمع وهي مصدر وحدة وقوّة ذلك المجتمع. إنها الرابطة التي تحمي المسلمين؛ وهي الحد الفاصل فيما بينهم وبين من يريد أن ينضم إليهم. وبالنسبة إلي — وكأي معتنق آخر — لن أنسى أبداً اللحظة التي نطقت فيها بالشهادة لأول مرة. لقد كانت بالنسبة إلي اللحظة الأصعب في حياتي، ولكنها الأكثر قوّة وتحرراً. وسرعان ما بدأت أفهم مضامينها بشكل تدريجي، ولكنني بشكل خاص بدأت أرى أنها ليس فقط تعلن وحدانية الله بل الوحدة الكاملة والمساواة التامة بين البشر[1]. ولا أدّعي أن هذا شيء جديد اكتشفته في الإسلام، ذلك أن مبدأ المساواة هو أحد المواضيع البارزة في تعاليم الإسلام، بحيث لا يمكن لأحد أن يخطئه لدى قراءته لهذه التعاليم. كما أني لا أقول بأن هناك من المسلمين من يحاول إبراز هذه السمة في الإسلام كلما سنحت له الفرصة، بل إن الأمر يمكن ملاحظته بشكل جلي في التقاليد والتفاعلات الدينية للجالية الإسلامية. ولاعجب أن يكون ذلك من بين أوّل الأشياء التي أذهلت مالكوم إكس في رحلته التي قام بها إلى الحج في مكة، يقول مالكوم إكس:

"وأما في الأسبوع الأخير فقد كنت عديم الكلام البتة وأصبت بالذهول من الكياسة التي كانت تحيط بي من كافة الجهات، والتي أبداها الناس لي برغم اختلاف ألوانهم... ربما تصدمك هذه الكلمات الصادرة عني. ولكن ما رأيت وما خبرت في هذا الحج قد أرغمني أن أعيد ترتيب الكثير من نماذج أفكاري السابقة وأن ألقي جانباً بعضاً من استنتاجاتي السابقة... وأعتقد أنه لو قبل الأمريكيون بوحدانية الله ربما يكون بمقدورهم أن يقبلوا بوحدة الإنسان — ويتوقفوا عن معاملة الآخرين تبعاً لـــ "اختلاف" ألوانهم، ومن ثم مضايقة وإيذاء

---

(١) انظر الجزء الأخير من الفصل الثاني من هذا الكتاب.

بعض منهم... فكل ساعة في الأرض المقدسة [الجزيرة العربية] تعطيني القدرة على امتلاك بصائر لما يحدث في أمريكا بين السود والبيض"[١] .

إنني لا أدعي القول هنا بأن الإسلام يستأصل شأفة التمييز العرقي واللوني، إذ من شأن ذلك القول بأن الإسلام يستأصل الشر. ولكنني أؤكد بأن الإسلام لا يسمح بتمييز كهذا، وأن المسلم إذا أبدى بعضاً من ذلك فإنه يكون قد اخترق مبدأً جوهرياً من مبادئ العقيدة واقترف إثماً كبيراً. فمن بين ديانات العالم الكبرى لم تنجح ديانة في محاربة التمييز كما نجح الإسلام. وبالنسبة إلي شخصياً فقد مررت بتجربة شخصية مثيرة للمشاعر توضح قوة الإسلام في هذا المجال وذلك بعد عدة أسابيع من إسلامي:

لقد كانت محاضرة نظمها الطلبة المسلمون في جامعة سان فرانسيسكو، وكان المحاضر في تلك الليلة شخص يدعى عبد العليم موسى والذي كان آنئذ إمام مسجد النور في أوكلاند (Oaklnad) كاليفورنيا. قص لنا قصة دخوله في الإسلام والتي بدأت عندما انضم إلى جماعة (أمة الإسلام) في الستينيات، ثم تحوله إلى الإسلام الحقيقي في السبعينيات. وكان معه بعض المسلمين من الأمريكيين الأفارقة الذين كان يبدو من خلال ردود أفعالهم حيال حديثه أن قصة إسلامهم كانت تشبه قصة إسلام عبد العليم... ومن حيث البنية الجسدية فقد كان عبد العليم طويلاً وقوياً وجليلاً وذكياً وحاضر البديهة ممن لا يمكن الاستهانة بهم. وفي طريقه إلى المنصة أخبرني أحد الطلبة أن عبد العليم هذا كان في وقت من الأوقات عضواً في مجموعة النمور السود (Black Panthers) وأنه اقتيد إلى السجن بسبب ذلك. وغالباً ما أشك في شائعات كهذه ولكن — من خلال المحاضرة — استطعت أن أستنتج أنه كان أحد المشاغبين والميالين إلى العنف في الماضي. ومع ذلك فإن الكلمات الحكيمة التي كان يتفوّه بها والهدوء الذي كان يتمتع به خلال محاضرته جعلتني أشعر بأن هذا الرجل قد اكتشف سبيل الطمأنينة والسكينة الداخليتين من خلال إيمانه.

(١) انظر: هالي :Haley تراجمة مالكوم إكس.The Autobiography of Malcom X

بينما كنت أستمع إلى عبد العليم موسى وهو يحاضر لم يغب عن بالي سنوات الشباب الأولى وهمجية الحروب العرقية البشعة التي كان يتقاتل فيها شباب من حيِّنا مع شباب من السود من أمثال عبد العليم الذين كانوا يسكنون الأحياء الفقيرة القذرة. ودار في مخيّلتي لا بد وأن عبد العليم كان خصماً شرساً، عدوّاً يحاول أي فرد فينا تحاشيه إذا دخل منطقة نفوذنا. ولكنني في الوقت نفسه شعرت بأحاسيس متناقضة، شعرت بالإشراقة والخجل وشعرت بالإثارة والارتباك في الوقت نفسه. لقد كنت في حالة من الاسترجاع فقد بدأت جميع المخاوف التي كنت قد خلّفتها في بيدجبورت (كونيكتيكت) أيام شبابي الأول تراودني وانتابني القلق .

وفي فترة أسئلة وأجوبة من المحاضرة طرح طالب عربي السؤال الأول على عبد العليم وكان على الشكل التالي: "هل تعتقد أن الإسلام قد غيَّر فيك شيئاً وأثَّر في حياتك؟" ربما كان السؤال بريئاً ولكنه بدا وكأنه يشير إلى ماضي عبد العليم العاصف. على الأقل هذا ما فهمته أنا من السؤال، وكان هذا ما فهمه عبد العليم أيضاً. تنهّد عبد العليم وهو يهز رأسه يمنة ويسرة كما لو أنه لم يصّدق السؤال ثم قال: "إنك لا تدري كم مرّة سئلت فيها هذا السؤال. إن الناس لا يعرفون أن ذلك يمكن أن يحصل فعلاً وأن حياتك يمكن أن تنقلب رأساً على عقب." كان يتكلم ببطء وكأنما يحصي كلماته وكأنما يحاول احتواء كبريائه المجروحة. ثم أردف قائلاً بصوت خافت بعد أن تغلّب على إحباط كان يتنامى داخله: "إن الناس لا يستطيعون أن يصدّقوا كم هي عظيمة قدرة الإسلام." شعر الجمهور بالتوتر وحبس الناس أنفاسهم، وكأنما يتوقعون ثوران عبد العليم في أي لحظة. تفحّصت عينا عبد العليم القاعة وكأنه يبحث عن شخص ما يفهمه، أو أنه كان يبحث عن طريقة يثبت فيها فكرته؛ وفجأة استقرت على غرانت (Grant) - أمريكي آخر أبيض مسلم كان يجلس على يساري — وعليَّ شخصياً. أشار بيده إلينا، وقال وكأنما يصرخ: "إن حقيقة وجود رجال بيض كهؤلاء يجلسون سويّة مع رجال سود مثلنا كإخوة، في حين

ومنذ عشر سنوات فقط كنا نقتل بعضنا بعضاً في الشوارع، تخبركم عن مدى التأثير الذي يمكن أن يفعله الإسلام في حياة الفرد "!

كنا نحن الثلاثة أنا وغرانت وعبد العليم من جيل واحد. كانت إيحاءات وجه غرانت تشير إلى ما كنت أشعر به، وهو أن عبد العليم بدا وكأنه يقرأ أفكارنا. وبعد البرنامج مشى عبد العليم إلينا وبابتسامة حارة ومدَّ يده مصافحاً ثم عانق بعضنا بعضاً عناقاً إسلامياً، وكان ذلك بداية علاقة ذات أهمية كبرى بالنسبة إلي. وأصبح عبد العليم صديقاً مقرّباً وناصحاً مخلصاً في معالجة بعض المصاعب والعقبات التي تهدد إخلاص الوافدين الجدد إلى الإسلام. عندما قابلت عبد العليم لم يكن قد مضى على إسلامي الكثير من الوقت، ولابد للدروس والعبر الإسلامية من بعض الوقت كي ترسخ في أذهاننا، ولكن في تلك الليلة تعلمت الكثير عن مبدأ الأخوّة في الإسلام. وكان عليّ أن أتعلم الشيء الكثير من عبد العليم خلال الشهور والسنوات التالية التي قضيتها في سان فرانسيسكو.

وهل هناك تعصّب أو تمييز ضد المسلمين؟ نعم، وفي مختلف الظروف والأوقات، إذ إن التعميم سمة ملايين البشر جميعاً والتمييز العنصري مبني على التجربة. كما أن حياتنا مبنيّة على أساسه إلى حد كبير. ففي كثير من الأحيان نؤذي الآخرين كما نؤذي أنفسنا عندما نسيء استخدام قدراتنا العقلية، ولكننا نستطيع، بل يتوجّب علينا، أن نصحح أخطاءنا ونتعلم منها. فكثيرة هي المرّات التي شاهدت فيها القوة التصحيحية للشهادة عند المسلمين. ولقد شاهدت كيف أن الفروقات الثقافية والسياسية والاقتصادية والعرقية تفرّق بين المسلمين، ولكنني شاهدت كيف أن الشهادة تجمعهم كإخوة وأخوات في الإيمان. والحادثة التالية جرت بعد عام واحد تقريباً من اعتناقي للإسلام:

إن المساجد والمراكز الإسلامية في أوروبة وأمريكا تجمع فيما بينها نسيجاً هائلاً من الشعوب من مختلف أرجاء العالم الإسلامي. وغالباً ما يحتضن المسجد

العديد من التجمعات الثقافية الصغيرة دون أن يكون لأحدها الغالبية من حيث العدد؛ وهذا ينطبق أكثر ما ينطبق على المساجد التي تديرها جمعيات الطلبة المسلمين في الجامعات الغربية. إن تجمعات متباينة الثقافة كهذه لا بد أن ينجم عنها خلافات في الآراء والتي من شأنها أن تؤدي بسهولة إلى خلافات حادة وتصدعات في الجالية.

ولقد نشب نزاع من هذا القبيل في مسجد جامعة سان فرانسيسكو. ولم أعد أذكر السبب الحقيقي الذي قاد إلى تلك المشاجرة، ولكني أعتقد أن كان يتعلق بكومة من الكرّاسات المناهضة للشيعة كان قد تركها أحد ما في المسجد. ولقد حدث ذلك بينما الحرب الإيرانية-العراقية على أشدها. في ذلك الوقت كان كل فريق يحاول حشد طاقاته مع أنصاره في سبيل نشر دعاية سياسية-دينية ضد الطرف الآخر. أذكر تماماً الخطورة التي وصل إليها الموقف من الانفجار آنئذ. هاج السعوديون ضد الكويتيين والإيرانيين، ووقف الطلبة الباكستانيون مع السعوديين، ووقف الأمريكيون البيض دفاعاً عن الإيرانيين في حين وقف الأمريكيون الأفارقة ضد الأمريكيين البيض وبدا أن الفلسطينيين ومسلمي شمال إفريقية في شجار بعضهم مع بعض ووقف الطلبة الماليزيون مذعورين. لقد هاج الجميع وماجوا بكل أنواع الهجوم المر والحاقد والعرقي وحتى الشخصي، وكان يسمع هنا وهناك اتهامات مثل:

"-أنتم الشيعة قوم كافرون".

"-أنتم السعوديون تقدسون الملك لدرجة العبادة..

"-ماذا يعرف الأمريكيون عن الإسلام؟"

"-إن الباكستانيين هم أذناب السعوديين" .

"-لقد أسلمنا قبل أن تسلموا أنتم أيها البيض بوقت كبير".

"-أنتم تفخرون باتباعكم لــ إلايجه محمد".

"إن الفلسطينيين يستأهلون ما حصل لهم".

احمرّت الوجوه من الغضب وانتفخت الأوداج وتعالت الصيحات بالنذير، وكان الطلاب الأمريكيون يستعدّون للنــزال والعراك، وكانت هذه هي النتيجة التي كنّا نتجه إليها لا محالة. وفجأة ومن أحد أركان الغرفة انطلقت صيحة يائسة تدوي: "**لا إله إلا الله! محمد رسول الله**".

لقد كان المنادي إلياس، ذلك الطالب الإندونيسي النحيل القصير الهادئ. لم يكد ينطق بكلمة أخرى عندما بدأ الهدوء يخيّم على الغرفة.

سأل بعضهم الآخر: "ماذا قال الرجل؟"

صرخ إلياس ثانية بكل ما أوتي من قوة: "**لا إله إلا الله محمد رسول الله.**" ثم أردف قائلاً: رددوا خلفي: "**لا إله إلا الله محمد رسول الله.**" ردد معظم الجمع الشهادة بتمتمات مختلفة مضطربة.

سأل أحدهم الآخر: "ماذا يريد الرجل؟".

ثم صرخ إلياس قائلاً: "رددوها كما لو أنكم تعنون ما تقولون".

شعرنا أن علينا أن نطيع هذا الرجل الذي عادة ما يكون هادئاً ولطيفاً وكيّساً، ربما لأنه كان يتكلم بطريقة سلطوية وبحماسة عاطفية. ارتفعت أصواتنا ونحن نردد خلف إلياس: "**لا إله إلا الله محمد رسول الله**".

شعر كل فرد منّا وكأن الحقد والضغينة تتبددان من قلوبنا. كانت العيون جميعاً تتطلع إلى إلياس وتسمّرت وجوه عليه. وسرعان ما أظهر بعضهم الحزن، وبعضهم الندم وبعض آخر البهجة. لقد شعر الجميع الآن بحاجة إلى إلياس لكي يقوده. وأردف إلياس مردداً: "رددوا ثانية وثالثة." وما كان من الجميع هذه المرة إلا أن يرددوا خلفه، وبدأت القاعة ترن ويردد صداها:

"لا إله إلا الله محمد رسول الله"، "لا إله إلا الله محمد رسول الله"

وقف إلياس وكأنه تجمّد هناك، وفاضت الدموع من عينيه. نظر إلينا بنظرة الطفل الذي ينظر إلى والديه ويطلب منهم أن يكفّوا عن الشجار فيما بينهم. عند ذلك قال إلياس بهدوء وكأنما تصدّع صوته: "هذا هو كل ما في الأمر، إن هذا هو ما يجمعنا ويوحد بيننا: "لا إله إلا الله محمد رسول الله." عند ذلك بدأ كل أخ يقترب من الآخر بهدوء وقد بدا على وجوههم الحرج والارتباك. فما كان على وشك أن يصبح جحيماً أصبح الآن مشهداً من التصافح والعناق الأخوي والاعتذار الصادق. وفي اليوم التالي عاد المسجد إلى حالته الطبيعية و لم أسمع أحداً يناقش تلك المسألة ثانية.

* * *

تجربة القرب من الله

يقول غسّان ذرّة إمام مسجد جامعة سان فرانسيسكو السابق: "عندما نصلي وتلامس أنوفنا الأرض في السجود فإننا نشعر بقوة وطمأنينة وسرور تفوق حدود هذا العالم، مما لا يمكن وصفها في كلمات ولا يعرفها إلاّ من جربها".

"حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الصلاة

حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح".

في اليوم الذي اعتنقت فيه الإسلام أعطاني إمام المسجد كتيّباً أتعلم من خلاله كيف أصلي. عندها قال لي بعض الطلبة المسلمين:"هوّن عليك ولا تثقل على نفسك وتعلّم هذه الصلوات ببطء وهدوء." اندهشت من قلقهم علي، وتساءلت في نفسي قائلاً: "وهل أداء الصلاة هو من الصعوبة بمكان"!

في تلك الليلة تجاهلت نصيحتهم وقررت أداء الصلوات الخمس في أوقاتها المعلومة. جلست لمدة طويلة متمدداً على الأريكة في غرفة جلوسي تحت ضوء خافت، أدرس وأتمثّل هيئات الصلاة وأحاول تعلم الآيات القرآنية التي يتوجّب

علي تلاوتها في الصلاة وكذلك الأدعية الواجب قولها. ومعظم ما كان يتوجب علي حفظه وقوله كان باللغة العربية، ولذلك كان علي أن أقرأ رسم الكلمات بالعربية ومعنى ذلك باللغة الإنجليزية وكل ذلك كان في الكتيّب. تصفحت الكتيّب بإمعان لمدة ساعتين قبل أن أشعر بالثقة التامة من مقدرتي على أداء أوّل صلاة لي. كان الوقت يقارب منتصف الليل ولذلك قررت أداء صلاة العشاء. دخلت الحمام ووضعت الكتيّب بجانب المغسلة وفتحته على الفصل الخاص بكيفية الوضوء. أخذت أتبع التعليمات خطوة بخطوة وبدقة متناهية، وكأنني طبّاخ يحاول أن يطهو وجبة طعام ما لأول مرة. وعندما انتهيت أغلقت صنبور الماء ثم دخلت حجرة الجلوس والماء يقطر من مناطق مختلفة من جسدي، ذلك أن الكتيّب نصّ على أنه من الأفضل عدم استعمال المنشفة بعد الوضوء .

وقفت في منتصف الغرفة ثم توجّهت نحو ما اعتقدت أنه القبلة في مكة. نظرت خلفي على الباب لكي أتأكد من أنني أوصدت باب شقتي أم لا. وبعد أن تأكدت من أن الباب كان مقفلاً، يممت شطر القبلة ثانية بعد أن سوّيت من وقفتي. أخذت نفساً عميقاً ثم رفعت يدي وهي مفتوحة حذاء وجهي إلى أن لامست شحمتي أذنيَّ، ثم همست بصوت أجش "الله أكبر." كان أملي ألا يسمعني أحد حيث شعرت ببعض القلق، ذلك أنني كنت أشعر أنه لابد أن أحداً ما يتجسس عليّ. ثم إنني تذكرت أن ستائر غرفتي كانت مفتوحة، ثم فكرت في نفسي قائلاً: "ماذا سوف أقول إن رآني أحد الجيران وأنا على هذه الحالة؟" توقفت عما كنت أفعله ثم توجهت إلى النافذة ونظرت نحو الخارج فيما إن كان هناك أحد ما يراقبني. ومن حسن حظي أنه لم يكن هناك أحد، ثم إنني أغلقت الستائر بحذر ثم عدت إلى منتصف الغرفة. عدت إلى ما كنت عليه وشرعت بالصلاة قائلاً: "الله أكبر." قرأت بالعربية بفاتحة الكتاب وبسورة قصيرة بصوت لايكاد يُسمع وبغمغمة لايكاد يفهمها عربي. ثم كبّرت بصوت هادئ للركوع وأنا أضع يدي على ركبتي. شعرت بالحرج لأنني لم أركع في حياتي لأحد. كنت سعيداً لأنني كنت

وحدي. وفي ركوعي قلت: "سبحان ربي العظيم" عدة مرات. ثم اعتدلت وأنا أقول: "سمع الله لمن حمده... ربنا ولك الحمد".

شعرت بدقات قلبي تتسارع وقلقي يتزايد، بينما كنت أهوي للسجود مكبراً "الله أكبر." تسمّرت في مكاني وأنا أحدّق في البقعة حيث المكان الذي سوف أضع فيه جبيني للسجود على الأرض. لم أستطع السجود، ولم أستطع الإنحناء كي أضع أنفي على الأرض كعبد يعفّر وجهه بالتراب أمام سيّده. شعرت وكأن ركبتيّ قد أحاط بهما سوار يمنعهما من الانحناء. وشعرت بالخجل من الانحناء بذلّ. ثم إنني تخيّلت أنني أقوم بذلك أمام أصدقائي وأصحابي، وكيف سيكون موقفي أمامهم وكيف سيكون موقفهم تجاهي وهجاؤهم لي وضحكهم عليّ؟! تصورت كم سأبدو سخيفاً أمامهم وكأني بأحدهم يقول: "ياجفري المسكين لقد أصبح ابن سان فرانسيسكو مهووساً بالعرب، أليس كذلك؟" ثم إني دعوت الله قائلاً: "ساعدني ياربي لكي أسجد لك".

أخذت نَفَساً عميقاً ثم أرغمت نفسي على النـــزول إلى الأرض. جثوت على أربع، ثم إنني بعد تردد قصير دفعت بوجهي ساجداً فوق السجادة. طردت جميع الأفكار من عقلي ثم ردّدْت قائلاً بطريقة آلية: "سبحان ربي الأعلى" ثلاثاً. ثم كبّرت وجلست على كعبيّ. حاولت طرد وساوسي، ثم كبّرت للسجود وسجدت ثانية. ثم كبّرت لأنهض واقفاً. قلت في نفسي بقي ثلاث ركعات وأنهي الصلاة. كان عليّ أن أتصارع مع عواطفي وكبريائي لأكمل صلاتي، ولكن في كل ركعة كان الأمر يسهل علي لدرجة أنني شعرت بالسكينة في السجدة الأخيرة. ثم إنني قرأت التشهد ثم سلمّت على اليمين ومن ثم على الشمال. لقد انقضى الأمر، ولكنني بقيت جالساً أسترجع المعركة التي مررت بها للتو. شعرت بالحرج لأنني تصارعت مع نفسي لكي أنهي صلاة واحدة. طأطأت رأسي ثم دعوت: اللهم اغفر لي تكبري وغفلتي، فلقد جئت من مكان بعيد وما زال أمامي شوط كبير لكي أقطعه.

في تلك اللحظة بالذات مررت بتجربة لم أعهدها من قبل ولايمكن لي أن أصفها في كلمات. وكل ما أستطيع قوله هو أنه سرت في جسدي موجة من البرد أخذت تشع في مكان ما من صدري، وكانت قوية لدرجة أنني شعرت بالرعب في بداية الأمر، ثم انتابتني قشعريرة. **ولم يكن الأمر مجرد شعور جسدي بل إنه تجاوز ذلك إذ غمرتني حالة من العواطف الغريبة أيضاً. شعرت وكأن الرحمة قد حلت بي لتغمرني حالة من الروحانية والسكينة.** بدأت بالبكاء و لم أكن أدري لماذا. انهمرت الدموع فوق وجنتي ووجدت نفسي أبكي بلا توقف. وكنت كلما ازداد بكائي شعرت بقوة هائلة من الرقة والعطف تعانقني. لم أكن أبكي من ذنب — ربما كان علي أن أبكي منه — أو من خجل أو من فرحة، بل كان الأمر وكأن سدّاً كبيراً قد انهار ليفيض منه مخزون هائل من الخوف والغضب. وبينما أكتب هذه الكلمات تساءلت في نفسي كيف أن رحمة الله ومغفرته تتجاوز مسألة غفران الذنوب لتشتمل على تطهير النفس وغرس السكينة فيها. مكثت جاثياً على ركبتيّ ورأسي بين يديّ وأنا أنتحب لبعض الوقت. وعندما توقفت عن البكاء أخيراً، كنت مرهقاً تماماً. وأما التجربة التي مررت بها فقد كانت غريبة جداً بالنسبة إلي وكانت عامرة بالمشاعر العاطفية، الأمر الذي لا أستطيع وصفه في كلمات كما أنه لا ينبغي لي أن أخبر أحداً عن ذلك الآن[1]. لقد كان إدراكي لذلك كبيراً فقد كنت بحاجة ماسّة إلى الله وإلى الصلوات.

وقبل نهوضي من جلستي تلك دعوت الله دعاءً أخيراً تلك الليلة، فقلت: "ياربي، إذا ما جنحت مرّة ثانية نحو الكفر بك في حياتي، اللهم أهلكني قبل ذلك وخلّصني من هذه الحياة. إنني يارب أجد الحياة صعبة بنقائصي وعيوبي، ولكنني برغم ذلك لا أطيق العيش ولو ليوم واحد وأنا منكر وجودك".

---

(١) في الأشهر التالية مررت بما يمكن أن أعتبره بالنسبة إلي تجارب روحانية مركزة خلال صلواتي، ولكن من خلال محادثاتي مع مسلمين آخرين وجدت أن تجربتي لم تكن هي الوحيدة كما أنها لم تكن غير عادية أو طبيعية.

والأذان يحثّنا على الصلاة وعلى الفلاح: "حيَّ على الصلاة ... حيَّ على الفلاح." فإذا كان الهدف الرئيس من حياتنا هو التقرب أكثر فأكثر إلى الله فإن الصلاة جوهرية من أجل الوصول إلى ذلك الهدف. وبالنسبة إلى المسلمين فإن الصلاة هي إحدى أهم السبل في سبيل الوصول إلى هذا الهدف وتحقيقه. إنها بوصلة المسلم الروحية التي يتفحص من خلالها تقدمه ووجهته في الحياة، وهي الطريق التي تؤدي به إلى الجنة في الآخرة. ومن خلال خبرته في الصلاة يحاول المسلم أن يبقى متنبّهاً لتقلبات إيمانه. فالمسلم يسأل نفسه: هل أصبحت أتقاعس عن أداء الصلوات في الفترة الأخيرة؟ أو أنني أؤديها على عجل دون أن أنتفع بأجرها؟ وهل إقبالي على الصلاة أقوى مما كان عليه في السابق أو هو أضعف؟ وهل تقرّبني هذه الصلوات من ربي أكثر أو تبعدني عنه؟ وبرغم أن كلاً من الصلوات الخمس تعين المسلم على قياس نمائه في الإيمان فإن الصلاة هي المقياس الرئيس اليومي لدرجة خضوع المؤمن لربه.

فأداء شعيرة الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة يتطلب التزاماً كبيراً بالإسلام. فالصلاة الواحدة لاتكلف الكثير، ولكن النهوض من الفراش قبل الفجر لأداء الصلاة على وقتها كل يوم من أيام السنة سواء كان ذلك يوم عمل أو عطلة وإلى نهاية العمر لاشك يتطلب تصميماً كبيراً. فجميع شعائر الإسلام تمتحن وتتحدى قوة إرادة المسلم وضبطه للنفس بطرق شتى، ومن ثم تساعد على بناء هذه الخصال لديه. فالشهادة تمتحن ولاء المرء، وشهر رمضان يمتحن قدرته على السيطرة على حاجاته الجسدية، والزكاة تختبر قدرته على ضبط رغباته المادية، وأما الحج فإنه يمتحن بطريقة ما العناصر الثلاثة جميعها. وقد لاتتطلب الصلاة من العواطف ما يتطلبه النطق بالشهادة للمرة الأولى، وقد لاتتطلب من الناحية الجسدية والمادية مايتطلبه الصوم والزكاة والحج ولكن الصلاة تمتحن — وبطريقة تفوق الشعائر الأخرى — جلد المرء وصبره. أعرف العديد من المسلمين ممن يصوم رمضان ويدفع الزكاة كل عام وأدى الحج، ولكنه غير قادر على المحافظة على جميع الصلوات المفروضة.

ولا شك أن معظمنا قادر على إظهار الفضيلة والتقوى وفعل الخير في بعض الحالات، ولكن العديد منّا لا يستطيع -ولو بشكل معتدل - الثبات على ذلك. وفيما يختص بنمائنا الروحي والأخلاقي فإن حالتنا أشبه ما تكون بحالة شخص يقرر فجأة أن يكتسب اللياقة البدنية خلال يومين، وذلك من خلال اشتراكه بسباق الماراثون. ولكن في الحقيقة لكي يكتسب هذا الشخص اللياقة البدنية الكافية فإنه بحاجة للبدء ببرنامج منتظم من التمرين والمواظبة عليه. فالقرآن الكريم يحض المؤمنين دوماً على التحلي بالصبر، وهي إحدى الخصال الأساسية في عملية النماء الروحي. وغالباً ما يأتي الحض على الصبر في القرآن مقروناً بذكر الصلاة، ويبدو أن الصبر والصلاة يكمل بعضهما الآخر.

ومع ذلك فإن جزاء الصلاة يفوق بدرجة كبيرة متطلباتها. ولقد قال لي أحد الطلبة المسلمين مرة: إن طاقة الصلاة لا يمكن وصفها، قال: "عندما نصلي وتلامس أنوفنا الأرض في السجود فإننا نشعر بقوة وطمأنينة وسرور تفوق حدود هذا العالم، مما لا يمكن وصفها في كلمات ولا يعرفها إلاّ من جربها." ويوم قال لي ذلك هو اليوم الذي أصبحت فيه مسلماً؛ و لم أمكث طويلاً حتى بدأت أدرك ماذا كان يعني بذاك القول.

و خلال الصلاة هناك لحظات من الحقيقة والإخلاص والصدق والتواضع الحقيقية يدرك المسلم من خلالها قدرة الله الكلية من نور العطف والرحمة. وهذه لحظات لاتجيئ في وقت محدد، ولكنها تأتي بشكل يكاد يكون عفوياً دوماً. ولكنها عندما تجيء فإنها تغمر المسلم بفيض من واسع الرفق والرحمة. إنها مشاعر تزيد من تواضع المسلم، وياها من مشاعر رائعة الجمال. إنها مشاعر من النشوة ذلك أنك عندما تضع يديك وقدميك ووجهك وتسجد بثبات على الأرض تشعر فجأة كأنك رفعت إلى الجنة، لتتنفس من هوائها، وتشتم تربتها، وتتنشّق شذى عبيرها. تشعر وكأنك توشك أن ترفع عن الأرض وتوضع بين ذراعي الحب الأسمى والأعظم. فهذه اللحظات من الألفة

المقدسة تخلق في المتعبد شوقاً عارماً كي يكون قريباً من الله، وتصبح الآخرة هدفه الأساس من خلال عيشه في هذه الحياة ونصبه فيها.

وهذا يساعدنا على فهم سبب حرص المسلمين المتدينين على أداء صلاقم في وقتها وكيف أن أحدهم قد يتمنى الموت على أن تفوته إحدى هذه الصلوات. ومن هنا تجدهم في المطارات والممرات وفي حدائق المدن وفي المباني العامة منفردين ومجتمعين، وواقفين وجالسين أو ساجدين غير عابئين بما يدور حولهم فيما يبدون أفم في عوالمهم الخاصة. وسبب هذا أفم أصبحوا بحاجة ماسة للصلاة التي أصبحت المصدر الأساس لغذائهم الروحي، ووسيلتهم الأقوى للاتصال مع الله. فالمسلم الملتزم لايستطيع أن يخاطر ولو بصلاة واحدة؛ وذلك لأنه يعلم أن مركزه الروحي — الذي عادة مايدعوه الناس على نحو رمزي بالقلب — حقيقي وأن نماءه يكمن في قدرته على تلقي وتجربة المقدس من خلال الأداء المستمر والثابت لشعيرة الصلاة. إن هذا اعتقاد ناجم عن خبرة، فالمسلم يتعلم أولاً أن روحانيته وتلقيه الروحي تزداد مع التمرين المتواصل في الصلاة وتعتمد بشكل كبير عليها.

وكما قلنا سابقاً: إن المسلم يعلم أيضاً أن نماءه مرتبط بأعماله وبعلاقته بالآخرين، وهذه حقيقة يعززها شكل صلاة الجماعة. يصلي المسلمون (الجماعة) بتشكيل محكم، الكتف على الكتف والقدم على القدم وذلك عندما يقفون ويركعون ويسجدون في انسجام. فمنظر المسلمين وحسن تناسقهم في صلاة الجماعة يعتمد على وحدة حركتهم أثناء أدائهم لها. ولقد أخبرني أحد الطلبة المسلمين ذات مرة أنه لم يفهم لماذا أمر النبي ﷺ صحابته بالصلاة على هذا النحو من التلامس الشديد من بعضهم البعض في الوقت الذي يجب أن يركز كل منهم كامل انتباهه على التواصل مع الله. قلت له إنه ربما أكد بسؤاله هذا موضوعاً هاماً في الإسلام، وهو أنه حتى في أشد حالات خشوعنا في الصلاة، فإنه يتوجب علينا ألا ننسى أن علاقتنا مع الله مرتبطة بعلاقتنا مع الآخرين.

وهناك أحاديث مشهورة للنبي توصي المسلم ألا يترك فجوة بينه وبين أخيه المسلم في الصلاة كي لايدع مكاناً للشيطان يدخل بينهما. طالب مسلم آخر لم يكترث كثيراً بهذا حيث إن التراص في الصفوف لم يكن ليعجبه، فقلت له: "كيف يكون شعورك إذا صليت بجانب أخ لك مسلم يحاول أن ينأى بنفسه عنك؟" فقال: إنه جرّب ذلك وإنه قد شك بنوايا ذلك الرجل الذي كان بجانبه. فقلت له: "تماماً! ألا ترى أن ذلك يفتح باباً للريبة بينك وبين أخيك المسلم".

ومع مرور الوقت أصبحت أدرك ما كان يعنيه ذلك الطالب إمام المسجد بقوله إن جمال الشعور عند أداء الصلاة لا يمكن في الحقيقة وصفه. إنه جمـــال لا يمكن أن يكون له حدود، ويزداد مع مرور الزمن، وذلك بالمواظبة على أداء الصلوات الخمس كل يوم وليلة. وبهذا يدرك المؤمن مع مرور الزمن، وبوضوح تام كم هو عظيم الخطر المحدق بهذه الحياة؛ وكيف يمكن للمرء أن يكسب الكثير من خلاله صلاته، وكم هي الخسارة المحتملة إن هو أعرض عنها. ومن هنا يفهم الأب المسلم التقي المعنى الكامن من وراء إلحاح نبي الله إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٠].

سألتني ابنتي جميلة مرة وذلك بعد أن فرغنا من صلاة الظهر معاً: "لماذا نحن نصلي يا أبتِ؟" دهشت لسؤالها، إذ إنني لم أتوقعه من فتاة في الثامنة من عمرها. وطبعاً أعرف الجواب البسيط لهذا السؤال، وهو أننا بوصفنا مسلمين فإنه يتوجب علينا أن نؤدي الصلاة لله، ولكنني لم أرد أن أضيِّع الفرصة بمشاركتها رأيها عن تجربة الصلاة ومزاياها الحميدة. ومهما يكن، فبينما كنت أحاول التفكير بإجابة مقنعة حاولت كسب بعض الوقت من أجل المزيد من التفكير فبدأت بالقول: "إننا نصلي لأن الله يريدنا أن نصلي".

قالت ابنتي: "ولكن لماذا يا أبت، فماذا يمكن للصلاة أن تفعله؟"

قلت لها: "حبيبتي، من الصعب أن أشرح هذا السؤال لطفلة صغيرة مثلك. وإذا ما واظبت على صلواتك الخمس، فإنك لابد أن تفهمي معنى ذلك يوماً ما، ومع ذلك فسوف أحاول الإجابة على سؤالك. تعلمين ياحبيبة قلبي أن الله هو مصدر كل المحبة والرحمة والعطف والحكمة، وهو مصدر كل الجمال الذي نعيشه ونشعر به. فكما أن الشمس هي مصدر الضوء الذي نبصر من خلاله في النهار، كذلك فإن الله هو مصدر كل هذه الخصال التي ذكرت، بل أكثر من ذلك بكثير. وهكذا فالحب الذي أشعر به حيالك أنت وأمك وأختيك هو الحب الذي منحني الله إياه. ونحن نعلم أن الله رؤوف ورحيم بكل ما أعطانا في هذه الحياة. ولكن عندما نصلي فإننا نشعر بمحبة الله وعطفه ورحمته بطريقة خاصة جداً، وهي الطريقة الأكثر قوة. فمثلاً تعلمين أنني وأمّك نحبّك وذلك من خلال اهتمامنا بك. ولكن عندما نحتضنك ونقبلك فإن بمقدورك أن تشعري بمدى حبّنا لك. وبطريقة مماثلة، نحن نعلم بمحبة الله لنا وعطفه علينا من خلال حفظه لنا، ولكننا عندما نصلي له فإننا نستطيع أن نشعر بمحبته لنا بطريقة خاصة وحقيقية جداً".

سألت ابنتي ثانية: "وهل الصلاة تجعل منك أباً أفضل بالنسبة إلينا؟"

قلت لها: "أتمنى ذلك، وأحب أن يكون ذلك ما أعتقد به، لأنك عندما تشعرين بمحبة الله لك وعطفه عليك من خلال الصلاة؛ وياله من شعور جميل وقوي بحيث تشعرين بالحاجة كي تتقاسميه مع كل من هم حولك، وخاصة أسرتك. فأحياناً وبعد يوم مضن من العمل أشعر بالإرهاق لدرجة أحب أن أخلو فيها بنفسي. ولكن إذا شعرت بعطف الله ورحمته في صلاتي، أنظر إلى أسرتي وأتذكر كيف أنكم نعمة أنعمها الله عليّ؛ ومن ثم أشعر بالغبطة والسرور لا لشيء إلا أنني والدكم وزوج أمكم. إنني لا أدعي أنني الوالد المثالي، ولكنني أشعر أنني لن أكون ذلك الوالد الطيب دون صلواتي، بل إن هذه الصلوات تجعل مني أباً أفضل لكم. والآن، هل تجدين يابنيتي في إجابتي هذه معنى لسؤالك؟"

أجابت جميلة: "أخال أنني أفهم ماتعنيه ياأبتي." ثم إنها عانقتني وهي تقول: "وأنا أحبك ياأبتي".

قلت لها: "وأنا أحبك يابنيّتي".

* * *

رمضان

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٣].

بينما كنت واقفاً قرب صندوق البريد في قسم الرياضيات في جامعتي أتفحص البريد الصباحي، مرّ بي أحد الطلبة المسلمين من الشرق الأوسط وحيّاني بإشراقة قائلاً: "مبارك، يادكتور لانغ". قالها وهو يهرع على الدرج للحاق بمحاضرته.

أجبت تحيته قائلاً: "وأنت أيضاً مبارك عليك".

سألني أحد الزملاء ممن كان واقفاً بجانبي: "علام كان الطالب يبارك لك؟"

قلت: "هذا طالب مسلم، وكان يبارك لي بدخول شهر رمضان المبارك، وهو شهر الصوم".

قال ضاحكاً: "يهنّئك على أنك سوف تعاني شهراً من الجوع والعطش؟ ولو أنه هنأك على نهاية الشهر لكان الأمر أهون من أن يهنئك على بدايته".

قلت له: "كل ينظر من منظوره الخاص، ونحن المسلمين نعد شهر رمضان فرصة عظيمة للنماء الروحي".

قال أستاذ آخر كان يقف قريباً منا وقد سمع تحاورنا: "كنت أعتقد أنه عقوبة وتكفير عن الخطايا".

قلت له: "لا ليس كذلك في الحقيقة. فنحن المسلمين نعتقد بأن الله غفور رحيم، وأن مغفرته تتجلى أكثر ما تتجلى في شهر الصوم هذا. ولكننا نعتقد أن في صوم رمضان نفعاً روحياً لنا، وهو مناسبة ليراجع كل منا نفسه، ويعيد توجيه حياته بشكل يقربه من الله زلفى. فالمسلمون يترقبون هذا الشهر بتفاؤل وأمل كبيرين ويتطلعون إليه على أنه شهر المغفرة والأجر العظيم".

أجاب زميلي قائلاً: "ربما يكون ذلك صحيحاً، ولكنني متأكد من أنني لا أستطيع الصوم لشهر واحد وأبقى على قيد الحياة".

في كل يوم من أيام الشهر العربي القمري رمضان يمتنع المسلمون عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر وحتى مغيب الشمس. ويتوجب عليهم أيضاً أن يتجنّبوا الانفعالات ويمتنعوا عن النميمة والغيبة. ومن الواضح أن مما يتعلمه المؤمن خلال شهر من الصوم ضبط النفس، والاستعداد للتحديات التي قد يواجهها في حياته. ومن أسف أن غير المسلمين غالباً ما يخطئون بافتراضهم أن هدف الصوم هو إماتة الجسد — (self-mortification) أي إضعاف الجسد في سبيل تحرير الروح — كما هو الحال في بعض التقاليد الدينية الأخرى. وحقيقة أن المسلمين يتسحرون قبل الفجر، وأنهم لا يتوجب عليهم أن يصوموا إن كانوا مرضى أو على سفر ، يظهر أن الصوم قد قصد منه الشعور بعدم الراحة، ولكن ليس إضعاف الجسد إلى حد الوهن[١].

ويرى معظم الناس من غير المسلمين أن صوم رمضان هو أشد شعائر الإسلام قسوة. وعندما أشرح لأصدقائي من غير المسلمين هذا الركن في الإسلام، غالباً ما تتمثل ردود أفعالهم غلى شكل أسئلة مثل: "كيف يمكن أن تفعل ذلك بنفسك؟" و "لا يمكنني القيام بذلك على الإطلاق." ولكن يجب عليّ أن أعترف أن هذا كان انطباعي قبل أن أصبح مسلماً. وعلاوة على

---

(١) الأم المرضعة والحائض تفطر رمضان، وكذلك إذا لم يستطع المسلم صوم عدد من أيام رمضان فيمكن قضاء ذلك فيما بعد أو دفع كفارة ما أفطره.

ذلك، ففي الفترة التي كنت أفكر أن أصبح فيها مسلماً، كانت تساورني شكوك فيما إن كنت سأستطيع الصوم بشكل تام وصحيح. ولكن أوّل رمضان شهدته والذي كان خلال فصل الصيف، لم يكن بتلك الصعوبة التي كنت أتخيلها. فخلال يوم أو يومين تأقلم جسمي مع تغيّرات عادة الأكل والشرب خلال رمضان، بل كنت دوماً على ما يرام مادمت أتّبع تعليمات الصوم المعروفة التي أوصانا بها النبي ﷺ من خلال أحاديثه الشريفة. ومع نهاية ذلك الشهر اكتسبت ثقة كبيرة بنفسي، فقد اكتشفت أن لدي قدرة على الاحتمال أكثر مما كنت أظن، وأنه مع القليل من الصبر والتصميم والتوكل على الله فإن المهمة التي تبدو صعبة جداً تصبح سهلة التحقيق وممكنة دوماً.

ولاشك أن الإسلام يشجع كل موقف إيجابي كهذا، والصبر هو أحد المواضيع الرئيسة التي يحض عليها القرآن؛ ويبدو أن شعيرة الصوم قد فرضت كي تقوّي من هذا الاعتقاد. وقد يكون هذا أحد الأسباب الرئيسة في أن الإسلام لا يشجّع على الزهد أو التقشّف، لأن عدداً قليلاً منّا هم فقط القادرون على تحمّل ذلك. وبرغم أن الشعائر الإسلامية جميعها تتحدى المؤمن، فإنها ليست من الصعوبة بحيث تعوّده الفشل، ومن هنا جاء قول النبي ﷺ : " سددوا وقاربوا واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل"[١].

إن كل شعيرة من شعائر الإسلام تهدف لتعزيز لحمة الأمة، برغم أن هذا قد لا يبدو واضحاً في شعيرة الصوم للوهلة الأولى. ومع ذلك، وباستثناء شعيرة الحج، فليس هناك أي وقت آخر من أوقات العام كله تتجلى فيه مشاعر الأخوّة بين المسلمين أكثر مما تتجلى في رمضان. فخلال هذا الشهر نجد المساجد عبر العالم تزدحم بالعاكفين على العبادة طوال الليل، وكذلك تزداد فيه أعمال الخير والبر بشكل ملحوظ، ويحاول المسلمون جاهدين أن يزيدوا من أواصر اللحمة

(١) من حديث عائشة كما ورد في صحيح البخاري، باب الرقاق.

وصلة الرحم، إذ يقومون بزيارة أقرباء وأصدقاء وإخوة في الإسلام، وبخاصة أولئك الذين لم يروهم منذ زمن بعيد. ويرى المسلمون أن في تناول الإفطار خلال شهر رمضان مع الآخرين بركة وأجراً عظيمين؛ ولهذا نادراً ماتفطر العائلة وحدها خلال هذا الشهر، بل تقوم بدعوة الأصدقاء والجيران بما فيهم غير المسلمين كي يشاركوهم طعام الإفطار. وفي الغرب نجد أن مشاعر الأخوّة الإسلامية تزداد في رمضان، وذلك لأن نظام حياهم يصبح متميّزاً إلى حد كبير عن نظام حياة الغالبية غير المسلمة.

إن شهر رمضان يعد مناسبة روحية عظيمة بالنسبة إلى المسلمين الذين غالباً ما يدعونه بشهر السلام وشهر الرحمة. وهو الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن على النبي محمد ﷺ (انظر الآية ١٨٥ من سورة البقرة)، ذلك التنــزيل الذي أنزله الله أمناً وسكينة على المسلمين. ويعتقد المسلمون أن رحمة الله وبركاته تتجلى عليهم أكثر ما تتجلى خلال هذا الشهر. فتجربة الصوم وأعمال العبادة والخير التي يقومون بها لاشك تعينهم على التركيز بشكل أفضل على علاقتهم مع الله. فمن بين شعائر الإسلام الخمس نجد أن صوم رمضان قد يكون التعبير الشخصي الأكثر خصوصية عن الخضوع والاستسلام لله. فنحن نستطيع أن نلحظ أي مسلم يقوم بأداء الشعائر الأخرى الأربع، ولكن في حالة الصوم لا يستطيع أحد أن يعرف ذلك إلا الله والمسلم نفسه؛ ولذلك نجد أن الصوم مسألة خاصة بين هذا المسلم وربه. نستطيع أن نقول للناس: إننا صائمون ولكن في الحقيقة ليس لهؤلاء الناس من وسيلة عملية للكشف عن حقيقة ذلك. ولقد عبر النبي ﷺ عن ذلك أروع تعبير فيما يرويه عن ربه: " كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به[١]" .

وشهر رمضان هو أيضاً وقت التراحم بين البشر، وهو مناسبة لرأب الصدع بين المسلمين في أي جالية كانت، وبالتالي لتجديد أواصر الألفة والمحبة. وقد

(١) من حديث أبي هريرة كما ورد في صحيح البخاري، باب الصوم.

قال لي أحد الأصدقاء المسلمين مرة: "إذا لم تلتئم الجراح بين المسلمين في شهر رمضان فلن يكون هناك أمل في أن تلتئم الجراح وتزول الخلافات." ومن شأن رمضان أيضاً أن يخلق عند كلّ مسلم شعوراً بالتعاطف بين المسلمين أنفسهم مع الفقراء والمحرومين، ولابد للمؤمن أن يضحّي بشيء من متعته في سبيل الله ولو ليوم واحد خلال هذا الشهر كله. ومع ذلك وخلال شهر رمضان أحياناً يكون من السهل علينا أن ننسى مسؤوليتنا كخلفاء لله على الأرض. ففي أحد الأيام وخلال شهر رمضان كنت مشغولاً جداً ببعض مشكلات العمل وأرهقت نفسي أكثر مما ينبغي لدرجة تمنيت فيها أنني لم أكن صائماً. وفي ذلك اليوم القاسي وبينما كنت أتناول طعام الإفطار كنا نشاهد الأخبار وكان هناك تقرير حول المجاعة في إثيوبيا والصومال. مازلت أذكر وجه ذلك الأب الصومالي الجائع بينما كان يرقب طفله العاري، وقد انتفخت معدته وتقرحت، وهو يتقلب من شدة العذاب والجوع بين الأقذار. لقد جلس ذلك الأب الذي فقد باقي أفراد أسرته وهو يرقب طفله بصبر وعطف، وينتظر خلاصه بالموت القادم إليه لامحالة. كنت أرقب ذلك بينما كنت آكل طعاماً مترفاً. ولكن الطفل الذي لم يستسلم للموت بعد صرخ بغضب وتحد، وكأنما يصرخ على ظلم الدنيا، وقسوة البشر وإهمالهم له، أولئك البشر كأمثالي ممن كان يمتع نفسه بالطعام وهو يرقب شاشة التلفاز.

كنت أعلم عن هذه المأساة الصومالية لعدة شهور، ولكنني لم أفعل شيئاً، ولم أكلف نفسي أن أهتم بذلك. لقد أثار بي حديث النبي ﷺ : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" [١]. شعرت بالانفعال الشديد بينما كنت أحدّق في التلفاز وأمام ناظري طبق كبير مليء بالطعام. أدركت عندها وكأن الله قد اختار تلك اللحظة بالذات ليعرّفني مقدار نفسي وبما أنعم ومنّ عليّ من نِعم، وكم كنت جاحداً

(١) صحيح مسلم، باب الإيمان.

بتلك النعم. وفي نهاية شهر رمضان يحتفل المسلمون ولمدة ثلاثة أيام بعيد الفطر، وهو إجازة يعبّر المسلمون فيها عن بهجتهم وفرحتهم، وهي مناسبة لتبادل الهدايا فيما بينهم وزيارة الأهل والأقارب والخلاّن. وتشبه احتفالات العيد بطريقة ما احتفالات أعياد الميلاد في الغرب من حيث الزيارات والهدايا. والعيد مناسبة يشعر المسلمون فيها خاصة بالعرفان لله، ذلك أن تجربة الصوم تذكرهم بالنّعم العديدة التي منّ الله بها عليهم. ومن التجارب التي يمر بها المسلم في العيد هي أنه بينما يمد يده ليتناول شراباً أوطعاماً ما يتملكه فجأة شعور بأن الوقت مايزال رمضان وأن عليه أن يمسك عن الطعام، وبالتالي يجب عليه أن يتخلص من الطعام أو الشراب الذي هم بتناوله. ولكن بعد ثوان قليلة يتنفس الصعداء إذ يدرك بأنه قد أدى واجبه تجاه ربه وأن ذلك لم يكن سوى شعور قد اعتاده خلال رمضان وأن لاتثريب عليه بعد الآن كي يمتع نفسه بالطعام والشراب. قد يبدو ذلك غريباً، ولكن المسلمين يقولون كم هي رائعة تلك اللحظات، لأن الطعام أو الشراب يكون أكثر ما يستمتع به المرء في تلك اللحظات. وبينما يستمتع المسلم بعيده تراه يغفل عن شكر المولى لأنه يدرك تمام الإدراك أن رحمة الله وبركاته هي عظيمة حقاً.

* * *

الزكاة والتطهير الروحي

"يتوجب على كل مسلم ومسلمة ممن كان في حوزته آخر العام مايقارب خمس عشرة دولاراً أو أكثر سواء كان ذلك نقداً أو متاعاً أو تجارة أن يدفع عنها الزكاة بمقدار اثنين ونصف بالمئة[1]".

والذي يتولى جمع الزكاة هي الدولة والزكاة واجبة على أملاك المسلم المنقولة وغير المنقولة والعينية والسائلة، وهناك ثلاثة ضوابط تتحكم بالزكاة وهي:

(١) عبد اللطيف حمودة: الإسلام تحت المجهر (Islam in Focus) إنديانا بوليس: ١٩٧٥م، ص: ٩٦.

أولاً: لا تجوز الزكاة في الأملاك المعدة للاستهلاك والاستخدام مثل البيوت والحدائق والملابس والأثاث. وتجب الزكاة في الجواهر مثل الذهب والفضة والأحجار الثمينة، لأن هذه من شأنها أن تكون باباً للثراء إذا ما كنـــزت، وكنـــز الأموال في الإسلام له عقوبته عند الله. والممتلكات التي تجب فيها الزكاة هي الممتلكات التي أعدت للإنتاج سواء أكانت صناعية أم زراعية أم تجارية.

ثانياً: إن الزكاة ليست ضريبة عشوائية على جميع الممتلكات، فحساب الزكاة يأخذ في الحسبان صافي أرباح الدخل لأي ملكية منتجة بعد مضي عام كامل. وأما إذا كانت العملية خاسرة فلا زكاة على الملكية.

ثالثاً: يجب أن يقتطع جزء معقول من المال اللازم لمعيشة المالك ومن يعولهم من المال الذي يتوجب دفعه للزكاة [١] .

والشريعة الإسلامية تستطرد في شرح العديد من الأمور الفنية المتعلقة بدفع الزكاة، ولكننا نجد أن الوصف التقليدي للزكاة لايشتمل على الأغلبية من المسلمين الذين هم مواطنون في دول علمانية. وفي حين نجد أن معظم المؤمنين الذين يعيشون في ظل حكومات علمانية يرغبون في أداء زكاة أموالهم، فإنه ليس ثمة معايير عامة في هذه الدول قد تم الإجماع عليها لتحديد -على وجه الدقة- من يتوجّب عليه دفع الزكاة، وكم عليه أن يدفع، ولمن يجب أن تدفع هذه الزكاة. في القرن السابع الميلادي ربما كان الشخص الذي لا يملك ملكية إنتاجية فقيراً، ولكننا اليوم نجد أن العديد من الناس لا يملكون ملكيات إنتاجية، ومع ذلك فهم يتمتعون بدخل جيد. فما مقدار الدخل الذي يترتب على مثل هؤلاء؟ هناك العديد من النسب التي تحتسب فيها الزكاة ولكنني لا أدري أيها الأكثر شيوعاً وتطبيقاً! (أذكر أن الجمعية الإسلامية في شمال أمريكا (ISNA) طبعت عام ١٩٩٥م كتيّباً يحتسب الزكاة على أساس ضرائب الدخل الفيدرالية في أمريكا). وتقترح بعض المنظمات الإسلامية في أمريكا وكندا، مثل الجمعية

(١) إسماعيل الفاروقي: الإسلام (Islam) مطابع أمانة في بيلتزفيل: ١٩٩٥م)، الصفحات: ٢٤-٢٧.

آنفة الذكر وجمعية الحلقة الإسلامية في شمال أمريكا (ICNA) في أن ترسل أموال الزكاة إليهم، ولكنني أظن أن معظم الناس الذين يعيشون في الولايات المتحدة يدفعون ما يعتقدون أنه زكاة أموالهم إلى المراكز الإسلامية المحلية أو إلى الفقراء مباشرة أو إلى الجمعيات المحلية.

والمشكلة الثانية هنا هي متى يجب أن تدفع الزكاة؟ إن العرف هو أن تدفع سنوياً وعادة ما كانت تدفع في نهاية شهر رمضان. ويجد المسلمون الذين يتقاضون مرتبات أسبوعية أو شهرية صعوبة في حساب ما يتوجب عليهم دفعه زكاة تلك الرواتب ووضعه جانباً، وفي معظم الأحيان يضطرون لصرف ذلك المبلغ الذي كانوا قد احتسبوه على أنه زكاة دخلهم. أعرف عدداً قليلاً من الإخوة المسلمين في أمريكا ممن يتحاشى هذه المشكلة وذلك بدفع مبلغ ٢.٥% على الأقل من راتبه للمنظمات الخيرية على أساس أنها زكاة مرتبه الأسبوعي أو الشهري مقدماً وذلك حسبما يتلقى ذلك المرتب .

ويرى العديد من غير المسلمين في الزكاة أنها أمر دنيوي ومحض عادي، ويعدّونها أقل الشعائر الإسلامية روحانية لأنها لا تعد صدقة تخرج من نفس راضية، بل هي عمل قسري يخضع للعديد من تقنيات الحساب. ويبدو للعديد ممن هم خارج نطاق العقيدة والإيمان أن روحانية المرء عندما يدفع الزكاة لا تختلف كثيراً عن روحانيته عندما يدفع ضريبة الدخل على مرتّبه .

إن دراسة ثقافة أخرى، مهما كانت موضوعية، لا تستطيع إلا أن تقدم فهماً محدوداً لمفاهيم تلك الثقافة. ولذلك فإن الانضمام لتلك الثقافة غالباً ما يكون ضرورياً من أجل فهم وتقدير العديد من وجهات نظرها. فيما وراء الانضمام للثقافة فإن ثاني أفضل مصدر يمكن للمرء اللجوء إليه لفهم الثقافة هو من خلال تقارير أعضائها. فخبرة المسلمين في الزكاة بعيدة كل البعد عن التصورات الموضحة في المقطع السابق. فبالنسبة إليهم فالزكاة إلزامية، ويجب أن تجمع من قبل الدولة في ظروف مثالية لا ينتقص من روحانيتها أو إنسانيتها.

فعلماء الدين المسلمون لم يفرّقوا يوماً بين القانون والدين. فنصوص الشريعة القديم منها والحديث لا تناقش القانون المدني وحسب، بل تناقش أيضاً الشعائر الإسلامية والعلاقات الأسرية والصحة العامة وغيرها من المسائل التي تعدها الثقافة الغربية أموراً خارجة عن نطاق القانون. ويجب أن نتذكر أيضاً أن المسلمين يشعرون أهم ملزمون من الناحيتين الدينية والقانونية بتطبيق أركان الإسلام الخمسة، ومن وجهة النظر الإسلامية فإن القوانين يجب ألا تكون مخالفة لأمر الله. ومن هنا فإن الالتزام القانوني المدرك يصبح واجباً علينا أمام الله والالتزام الأخلاقي (والعكس بالعكس).

ويعترف المسلمون أن الثواب الذي يحصل عليه البشر من جراء تطبيقهم لأركان الإسلام ليس واحداً لدى الجميع، وذلك لأن هناك الكثيرين ممن يقومون بذلك رياءً ونفاقاً. فأجر كل شعيرة — وبالتالي كل عمل صالح يقوم به المرء — يتوافق مع النية التي قُصد من أجلها العمل نفسه. فإذا كان المرء يقوم بعمل ما خالصاً لوجه الله وفي سبيله، فإنه ربما يحصل على الجزاء الروحي الأسمى. وأما إن كان المرء يقوم بذلك في سبيل كسب احترام الآخرين وتفادي سخطهم وغضبهم فإنه سوف يحظى بالاحترام الذي يطمح إليه ويتحاشى السخط الذي يريد أن يتفاداه. ولعل حديث النبي التالي يوضح هذا المفهوم، يقول النبي ﷺ: " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" [١] . فأركان الإسلام الخمسة تمثّل أقل متطلبات الشعائر التي يفرضها الإسلام على المؤمنين. كما أن الإسلام يحض بقوة على أداء النوافل. وهناك العديد من المسلمين الملتزمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيم الصلاة ويصوم ويتصدّق ويحج البيت أكثر مما تتطلبه منه الأركان الخمسة. فبرغم أن المسلم يحقق ما تتطلبه الشعيرة، فإن واجبه للقيام بأعمال البر قد يكون أعظم من ذلك،

(١) من حديث عمر بن الخطاب كما ورد في صحيح البخاري، باب بدء الوحي.

وفي هذا واجب أخلاقي كبير على المؤمنين كما ورد في القرآن: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ ماذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ، فِي الدُّنْيا وَالآخِرَة...﴾ [البقرة: ٢/٢١٩-٢٢٠]. وهناك العديد من الأحاديث النبوية حول الموضوع نفسه. ففي إحدى المناسبات فزع الصحابة من قول النبي لهم: إن المؤمن الحق يجب أن يتصدق عن كل سلامى في جسده بصدقة كل يوم، فقال الفقراء: إنهم لا يملكون الوسيلة، إلا أن النبيﷺ قال لهم: إن تبسمك في وجه أخيك صدقة، ومد يد العون إلى أخيك المسلم صدقة، ثم قال لهم النبي: إن المسلم لا يمكن أن يكون مؤمناً إن هو بات شبعانَ وجاره جائع وهو يعلم بذلك[1].

إن كون الزكاة هي إحدى شعائر الإسلام التي يجب أن تدفع سنوياً لهو دليل على أن واجب المؤمنين أن يتصرفوا وكأنهم —كما أراد الله لهم ذلك— خلفاء الله على الأرض. إن كدح المؤمن طوال العام ليضع جانباً بعضاً مما كسبت يمينه ثم ينفقه في سبيل الله لهو دليل على أن هذا المؤمن قد قَبِل تكليفاً من الله له كي يكون خليفته على الأرض، ومن ثم تترتب عليه واجبات عظيمة في أداء الصدقات.

إن الأهمية التي يوليها الإسلام للزكاة تشير أيضاً إلى تأكيد الإسلام على أعمال الخير ودورها في تطورنا الروحي. إن ثمة خصلتين تزيدان من سرّعة التطور الروحي أكثر من غيرهما، وفي المقابل هناك خصلتان تحدان من ذلك التطور. أما الخصلتان الأوليان فهما الإحسان والتواضع، وأما الأخريان فهما خصلتا الطمع والكِبْر. إن كلاً من الخصلتين الإيجابيتين (ومايقابل كلاً منهما من الخصال السلبية) مرتبط بما نتوقعه من الآخرين. فالتواضع (يقابله الكِبْر) مرتبط بما نتوقعه من الآخرين وأما الإحسان (يقابله الطمع) فهو مرتبط بما قد يتوقعه الآخرون منا. والنظرة الإسلامية النموذجية هي ألا نعلّق آمالاً كبيرة على الحالة الأولى وأن نقبل بالثانية إيجابياً. إن أثر أعمال الخير والإحسان

(١) أو كما ورد في الأحاديث الصحيحة.

والتواضع على روحانية المؤمن لايمكن إدراك آثارها في الحال، وغالباً ماتكون ردّة الفعل مؤجلة تماماً مثل حالة المرء الذي يأخذ مضادات حيوية بسبب حالة مرضية ما. فمثلاً يبدأ المؤمن يلحظ أن صلاته أخذت تزداد جمالاً وقوّة، وأن لحظات القرب المقدسة من الله داخل هذه الشعائر وخارجها تبدو أكثر حدوثاً وأكثر قوة. ويصل المؤمن إلى مرحلة يشعر من خلالها بنوع من الحرية أو النورانية في الروح، وكأن روحه قد غسلت وتطهرت. وغالباً ما يشعر هؤلاء بشعور من الأمن والسكينة يغمرهم، وتصبح الأمور المادية أقل أهمية في أعينهم، في حين تنمو لديهم الحاجة لعون وعطاء الآخرين. ومعنى الزكاة في العربية هو وصف يتطابق تماماً وهذه الخيرية، لأنه مشتق من تزكية النفس أي تطهيرها وإنمائها.

وبالطبع قد تصبح الخيرية والإحسان متناقضة مع التواضع، مادام من السهل على الإنسان أن يظل في حالة من الإعجاب بالنفس، ومن ثم يصبح مغتراً بها ومهنئاً لها. ولهذا نجد كيف أن الإسلام لا يحض على إشهار أعمال الخير أو إظهار النية العلنية على القيام بها. ففي الإسلام خير أعمال الصدقة هي تلك التي تعمل في الخفاء، وإذا كان ذلك مستحيلاً فيجب على المتصدق أن يرفض المديح والثناء (انظر الآيات ٢٦١-٢٧٤ من سورة البقرة). فعندما ينفق المسلم من الصدقات فإنه يقوم بذلك من منطلق المسؤولية أمام الله على أنه خليفته على الأرض. والقصة التالية التي أخبرتني إياها زوجتي تعبّر تماماً عن هذا الموقف:

كان جد زوجتي أحد الرجال الأفذاذ ممن صنعوا أنفسهم باستقلالية شديدة، وهو نوع من الرجال العصاميين الذي كانت الجزيرة العربية تشتهر بوجود أمثالهم وخصوصاً قبل أن تصبح مملكة. وكان الجميع يعرفونه من نجد إلى الحجاز وكان مرهوب الجانب ومحترماً، ليس فقط بسبب نسبه وحسبه والثروة الهائلة التي جمعها (وهذه أمور تلعب دوراً كبيراً في الجزيرة العربية)، ولكن

بسبب شخصيته القوية التي لاتلين. وطبعاً كان له أخطاؤه ولكن كان هناك شيء واحد يمكن أن تعتمد على عبد القادر فيه وهو أنه إذا أعطاك وعداً بشيء فلن ينكث بوعده مهما كانت النتائج.

وفي اليوم الذي مات فيه بذبحة قلبية شعر أقاربه وكأن الأرض قد زلزلت من تحت أرجلهم. وبرغم أن زوجاته الثلاث وأولاده وأحفاده كانوا جميعاً بخير من الناحية المادية، فإنه لم يكن ثمة بديل عن الشعور بالأمن والحماية اللذين كانا يستمدَّان من خلال وجوده بينهم. ولهذا كان حدادهم وحزنهم على فقده طويلاً وقاسياً جداً .

وبعد عدة أسابيع من وفاته، بدأت بعض الأسر الفقيرة تظهر على باب بيته بما فيهم الأرامل والمعوّقون واليتامى، وكان الجميع يحكي قصة واحدة وهي أن عبد القادر هو الذي كان يزودهم بالمسكن والمعاش طوال تلك السنين، وعندما لم يزرهم مؤخراً كعادته آخر كل شهر ساورهم القلق حول سلامة عيشه وعيشهم، ومن ثم جاؤوا إلى بيته كي يطمئنوا على ذلك.

كان الجميع يذكر عبد القادر على أنه رجل قاس ولكنه طيّب، ولكن لم يكن أحد ليعلم أنه قد تكفّل بمعيشة عدد كبير من العائلات الفقيرة. إنني واثق من أنه كان يحب أن يبقى ذلك الأمر سراً بينه وبين ربه، وإني لآمل أن يسامحني لأنني ذكرت ذلك هاهنا. نسأل الله الكريم الرحيم أن يجزيه الخير وينعم عليه بالأمن والسلام.

* * *

الحج

"عزيزي، هل تعتقد أن الحج يبدأ في مكة؟ كلا كلا. إن الحج يبدأ منذ اللحظة التي تقرر فيها الذهاب إلى مكة لأداء الحج" [١].

في عام ١٩٩١م وبعد عدة شهور من انتهاء حرب الخليج، أخذت إذناً من جامعة كانساس بالسفر إلى السعودية لمدة عام، وذلك للتدريس في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن (UPM) في الظهران. وبينما كانت الطائرة السعودية ٧٤٧ تقلع بنا من مطار كينيدي في أمريكا شعرت بأنني مهاجر في طريقي إلى وطن جديد. فلقد سئمت الحياة في أمريكا، وسئمت العيش كغريب (باختياري طبعاً) في وطني الذي ولدت فيه. سئمت العيش في بلد تحتقر دياني، أو في أحسن الأحوال تحتملني على مضض؛ في بلد حيث الناس تزدري زوجتي وتهددها أحياناً لا لشيء إلا بسبب ملامحها وملابسها الشرق أوسطية. كنت سعيداً أيضاً من أجل بناتي الصغيرات الثلاث اللاتي واجهن العديد من الخيارات الصعبة مابين دينهن والثقافة المحيطة بهن فيما لو بقين في أمريكا. فكّرت كم يبدو الأمر صعباً لهن من الناحية الاجتماعية والمادية لحماية شعائر دينهن، وكم سيبدو ذلك سهلاً وهيناً لمن كان في أرضٍ مسلمة. فكرت أيضاً كيف أنني أخيراً سوف أكمل هجرتي إلى الحرية الدينية — فقد كانت هجرة بدأتها عاطفياً وفكرياً منذ ثماني سنوات خلت في مسجد صغير في سان فرانسيسكو. ففي ذلك اليوم عندما نطقت أول مرة بالشهادة تخليت بكامل وعيي عن ثقافتي وألزمت نفسي بنظرة تتحدى الاتجاه العام للحياة في أمريكا. فلقد عزلت نفسي من الناحية الذهنية عن أناس اعتقدت أنهم لن يقدروا على فهم قرار اتخذته في حياتي ولا على فهم الحياة التي أعيشها الآن. وبينما كانت الطائرة تحلق في

---

(١) سؤال من مايكل وولف Micael Wolfe: الحج: الرحلة إلى مكة (Haj: A Pilgrimage to Mecca) مطابع: ١٩٩٤م Seeker and Warburg

السماء الصافية تملكني شعور عظيم من الأمل والبهجة والتحدي والانطلاقة. قلت في نفسي: أخيراً أنا ذاهب إلى أرض النبي ﷺ!

وبقدر ماكنت متفائلاً في رحلتي هذه، فإنني لم أكن أتوقع أنني سوف أجد المدينة الفاضلة هناك. فقد أظهرت لي ثماني سنوات من العيش مع الجالية الإسلامية في أمريكا أنه بالرغم من وجود العديد من الفروقات بين المسلمين الأمريكيين ومسلمي الشرق أوسط، فإنه لا فضل لأحد على الآخر. فكل جالية لها نقائصها ولها فضائلها، و لم أكن لأجد أي تفوّق لجالية على الأخرى من حيث السلوك أو الأخلاق. وعلى خلاف كثير من المعتنقين الأمريكيين، فأنا شخصياً لم أعتنق الإسلام تأسياً بقدوة أي من أصدقائي المسلمين، فاتصالاتي الإسلامية الوحيدة لعدد من السنين كانت مع بعض المسلمين ممن كان مدمناً على المخدرات أو من الزناة أو المقامرين. إنني لا أطلق أحكامي عليهم الآن، فقد كان كل منا على شاكلة الآخر، ولاشك أنهم لعبوا دوراً غير مباشر في تحولي إلى الإسلام. وعلى كلٍ، فلم أكن لأرى فيهم أشخاصاً متنورين. ولقد أمضيت ثماني سنوات بعد اعتناقي الإسلام وأنا أشهد كيف أن بعض من يدعون أنفسهم مسلمين متدينين يمكن لهم أن يغامروا بدينهم في سبيل مكاسب دنيوية. لقد كنت سعيداً بمغادرتي الولايات المتحدة، ولكن لم يكن لدي رؤية رومانسية في الهجرة إلى مجتمع شرق أوسطي أكثر نبلاً.

و لم يكن بحثي عن المجتمع المثالي بذهابي إلى السعودية بل عن السلام وعن مكان تُحترم فيه ديانتي وممارستي لها. لقد أردت العيش بين إخوان وجيران وزملاء مسلمين كي أصلي معهم صلاة الجمعة وأصوم رمضان؛ وأن أمضي العطل الإسلامية معهم وأستمتع بها. أردت أن أعرف في حياتي اليومية الراحة والسكينة التي كنت أجدها في مركزنا الإسلامي الصغير في لورانس بكانساس. فبرغم أننا بشر كباقي البشر، فإننا نحن المسلمين ملتزمون بهدف واحد ومصدر هداية واحد، وعندما نتواصل بصدق بعضنا مع بعض فإن النتيجة لا بد أن

تكون مشاركة رائعة. ومن المستحيل لنا أن نعيش تجربة زمالة الهدف هذه خارج جاليتنا، وهذا الإدراك هو أحد الأسباب الرئيسة التي دفعت بي للهجرة (مؤقتاً) إلى السعودية .

ومهما يكن فبعد عام من ذلك كنت على متن طائرة أخرى من الخطوط العربية السعودية في طريق عودتي إلى الولايات المتحدة. فقد عدت إلى مركز عملي في جامعة كانساس وأنا منهك أجرّ على عاتقي إحساساً بالخيبة والفشل. فأحلامي أنني سوف أجد ملاذاً دينياً لأسرتي، وأن أسهم بشيء ما تجاه المجتمع الإسلامي عن طريق تعليم الطلاب السعوديين ذبلت وماتت في الظهران. وفي حين كانت زوجتي سعيدة جداً في وطنها، وفي حين كانت بناتي يتأقلمن رويداً رويداً مع البيئة الجديدة كنت الوحيد الذي يلوم نفسه، ذلك أني لم أستطع التأقلم أبداً. فبرغم مشاعري القوية من أنني هاجرت بنفسي من ثقافتي الغربية حين أصبحت مسلماً، فإنني عدت إلى الولايات المتحدة بعد أن تعلمت أنه — بالنسبة إلي على الأقل — ليس هناك مناص من أن أكون أمريكياً.

صحيح أنني من سوء حظي تورّطت في بعض الأحداث المؤسفة خلال فترة عملي المؤقت في جامعة الملك فهد، ولكنني لا أريد أن أدافع عن نفسي عن طريق لوم المجتمع السعودي. فالثقافة التي لم أستطع التأقلم معها هي ليست ثقافتي وليس من حقي كأجنبي أن أغيرها. أريد أن أقدم عذراً واحداً فقط للسبب الأولي الذي دفع بي للعودة إلى الولايات المتحدة. فقد شعرت، ولأسباب لم أستطع فهمها على نحو تام، وكأنني أختنق روحيّاً في السعودية. ففي الأرض التي شهدت ولادة النبي محمد ﷺ وبعثته والتي تحتضن أقدس مدينتين في الإسلام وتحتضن الكعبة التي أتوجه إليها في صلاتي، وهي البلد التي أهلها مسلمون، وهي الوطن الذي يصبغ فيه الدين الثقافة شعرت بيأس أنني راكد روحيّاً. إن الإسلام في السعودية قد توقف أن يكون قوة للتغيير الشخصي، وسرعان ما شعرت أن الحيوية قد نضبت من إيماني. هذا لا يعني أن البلد ليس

فيها أناس طيبون ومتدينون، بل على العكس، فقد قابلت فيها أناساً مخلصين ومؤمنين حق الإيمان. ولكن بالنسبة إلي وجدت أن الحركة الدينية في المملكة موجهة نحو ماض مثالي لم أستطع أن أكون جزءاً منه، وأن هذه التوجهات مبنية على تفسير للإسلام سرعان ما بدأت أفقد الثقة به.

وهذا ما كنت أعنيه بقولي: إنني لم يكن لي من بد إلا أن أكون أمريكياً. إن طريقة فهمي للدين ــــطريقة الدراسة والتحري التي أتبعها في البحث عن المواضيع والأسئلة المهمة بالنسبة إلي ـــ متأثرة على نحو كبير بخلفيتي الثقافية وهي طريقة غالباً ما تكون غير مريحة بالنسبة إلى المسلمين تقليديي الثقافة. و لم أكن لأدرك ذلك قبل أن أسافر إلى المملكة، ولكن اعتناقي للإسلام وعيشتي بوصفي مسلماً في الولايات المتحدة هي بطريقة ما أمريكية محضة. إن ما جاء بي للإسلام ونوع البحث الذي قمت به عن العقيدة والصراع الذي كابدته داخل نفسي وضد نشأتي ومجتمعي هي ليست غير عادية في أمريكا.

فالعديد من الأمريكيين بدّلوا دينهم أو انفصلوا عن تقاليد أسرهم، لأن البلد نفسها قد بنيت أصلاً على أكتاف أناس اقتلعوا من جذورهم وما كان عليهم إلا التأقلم السريع مع التغيرات الجذرية. إن للأمريكيين إعجاباً خاصاً بالفردي النـــزعة وبمن هوضحية الظلم والاضطهاد وبمن يخرج على الجماعة الذي يتحدى القيم ويشق طريقه ونهجه الخاص به. ولكنني أعتقد أنه يكاد يكون من المستحيل لشاب عربي سعودي أن يجابه قيم وأعراف مجتمعه بشكل مباشر كما فعلت أنا. وفي الحقيقة إن جميع الرسائل التي تلقيتها من أصدقائي السعوديين تؤيد المنهج الذي اتبعته فيما يختص بتغيير ديني وهم سعداء بذلك مادام أن الأمر قادني إلى الإسلام. أما الآن وقد أصبحت مسلماً، فإنه يتوجب عليّ، على كل حال، أن أتعلم كيف عليّ القبول بالأشياء كما هي، وأن أعتمد على معرفة علماء الدين المسلمين وحكمتهم البليغة. فقد قيل لي أكثر من مرة إن الأسئلة التي أطرحها والطريقة التي أتبعها في التحري عن الأشياء خطيرة، لأن من شأنها

أن تؤدي إلى البدعة والهرطقة. ولقد سمعت شيئاً من هذا القبيل من المسلمين في أمريكا، ولكنني أعتقد أن الجالية الإسلامية الأمريكية تسمح بقدر من الحرية الفكرية والاختلاف أكبر مما هو عليه الحال في السعودية. أنا لا أقول: إن هذا يجعل من الجالية الإسلامية الأمريكية بيئة عيش أفضل، ولكنني أعلم أنني فقدت بيأس تلك الحرية خلال إقامتي في الظهران.

إن العام الذي قضيته في السعودية كان أشبه بحكم سجن على روحي، ومع بدء الفصل الثاني في الجامعة كنت أعد الأيام المتبقية لرحيلي عن المملكة. ولكن برغم أنني لم أكن سعيداً هناك، فإنني كنت أمني النفس بأن رحلتي إلى الجزيرة العربية تلك لن تكون إخفاقاً كلياً، فقد أعطتني فرصة عمر للقيام بأداء الحج، وبالتالي أداء الركن الخامس في الإسلام. ومع مضي الوقت كنت أزداد شوقاً للعودة إلى الولايات المتحدة لدرجة أن العزاء الذي كنت أمني النفس به وهو الحج بدأ يتلاشى. فعندما قدمت إلى السعودية في البداية كنت لاأفكر في شيء سوى الحج، ولكن مع قرب موسم الحج وجدت أن حماستي الشديدة تقلّصت ليصبح أداء هذه الشعيرة بالنسبة إلي لا يخرج عن كونه واجب مسلمٍ متعقلٍ ورزينٍ.

أديت الحج مع مجموعة من الزملاء في جامعة الملك فهد، وكان ذلك في العام الذي تلا حرب الخليج وكان عدد الحجاج ذلك العام كبيراً جداً — أكثر من مليونين — لدرجة أن الآلاف من الحجاج لم يستطيعوا الوصول إلى عرفات بسبب الزحام، وبالتالي أسقط هؤلاء ركناً من فريضتهم في ذلك العام. إن وسائط النقل الحديثة والتكنولوجيا قد ساعدت في جعل الرحلة أقل مشقّة وأقل خطراً من الناحية الجسدية مما كان عليه الأمر في السابق، إلا أنها جعلت أعداد الحجاج تتضاعف كل عام. ولكن مع وجود عدد هائل من البشر فوق بقعة صغيرة جداً في موسم الحج فإن الأمر لا يخلو من أخطار صحية كبيرة وانزعاج من الناحية الجسدية.

أصابتني نوبة حادة من الأنفلونزا قبل بضعة أيام من مغادرتنا الظهران إلى مكة المكرمة. ومع الأسف أن حالتي ازدادت سوءاً خلال الحج. كان الوقت تموز/يوليو وهو وقت عادة ما تكون فيه شبه الجزيرة حارّة جداً؛ ومما زاد الأمر سوءاً أن الحجاز كانت تجتاحها آنئذ موجة شديدة من الحر. وأما العليمون بأمور الحج فكانوا يخبروننا باستمرار أن تلك كانت أقسى رحلة حج قاموا بها في حياقم. قالوا: إن حشود البشر في السابق كانت عادة أصغر من ذلك؛ وأنه لم يكن هناك أي تأخير يذكر في الانتقال من مكان لآخر بين المشاعر (أما الآن فقد كنا نمضي ساعات لقطع بضعة كليومترات بالباص)؛ وأن الحر لم يكن في مثل تلك الشدة. قال لي أحد الحجاج: إن مشقة الظروف تلك كانت علامة رحمة من الله لهم ذلك أنه كان يعتقد أن الله إنما كان يكفّر عن المسلمين ذنوب ما اقترفوه في حرب الخليج.

قبل دخول مكة يتوجّب على المسلم نزع ملابسه العادية وكامل زينته ويجب عليه أن يتطهر بنيّة الإحرام للحج. وثياب الإحرام عبارة عن قطعتين من القماش أو القطن غير المخيط أبيض اللون، إحداهما تغطي الجسم من الخصر إلى أسفل وأما الثانية فتغطي من الخصر إلى الأعلى مع وجوب ترك الرأس حاسراً (وأما المرأة فتحرم بملابسها). ويبقى المسلم على هذه الحالة دون أن يحلق شعره أو يأخذ من لحيته أو يقلم أظافره أو يغيّر ملابسه إلى يوم النحر. وبهذه الطريقة يكون جميع الحجاج متساوين في المظهر، وهذا يرمز إلى أن جميع العباد متساوون أمام الله.

وعندما وصلنا إلى مكة ذهبنا مباشرة إلى المسجد الحرام والذي يقع في قلب المدينة. كان الوقت مساءً ولكن أنوار المسجد الوفيرة جعلت منه كمصباح عملاق يضيء المدينة بأكملها. وساحة الحرم غير مسقوفة وقد بدت السماء الصافية المزدانة بالنجوم في تلك الليلة وكأنها مظلة كبيرة ترصّعها النجوم فوق تلك الساحة. كنت آمل أن أدنو من الكعبة التي تتوسط الساحة، ولكن

حشوداً من عشرات الآلاف من البشر حالت دون ذلك. صعدت إلى أحد الأروقة والتي صممت مؤخراً لتستوعب الفائض من البشر الذين يريدون الطواف حول الكعبة. وحتى في الرواق الثاني لم يكن هناك مكان من شدة الزحام، وبصعوبة حصلنا على مكان في الرواق الثالث. والأروقة جميعاً تشرف على ساحة الحرم والكعبة. اعتقدت أنه كان بمقدوري الحصول على مكان قرب الجدار الداخلي بحيث أرى الكعبة ولكنني لم أشأ أن أشق الطريق وسط الزحام وأزعج الحجاج، ولكنني تمكنت من اكتشاف ممرٍ صغيرٍ وكان منظر الكعبة من خلاله يبدو رائعاً. حدّقت في منظر ساحة الحرم فتملكني العجب، فقد كان هناك دوّامة كبيرة من البشر تدور حول الكعبة، كان هناك دُرْدُوْر هائل من أقوام جاؤوا من كل حدب وصوب ارتفعت فوقهم دندنة متواصلة من الدعاء والتضرع في مختلف اللغات. كان هناك آلاف وآلاف من الحجاج يتوشحون البياض ويطوفون حول الكعبة يبتهلون إلى الله ويسبحون بحمده. لقد ذكّرني هذا المنظر بوصف القرآن والأحاديث النبوية بالملائكة التي تدور من حول العرش وهي تسبح الله يوم القيامة. شعرت بالحاجة الماسة كي أعود للساحة الرئيسة للحرم بحيث أنضم للتيار البشري من حول الكعبة بحيث أشعر وبشكل مباشر بقوة هذا التيّار وبقداسة طوافه. نزلت من خلال أحد السلالم إلى الطابق الأرضي وسحبت نفسي وأنا أُعتصر وسط الزحام حتى وصلت إلى طرف الساحة الرئيسة. دسست نفسي في فسحة صغيرة من المكان تشكلت بسبب المد والجزر من تيار البشر، وسرعان ما شعرت وكأنني أعتصر من كل الجوانب. نصبت قامتي وأقمت جسمي بحيث أشغل أقل حيّز ممكن وسط الحجاج، وسرعان ما شعرت بموجة هائلة تمور بي وبمن حولي وهي تدفع بنا نحو الأمام. ثم مال بنا الحشد نحو اليسار ولم يكن لي بد إلا أن أميل معه، وكنت كلما حاولت أن أثبّت أقدامي على الأرض كانت تأتيني دفعة من الخلف فأندفع معها وأدور دورة كاملة حول نفسي. أدركت على عجل أن خير مافي الأمر هو أن أسترخي وأدع تيّار البشر يدفع بي أينما توجه.

وكل حاج يأمل بأن يستلم الحجر الأسود الموجود في أحد جدران الكعبة، وهناك العديد من القصص والأحاديث المتعلقة به. فمثلاً كان النبي ﷺ يقبّل الحجر بعد كل طواف. وفي كل شوط من أشواط الطواف كان الزحام يدفع بي وبمن حولي أقرب وأقرب نحو الحجر بحركات لولبية متناقصة. شعرت بفردية لاتقاوم، ولكنني لم أكن سوى جزيء صغير يدور في بحر واسع من البشر، وبرغم أن كلاً منا كان يحاول أن يشق طريقه الخاص وسط الزحام الهائل، فإننا جميعاً كنّا مشدودين نحو قوة عظيمة واحدة. وفي الشوط السابع لم أكن أبعد عن الكعبة سوى بضعة أقدام. وبينما كنت أحاول أن ألمس الحجر الأسود دفع بي التيار نحو الأمام ولكنني تمكنت من أن ألمسه بيدي اليسرى. وعندما حاولت الانحناء لتقبيله شعرت بمن يضربني بقوة على رأسي ويدفعني بعيداً. صرخ أحدهم بالعربية قائلاً: "دعه، دعه [يقبله]." أفسحت لي حفنة من الحجيج المكان لتقبيله لثوان معدودة، وما أن لامست شفتاي الحجر حتى شعرت بدفعة قوية من البشر تدفع بي بعيداً نحو الأمام. صليت بعد ذلك ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام ثم سحبت نفسي وسط الزحام متوجهاً نحو الصفا والمروة وهما تلّتان صغيرتان من الصخور ضمن الحرم تفصل بينهما مسافة حوالي الميل. ويسعى الحجاج بين الصفا والمروة سبعة أشواط مع بعض الهرولة، ولكن الهرولة كانت مستحيلة تلك الليلة ذلك أن المسعى كان أكثر ازدحاماً من ساحة الحرم. فمن شدة الزحام كنّا نتوقف عن المسير مرات عدة في السعي، بل كان الحشد يدفع بنا إلى الوراء أحياناً. وفي أحد الأشواط سقط دليل الحج من يدي، وكاستجابة طبيعية انحنيت كي ألتقطه، ولكن في اللحظة شعرت بدفع قوي من الحشد، وسرعان ما بدأت أفقد توازني لولا أن رجلاً بجانبي أمسك بذراعي وأعادني بقوة إلى الوراء. قال لي بالإنجليزية: "عليك أن تنساه، وإلا قد يدهسك الخلق وتودي بنفسك للهلاك." لقد كان على حق طبعاً، ولقد عبرت له عن شكري الجزيل.

في ذلك الزحام كنت أشعر بالحر الشديد وكانت ثياب إحرامي تعتصر من شدة التعرّق. كان الجميع في مثل حالتي، وكانت رائحة البشر تعبق في الجو كله. شاهدت بعض الناس في حالة من الهلع وكان بعضهم يبكي، ولكن الغالبية العظمى من البشر كانت في منتهى الرصانة. وإذا ما حاول المرء أن يثبت أمام الضغط المستمر للزحام فإنه سوف يشعر بالإرهاق الشديد، ولقد شعرت شخصياً بأن شدة الأوضاع المحيطة بنا هي أكثر شعائر الحج امتحاناً لي. فأنا شخصياً أعاني من رهبة الأماكن الضيقة (claustrophobic) وقد أصبت أكثر من مرّة بالعصاب وأُغمي عليّ، ولكن هذه المرة تمالكت نفسي وسارت الأمور على خير مايرام.

بينما كنت أقترب من الشوط الأخير في السعي شاهدت العديد من المشاهد العاطفية، شاهدت أطفالاً صغاراً محمولين على أكتاف والديهم، وشاهدت أولاداً يعينون آباءهم وأجدادهم في السعي، وشاهدت زوجاتٍ وقد شبّكن أيديهن بأيدي أزواجهن والجميع جاء لهدف واحد وهو مرضاة الله. كان هناك القليل القليل ممن بدا على وجوههم الإحباط والغضب، ولكن معظم وجوه من كان حولي كانت تعلوها الطمأنينة والسعادة. فكّرت كيف كان سيبدو الوضع فيما لو كان هذه الحشد في مكان آخر. لا بد وأن يكون هناك نزاع وشجار. ومع ذلك فخلال الفترة التي قضيتها بين مشاعر الحج جميعاً، لم أجد ولاحتى شجاراً واحداً.

ولقد أديت العمرة عدة مرات (وهي حج أصغر تتضمن الطواف والسعي)، وكنت لا أستغرق من الوقت في السعي أكثر من خمس وأربعين دقيقة. أما الليلة فقد أمضيت أكثر من ساعتين كي أنهي السعي. وعندما عدت إلى الباص (الحافلة) كان علي الانتظار لأكثر من ساعة كي ينتهي بقية الزملاء من سعيهم، ثم إننا اكتشفنا أن إحدى العجائز ممن كنّ معنا قد فقدت، وكان علينا قضاء ساعة أخرى حتى عثرنا عليها. وعندما وصلنا مخيّمنا في منى كان الوقت حوالي

الثالثة صباحاً. خصصنا اليوم التالي للراحة، لأن إكمال مشاعر الحج كان في اليوم التالي[١]. وبعد الإفطار قررت القيام بنـــزهة للتفرّج على ما كان من حولنا. فقد كان مخيّمنا يقع قريباً جداً من مكان رمي الجمرات. وقد كان وادي منى الصغير بأكمله - والذي تحيط به الجُرُف الصخرية المنحدرة- معبّداً بالإسفلت. وفوق مكان الجمرات هناك جسر كبير من البيتون المسلح يبلغ طوله حوالي نصف الميل. وفي الجسر ثلاث فتحات يبلغ نصف قطر إحداها حوالي عشرة أقدام، وفي داخل كل فتحة انتصبت شعيرة (جمرة)، إذ يصبح بمقدور الحاج رمي الجمرات من مستوى الأرض أو من فوق الجسر بحيث يخفف الزحام عند الرمي يوم النحر .

وكان أول شيء أثار انتباهي عندما خرجت إلى الطريق العام هو آلاف الحجاج الذين خيّموا تحت الجسر، وقد بدا لي أن هؤلاء كانوا أكثر الحجاج فقراً، وهم من جاء بالنذر اليسير وبالمال القليل. لم يكن معهم خيام و لم يكن لديهم مياه الصنابير و لم يكن لديهم ثلاجات تحفظ ما معهم من الطعام و لم يكن لديهم أي نوع من أنواع التكييف وكانت الحمامات التي يستخدمونها هي الحمامات العامة والتي كانت قليلة العدد ودائمة الازدحام. بعض منهم كان لديه بطانيات وبعضهم الآخر كان لديه حقائب نوم ميدانية (sleeping bags) ، ولكن العديد العديد لم يكن لديه سوى ألواح من الورق المقوى كي ينام عليه في حين نام بعض آخر على الإسفلت. وكانوا لاشك محظوظين إذ إن الجسر كان يحجب عنهم أشعة الشمس الملتهبة.

أما الطبقة الثانية من الحجاج فقد كانت تلك التي في الخيام. ولاشك أن أوضاعهم كانت مختلفة ولكن أحوالهم أفضل من أولئك الذين كانوا تحت الجسر. كانت خيامهم في كل مكان تشغل كل حيّز في تلك البقعة من الأرض بما في ذلك الأطراف والطرقات وأعالي الجروف وحتى أطراف الجروف. ربما

---

(١) كنّا قد نوينا الحج متمتعين (والمتمتع في الحج: من أدّى العمرة ثم انتظر متحللاً حتى أدّى فريضة الحج) .

كان الجو تحت الجسر أكثر برودة، بيد أن الخيام تعطي ساتراً أفضل. وبعض الحجاج كانوا محظوظين لإقامتهم في بيوت ميدانية هناكر (hangers) تنصب موسم الحج وتستعمل خصيصاً لهذا الغرض. وما هو معروف أن جامعة الملك فهد دوماً تستأجر الأفضل، وهذا صحيح حيث كنا نقيم في إحدى هذه البيوت المفروشة بالسجاد في كافة أرجائها والمزودة بحمامات ومغاسل ومرايا ومراوح سقف وأجهزة تكييف ومطابخ كبيرة وفي كل مطبخ العديد من الأفران والثلاجات، وقد تُبِّنت أن إيجار البيت الواحد الذي يتسع لمئة شخص أكثر من مئة ألف دولار لمدة ثمانية أيام مع التي يقضيها الحاج في منى. وبعض الحجاج ينـــزلون في الفنادق، و لم ألحظ سوى اثنين في منى، في حين أن هناك العديد من الفنادق الفارهة في مكة. ولاشك أن الإقامة في الفنادق هو الأكثر راحة ورفاهية في قضاء الحج ولكن حفنة قليلة جداً من الحجاج تستطيع ذلك. وعندما عدت من مشواري، وبحثت عن هاتف ميداني لكي أكلم عائلتي التي كانت تنـــزل بضيافة أحد أقاربها في جدة. وخلال انتظار دوري لاستخدام الهاتف سمعت بعض الشبان يتكلمون عني بالعربية.

قال أحدهم: "قد يكون ألمانيّاً".

قال آخر: "لا، لا بد وأنه أمريكي".

قال ثالث: "سَلْه".!

التفت إليهم وقلت بالإنجليزية: " أنا أمريكي." فتبسم الجميع.

صادف أن كان أحدهم من دبي وكان يتكلم الإنجليزية، قال لي: "هل لي أن أسألك سؤالاً واحداً؟"

قلت له: "تفضّل، هات ما عندك" برغم أنني عرفت سؤاله.

قال بتكشيرة عريضة يملؤها الفضول: "كيف أصبحت مسلماً؟"

وسرعان ما بدأت أخبره بقصة إسلامي في حين أخذ هو دور المترجم للجمهور الذي بدأ يتزايد من حولي. بعضهم كان يبتسم والآخر كان يتنهد وفريق منهم كان يومي برأسه بالموافقة. بعض العيون التي كانت مثبتة عليّ اغرورقت بالدموع. استغرق مني شرح الموقف حوالي عشرين دقيقة، ثم إني أجبت على بعض الأسئلة التي طرحت علي لمدة نصف ساعة. وأخيراً حان دوري بالاتصال بالهاتف وقمت بمخابرة زوجتي. وعندما انتهيت من مكالمتي التفت إلى الجمهور ولوّحت بيدي مودعاً وقائلاً لهم: السلام عليكم، وكأنني كنت شخصية مهمة. أجاب الجميع بالقول: وعليكم السلام.

بعد ذلك هرعت نحو مخيمنا فتبعني بعضهم يسألني عن عنواني وهاتفي. تكرر المشهد نفسه تماماً ولعدة مرّات خلال الأيام التالية. وكنت أينما حللت أقابل عدداً من الحجاج الفضوليين الذين سرعان مايجابهونني بغض النظر عن أي هيئة كنت عليها بالسؤالين التاليين: "هل أنت أمريكي؟" و "كيف أصبحت مسلماً؟" وكنت أتساءل عن السبب الذي يدفعهم للقول بأني أمريكي وليس أوروبياً غربياً، لكن شيئاً ما في سلوكي ومظهري ربما أوحى لهم بذلك. في البدء لم أكن أبالي الأسئلة والإجابة عنها، بل كنت أحياناً أخبرهم ببعض النكات وأنا مفعم بالحيوية لدى إخباري لهم عن قصة إسلامي. فنادراً مايكون لدي جمهور متحمّس كهؤلاء. ولكن سرعان ما بدأت أشعر وكأنني معروضة متحف، وأخذت أشعر بالملل من إعادة القصة التي بدأت أشعر أنها أصبحت بالية وقديمة من كثرة تكراري لها. وقصة إسلامي أصلاً لم يكن فيها مأثرة أو شيء بطولي. ولابد أن ما لفت انتباه هؤلاء هو لون بشرتي وأصولي الأنجلوساكسونية الأمريكية. بدأت أشعر أنني بحاجة للخلوة بنفسي وألا أكون معروفاً أو مميزاً عن أحد. ومن الطبيعي أن يكون هذا الأمر متعذراً في مكان مزدحم كالحج، ولكنني شعرت وكأنني أُخضع للامتحان على نحو مستمر. وسرعان ما شعرت بأنني أريد أن أجلس بعيداً بمفردي في مكان هادئ دون أن أصطنع أنني نائم بحيث يتركني الناس وشأني.

أعتقد أنني لو لم أصبح مريضاً في الحال ربما استمتعت بشهرتي بين هؤلاء وقضيت معهم مزيداً من الوقت. ولكن مع وقت الغداء مساء ذلك اليوم أصبحت مريضاً جداً، وبدأت تنتابني حمّى شديدة، وبدأت أشعر بصداع قوي جداً استمر معي طيلة أيام الحج. كانت تأتيني نوبات من الحر الشديد ثم تتبعها نوبات من القشعريرة. وكنت كل يوم أصحو في بركة من العرق الشديد، برغم أن المكيّفات أبقت حرارة الغرفة باردة على الدوام. وكنت أشعر بالغثيان على الدوام، ولهذا لم أستطع أن أتناول إلا القليل من الطعام الوفير والمقبلات التي كانت تقدم لنا. ومع ذلك لم يخطر ببالي قط أن أتوقف عن الحج، ذلك أنني كنت أعتقد أن هذه قد تكون الفرصة الوحيدة بالنسبة إلي لأداء الحج، ولذلك كنت مصمماً على إكمال حجتي مهما كانت الظروف.

وفي صبيحة اليوم التالي انطلقنا بالباص إلى مكة كي نبدأ مشاعر الحج الرسمية. وبعد الظهر ذهبنا للحرم وأدينا الطواف والسعي. وهذه المرّة لم يكن المسجد مكتظّاً أكثر مما كان عليه لليلتين فحسب، بل كان الجو أشد حرارة في الخارج. ولهذا كانت سيارات الإسعاف في حركة مستمرة وهي تنقل من أجهدهم الحر على نحو مستمر إلى إحدى المشافي المحلية. وأما أرض الحرم فكانت أشعة الشمس قد أحمتها لدرجة أنني شعرت وكأن أسفل أقدامي قد كويت بالنار. ويبدو أن معظم الحجاج كانت أقدامهم أقوى من قدمي على تحمّل الحر، إذ إنني لم أجد أحداً اشتكى من ذلك سواي، ويبدو أنهم قد اعتادوا المشي وهم حفاة أكثر مني. وبعد أن تناولنا وجبة خفيفة انطلقنا جميعاً إلى عرفات. في البداية سار الباص بنا قرابة الميل ببطء ولكن بانتظام، ولكن سرعان ماتوقّفنا بسبب الزحام لمدة ساعتين تقريباً. أخذ بعض من كان معنا يتململ، وبعضنا بدا عصبيّاً ذلك أنه يتوجّب علينا أن نصل عرفات قبل مغيب الشمس وإلا بطل حجّنا. ولو أننا بقينا سائرين مع الزحام لما بلغنا عرفات في الموعد ولكن سائقنا كان خبيراً بالطرق الخلفية للحرم. فقد استدار بالباص عائداً عكس اتجاه السير لمسافة قصيرة على حافّة الطريق السريع، ثم إنه سلك بعد

ذلك طريق خدمات مزدوج ليسير بنا في متاهة من الطرق الصحراوية الخالية لمدة تزيد عن الساعة. ولدهشتنا فقد وصلنا إلى عرفات بعد الظهر بقليل.

في هذا اليوم وصلت موجة الحر التي كنا نعاني منها إلى القمة. ففي عرفات لاتوجد مكيّفات، وكانت الحمى التي أعاني منها ماتزال تزداد سوءاً. لم أشعر بالحر في حياتي مثلما شعرت به يوم عرفات. كنت من شدة التعب والمرض لا أقوى على الوقوف أو الجلوس ولذلك أمضيت معظم وقتي قبل العصر وأنا مستلقٍ على ظهري فوق حقيبة نومي. استيقظت حوالي الثالثة عصراً. جثوت على قدمي ثم رفعت حقيبة النوم بحيث ينساح عنها ماتجمّع من عرق جسدي. التفت حولي لأرى بعض من معي جالساً وبعضهم قائماً ولكن الجميع كان متجهاً نحو الكعبة وهو يبتهل ويتضرّع إلى الله. نظرت خلفي وإذا بأحد عمّال الجامعة وهو من بنغلادش — ولم يكن يتكلم العربية ولا الإنجليزية — ينحب بالبكاء. كان المشهد مخيفاً؛ فقد شعرت وكأنني استيقظت فجأة لأجد نفسي أواجه أزمة إنسانية مروّعة وعظيمة.

إن يوم عرفات يدعى أيضاً يوم الوقفة لأن الحجاج يقفون من الظهر إلى صلاة المغرب ولفترات طويلة وهم يبتهلون إلى الله كل بطريقته الخاصة. فمنذ حوالي الثالثة من ذلك اليوم وحتى قبيل المغيب وقفت مع حوالي المليوني مسلم في صعيد عرفات المغبر والحار ندعو الله ونبتهل إليه ونسبحه ونحمده. وخلال هذا الوقت نسيت تماماً الحر الشديد ونسيت مرضي ونسيت العام الصعب الذي كنت أمر به. لم أفكر بشيء سوى بيوم القيامة والذي بدا لي أنه يشبه بحال من الأحوال يوم الوقفة .

وبعد صلاة المغرب مباشرة صعدنا الباص متجهين إلى مزدلفة وهو سهل صغير مغطى بالحصى، وكان علينا أن نبيت الليلة هناك خلال رحلة العودة إلى منى. شبّ حريق في إحد المخيمات على طول الطريق إلى مزدلفة مما أخّر حركة المرور لعدة ساعات، وعلى هذا لم نستطع الوصول إلى مزدلفة إلا في الثانية صباحاً.

كان علينا أن نكون حريصين ألا نطأ على أحد من النائمين ونحن نسير في مزدلفة بحثاً عن مكان ننام فيه فوق أرض مغطّاة بالحصى. فقد كانت الأرض وعلى مد البصر مغطاة بالحجاج النائمين. كان واضحاً أننا لن نعثر على مكان يضم المجموعة بأكملها وكافة الأمكنة التي عثرنا عليها ما كانت لتتسع إلا لعدد قليل من جماعتنا. أخيراً وجدت مكاناً ترابياً صغيراً تمكنت وأحد أصدقاء الرحلة أن نضع فيه حقيبتي نومنا .

لقد أثرت الحصى —— التي كانت تحت حقيبة نومي —— في جانبي ظهري بينما استلقيت على ظهري وأنا أحدق في النجوم. فكرت أنني لم أخرج للتخييم خلال نشأتي في مدن أمريكا واعتقدت أنني ربما لن أقدر على النوم في مكان كهذا دون خيمة تظللني، وبعدد كبير من البشر من حولي يغطّون بصوت مرتفع. **كانت تلك آخر فكرة تخطر في بالي تلك الليلة. وأما الشيء التالي الذي عرفته هو أن يد أحدهم كانت تربت على كتفي لتوقظني. لقد نمت نوماً عميقاً لدرجة أنني نسيت أين كنت. فكرت لعدة ثوان أنني في بيت أمي في كونّكتيكت، وأن أمي توقظني للمدرسة.** قال أحد الإخوة ممن كانوا معنا والذي كان يوقظني : "انهض يا أخي إنه الفجر".

كنت ما زلت أترنح وأنا أنهض لصلاة الفجر ، فقد شعرت أنني قد نمت لعدة أيام. انطلقنا إلى منى ولدهشتنا فقد وصلنا هناك في الحال. وبعد أن وضعت حقيبة نومي في مخيّمنا في منى انطلقت إلى رمي الحصى التي كنت قد جمعتها من مزدلفة. كان الجو في منى مفعماً بالبهجة، فقد ملأت الحشود الكبيرة شوارع منى وهي تزدان بمختلف الألوان البرّاقة منها والداكنة[١] . فخلال الأيام القليلة الماضية كان الجميع في ثياب الإحرام، أما الآن فقد بدت منى وكأنها مهرجان عالمي أمّه الحجيج وهم يرتدون أزهى حللهم الوطنية.

---

(١) بعد رمي الجمار يمكن للمسلم أن يتحلل التحلل الأصغر، وهو التمتع بكل شيء إلا النساء. ومن هنا ينـــزع الحاج عنه أولاً ثياب الإحرام ويرتدي ثيابه العادية. [المترجم].

ارتسمت على الوجوه المشرقة ابتسامات عريضة تعبّر عن السعادة، وراح الأولاد يلعبون ويمرحون، بينما تجمهر البعض حول الباعة الذين كانوا يبيعون بعض الهدايا والتذكارات الدينية بأسعار زهيدة. وفي ذلك الحين هرع بعض الحجاج نحو الشاحنات الحكومية العديدة التي كانت توزع الهبات التي أرسلها خادم الحرمين الشريفين إلى الحجاج من ماء وثلج وحليب وطعام. وكذلك كان هناك بعض من فغر فاه وهو يحدّق بالمتسولين العاجزين المطالبين بالصدقات والموزَّعين هنا وهناك على الطرقات وقد بانت عاهاتهم التي كانوا يحرصون على إبرازها استدراراً للشفقة.

لم أستطع ضمن ذلك الهياج أن أرمي الجمرات، ولذلك توجّهت نحو الحشد الأكبر الذي كان تحت الجسر كي أرمي من هناك. كانت الجمرة الأولى محاطة بجمهرة كبيرة من الحجاج الذين كانوا يبعدون عنها حوالي خمسة وعشرين قدماً. كان الجميع ينادون "الله أكبر" وهم يقذفون بالحصى على الجمرة الأولى. أردت الاقتراب أكثر من الجمرة كي أحقق إصابة جيدة بالرمي ذلك أنني أشكو من ضعف قليل في النظر، ولكي لا أصيب أحداً عن غير قصد مني. شققت طريقي وسط الزحام حتى وصلت إلى الجدار الدائري المحيط بالشعيرة. وسرعان ما أمطر الحجاج من أعلى الجسر الجمرة بوابل من الحصى وكأنه الرمل في مزولة لتشكل تلة مخروطية الشكل من الحصى المتساقط حول قاعدة الجمرة. في ذلك الوقت كانت مئات الحصى التي يرميها الحجاج من حولي تئز في أذنيّ، كما أنني شعرت ببعضها يتساقط بخفّة على ظهري؛ وما كان مني إلا أن انحنيت لكي أرمي الحصى التي كانت بحوزتي.

كان معظم الحجاج هادئين بينما يرمون حصاهم، ولكن كان هناك قلة من الثائرين. وبرغم أن هذه الجمرات تمثل الشيطان، وأن رميها بالحصى يمثل تصميم الحاج المؤمن على مقاومة إغواء هذا الشيطان، فإن بعضهم تصرّف كما لو أن الجمرات هي الشيطان نفسه. فقد كان كل من هؤلاء الثائرين يرمي

بحصاه وهو غاضب، يشتم الأعمدة الحجرية (الجمرات)، كما لو أنها كانت إبليس الجاثم أمامه، لدرجة أن بعض هؤلاء قام برمي أحذية وبعضهم يرمي عصيّاً، وبعضهم رمى أشياء مختلفة على عدوهم الذي يريدون الانتقام منه. قال أحدهم بالعربية مخاطباً الجمرة على أنها إبليس: "لَعَنَكَ الله فأنت الذي أفقدتني زوجتي" .

وعندما انتهيت من رمي الجمرات لم يبق لي من مشاعر الحج سوى واحدة وهي التضحية بخروف أو جدي. وفي الماضي كان الحجاج يجلبون معهم أضاحيهم أو يشترونها من منى، ثم يقومون بذبحها بأنفسهم، كي يحتفظوا ببعض منها ثم ينفقون الباقي على فقراء الحرم. ومع ازدياد أعداد الحجاج كل عام فقد أصبحت الطريقة التقليدية غير مجدية، بل أكثر خطراً من الناحية الصحية، إذ كانت مئات الأطنان من اللحم تفسد في مكانها وتتعفّن تحت الشمس حتى يتم دفنها تحت التراب حيث أصبح عدد الأضاحي يفيض أضعاف المرات عما يستطيع فقراء الحرم أن يستهلكوه. وأما اليوم فما يزال بعض الحجاج يتّبعون الطريقة التقليدية حيث يذبحون أضاحيهم بأيديهم ثم يقومون بتوزيعها، ولكن الغالبية العظمى تدفع ثمن الأضحية، ثم يكون هناك من يتولى عملية الذبح عنهم في المسلخ المجاور؛ ومن ثم يوضع اللحم في الثلاجات ثم يتم شحنه إلى مختلف الدول الإسلامية من حول العالم. اقتربتُ من نافذة أحد الأكشاك حيث يتم الدفع، فسألني أحد الموظفين عن نوع الأضحية وعن البلد الإسلامي الذي أريد أن ترسل الأضحية إليه .أجبته بما أريد ثم دفعت له مبلغاً من المال، وإذا به يعطيني قسيمة كتب عليها مااتفقنا عليه. وبهذا أكون قد أكملت أركان الحج.

وعندما رجعت إلى المخيم حلقت شعري وذقني وأخذت حمّاماً ساخناً ثم ارتديت بنطالاً وقميصاً قطنياً وحذاءً خفيفاً. شعرت بالبذخ والترف عندما ارتديت ثيابي الاعتيادية ثانية. أمضينا الأيام القليلة التالية في منى نحتفل بعيد

الأضحى حيث كنا نقيل ونستريح ونستمع إلى أحاديث بعض العلماء المسلمين التي قام قادة المجموعة بتنظيمها. وكان من بين المواضيع التي تكرر نقاشها في فترة الأسئلة والأجوبة بعد كل محاضرة هو عن دور الرجال والنساء في الإسلام. وجدت وجهة النظر السعودية حول هذا الموضوع رائعة ومحافظة للغاية .

وكنت كلما سئمت البقاء في المخيم أخرج للتنـــزه كي أحرّك قدميّ. لاحظت مع مرور الوقت أن مخلفات الحجاج من القاذورات تجمّعت في كافة أرجاء منى. إن الحكومة السعودية تستأجر فرقاً من عمّال النظافة لإبقاء المشاعر نظيفة خلال الحج. فأما عمال النظافة في الحرم في مكة فإنهم يقومون بعمل جبار، إذ كنا كلما قمنا بزيارة للكعبة كان المسجد الحرام يشع بالنظافة. وأما العمال الذين كانوا مسؤولين عن نظافة المشاعر في منى فكان واضحاً أنهم لم يكونوا من العدد ما يكفي لإبقاء منى نظيفة بشكل مستمر. وكانت القمامة تزداد ساعة بعد ساعة في كافة أرجاء منى، ولو أن المرميات كانت تقتصر على المنتجات الورقية والزجاجات والعلب لهان الأمر، ولكن كان هناك طعام ولحم نيئ وغائط البشر في كل مكان من طرقات منى. وفي المساء كانت منى تكتظ بالحجاج بحيث لم يكن لبعض الحجاج بد من السير على تلك القاذورات وخاصة في الليل، وهذا ما كان يزيد الأمر سوءاً إذ إن القمامة كانت تنعجن تحت أقدامهم في الليل وفي الصباح كانت حرارة الشمس تسخّن تلك القمامة فتنبعث.منها روائح فظيعة تكتنف الوادي بأكمله. قال أحد أعضاء المجموعة ساخراً: إن على الحكومة أن تستأجر الشركات التي تشرف على نظافة مدينة ديزني كي يقوموا بترتيب ونظافة الأعمال في منى مادامت ديزني تستقبل أكثر من مليوني زائر كل يوم، ومع ذلك يبقى المتنـــزه نظيفاً ومرتباً. فرد عليه آخر محتجاً بقوله: إن الحج لا ينبغي أن يكون متنـــزهاً؛ فقال آخر: ولكن ذلك لا يعني ألا يكون نظيفاً مادام الإسلام يشدد على النظافة والطهارة.

وفي النهاية فقد أمضينا ثمانية أيام لقضاء الحج بما في ذلك يوم الوصول إلى منى ويوم مغادرتها. وقد قرر معظمنا القيام بطواف الوداع حول الكعبة قبل يوم الرحيل مادمنا ننوي الذهاب إلى جدة صبيحة اليوم التالي. وقبيل منتصف الصباح غادرت وثلاثة من أعضاء المجموعة إلى مكة، ولكنني انفصلت عنهم بسبب الزحام عند الباص، ولذلك كان علي أن أذهب بمفردي.

شعرت ببعض التحسن ذلك الصباح برغم أني كنت مرهقاً من الناحية الجسدية بعد صراع مع الأنفلوانزا لمدة أسبوع. طفت حول الكعبة سبعة أشواط ثم قمت بالسعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط بخطاً بطيئة ومتئدة[1]. أنهيت السعي وبعد ذلك بدقائق أُذّن للصلاة. وبعد الصلاة مباشرة أُعلن في المكبرات عن صلاة الجنازة، وأغلب الظن أن المتوفى كان أحد الحجاج الذين قضوا خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية. وما إن أنهينا صلاة الجنازة حتى كان هناك صلاة جنازة ثانية. وتتالت صلوات الجنازة حتى بلغت أربعاً. وتختلف صلاة الجنازة عن الصلاة العادية، إذ لا يوجد فيها ركوع أو سجود، بل يقف المصلّون بخشوع وسكينة طيلة الصلاة وكأنهم جنودٌ يودّعون رفيق سلاح سقط شهيداً في المعركة[2] . وليس هناك أذان لصلاة الجنازة، بل إن بعض علماء المسلمين يقولون: إن الأذان الذي يؤذّن في أذن المولود في الإسلام هو إعلان صلاة جنازته طالما أن الموت يمكن أن يأتي للإنسان أية لحظة وغالباً مايأتينا بغتة. وطبعاً إن هذا التفسير لا ينطبق على المعتنقين الجدد، ولكني سمعت من يقول: إنه عندما يعتنق كافر ما الإسلام فإن الملائكة تؤذّن له في السماء. وعندما أنهينا صلاة الجنازة، أخذت طريقي بهدوء نحو بوّابة الملك عبد العزيز في

---

(١) طواف الوداع لا يستلزم معه سعياً. [المترجم].

(٢) لا يذكر المؤلف كيفية صلاة الجنازة هنا، بل يقتصر على وصفها بأنها وقوف بهدوء أمام الميت. وأما كيفية صلاة الجنازة فهي: أربع تكبيرات يقرأ المصلي في الأولى بفاتحة الكتاب، وفي الثانية بالصلوات الإبراهيمية، وفي الثالثة بالدعاء للميت، وأما في الرابعة فيدعو المصلي لنفسه بالقول "اللهم لاتحرمنا أجره ولا تفتنا بعده،" ثم يسلّم . [المترجم].

الحرم. مشيت نحو البوابة الخارجية للحرم، ثم إلى منعطف الشارع حيث تقف الباصات المتجهة إلى منى ثم جلست عند حافة الطريق.

وبرغم أني عملياً أنهيت الحج، فقد بقي ثمة شعور يراودني، شعور من عدم الراحة وكأن هناك شيئاً فقدته أو شيئاً غفلت عنه و لم أنجزه. كنت أعلم أنني أديت كل شعيرة من شعائر الحج بدقة متناهية وبكل مهابة ووقار، إلا أنه بقي لدي شعور بالإحباط والنقص من أن شيئاً هناك كنت أفتقده. ثم تحوّلت بي الأفكار للعودة إلى أمريكا. فكّرت في الطريقة التي نَفِدَ صبري بها، وكم كنت مشتاقاً كي أركب الطائرة التي سوف تقلني إلى وطني ثانية. مازحت نفسي قائلاً: لسوف أقبّل الأرض عندما تحط بي الطائرة في مطار كينيدي. تذكرت كيف كان هذا العام مريعاً، وكيف أنه أوشك على الانتهاء. تخيلت كم سأفرح عندما أرى أصدقائي الأمريكيين ثانية وكيف سأعود إلى أقوام يفهمونني وأفهمهم. فقد اشتقت للتلفاز الأمريكي، وإلى المطاعم الأمريكية، وإلى التجوّل في المتنـــزهات الأمريكية العامة وإلى أن أذهب إلى مكتبة أمريكية أو مكان لبيع الكتب، واشتقت لوالدي وإخوتي وعائلاتهم من جديد.

تقدم باص إلى الموقف حيث يصعد الحجاج إلى منى. سألته: "إلى منى؟" فأومأ برأسه، أي نعم. دفعت له بعشرة ريالات، ثم بدأت أبحث عن مكان في الباص بحيث أجلس بمفردي دون أن يضايقني أحد. فلقد سُئِلت عن جنسيتي وإسلامي أكثر من مئتي مرة في الأسبوع الماضي. أما الآن فقد فاض بي الحال، وكنت مستعداً كي أوجّه لكمة في وجه أي شخص يسألني عن ذلك بعد الآن. ومن حسن حظي أن آخر ثلاثة صفوف من المقاعد كانت خالية. مشيت في ممر الباص مطرقاً بنظري ومحاولاً ألا تُلاقي عيناي أحداً من الركاب. اخترت أن أجلس في منتصف المقعد الأخير من الباص. جلست مسترخياً ومددت رجلي واضعاً واحدة فوق الأخرى والذراع فوق الذراع وألقيت برأسي نحو الخلف وأغمضت عيني ورجوت الله ألا يزعجني أحد.

وعندما بدأ الباص بالتحرك فتحت عيني قليلاً لأرى إن كنت أثرت فضول أحد. وبالفعل فقد كان هناك رجل يجلس في المقعد الذي أمامي على اليسار من طرف الممر، وكان يحدق بي بابتسامة. قلت له في نفسي: ليتك تبقى في مكانك، ثم إني أغلقت عيني تماماً وأشحت بوجهي نحو اليمين .وبعد عدة ثوان شعرت بأن أحداً ما يجلس عن يساري، وإذا بالرجل نفسه. قال: بأدب جم: "أستميحك العذر، ولكن هل لي أن أسألك سؤالاً؟" أدرت وجهي نحو الأمام دون أن أفتح عيني وقلت له بتنهيدة عميقة: "هات ماعندك ".

سألني والدهشة بادية عليه: "هل أنت أمريكي؟"

أجبته بتململ وأنا أتوقع سؤاله التالي: "نعم أنا أمريكي".

ثم مال نحوي قليلاً وسألني في همس: "هل لك أن تخبرني كيف أصبحت مسلماً؟"

فخلال الأيام السبعة الماضية كانت إجابتي على هذا السؤال تزداد قصراً في كل مرة أُسأل هذا السؤال. فأول مرة سُئلت عن ذلك استغرق مني الوقت لشرح قصّتي حوالي نصف ساعة، أما الآن فقد اختصرتها إلى نصف دقيقة وبشكل مقتضب جداً. أعطيت الرجل الإجابة المختصرة التالية دون أن أغيّر من جلستي أو أن أفتح عيني، قلت: "ولدت مسيحياً ثم إني في الثامنة عشرة من عمري أصبحت ملحداً بسبب بعض الاعتراضات العقلانية على فكرة الله في المسيحية. بقيت ملحداً لمدة عشر السنوات التالية. قرأت تفسيراً للقرآن في سن الثامنة والعشرين فوجدت فيه إجابات متماسكة ومنطقية لأسئلتي. وهذا الأمر دفعني للإيمان بالله عن طريق الإسلام من خلال قراءتي للقرآن، وهكذا أصبحت مسلماً.

وعندما أنهيت موجز قصتي نظرت خلسة نحو اليمين، لأرى إن كانت إجابتي المقتضبة الجافة قد نفّرته أم لا. ولدهشتي رأيت الدموع تسيل على

خدي الرجل، وسرعان ماشعرت بالحرج. وفي الحال سألت الله أن يغفر لي تكبري وصلفي، وتوسّلت إليه أن يجعلني في مثل تواضع ذلك الأخ في الله، الذي أثار الإيمان القوي في قلبه الشجن فدفعه للبكاء بمثل تلك السهولة؛ والذي استطاع أن يدرك رحمة وعظمة الله في قصّتي برغم الطريقة التي رويتها بها. عدّلت من جلستي ثم استدرت إليه قائلاً:

"مااسمك، ومن أي البلاد أنت؟"

أجابني ببسمة بينما كان يمسح الدمع عن خديه: "اسمي أحمد، وأنا من بنغلادش".

قلت له: "سعيد بمقابلتك ياأحمد. اسمي جفري، وأنا من ولاية كانساس في أمريكا".

وبعد أن تبادلنا بعض الحديث حول أنفسنا، سألني أحمد فجأة وبسرور: "ألم يكن هذا الحج رائعاً ياأخي جفري؟" ولكنني لم أعقّب. ولكنه تابع قائلاً: "أتذكر اليوم الذي وصلنا فيه كيف كان جميع الحجاج يهللون وينادون من حولنا **لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك اللهم لبّيك**، وهل تعرف ما معنى **لبّيك** في بلدي؟" قلت له: "يؤسفني أن أقول لك: إنني لا أكاد أعلم أي شيء عن بنغلادش." نظر إلي نظرة ثاقبة ثم قال: "في بلدي عندما ينادي المعلم على أحد طلابه فإن الطالب سرعان ماينصت للمعلم ويقول: **لبّيك يا أستاذي لبّيك**، كما لو أنه يقول له: **أنا جاهز لخدمتك ياسيّدي**. وهذا ما يتوجب على المسلم عمله تجاه الله، وهكذا كان الأنبياء جميعاً؛ وهكذا كان النبي إبراهيم عليه السلام عندما أمره ربّه أن يؤذّن بالحج. لم يكن معه أحد في مكة كلها، اللهم سوى عائلته وبعض الرعاة ممن كان يتجوّل في المنطقة. فلو كنت أنا أو أنت من يتوجّب عليهم الدعاء للحج، ربما قال أحدنا: **ولكن كيف لي أن أنادي للحج في الوقت الذي لا يوجد فيه أحد من حولي؟** ولكن ثقة إبراهيم عليه السلام بربه وإيمانه به كانت عظيمة لدرجة أنه بدأ بالنداء للحج في اللحظة التي أمره فيها ربه. فقد صعد ربوة في ذلك المكان الخالي

وشرع بالأذان مباشرة. آه يا أخي جفري، ليت نبيّنا إبراهيم عليه السلام يرى ملايين المؤمنين هنا وقد جاؤوا جميعاً استجابة لدعائه. ليته يرانا الآن، أنت من أمريكا وأنا من بنغلادش نجلس سوياً هنا في هذا الباص كإخوة في طريقنا إلى منى".

حان الآن دوري لأشعر بفيض المشاعر، فقد شعرت بالخجل من نفسي. شعرت وكأنني أريد أن أبكي، بل كنت على وشك البكاء، ولكنني قاومت الدموع. لقد عرفت الآن مالذي كان غائباً عن حَجّي، لقد كانت خالية من أي مشاعر بالوحدة والأخُوّة والمحبة التي يأمر الإسلام بها أتباعه. فنتيجة لبعض الأحداث عاثرة الحظ التي وقعت فيها خلال عامي المنصرم، ونتيجة للصدمة الثقافية التي أصبت بها، فقد سمحت لنفسي كي أنزلق في عنصريتي وشوفينيّتي الثقافيتين. فقد سمحت لنفسي أن أشعر بتفوّقي على المسلمين من حولي وأن أبتعد عنهم لدرجة أنني في النهاية شعرت أن حجتي أصبحت شعيرة خاصة (في الوقت الذي يفترض أن تكون العكس). لقد كانت كلمات أحمد الإلهامية هي التي أرتني أخطاء الطرائق التي كنت أنتهجها، فقد عرفت الآن أنه كان بإمكاني أن أستفيد الكثير من عامي هذا الذي قضيته في الشرق الأوسط، وأن أستفيد بشكل أكبر من هذا الحج، ولكنني سمحت لتكبري أن يسيطر على نفسي. شعرت وكأن عليّ ان أعيد الحج من جديد، لأن أحد أهم العناصر الأساسية في الحج — وهو محبة إخوتي في الإسلام — كانت غائبة عني أثناء أداء الفريضة.

وبعد بضعة دقائق وقف باصنا حيث كان عليّ أن أنزل. قلت لأحمد: "لقد كنت محظوظاً بأن رأيتك يا أحمد، فليبارك الله فيك، والسلام عليكم ورحمة الله ياأخي أحمد. "قلت له ذلك وأنا أصافحه مودعاً. أجابني بابتسامة عريضة قائلاً: "وعليكم السلام ورحمة الله ياأخي جفري".

الفصل الخامس

خير الأمم

ليس ثمة رهبانية في الإسلام، وإن خضوع المسلم لله يحمل في طياته تعهدات أمام إنسانية جمعاء. فالمكانة التي يوليها الإسلام للمؤمن من أنه خليفة الله على الأرض يتطلب الانخراط في صفوف الأمة. فالآية القرآنية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ٣/١١٠] موجهة للمسلمين. ومن وجهة نظر الإسلام فإن الإيمان ليس مسألة روحية شخصية فحسب، بل يجب أن يطبّق فعلاً ويُمتحن في المجتمع. فالقرآن والسنة النبوية تنير للمؤمن درب الهداية، والأركان الخمسة تزوده بالدعم الروحي، وأما المجتمع فهو بيئة المحك والتعلم والنماء.

ومن الواضح أن المجتمع الذي نعيش فيه يؤثر بشكل كبير في تطورنا الديني. فمعظمنا يكتسب نظرته في الدين حسب الترتيب الطبيعي التالي، والذي يتوافق مع اكتشافنا للمجتمع: نرث أولاً عقائد الوالدين الدينية، ثم نقوم ببعض التعديل والتطوير لهذه العقائد من خلال اتصالنا بالجالية الدينية التي ولدنا فيها، ومن ثم نتحدى ونختبر هذه العقائد عندما نقابل أناساً ممن يتّبعون أدياناً (أو نحلاً أو مللاً) أخرى. وأما التحول الديني (اعتناق ديانة أخرى) فإنه يعكس هذا التسلسل: فمن خلال مقابلة أناس ممن يعتنقون عقائد أخرى، يعتنق المرء ديانة مخالفة لتلك التي ورثها عن آبائه، والتي ولد وترعرع في محيطها ليدخل في جالية دينية جديدة، وغالباً ما يتزوج من هذه الجالية ويربي أطفاله وفقاً لتعاليمها.

وهذا الطريق المعكوس قد يكون أصعب بكثير من الطريق الأول، وهو يشبه إلى حد ما حالة الذي يسبح عكس التيّار. ففي كتابي الأول (**الصراع من أجل الإيمان**) وفي الفصل الثالث من ذلك الكتاب ناقشت بعض المشكلات التي يتعرض لها العديد من المعتنقين الجدد للإسلام فيما يختص بسلوك وتقاليد الأمة (الجالية الإسلامية) والمصاعب التي يواجهونها في محاولة منهم لتمثّل تلك العقائد والممارسات الأساسية في الإسلام. سوف أحاول في هذا الفصل مناقشة بعض التحديات العاطفية والروحية التي يجابهها المسلم الجديد الذي يسعى للانضمام إلى الجالية الإسلامية. وأما في الفصل التالي فسوف ننظر معاً إلى مستقبل الإسلام في أمريكا.

* * *

مجموعة بريّة

سألني مهاجر مسلم إلى أمريكا: "كيف هي الحال مع معتنقي الإسلام من الأمريكيين؟".

ولكنه لم ينتظر إجابتي بل أجاب بنفسه قائلاً :" إنهم متطرفون جداً، وتراهم على أحد نقيضين، فهم أفراد محافظون متشددون ومشاغبون في الجالية، أو ليست لهم أي علاقة بالجالية على الإطلاق .وغالباً مايتذبذبون بين هذا الموقف وذاك. ألا نستطيع أن نجذب أمريكيين طبيعيين ومعتدلين إلى الإسلام؟".

لقد آذاني جداً بسؤاليه هذا وذاك لعدة أسباب.

أولاً: لم يستثني أنا شخصياً من نقده اللاّذع، ومن ثم فأنا في نظره أنتمي لهؤلاء الأمريكيين الذين عناهم في مقولته.

ثانياً: بدا أن ملاحظته تنطبق على الكثير من أصدقائي المقرّبين.

ثالثاً: عليّ أن أعترف أن ماقاله كان يروق لي.

ففي وقت من الأوقات كنت أحد أعضاء المسجد الأشد محافظة؛ وفي وقت كنت أنأى بنفسي عن الجالية لعدة شهور. ولقد أيقظت مقولته فيّ العديد من الذكريات المؤلمة والمؤذية لدرجة أنني لم أتمكن من الرد عليه في تلك اللحظة. وكان كل ماقلته له عندها وأنا أهزّ رأسي تعجباً: أنا لا أدري لماذا يبدو لك المسلمون الأمريكيون على ذلك النحو من التطرّف؟

لقد كان من العسير جداً عليّ أن أقرر الطريقة المثلى للكتابة عن الهياج الروحي والسيكولوجي والعاطفي الذي يمر به المعتنقون الجدد، بينما يحاولون التأقلم مع الجالية الجديدة التي انضموا إليها. فقد فكرت أولاً أن أكتب كمراقب موضوعي، ولكني سألت نفسي قائلاً: ولكن كيف للمرء أن يقدّر أو يصف روحية وسيكلوجية شخص آخر بشكل دقيق؟ فمن حيث الظاهر يمكن لشخصين أن يتصرفا بطريقة تكاد تكون واحدة، أما من حيث الباطن فإن كلاً منهما تكون له دوافعه الخاصة به والمختلفة عن الآخر. وكذلك يكاد يكون من المستحيل عليّ أن أنأى بنفسي عن شيء قد جرّبته وعايشته في أعماق أعماقي. فكرت أيضاً أن أكتب بطريقة تحليلية ومجرّدة، ولكن التجارب الإيمانية أكثر شخصية وخصوصية من أن تكون تحليلية ومجردة. ولقد ذكرتني هذه المحاولة بالفلاسفة المسلمين القدامى الذين حاولوا اختزال مسألة الإيمان بالله إلى سلسلة من قياسات المنطق.

وأخيراً قررت أن أتذكر — قدر المستطاع — انخراطي المبكر في الجالية الإسلامية الأمريكية. فبعد ظهور كتابي الأول أخبرني العديد من معتنقي الإسلام الجدد أن **طريقهم إلى الإيمان كان يشبه في كثير من مناحيه طريقي أنا، وأن ذلك قد ساعدهم على معرفة أنهم لم يكونوا الوحيدين الذين واجهوا بعضاً من تلك المصاعب**. آمل أن يؤدي هذا الفصل للمعتنقين الجدد خدمة مشابهة لما جاء في كتابي الأول (**الصراع من أجل الإيمان**). آمل أيضاً أن يكون هذا الفصل مفيداً للعديد من المسلمين الذين ولدوا مسلمين ويحاولون جاهدين فهم

ومساعدة إخوتهم وأخواتهم الجدد في العقيدة من الأمريكيين. ومهما يكن فإنني أجد لزاماً عليّ هنا أن أحذّر القارئ ألا يفترض أن مجرد كون المعتنق الأمريكي الجديد متحمساً ومحافظاً متشدداً يعني أنه يعاني من أزمة في الإيمان، ذلك أن هناك الكثير من البشر ممن هو محافظ عاطفي بالفطرة.

* * *

الجهاد الأكبر:

قال أحد القادة المسلمين العسكريين لدى عودته من إحدى المعارك التي راح ضحيتها عدد كبير من القتلى من الجانبين: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر." وعندما سئل إن كان هناك مهمة عسكرية أشد وقعاً؛ فقال لهم إن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس[١] .

فبعد مدة طويلة من اعتناقي الإسلام عَدَدْت أن أعظم جهاد قمت به هو مجاهدة نفسي يوم أصبحت مسلماً. ففي ذلك اليوم كان عليّ أن أجابه جملة من المخاوف والمسوّغات وأصطرع معها، وأتغلب عليها قبل أن أكون قادراً على النطق بالشهادة. وكان الوقع شديداً عليّ في الجزء الأكبر من تلك المعركة لدرجة أنني اقتربت فيها من الهزيمة مرّات عدة، ولكن بفضل من الله تمكّنت في النهاية من تحقيق النصر في تلك المعركة، وذلك باستسلامي وخضوعي لله عزّ وجل.

وبقدر ما كان قراري باعتناق الإسلام شاقاً إلا أنني لم أعد أراه الجهاد الأكبر. فعندما ناضلت ذلك النضال المرير كي أعلن الشهادة لأول مرة، كان عدوّي ظاهراً جلياً وكانت أسلحته ومناوراته بادية للعيان. وكنت مدركاً لحقيقة كوني أخوض معركة، وأنني كنت بحاجة ماسّة لعون الله كي أكسب

(١) غالباً مايشار إلى هذه المقولة على أنها حديث شريف من رواية إبراهيم بن عيلان، ولكن معظم العلماء يعدون إسناده ضعيفاً . [المترجم].

تلك المعركة، وكي أحقق ذلك كان علي أن أتوجّه إليه تعالى. وأما أصعب المعارك فتلك التي يكون العدو فيها مراوغاً ومتخفياً في الوقت الذي قد لاتدري متى يباغتك بالهجوم عليك أو الوقت الذي يكون قد اخترق صفوفك دون أن تكون مدركاً لذلك. وسرعان ما اكتشفت بعد أن أصبحت مسلماً أن الحالة الأخيرة هي الغالبة دوماً، وأنك كلما تعمّقت في الإيمان كانت مزالق الغواية أكثر مكراً وإغراءً وتحطيماً.

وقد يكون اعتناقي للإسلام اندفاعاً مفاجئاً من جانبي، ولكنه بالتأكيد لم يكن عملاً بطولياً. فأنا أعتقد أنني لم أصبح مسلماً بإرادتي بل بأمر الله وإرادته، ذلك أنني في الظروف العادية ما كان لي أن أقوم بعمل كهذا خوفاً من أن تصبح حياتي في أمريكا أشد صعوبة من الناحيتين المادية والاجتماعية. ومع ذلك شعرت لفترة وجيزة جداً وكأن ثقل العالم بأكمله كان يقف ضدي، عندما كان رأسي يدور بآلاف الأسباب التي تحاول أن تثنيني عن اتخاذ ذلك القرار، وعندما قررت أن أولي ظهري وألوذ بالفرار، شعرت فجأة وكأنني عدت إلى صوابي وهدأت أعصابي، وأنني قادر أن أفكر بالأمر بشكل منطقي وعقلاني. في تلك اللحظة بالضبط بدا لي أن الشيء المنطقي الوحيد الذي كان عليّ أن أفعله هو أن أصبح مسلماً. فأحد الأشياء العديدة التي كانت تردعني ولوقت طويل عن اختيار الإسلام وحتى بعد أن أصبحت مقتنعاً بندائه لي هو أنني كنت أعد نفسي غير لائق كي أكون مسلماً. فعبر السنين تراكمت علي الذنوب والمعاصي لدرجة شعرت فيها أنه كان من المستحيل بالنسبة إلي حتى الاقتراب من العيش بمستوى يليق بالمتطلبات الدنيا للإسلام. وعندما نطقت الشهادة أخيراً ألزمت نفسي بها برغم أني كنت مدركاً لحالة الفساد التي كنت أعيشها. ولقد عللت ذلك قائلاً في نفسي: إنه من الأفضل لي أن أحيا وأموت وأنا معترف بالحقيقة — برغم أني قد لاأرقى لبلوغ متطلباتها — على أن أموت في صمت عنها أو جاحداً بها. وعندما اعتنقت الإسلام عرفت أنني قد أكون من

أكثر المسلمين بؤساً، ومع ذلك فقد أقسمت أن أفعل ما بوسعي كي أطبق إيماني.

قد يبدو الأمر غريباً، ولكنني خلال الأسابيع القليلة الأولى بعد اعتناقي الإسلام مررت بلحظات هي من أشد اللحظات الروحية تركيزاً في حياتي. فقد بدا لي أنني كلما نظرت إلى نفسي على أنها الأضعف والأكثر دونيّة كانت مشاعري لدى أدائي الصلاة أكثر جمالاً وإثارة. وأنني كلما اعترفت بحاجتي الماسة لرحمة الله ومغفرته شعرت بتلك الرحمة والمغفرة تخترق شغاف قلبي. فبالرغم من كل نقاط الضعف التيّ ما زلت أشعر أنني يجب أن أتغلب عليها، فإنني كنت أشعر بأقصى درجات العطف والمودة كلما توجهت إلى الواحد الأحد الذي يعرفني بحق. فقبل أن أصبح مسلماً لم أعرف في حياتي معنى للحب، فقد كنت أشعر دوماً أن من المجازفة أن أثق بأحد حتى نفسي. وبوصفي ملحداً كنت أعتقد أن (الحب) ضرب من لطف التعبير لحالة معيّنة من أنانية الإنسان وعدم شعوره بالأمن. فقد كنت تخليت عن الحب منذ زمن بعيد، ولم أكن أريد أن أعرفه معطياً ولا متلقّياً. وكان كل ما أرجوه هو أن أحيا حياة مريحة قدر المستطاع حتى يدركني الموت، ثم أصبح بعد ذلك تراباً منسياً تحت قبر غير ذي أثر. ولكنني عندما قرأت القرآن وبدأت أحافظ على صلواتي الخمس شعرت وكأن الختْم قد فُض عن قلبي ليغمرني فيض واسع من الرحمة والعطف. وبدأت أشعر بديمومة الحب في قلبي، وأن ذلك الحب كان أشد صلابة وحقيقية من الأرض التي كنت أقف عليها؛ وأن قوة ذلك الحب أحيتني من جديد بحيث أصبحت أشعر شعوراً حقيقياً بالحب. أطلب من القارئ أن يتذكر ماأقوله هنا حتى نهاية هذا الفصل .

واعلم أيها القارئ أن الذي قادني إلى الإسلام هو الفراغ الروحي والألم الداخلي العميق الذي كنت أكابده، وكذلك محبة الله التيّ لا تقاوم والتيّ منّت عليّ بالإسلام قبل الموت. فخلال الأسابيع العديدة الأولى من إسلامي أعطاني

الإسلام أكثر مما أتوقع بكثير. فقد جئت للإسلام بتوقعات متواضعة جداً — وكنت سعيداً أن وجدت الإيمان في دين ذي معنى — ولكنني لم أتوقع أن يمسني شعور عارم من الرحمة، إذ لم أكن أعلم أن المرء إذا أسلم يمكن له أن يشعر بذلك العناق من الرقة والدفء.

وكان كل ما أطمح إليه في بداية إسلامي هو هذه المحبة والعلاقة مع الله التي كانت الهدف الوحيد الذي كنت أسعى إليه في حياتي؛ والتي كانت نقطة التركيز في كل ماكنت أسعى إليه دينيًا. إن المحبة في الله كانت كافية لي لجعلي أشعر بالسكينة والقوة والاستقلال. ولكنني سمحت لنفسي إلى حد ما أن تتشتّت وأن تضل عن طريق العبد التائب المتواضع الذي كنت سائراً عليه عندما كنت مسلماً جديداً.

* * *

خبر عظيم

في اليوم التالي لاعتناقي الإسلام بدأت بحضور جميع الصلوات في مسجد جامعة سان فرانسيسكو. وحيث إنني كنت أحد أعضاء هيئة التدريس فقد كان من السهل عليّ خلال عملي حضور صلوات الظهر والعصر والمغرب. ولأنني لم أكن أسكن بعيداً عن الحرم الجامعي فقد كان من السهل علي حضور صلاتي العشاء والفجر في المسجد أيضاً.

ومما زاد في غمتي أن اعتناقي الإسلام سرعان ما غدا الخبر الأعظم في الحرم الجامعي. فقد كنت أفضّل ألاّ يعرف ذلك سوى هؤلاء المسلمين القلائل الذين كانوا يحضرون الصلاة معنا، ولكن في غضون يوم أو يومين أصبحت قصة إسلامي حديث الجامعة. أفترض أنه كان عليّ أن أتوقع ذلك ففي نهاية المطاف تبقى مسألة تحوّل عضو هيئة تدريس إلى الإسلام في جامعة كاثوليكية مشهورة جديرةً بالاهتمام.

فمنذ البداية شعرت أنني، بوصفي أمريكياً مسلماً شخص غريب. فجماعة المسجد كانت تتألف، فيما سواي، من طلاب أجانب في المرحلة الجامعية، والذين غالباً ماكانوا يحدّقون بي في ذهول وحيرة. وخلال خطب الجمعة والتي كانت تتم بالعربية، غالباً ما كانت بعض الوجوه تتلفت إليّ. ولكنني اكتشفت فيما بعد أن اعتناقي للإسلام كان موضوع الخطبة لعدد من خطب أيام الجمعة. وكان الطلبة المسلمون يقفونني في الطريق بعضهم مهنئاً وبعضهم الآخر كان يسألني إن كنت أسلمت حقاً. وفي الوقت نفسه بدأ بعض زملائي ينظر إليّ بعين من الريبة، وكان بعض منهم يسألني إن كنت على مايرام أو إن كنت أواجه أي مصاعب في التأقلم مع الحياة في سان فرانسيسكو. وبعض الأساتذة من الزملاء بدا وكأنه ينفر مني في حين أخبرني بعض آخر أن ما قمت به كان خطوة جريئة. ولم يكن أي شيء من كل ذلك يعنيني أو يهمني، ذلك أنني لم أشعر بأي تغيّر غير عادي في شخصيتي، وأنني كنت الشخص نفسه الذي كان ملحداً منذ أسابيع خلت. بل إنني شعرت أن كل من كان حولي كان يبالغ في ردة فعله.

ولم يدم الوقت طويلاً حتى أدركت أن المسجد كان منقسماً على نفسه بين عدة فصائل يحاول كل منها أن ينافس الآخرين في السيطرة. فتلك جماعات لها صلاتها بمنظمات عالمية كجماعة التبليغ (ومركزها الهند والباكستان)، وتلك جماعة سلفية (ومركزها الجزيرة العربية)، وتلك جماعة الإخوان المسلمين (التي نشأت في مصر). وكنت أشعر في بعض الأحيان أن كلاً منها كان يحاول جذبي إلى صفوفهم. ففي كثير من الأحيان كان بعضهم يأخذني جانباً ويهمس في أذني محذّراً بالقول: "ألا أقترب كثيراً من هؤلاء الإخوة." وكانت كل فرقة تخبرني أن الفرقة الأخرى ضالة عن الإسلام. وعند ذلك في الواقع لم أكن قادراً على تحديد موقفي، لأنه — عملياً — وفي كل ليلة كان بعض الأفراد من المسجد يدعونني للعشاء، وفي كل مرة كانت كل مجموعة تسألني عما قالته المجموعة الأخرى، ثم تقوم بتصحيح بعض الأشياء التي تعلمتها من تلك

المجموعة. وسرعان ماتولد لدي انطباع وهو أنه بالرغم من أن الإسلام ينهى عن الغيبة والنميمة فإن المسلمين نمّامون ومغتابون بالعادة، وأن ذلك هو الشغل الشاغل للجالية الإسلامية.

وخلال الأسابيع الأولى من إسلامي كتمت مشاعري لنفسي حول الاختيار الذي قمت باتخاذه. وكنت أحس أن العديد من أعضاء الجالية كان فضولياً، وأن بعضهم الآخر كان شكاكاً[١]. ولكن الإيمان بالله — ناهيك عن ذكر الإسلام — كان كله جديداً علي بحيث إنني كنت بحاجة لمزيد من الوقت للتفكير في مضاعفات ما أقدمت عليه من عمل. وكنت، ببساطة، أحتاج لمزيد من الوقت كي أثبّت أقدامي على أرضية صلبة؛ لأن كل شيء حدث ومايزال يحدث بسرعة فائقة.

* * *

ملاك آني

في إحدى الليالي، وأظنها كانت ليلة الجمعة. سألني بعض الإخوة إن كنت أريد الذهاب معهم لحضور محاضرة سوف تلقى في تلك الليلة في دافيس (Davis) في كاليفورنيا. وفي الحقيقة لم أكن أريد الذهاب، ولكنني كنت أعلم أنني إذا رفضت ذلك فسوف أخيّب آمالهم جداً. وعندما قررت أخيراً الذهاب كانوا سعداء جداً. بدأ البرنامج بغداء حيث تناولناه بأربعة أصابع بينما كنا نجلس على الأرض. كنت أتاقلم بسرعة مع بعض العادات الأجنبية، ولكنني لم أستطع التأقلم بسرعة مع عادة أكل الأرز بالأصابع. وفي حين كان الجميع قد أنهوا مافي صحونهم من أرز وبدؤوا بأكل الحلوى والفاكهة، كنت ربما قد أفرغت بعضاً من الأرز في جوفي. ومع ذلك كان الطعام بتلك الطريقة خبرة جديدة مسليّة بالنسبة إلي.

---

(١) اعترف لي بعض الإخوة في المسجد لاحقاً أنهم ظنوا بي أنني من المخابرات المركزية الأمريكية .(CIA) في حين قال لي آخرون وبكل صراحة: إن كنت أصبحت مسلماً حقاً فسوف يسعون لي بالزواج من فتاة مسلمة.

وبعد الغداء أعلن رئيس اتحاد الطلبة المسلمين في دافيس على المايكروفون أن المحاضرة على وشك أن تبدأ. رتّبنا أنفسنا على الأرض في صفوف بحيث نواجه جميعاً المايكروفون. وبعد قراءة موجزة لآي من الذكر الحكيم وبعض التضرع والابتهال إلى الله وبعد الإعلان عن عدد من الإعلانات، أخبر رئيس الاتحاد ذلك الجمهور أن المتحدث في تلك الليلة لن يكون سواي أنا. في البداية اعتقدت أنني لم أسمعه جيداً، ولكنني عندما نظرت من حولي رأيت الجميع ينظرون إلي ويتبسّمون لي. جلست مرتبكاً وقد أصابني الذهول، إذ لم يكن لدي أية إيماءة أو تلميحة أنني سوف أكون المتحدث في تلك الليلة. استدرت نحو صديقي الطيّب رُسْلي الذي كان يجلس بجانبي، وكان طالباً من ماليزيا، وقلت له متوسلاً: "لا أستطيع! فأنا لا أعرف ماذا أقول." قال رُسْلي وهو يومئ برأسه: "سوف تكون على مايرام، وسوف أدعو لك." نظرت إلى رئيس الاتحاد وقلت راجياً: "من فضلك لا أستطيع". تبسّم لي كي يطمئنني، ثم قال بهدوء: "من فضلك تقدم إلى المايكروفون".

قدّمني رئيس اتحاد الطلاب إلى الحضور وهو يعطي نبذة قصيرة عني لهم. كان العدد يقارب ثلاثمئة شاب من الشرق الأوسط، ثم قال لهم: إنني سوف أروي لهم قصة إسلامي. بدأت باعتذار حرج. قلت: إنني لم أحضّر أي شيء وأنني لم أكن أدري ما الذي قادني إلى الإسلام ولكن طالما أن هذا الحضور قد جاء ليسمع بعضاً من روايتي فسوف أحاول جهدي أن أتذكر بعضاً من الأشياء التي شعرت أنها لعبت دوراً حاسماً في اتخاذي ذلك القرار. والقصة التي رويتها لهم كانت في الأصل الفصل الأول من كتابي (**الصراع من أجل الإيمان**). وخلال حديثي في تلك المحاضرة كنت متوتراً جداً في حين أطبق الصمت على القاعة برمتها. ولكنني عندما انتهيت دوت القاعة بأصوات عدد من الحضور المتحمسين الذين قاموا يهتفون معاً "الله أكبر".

ثم سأل رئيس الجلسة الحضور إن كان لديهم ما يسألونه. أذكر أني سئلت مرات عدة عن الطريقة التي يجب أن يقدِّم بها المسلم دينه إلى غير المسلم. وكانت نصيحتي دوماً هي أنه لا يجب على المسلمين أن يكونوا لحوحين وضاغطين في الدعوة، لأن ذلك من شأنه أن ينفِّر معظم الأمريكيين من الإسلام، وأن عليهم أن يكونوا لطيفين ومتعاطفين مع غير المسلمين؛ لأن ذلك هو أول شيء يتوقعه الأمريكي من شخص يدَّعي أنه متدين. ثم اختتم رئيس الطلاب الجلسة ببعض الكلمات التشجيعية ثم بعد ذلك اختتم المحاضرة بالدعاء إلى الله والتوسل إليه.

لن أنسى الاستقبال الذي قوبلت به بعد ذلك: فقد انهال الجميع علي بالتحية والدعاء لي والعناق والمصافحة والقبلات على وجنيّ؛ وكاد بعض الإخوة أن يجهش بالبكاء. وكنت أينما تطلعت رأيت أيادي تمتد نحوي، وقد حاول العديد من الإخوة أن يلامسني أو يربت على كتفي. وكان الجميع يقولون لي: إنني كنت عظيماً، وإنني كنت خيراً من كثير من مسلمين جاؤوا من بلاد غربية، وإنني كنت مُلهِماً، وإن الله لابد وقد غفر لي ذنوبي، وإن محبته لابد أنها كانت عظيمة. استغرقني الوقت أكثر من ساعة حتى أصل إلى باب المسجد والذي لم يكن ليبعد عن المايكرفون أكثر من أربعين قدماً. وعندما وصلت إلى موقف السيارات كانت جيوب بنطالي قد امتلأت بمئات القصاصات من الورق التي كتب عليها عناوين وأرقام هواتف أناس من ذلك الجمهور.

وبعض الإخوة ممن لم أقابلهم من قبل عرضوا أن يوصلوني إلى سان فرانسيسكو بالسيارة. وفي الطريق تكلموا بحماس عن الإسلام وعن اعتناقي له. قلت لهم: إن ردة فعل الحضور كانت عاطفية للغاية. قال أحدهم ممن كان معنا في السيارة:" أخي جفري لو أنك تعلم ماذا يعني لهم إن يروا أمريكياً يسلم. فلأن يسلم أمريكي أبيض ذو شعر أشقر وعينين زرقاوين هو بمثابة المعجزة لهم،

والجميع يتمنى أن يكون في مكانك ويخسر الكثير. كم أتمنى أن أصحبك إلى بلدي وأن تظهر على شاشة التلفاز هناك. فإذا مارآك الناس هناك فسوف تكون بالنسبة إليهم بمثابة ملاك قد هبط من بين الغيوم." سألته:"ولكن لماذا، وما علاقة الأمريكي بذلك؟" ولكن الأخ الذي كان يقود السيارة أجاب هذه المرّة قائلاً: "في وطننا كل الناس تعبد أمريكا، وهناك مسلمون ممن لا يعرف حتى آية واحدة من القرآن؛ في حين يحفظ أغاني مايكل جاكسون (Michael Jackson)؛ ويستطيع هؤلاء أن يقصوا عليك قصص أفلام كاوبوي دالاس (Dallas Cowboys)أكثر مما يعرفون عن الإسلام. فإذا رأى هؤلاء أمريكياً أبيض يطبّق الإسلام فإن ذلك سوف يصدمهم ويهينهم؛ وسوف يبدؤون القول في أنفسهم إذا كان هذا الأمريكي الأبيض يحب الإسلام ويتّبعه فما بالنا نحن المسلمين أصلاً لا نقوم بذلك؟ ".

* * *

البطل

لا أدري لماذا، ولكن قبل أن ألقي محاضرتي في دافيس لم يكن الشعور بالاحتفاء هاماً جداً بالنسبة إلي. فقد كان أمَلي في الحياة أحياناً هو أن أجد أناساً يحبونني، ولكنني لم أسْعَ كثيراً كي أحظى بإعجاب الناس أو مصادقتهم. كنت دوماً واثقاً بنفسي مستقلاً بذاتي لايهمني كثيراً استحسان أقراني وموافقتهم لي. ومع ذلك فإن ردة الفعل التي وجدتها عند جمهور محاضرة دافيس أثارت بي نقطة ضعف كنت أظن أني عصيٌّ عليها. فبينما كنت أحكي قصتي تلك كنت مدركاً أنني ذلك الشخص العاصي نفسه، والخجل التائب الذي ألقى بنفسه في أحضان رحمة الله منذ عدة أسابيع خلت. وعندما خرجت من فناء المسجد متجهاً نحو موقف السيارات كنت ثملاً بتوقير وتبجيل ذلك التجمّع لدرجة من الشعور بالعاطفة دفعتني بحيث تملكني الإعجاب بنفسي.

أفْترض أنه بوسعي تقديم تبرير لذلك الجيشان المفاجئ من الخيلاء، وهو أنه قد حصل خلال فترة كنت ˙ يها سريع التأثر والحساسية على نحو كبير. فقد كنت دوماً أقف موقف المدافع عن نفسي بين قومي، وكنت أجد نفسي دوماً مرغماً على شرح وإيضاح سبب اعتناقي الإسلام لأصدقائي وكذلك لأفراد أسرتي. فقبل أن أصبح مسلماً كنت دوماً أعرف احترام الآخرين لي ——وربما كان هذا هو السبب أنني لم أشعر بالحاجة للسعي لذلك—— أما الآن بدا وكأن كل شخص ممن كنت أعرفهم وأحبّهم يشكّ بي. وأما في الجالية الإسلامية فقد شعرت في البدء أن ليس لي مكان فيها؛ وبالإضافة إلى ذلك شعرت بقوّة أن معظم الإخوة في المسجد كانوا مرتابين فيما إن كنت سأثبت على الإسلام أم لا. وكانوا عندما يتحدثون إلي يخاطبونني بلهجة الراعي والمتفضّل كما لو أنه لم يسبق لي أن درست الإسلام أو اطلعت عليه، وكما لو أنني كنت شاباً لا أخلاقياً قبل أن أصبح مسلماً. لقد بدا كما لو أنهم يفترضون أن صفتيَ (أمريكي) و (مسلم) متنافرتان بعضهما مع بعض وأنني لن أكون قادراً على تطهير نفسي كلياً من الأولى، ومن ثم لن أصبح في الثانية على نحو تام. بمعنى آخر، شعرت وكأنني أصبحت منبوذاً من قبل الجميع، وأنني لن أكون صالحاً لأي مكان بعد الآن.

لقد غيَّرتْ الليلة التي أمضيتها في دافيس كل شيء. ألقيت محاضرة واحدة فقط، وسرعان ماغدوت بطلاً بين المسلمين. لقد أحببت ذلك الإعجاب والتبجيل من الحضور لدرجة أنني لم أقض منه نهمي، ويبدو أنهم كانوا يبغون المزيد مني، على الأقل في البداية. وسرعان ماكان يطُلب مني أن ألقي خُطَباً —— عملياً —— في كل تجمّع إسلامي كنت أدعى إليه. وكنت في البداية أعيد ببساطة رواية قصّة إسلامي، ولكن بعد فترة بدأت بتحضير محاضرات وخطب أخرى ثم أقوم باستظهارها، وكنت إذا مادعيت لإلقاء أيّ منها أتظاهر وكأنني أقوم بذلك ارتجالاً.

وأما مختلف الجماعات التي كانت تتنافس للسيطرة على مسجد جامعة سان فرانسيسكو فقد بدأت كل منها الآن ببذل جهد إضافي لتجنيدي في صفوفها. شعرت أنه من الضروري الانضمام لإحداها. حاولت الانضمام أولاً إلى جماعة التبليغ، لأنني تأثرت في البداية كثيراً بميولهم الصوفية؛ ولكنني سرعان ماسئمت ممارساتهم في الزهد والتقشف. حاولت ولفترة وجيزة الانضمام لجمعية الطلبة المسلمين الأمريكية التي أسسها طلاب من جماعة الإخوان المسلمين، ولكنني لم أحب تركيزهم القوي على سياسات الشرق الأوسط. وأخيراً انضممت إلى الإخوة من الجزيرة العربية والذين كانوا في معظمهم من السلفيين.

وبينما كنت أتنقّل من جماعة لأخرى بدأت باتّباع عادة سيئة، وهي أنه عندما يبدأ الإخوة بانتقاص قدر أعضاء المجموعة الأخرى كنت أجاريهم في ذلك. طبعاً ما كان ينبغي لي القيام بذلك، مادمت حديث عهد بالإسلام، ومن جهة أخرى لايحق لي الحكم على مؤمنين آخرين، ناهيك عن ذكر أن الإسلام يحرّم الغيبة والنميمة. والأسوأ من ذلك هو أن الإخوة الذين كنت أغتابهم من وراء ظهورهم كانوا هم أنفسهم ممن دعوني إلى بيوتهم، وأظهروا لي كل لطف وإكرام في السابق. ولكن بعد فترة لم أستطع أن أطيق نفاقي بنفسي وفي النهاية أصبحت قادراً على مقاومة الدافع لانتقاص قدر أعضاء المسجد الآخرين أو الحديث عنهم من وراء ظهورهم.

ومع ذلك كنت لازلت أحتاج للهجوم على أحد ما إذ كيف يمكن لك أن تبقى بطلاً دون سبب أو نزاع؟ أنا لا أقول: إنني في ذلك الوقت كنت أخطط لذلك بوعي وإدراك، ولكنني أعتقد كما أرى الأمر الآن، أنني كنت مدفوعاً بدافع ما ولكن دون إدراك مني. إذا لم يكن كافياً بالنسبة إلي أن أكون بالنسبة إلى هؤلاء المسلمين كأي واحد منهم، بل أردتهم أن يتطلعوا إليّ على أني أسمى منهم. وكان من الطبيعي لي أن أصبح عاطفياً لكل ما هو أمريكي ومدافعاً قوياً عن الثقافة الشرق أوسطية. ففي محاضراتي العامة كنت أبالغ في تصوير الفساد

والخسّة في وطني، وأزيّن لما كان شائعاً بين المسلمين من نظريات المؤامرة التي يقوم بها الغرب وخاصة اليهود .

كما أنني أصبحت محافظاً جداً في منهجي الإسلامي، لأن هناك قدراً من الاحترام المضمون غالباً ما يصاحب الصرامة الدينية. فعندما تكون محافظاً راديكاليّاً فإن المؤمنين الآخرين قد يشكّون في تفكيرك، ولكن لا يمكن لهم أن يشككوا في إيمانك وورعك. وسرعان ماتبنّيت بشكل علني منهج التفسير والتطبيق الحرفيين للقرآن والسنة بغض النظر عن السياق التاريخي لآيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ . ولكنني كنت أشعر أنه مهما حاولت جاهداً أن أقنع نفسي والآخرين بهذا المنهج إلا أنني لم أكن أشعر بكامل الارتياح حياله .

أصبحت مدافعاً مشاكساً عن الدور الإسلامي التقليدي للرجل والمرأة، وكنت بشكل خاص بطل الدفاع عن الدور القيادي للرجل في المجتمع، وعن مسألة عزل النساء عن الرجال في حياتنا العامة، وعن إقصاء النساء عن المناصب القيادية في المجتمع. حاولت جاهداً إطلاق لحية (إسلامية)، ولكن على مايبدو أن جِينات عائلتي لم تعطني الكثير من شعر الوجه ولذلك كانت لحيتي خفيفة متناثرة. وكنت أشجب باستمرار قلة إيمان مسلمي اليوم، وعدم فعالياتهم في الحياة الراهنة وعجزهم عن مواكبة متطلبات الإسلام. ففي ذلك الوقت لم أكن أعد نفسي أحد أعضاء غالبية المسلمين الضعيفة، برغم أني لم أقل ذلك قط. وبدأت كذلك بمهاجمة ديانة والديّ بشكل حاقد. وقمت بدراسة جميع الحجج التي كان يستخدمها المسلمون في مناقشاتهم ضد المسيحيين، كما أنني شاهدت كل شريط فيديو يحتوي مناظرات إسلامية - مسيحية وقع تحت يدي .

وخلال الحوارات بين الأديان كنت أكرر الحجج نفسها ضد المسيحية حرفاً بحرف تقريباً. وأما المادة التي كنت أستخدمها فكانت — إلى درجة ما — جديدة، ذلك أن المناظرين المسلمين المعاصرين كانوا يستخدمون حجج المسلمين التقليديين التي كانت دوماً الأكثر عمقاً وأكاديميةً. ومهما يكن فإن

الفكر المسيحي قد تغيّر كثيراً عبر عدة القرون الأخيرة، وأما الحجج التي يقدمها المسلمون المعاصرون فهي في الواقع لا تنطبق إلا على بعض فرق المسيحية المتطرفة. وعندما كنت أشترك في أي حوارات كنت مدركاً لذلك التغيّر، ولكنني وجدت أن الغالبية العظمى من عامة المسيحيين المتدينين كانوا بدورهم جاهلين بتطور الفكر المسيحي البحثي تماماً كما كان المسلمون جاهلين بذلك. وهكذا كان خصومي في النقاش من المسيحيين غير العارفين بذلك التطور يقفون موقف المدافعين والمراوغين عندما كنت أهاجم مواقع مختلفة في المسيحية كانوا يجهلونها أنفسهم. وهكذا كانت استراتيجيتي مخادعة مضللة برغم أنها أكسبتني شهرة واسعة بين أبناء ديني.

* * *

السم

بعد اعتناقي الإسلام كان مجموع الأعوام التي قضيتها في سان فرانسيسكو لاتتجاوز الخمسة. شهدت الأعوام الثلاثة الأولى منها تقدماً ثابتاً باتجاه المحافظة الراديكالية (radical conservatism) وعدم التسامح مع وجهات نظر الآخرين التي كانت تخالف وجهات نظري. وأما العام الرابع فكان عام التحرر من الوهم (disillusionment)عندما بدأت أفكر جدياً بالمنهج الذي كنت أتّبعه. وأما العام الخامس فقد كان بداية المعافاة، وهي الفترة التي بحثت خلالها عن مصالحة ما بين نفسي الحقيقية وإيماني. أعتقد أن ثمة عوامل وحوادث رئيسة هي التي أودت بي إلى هذا التحول وسوف أقوم بمناقشة ذلك فيما يلي .

فكما قلت سابقاً، لقد عاهدت نفسي ألا أشترك مرة ثانية في النميمة التي قد تصدر عن جاليتي. ولكن كان هناك جماعة واحدة من المسلمين ممن أقصي عن فعاليات الجالية، وهؤلاء كان يمقتهم معظم الإخوة الذين كنت أصاحبهم. فقد أعلن بعض الأعضاء من مسجد جامعة سان فرانسيسكو والذي أسسه وكان

يديره طلاب من الطائفة السنية أن المسلمين الشيعة غير مرغوب هم في ذلك المسجد. وفي الحقيقة لم يكن هناك أي تفاعل بين أعضاء كلتا الجالتين السنية والشيعية. فمعظم الإخوة من السنة كانوا لا يوافقون الشيعة، وأما الإخوة من الجزيرة العربية فكانوا يمقتونهم. كانت الحرب العراقية - الإيرانية ما تزال مستعرة وكان يصل إلى المساجد الأمريكية من دول الخليج نتاج هائل من الثقافة المناهضة للشيعة، وكانت دول الخليج تلك تدعم صدام حسين في حربه ضد إيران. وكان واضحاً أن تلك الكتابات كانت دعاية إعلامية أكثر من كونها بحثاً علمياً جاداً. ولكنني درست ذلك النتاج واستخدمته للتنديد وبشدة بالإسلام الشيعي كلما سنحت لي الفرصة بذلك .

وفي إحدى الأمسيات ألقيت محاضرة في المسجد عن مخاطر الشيعة، وأنهيت هجومي العنيف عليهم واصفاً إياهم بالخطر الأعظم الذي يتهدد الإسلام حالياً، وأنهم السم الذي يسري في جسد الأمة. وبعد المحاضرة وبينما كنت أغادر المسجد في تلك الليلة استوقفني أحد الطلاب وطلب — بأدب جم — التحدث إلي على انفراد. قال لي: إنه من إيران وإنه برغم نشأته في أسرة شيعية فإنه أصبح سنياً منذ بضع سنوات. قال لي: إن الحديث الذي أدليت به في خطبتي قد آذاه كثيراً، لأنه لم يتوقف عن التفكير بأمه وأبيه بينما كنت أشهّر بالشيعة، وأتحدث عن مساوئهم ومخاطرهم على الأمة. وأردف بالقول: إنه بالرغم من أنه قضى معظم حياته في مجتمع شيعي فإنه لم يسمع بمعظم ماجئت به في محاضرتي عن عقائدهم وممارساتهم. ثم قال في صوت يكاد يختنق:"لقد جعلت من أمي وأبي أعداءً للإسلام! فمن أين بحق الله جئت بمعلوماتك تلك؟" وأما بالنسبة إلي، فسرعان مااستحوذ عليّ شعور من الندم، ذلك أنني في الحقيقة كنت قد جمعت حقائق محاضرتي على عجل وبطريقة غير مسؤولة، وشعرت أن ما قد قاله الأخ الإيراني كان ربما صحيحاً. وفي نهاية حديثنا توسلت إليه أن يسامحني ووعدته أن أقوم بدراسة الشيعة بشكل أكثر دقة وموضوعية وأنني سوف أصحح علناً أي معلومات خاطئة كنت قد قلتها. ولم يدم الوقت طويلاً

حتى اكتشفت أن محاضرتي تلك الليلة كانت مليئة بالمغالطات وسوء التفسير والمبالغة. وحتى هذا اليوم مازلت أسمع من يقتبس بعضاً من الادعاءات الخاطئة التي أدليت بها آنئذ، وأحاول جاهداً تصحيحها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

فتلك المحادثة بيني وبين الطالب الإيراني لم تجعلني أحسّن من طرائق بحثي وحسب، بل في الحقيقة أرعبتني. فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أواجه فيها بالمعارضة بشكل فعلي وعلى نحو شخصي. فعندما كنت أهاجم مسلمي جاليتنا على عجزهم وضعفهم وعدم فعاليتهم لم أكن لأشير إلى أي شخص بالاسم؛ وعندما كنت أهاجم المسيحيين في محاوراتي ما كان أحد منهم يجابهني بأي ردود فعل شخصية. ولكن هذه المرة شعرت من الأخ الإيراني ورأيت عن كثب مدى الأذى الذي سببته له بتصرفي في المحاضرة. وسرعان ما بدأت تساورني الشكوك حول إيماني وإخلاصي وأفكر في انفعالي ودوافعي. تساءلت في نفسي حول نفسي كيف أنني أصبحت ميالاً للغضب، وتساءلت عن جدوى مهاجمة الآخرين وانتقاص قدرهم. فكّرت في نفسي عما حصل لي منذ اعتناقي للإسلام. فقد دخلت هذا الدين بسلام، وسرعان ما أصبحت متجهماً وكالحاً وضيق الأفق وقاصر التفكير. قلت في نفسي: من أحارب أنا؛ ولماذا؟. وبعد بضعة شهور من هذا الحادث مع ذلك الطالب الإيراني حدث في جاليتنا أمر دفع بالتوتر الذي شعرت به إلى نقطة حرجة.

* * *

التخلي

لم يمض وقت طويل بعد إسلامي عندما انضم إلى الإسلام أمريكي أبيض كان في مثل سني واسمه غرانت. أثارني دخول غرانت في الإسلام بشكل كبير، فحتى ذلك التاريخ لم أقابل سوى شخصين من أصول أوروبية اعتنقا الإسلام، وكلاهما كان يعيش خارج سان فرانسيسكو. ومنذ اللحظة الأولى التي قابلت

فيها غرانت انسجمت معه وسرعان ما أصبحنا صديقين حميمين. فخلال لقائنا كان محور الحديث الذي يدور بيننا هو خبرتنا ومشاعرنا حول الإسلام، وكان كل منا يعين الآخر على التغلب على المصاعب التي كانت تواجهه بعد انضمامنا إلى الجالية الإسلامية. فبالنسبة إلي كان الأمر عظيماً أن أجد شخصاً من جيلي وخلفيتي الثقافية لكي أتحدث إليه. وكم شكرت الله على هدايته غرانت للإسلام، لأن صداقته بالنسبة إلي كانت نعمة من لدن عليم حكيم. ولكن خلال فترة عامي الرابع في سان فرانسيسكو توقف غرانت على حين غرة عن حضور الصلوات في المسجد بما في ذلك صلاة الجمعة. حاولت الاتصال به عدة مرات لأرى إن كان على مايرام أم لا ولكن دون جدوى. ظننت أنه ربما غادر المدينة لفترة ما، برغم أنه لم يذكر لي أي نية له في مغادرة سان فرانسيسكو. توقفت عند شقته عدة مرات أنا وبعض الإخوة من المسجد الذين كانوا قلقين عليه، ولكن لم نعثر على أحد في شقته.

وبعد عدة أسابيع من اختفاء غرانت وفي إحدى الأمسيات قررت الذهاب إلى منـــزله وحدي. قرعت جرس الباب وانتظرت لعدة دقائق ولكن لم يجبني أحد. وبينما استدرت للمغادرة متوجهاً إلى سيارتي سمعت باب منـــزله يفتح. التفت للخلف لأرى غرانت يقف خلف الباب وقد بدا نصفه فقط لأنه لم يفتح الباب إلا جزئياً.

صرخت في دهشة:" آه يا غرانت! الحمد لله أني وجدتك وأنت تبدو على ما يرام من الصحة." لم أعط غرانت الفرصة لأي ردود فعل إذ إنني هرعت إليه مسرعاً. إلا أن بهجتي سرعان ماتلاشت عندما أدركت من تعابير وجهه أنه لم يكن سعيداً بلقائي على الإطلاق. وعندما وصلت إليه سألته برصانة محاولاً إخفاء إنزعاجي لبرودة لقائه:"ماالخطب ياغرانت، أخبرني ما الذي حصل؟ ".

دعاني لدخول منـــزله على مضض حيث جلسنا على كرسيّين متقابلين في غرفته المظلمة والخالية تقريباً من الأثاث. بادرته قائلاً بأنني كنت قلقاً جداً

عليه، وأني خلت أنه كان مريضاً أو قد أصابه مكروه. ردّ علي قائلاً: إنه كان يريد أن يتصل بي، ولكنه لم يكن ليدري كيف ستكون ردة فعلي حيال ما كان يريد أن يقوله لي. ولكنه مالبث أن بدأ يشرح لي ببطء وبرود سبب تغيبه عن الجالية الإسلامية.

قال لي: إنه خلال الأعوام الماضية اعتنق ديانات كثيرة ثم مالبث أن ارتدّ عنها جميعاً، وأنه قد بدّل ديانات أكثر مما كان يبدّل زوجاً من الجوارب. ثم قال: إنه لم يكن يبحث عن مجموعة من المبادئ والمعتقدات التي تنسجم مع تفكيره وحسب، بل عن جالية تمثل تلك المبادئ والمعتقدات وتعايشها بشكل يومي. ثم قال: إن ما جذبه إلى الإسلام هو ماكان قد رآه في بعض المسلمين ممن قابل، ولكنه مع مضي الوقت اكتشف أن الجالية الإسلامية كانت بعيدة كل البعد عن المبادئ العليا والمثل النبيلة التي كانت تنادي بها، وأن عيوب تلك الجالية قد حجبت عن المجتمع فضائلها. ثم قال: إنه أخيراً وجد ضالته في الجالية المؤمنة التي مافتئ يبحث عنها والتي كانت تترجم معتقداتها الدينية إلى احترام ومحبة متبادلين — قال لي غرانت ببساطة إنه قد أصبح بوذياً (Buddhist) وسرعان ما أصابني دوار في رأسي فجلست واجماً أصطرع مع نفسي محاولاً جمع شتات فكري للرد عليه بطريقة منطقية وفعّالة. لقد كانت مخاوفي وظنوني في محلها، وكم كنت أرجو الله أن يكون غرانت مريضاً أو أصابه حادث ما على أن يكون قد ارتد عن الإسلام. ثم إن غرانت دفع خنجره في جرحي عميقاً عندما قال: "جفري، أنا أعرف أنك تزوجت مؤخراً من امرأة مسلمة وأن اهتمامك بالإسلام أصبح راسخاً، ولكنني أعتقد أنك ستكون مسروراً جداً إذا قابلت أصدقائي الجدد من البوذيين، فقد أعطوني هذا الكتيب الذي يحتوي على عقائد البوذية الرئيسة — بإمكانك أن تأخذه إذا أردت".

تناولت الكتيّب والكرّاس الذي كان بداخله من غرانت وحدقت في صفحاته بذهول. لم أستطع أن أرفع بصري المشدوه لأتطلع إلى غرانت.

هززت رأسي مستنكراً ثم قلت له: " غرانت، أنا لم أجرّب الإسلام كزوج من الجوارب مثلك، بل إنني استسلمت وخضعت لما أدركت أنه الحقيقة بعينها. فأنا شخصياً لم أرد في البداية أن أكون مسلماً أو أن أنضم إلى جالية دينية بعينها. بحق الله ياغرانت، لقد كنتُ ملحداً قبل إسلامي! فسواء كان المسلمونَ أناساً طيبين أم أشراراً فإن ذلك لم يكن له علاقة مطلقاً باختياري الإسلام ديناً؛ ولن يكون لذلك أي صلة بقراري للبقاء في هذا الدين." ثم سألني غرانت مندهشاً: "إذن لماذا بحق الله أصبحت مسلماً؟" فأجبته دون تفكير وبحماس كما لوأنه يجب أن يعرف ذلك:"بسبب القرآن... لقد كان القرآن هو السبب." كان غرانت حساساً وذكياً ولكنني كنت أرى من خلال نظرته الخاوية إلي أن إجابتي لم تبلغ الهدف المطلوب. ثم فكرت في أن أستطرد في إجابتي، فقلت له: "يا غرانت، لقد قرأت القرآن بنفسي واصطرعت معه وحاولت مجادلته، ولكنني في النهاية لم أملك إلا أن أستسلم له. لقد استسلمت لله الواحد الأحد الذي عرفته ووثقت به من خلال قراءتي لكتابه. وعلى هذا فأنا ببساطة لا أستطيع أن أتخلى عن كل ذلك".

* * *

نقطة انعطاف

غادرت شقة غرانت إلا أنني لم أتوجه إلى البيت، فقد كانت الصدمة شديدة الوقع عليّ، وكنت أحتاج إلى بعض الوقت من أجل التفكير. أوقفت سيارتي في شارع غيري (Geary street) على مسافة قريبة من منــزلي ثم مشيت في الاتجاه المعاكس سيراً على الأقدام. وبينما كنت أسير وحدي مجهداً فكرت كيف جاءت أخبار غرانت في أسوإ وقت كنت أمر به. فبرغم أني لم أخبره عن نفسي فإنني كنت أنا الآخر أمر بأزمة إيمانية. لقد كنت أغوص في بحر من الاضطراب والشك بالنفس؛ وربما لو كنت في ظروف عادية لكنت أخبرت

غرانت حول ذلك. فمنذ أصبحت مسلماً لم أمرّ بمثل تلك الحالة من الروحية المتدنية. فقد شعرت أنني بعيد عن الله ومعزول وضائع. وأصبحت ممارستي للشعائر خاوية روحياً. تضرعت في صلواتي إلى الله أن يغمرني بشعور من الرحمة كما كان الأمر في بداية عهدي بالإسلام، وأن يمنحني درجة الحب الذي كنت أشعر به آنئذٍ عندما كنت مسلماً جديداً كثير الأخطاء وغير بارع في تطبيق الشعائر. تابعت استجواب نفسي بينما كنت أسير بمفردي: قلت في نفسي ألم أكن أؤدي الصلوات الخمس في المسجد؟ ألم أكن أمارس شعائر ديني بإيمان راسخ؟ ألم أكن أؤدي واجبي تجاه الله من خلال نشاطاتي في الجالية؟ وهل أعرض الله عني برغم كل الخطب والمحاضرات التي كنت ألقيها؟

لم أستطع أن اكتشف أين وقع الخطأ، والأسوأ من ذلك أنه لم يكن لدي مكان آخر أتجه إليه. فمناقشة أزمة إيماني مع غرانت كان أمراً شبه مستحيل الآن، والإخوة في المسجد لن يفهموني بالتأكيد، وفوق ذلك كله لم أرد أن أخيّب أمل زوجتي التي كانت معجبة بي كل الإعجاب إضافة إلى ثقتها العمياء بي. وطوال ذلك الوقت كانت كلمات غرانت "لماذا أصبحت مسلماً إذن؟" ترن في أذني.

لم يسبق لي أن فكرت في الدوافع التي قادت بي إلى الإسلام في يوم من الأيام، ومع ذلك لم يكن من واجبي أن أفكر في سؤاله. لقد كان جوابي له استجابة لأمر أثاره هو بنفسه.

* * *

لقد كان السبب هو القرآن

توقفت في الشارع، ثم حدقت في الرصيف. ركزت تفكيري في إجابتي لغرانت، وسرعان ما شعرت وكأن بارقة من نور أضاءت بصيرتي: "لقد كان السبب هو القرآن." فكّرت كيف أنني فقدت الاتصال بهذا الجواب، وبدأت

أذكّر نفسي بالعوامل المختلفة من اعتناقي للإسلام. تذكرت أنني لم أذهب إلى السوق بحثاً عن دين عندما بدأ اهتمامي بالإسلام. ففي البداية لم أكن سوى فضولي يريد أن يعرف عن عقائد المسلمين. تذكرت أنني لم أصبح مسلماً كي أجد العزاء والدعم من أي جالية على الإطلاق، أو من أجل أن أتزوج بامرأة أو أنشئ عائلة. فكرت في نفسي كيف أَسَر القرآن عقلي في البداية، ثم هداني إلى المعرفة التي كنت بحاجة إليها، ومن ثم إلى محبة الله، وكيف أني خضعت واستسلمت إلى محبته وعفوه المطلقين، وكيف أن اعتناقي للإسلام لم يكن سوى الخضوع للحقيقة بعينها، وكيف أسلمت نفسي — قلباً وجسداً وروحاً بكل إخفاقاتي — إلى قدرة خفيّة كنت أحاول مقاومتها لفترة من الزمن، ولكنني أخيراً عجزت عن ذلك وأذعنت لها.

عاودت المسير ولكن بنشاط أكبر، هذه المرة بقيت مطرقاً رأسي في الأرض، وأنا أحاول التركيز على أفكاري. وسرعان ما بدأت الأجوبة تأتيني على شكل ومضات. أيقنت بعد طول تفكير أنني قد شططت بعيداً عن دوافعي الأصلية التي قادت بي لاعتناقي الإسلام. فقد كنت أخدم نفسي وأمجدها أكثر من أي شيء آخر في نشاطاتي في الجالية، وقد أصبحت حريصاً أن أحوز على احترام الجالية الإسلامية أكثر من حرصي على علاقتي بالله، وكنت قد آذيت آخرين بصرامتي وتشددي لا لشيء إلا لكي أحظى بمزيد من إعجاب أبناء ديني. وبهذا فقد وصلت إلى ما كنت أكره أن أجده في بعض النماذج الدينية عندما كنت ملحداً من نفاق وموافقة دنيئة للرأي السائد. أدركت أني كنت قد رسمت لنفسي صورة مزيفة، وحاولت أن أغسل دماغ نفسي في محاولة مني لتصديق نفسي. لقد أصبحت ببساطة كواحد من أولئك المبشرين (evangelist) من أنصاف المخبولين، وكمن يتشدّق ويهذي، وكمن يحثو البارود على النار — لقد أصبحت النسخة الإسلامية من إلْمَر غانتري (Elmer Gantry). استدرت إلى الوراء وقفلت راجعاً إلى سيارتي، فلقد عرفت الآن ماالذي يتوجب عليّ القيام به. أيقنت أنه يتوجب عليّ العودة إلى الهدف الأصلي الذي أصبحت مسلماً

من أجله، وأن عليّ التخلي عن إلقاء الخطب والمحاضرات، وأن ألتزم الأدب والصمت معاً، وأن أكون أكثر صدقاً مع الآخرين ومع نفسي، وأن أعبّر عن القلق إذا ما شعرت به، وأن أكف عن دعم الأفكار التي أشك بها والتي من شأنها أن تثير التساؤل. والأهم من ذلك كله يتوجب عليّ أن أتضرّع الى الله كي يغفر لي خطيئتي ويهديني.

* * *

بداية جديدة

وعندما وصلت بيتي كان لي حديث مطوّل مع زوجتي. أخبرتها عن كل شيء مررت به وقدمت لها اعتذاري لأنني لم أفعل ذلك من قبل. وعندما سألتني: لماذا لم أشاطرها مشاعري تلك في الحال؟ فقلت لها: إنه حتى وقت متأخر لم أكن قادراً على تصوّر وتحديد معنى لتلك المشاعر. واعترفت لها بأني لم أرد أن أخيّب أملها. فقالت: إن ذلك كان غباءً مني، وأنني لم أقدّر مدى حبها لي.

أردت أن أبقى وحدي بعيداً عن ضغوطات الجالية التي كنت أعالجها بشكل سيئ للغاية. دخلت في حال شبه انعزالية عن الجالية، ولم أكن لأذهب إلى المسجد إلا لصلاة الجمعة مادام حضورها فرضاً. وكنت أؤدي الصلوات الأخرى إما في المنـــزل وإما في مكتبي في الجامعة. وكما توقعت فقد خابت آمال طلاب الجامعة من المسلمين للتحول الكبير والمفاجئ في سلوكي حيالهم. وبقدر ماكنت أشعر بالألم لخيبة آمالهم فإنني شعرت بالحرية من ألا أكون بطلاً بعد ذلك .

إن سبل الله ورحمته ليس من اليسير فهمها أحياناً. فبالرغم من أنني لا أنصح أي مسلم أن يعزل نفسه عن الجالية فإن الغريب في الأمر هو أنني بدأت أشعر أن روحي بدأت تنتعش من جديد. دامت عزلتي عن الجالية ومشكلاتها بضعة

شهور، وكادت تطول أكثر من ذلك لولا انضمام عدد جديد من المعتنقين الأمريكيين الجدد إلى جاليتنا في فصل الربيع الدراسي ذلك، وقد توجّب عليّ التعامل معهم.

وكان جميع من أسلم عندئذ من النساء ماخلا رجلاً واحداً، وسرعان ما انضممت إلى حملتهم المطالبة بالسماح لهنّ أن يصلّين في المسجد. وليس هناك مايعارض ذلك في نصوص الشرع الإسلامية، ولكن عبر العصور جعلت ثقافات إسلامية متعددة من المسجد مكاناً غير مريحٍ لصلاة النساء، بل إنهن أرغمن بطريقة ما على أداء فروضهن في بيوتهن فقط. وفي الحقيقة تعاطف العديد من رجال المسلمين في جاليتنا مع النساء كي يصلين في المسجد، ولكن كان هناك بعض الطلبة المحافظين المتشددين الذين وقفوا بعناد ضد هذه المسألة، لدرجة أن أحدهم هدد أنه إذا وجد امرأة في المسجد فسوف يلقيها في الشارع. وأما هؤلاء النسوة الجدد فقد سئمن المحاولة للصلاة في المركز بعد أن سببت محاولتهن تلك نقاشاً وجدالاً عنيفين، وهكذا فقد امتنعن عن أداء الصلوات في المساجد. وسرعان ما عادت الجالية إلى طبيعتها، ولكن حسب علمي لم تبق ولا واحدة من هؤلاء النسوة على إسلامها اليوم. وقبيل انتهاء ذلك الجدل كان لي أن قابلت الرجل الأمريكي الذي اعتنق الإسلام آنئذ. وحفاظاً على خصوصيته وعدم الكشف عن اسمه الحقيقي فسوف أستخدم هنا اسم خالد للإشارة إليه بدلاً من اسمه الحقيقي أو الاسم العربي الذي أطلقه على نفسه لفترة وجيزة .

كنت في الثالثة والثلاثين من عمري عندما قابلت خالداً أولَ مرة. كان شاباً في العشرينيات من عمره. وخير ما أستطيع تذكره عنه أنه كان شخصية محببة وكان شديد الحماسة للإسلام. كان شاباً لامعاً وفطناً ولطيفاً ومتواضعاً وكريماً. وكان إذا ما قابلك ابتدرك بابتسامة أو كلمة طيبة. كان سعيداً بإسلامه وكان يعمل دون كلالٍ في سبيل ذلك. وقد اشترك خالد في كافة نشاطات المسجد الخيرية، وكان دوماً يساعد في ترتيب برامج لقاءات الجالية.

كان خالد متزوجاً من فتاة كاثوليكية متدينة، وكان لديهم طفلة في العاشرة من عمرها، وولد في الثانية من عمره. ولقد تسبب إسلامه ببعض التوتر في عائلته فطلب مني التحدث إلى زوجته حول الإسلام. حذّرته بالقول: إنني لن أضغط عليها في أي حال من الأحوال لإرغامها على قبول الإسلام، فقال: إن ذلك ليس قصده أيضاً، بل كل ما أراده لها أن تفهم الإسلام بشكل أفضل بحيث أهدّئ بعضاً من مخاوفها حيال هذا الدين. وافقت على طلبه، وهذا الأمر قاد بدوره إلى المزيد من التعارف واللقاءات بين أسرتينا.

وبعد شهرين من لقائي بخالد اعتنقت ابنته الإسلام ثم تبعتها زوجته بعد عدة أسابيع. لقد بعث الإسلام حياة جديدة في جاليتنا الإسلامية، لأن أسرة خالد سرعان ما أصبحت إحدى أكثر الأسر نشاطاً وإبداعاً في مسجد جامعة سان فرانسيسكو. وفي غضون تلك الأثناء بدأتُ وأسرتي الاستعداد للانتقال إلى لورانس بكانساس، وذلك لأني قبلت عرضاً وظيفياً مقدماً من جامعة كانساس. شعرت أنا وأسرتي بالحزن الكبير؛ لأننا سوف نفارق أصدقاءنا الجدد الذين عرفناهم مؤخراً في سان فرانسيسكو بما فيهم خالد وأسرته.

ومع مرور الأسابيع شعرت ببعض القلق من أن يقع خالد في المزالق نفسها التي كنت ما أزال أحاول التخلص منها. فقد جعلتني بعض الأحداث البسيطة أشعر أن خالداً ربما يرهق نفسه وأسرته ببعض الممارسات والأعباء غير الضرورية رغبة منهم في أن يصبحوا أكثر تديناً. أذكر مرة جاء فيها خالد إلى المسجد بعيد الظهر ومعه ابنته. وبعد الصلاة وبينما كنا نجلس متحلقين سأل أحد الإخوة ابنة خالد عن اسمها فانكمشت وتذللت، ثم نظرت إلى أبيها نظرة توسل، وكأنها تطلب منه أن ينقذها. هدأت الغرفة بينما نظر الجميع بفضول إلى ابنة خالد وهم يبتسمون ابتسامة مُطَمْئِنة. كرر الأخ سؤاله للطفلة عن اسمها بلطف، ولكنها تطلعت من جديد نحو والدها.

نظر إليها والدها وهو يلاطفها بعينيه، ثم قال لها:" أجيبيه يا ابنتي أجيبيه".

تنهدت الطفلة عميقاً ثم توقفت لبضع ثوان ثم زَمّتْ شفتيها وأخذت نفساً عميقاً ثم بدأت تتلفظ بهدوء مع بعض الجهد والمشقة:" عَــ...ــايـــ..شـــه (عائشة). تبسّم خالد بارتياح ثم أومأ برأسه لابنته تعبيراً عن رضاه بها. وبعد برهة سألت خالداً عن ذلك فقال: إنه يفكر في تغيير جميع أسماء أفراد أسرته إلى أسماء عربية بشكل قانوني ورسمي. فقلت له: إن ذلك ليس ضرورياً من الناحية الدينية. ثم ذكّرته بأسماء بعض الصحابة مثل بلال الحبشي، وسلمان الفارسي، من غير العرب، وأن النبي ﷺ إنما كان يأمر بتغيير الأسماء إذا كانت مشينة[١]. وأشرت عليه أن اسمه الأصلي، والذي يعني بالإنجليزية "هبة الله" لا يسيء بأي شكل من الأشكال لمبادئ الإسلام. وذكرت له أن هناك أحاديث شريفة تنهى المسلم عن أن يخفي نسبه.

ولكن خالداً قال: إن الجالية الإسلامية ستكون أكثر ارتياحاً مع الأسماء العربية. شاطرته الرأي وقلت له: لابأس إن كان ذلك دافعك أنت أولاً، ومن ثم اختيارك واختيار زوجتك ثانياً. ولكنني أشرت عليه بألا يفكر في تغيير اسم ابنته ذات السنوات العشر؛ لأن تغيير اسمها إلى العربية قد يكون صعباً على فتاة بدأت ترتسم ملامح شخصيتها. طلبت منه أن يتصور وضعها أمام زميلاتها في المدرسة. وفي النهاية ما كان من خالد إلا أن تبسم ثم طمأنني قائلاً بأنه يعرف ابنته، وأنها سوف تكون على مايرام.

طبّق خالد في بيته مبدأ العزل بين الجنسين، ففي إحدى الليالي وبينما كنت مدعواً أنا وأسرتي إلى بيته مع بعض الإخوة من المسجد أشار علي أن أدخل غرفة مخصصة للرجال في حين دخلت زوجتي وبناتي غرفة أخرى (علماً بأننا كنا قد زرناه لعدة مرات وكنا جميعاً — رجالاً ونساء — نجلس معاً). اندهشت لتصرفه، ثم إني دهشت أكثر عندما جمع عائلتينا معاً في غرفة الجلوس رجالاً ونساء بعد أن غادر الضيوف الآخرون. وعندما أخبرته عن حيرتي قال لي: إنه

(١) بلال" و "سلمان" أسماء عربية على خلاف ما ظن المؤلف. انظر لسان العرب (بلل، سلم).

لم يرد أن يحرج ضيوفه الآخرين الذين كانوا من الشرق الأوسط، إذ كان يفترض أنهم قد يتضايقون إذا جلسنا جميعاً على مائدة واحدة أثناء الغداء .

لقد شوَّش علي أفكاري طبعاً فقلت له: إن عَلَماً من أعلام الإسلام كالإمام مالك لم ير بأساً في اجتماع العائلات بعضها مع بعض على الغداء وأن هناك روايات صحيحة من الحديث الشريف تؤكد أن الرجال والنساء كانوا يجتمعون بعضهم مع بعض زمن النبي ﷺ وبوجوده. وكان احتجاجي أن ذلك لا يتعدى كونه مسألة ثقافية بالدرجة الأولى، والتي قد يكون ضررها أكثر من نفعها في الجالية الإسلامية الأمريكية. وقلت له: إنه من اللطف أن يحرص على راحة ضيوفه الشرق أوسطيين، ولكن لماذا لم يحرص على راحة الضيوف الأمريكيين أيضاً. وسألته إن كان الإخوة من الشرق الأوسط سيراعون ثقافتنا ويجلسوننا حسب راحتنا في منازلهم؟ كما أنني عقبت قائلاً: بأننا المعتنقين الجدد قد أصبح لدينا انفصام ديني في الشخصية (religious schizophrenic) ، نظهر بشخصية داخل الجالية الإسلامية وبأخرى خارجها. ولكنني مالبثت أن شعرت أنني قد جاوزت الحد في تعليقي إذ بدا على وجه خالد الشعور بالإهانة. افترقنا تلك الليلة ببرود وبعد ذلك لم تعد الأمور بيننا إلى مجاريها الطبيعية .

وسرعان ما بدأ خالد بقبول الدعوات لإلقاء محاضرات عن الإسلام، وهذا بالطبع زاد من شكوكي وخوفي عليه أن يمر بمثل تجربتي. إن الصدق والإخلاص ضروريان لنماء المرء الروحي، ولكن المحك الأساسي لهما هو أمام الجمهور والحضور. وفي اعتقادي أن هبوطي الروحي المؤخر كان سببه الأساسي المحاضرات العامة. فأنا لا أشجع أي مسلم على القيام بالخطابة العامة حول الإسلام وأحضّ المعتنقين الجدد بشكل خاص كي يتجنبوا المنابر. ومن جهة أخرى فعندما فكرت في وضع خالد بشكل موضوعي، ربما كنت أبالغ في ردّة

فعلي حياله، وربما أربط تجربتي المريرة بهذا المضمار بتجربته. وإذا كان خالد قد أصبح أشد محافظة في منهجه الديني، فإن هذا لا يعني بالضرورة أنه كان يتجه نحو أزمة ما، فلقد عرفت العديد من المعتنقين الأمريكيين الجدد ممن أصبح محافظاً متشدداً في دينه إلا أنه كان سعيداً جداً بذلك بعد أن قولب حياته على ذلك الشكل. فالممارسات الثقافية القليلة التي تبناها هو وأسرته، والتي هي ليست من صلب الإسلام في الأصل على ما أعتقد لم تكن سبباً يدعو للقلق .

وبعض هذه الممارسات كالعزل بين الجنسين مثلاً (وهذا هو الهدف الظاهر منها). وعلى أي حال فإن العديد من الناس في أمريكا، هذه البوتقة المنصهرة، يقتبسون عادات أجنبية متعددة. عليّ أن أعترف أيضاً بأن خطب خالد حول الإسلام كانت أكثر اعتدالاً مما كانت عليه خطبي، وأن شخصيته كانت أكثر ليونة ومرونة واتزاناً من شخصيتي، و لم أكن أتصوّر أنه سوف يسيء استخدام المنبر ربما كما فعلت أنا .

قررت أخيراً ألا أزعج خالداً ثانية بشكوكي وقلقي عليه. ومن أسف أنه خلال الأسابيع الأخيرة التي قضيتها في سان فرانسيسكو لم أجد الفرصة السانحة كي أقدم له اعتذاري بسبب تدخلي بشؤون أسرته، وما زلت أشعر بالندم حتى هذه اللحظة.

* * *

إلى كانساس

ساعدني غرانت في تحميل أثاث منــزلي في الشاحنة، وذلك قبل سفري إلى كانساس بيوم واحد، وكان هو آخر شخص أودعه في سان فرانسيسكو. فبرغم ردته عن الإسلام فإننا بقينا صديقين حميمين. وبالرغم من أنه لم يعد مسلماً فإنني كنت دائماً أرى وجهة نظره الغريبة في الدين تتحدى التفكير على نحو متطرّف. فمحادثاتنا بعضنا مع بعض ساعدتني في سبيل استكشاف الأعماق من أجل تقوية إيماني بالإسلام كعقيدة. أشعر أنه من المفارقة حين أرى أن ردة غرانت عن الإسلام كانت حافزاً قوياً لعملية الإحياء الروحي التي كنت أمر بها، ولكن القرآن يذكرنا دوماً بأن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

ومع ذلك فإن تجربة غرانت في البوذية لم تدم طويلاً، بضعة شهور فقط. ويوم غادرت سان فرانسيسكو لم يكن غرانت ينتمي إلى أي ديانة رسمية برغم أنه كان مؤمناً قوياً بوجود الله.

* * *

التلاشي

كنت منذ تخرجي من جامعة بوردو (Purdue university) وأنا أرغب في العيش في الغرب الأوسط من أمريكا. وبرغم أني تأقلمت بسرعة في كانساس إلا أن قلبي بقي لبعض الوقت وكما تقول الأغنية معلّقاً بسان فرانسيسكو، حيث كنا على اتصال شبه متواصل بأعضاء جالية مسجد سان فرانسيسكو، على الأقل مرة كل أسبوعين .

كنت قد أعطيت غرانت عنواني الجديد ورقم هاتفي في كانساس يوم افترقنا آخر مرة، ولكن لسبب ما لم يكتب لي أو يتصل بي. حاولت الاتصال به مرات عدة ولكنني وجدت أنه ولأسباب غامضة وغير متوقعة قد غادر شقته. طلبت من بعض الإخوة في جالية سان فرانسيسكو أن يبحثوا لي عنه أو يجدوا عنوانه، ولكن لم يسمع أحد عنه أو يره ثانية. ببساطة لقد اختفى .

وفي فصل الربيع الدراسي الذي تلا مغادرتي لسان فرانسيسكو أغلقت الجامعة هناك المسجد الذي كان عبارة عن غرفة صغيرة في الطابق الأرضي من كنيسة القديس إغناطيوس (St. Ignatius church) فاليسوعيون (Jesuits) الذين كانوا قد أعاروا الطلبة المسلمين ذلك المكان كي يؤدوا صلواتهم الخمس فيه استردوه بحجة أنهم يريدون أن يجعلوا منه مستودعاً للكنيسة. لقد كانت تلك الغرفة هي المكان الذي نطقت فيه الشهادة لأول مرة، وكان ذلك هو المكان الذي كنت أؤدي فيه صلواتي الخمس كل يوم طيلة الأعوام الخمسة التالية لإعلان إسلامي. أشكر الله أن ذلك المكان كان دوماً هناك عندما كنت بحاجة إليه. وخلال العام الدراسي الذي وصلنا فيه إلى كانساس بدأت ابنة خالد ترتدي الحجاب الكامل أثناء ذهابها إلى مدرستها في سان فرانسيسكو. ولكن الإساءات التي واجهتها من زميلاتها في المدرسة كانت على ما يبدو أكثر مما كانت تستطيع تحمّله؛ فقد ضعفت ومرضت ونُقلت إلى المشفى أكثر من مرة. فما كان من خالد والحالة هذه إلا أن انتقل إلى مسكن مجاور للمركز الإسلامي في منطقة بيي (Bay area) حيث انضمت ابنته عائشة للمدرسة الإسلامية التابعة لذلك المركز. وبعد فترة وجيزة تم انتخاب خالد لعضوية إدارة ذلك المركز. بعد مضي عدة شهور سمعنا نبأ مفاجئاً من خالد، إذ قال إنه أخرج ابنته من المدرسة الإسلامية وأعاد تسجيلها في المدرسة الحكومية حيث بدأت بالحضور

بلباسها الأمريكي الأصلي. ثم إنه استقال من مجلس إدارة المركز الإسلامي وسرعان ما انتقل هو وأسرته إلى مكان آخر دون أن يتركوا عنوانهم الجديد أو رقم هاتفهم لأي واحد من أعضاء الجالية الإسلامية .

وبعد بعض التحري تمكنت زوجتي من الحصول على رقم هاتف منـزل خالد الجديد. تحدثت زوجتي مع زوجته التي أخبرتها أن بقية أعضاء أسرتها قد تخلوا عن إسلامهم وأنها أصبحت في حيرة وارتباك مع هذا الدين. ثم قالت إنهم جميعاً يستعدون لمغادرة سان فرانسيسكو إلى جنوب الولايات المتحدة، وكان هذا آخر ما سمعناه منهم.

* * *

بلا ندامة

حزنت كثيراً على خالد ولكن ردته عن الإسلام لم تؤثر بي كما أثرت ردة غرانت. فقد رأيت العديد من الأمريكيين الذين يدخلون الإسلام ثم يخرجون منه. وكان عدد من ارتد عن الإسلام من الأمريكيين يشكل نصف عدد من قابلتهم عبر السنين. ولكنني أعتقد أن حالة غرانت كانت هي الأشد وقعاً عليّ وذلك بسبب صداقتنا الحميمة من جهة ومن جهة أخرى لأنها جاءت في فترة وصل إيماني فيها إلى فترة حرجة جداً .

وأما خبرتي الإيمانية في كانساس فقد كانت وما تزال أكثر هدوءاً وسلاماً مما كانت عليه في سان فرانسيسكو. فقد استقبلتني الجالية الإسلامية المحلية بكل ترحاب، ولم تمانع مطلقاً في قبولي كأحد أعضائها على الحالة التي أنا فيها. لم أعد ألقي خطباً كثيرة عن الإسلام — سوى مرة أو مرتين في العام — وعندما

أحاضر عن الإسلام فإنني أفضل أن يكون الجمهور صغيراً لأنني تعلمت أنني لا أستطيع أن أتعامل مع إغراء الشهرة بشكل جيد على الإطلاق .

لا أحمل أي ضغينة تجاه الجالية الإسلامية في سان فرانسيسكو. وبالنسبة إلى الأعوام العاصفة التي قضيتها هناك فليس لي أن ألوم أحداً سوى نفسي. فالمسلمون في مسجد الجامعة هناك ليسوا كاملين طبعاً ولكنهم كانوا، كعهدي بهم، مؤمنين طيبين وملتزمين، وكانوا جميعاً في غاية اللطف والكرم معي. وأما خطؤهم الوحيد بحقي فقد كان إعجابهم الكبير وثقتهم العمياء بي .

إنني أشعر ببعض الندم حيال سان فرانسيسكو. فالألم والمعاناة الداخلية اللذان مررت بهما خلال تلك الفترة التي أمضيتها هناك كانا ذَوَيْ قيمة عظيمة بالنسبة إلي. أعتقد أنهما كانا السبب في زيادة معرفتي بنفسي وبخدمتي لله. أرى أن الفترات الصعبة التي أمرّ بها في حياتي ضرورية من أجل النماء والتعلم، فكما قلت سابقاً في هذا الكتاب فقد دخلت الإسلام من أقصى أركان الطيف الروحي وهو الإلحاد، وكنت أتوقع أن هناك الكثير مما يجب علي تعلمه، وأنه لا بد لي من أن أعاني الكثير بينما أسير في طريق استسلامي إلى الله .

آمل من الجميع ممن قد آذيتهم أو أضللتهم في سان فرانسيسكو — بينما كنت أتأرجح ما بين الراديكالية والمحافظة هناك — سواء بالقول أو العمل ألا يأخذوا ذلك على محمل الجد. وإني لآمل أن يجدوا في أنفسهم من السعة والمغفرة ما يسامحونني به.


صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

الفصل السادس

الطريق إلى الأمام

صحبت القارئ قدر المستطاع في هذه الرحلة إلى الإسلام في أمريكا. إن المستقبل مايزال أمامنا، ولا يعلم أحد إلا الله ماذا يخبّئ المستقبل للإسلام الأمريكي. أعلم علم اليقين أيضاً أن الطريق أمام المسلمين في أمريكا سوف يكون مليئاً بالكثير من المنعطفات الحادة والمرتفعات التي ليس من السهل تسلّقها. على هذا فإنني أهيب بالذين يأملون البقاء على متن هذه الرحلة أن يجهزوا أنفسهم قدر المستطاع لمواجهة التحديات الجسام التي سوف تواجههم.

وليس من الواضح على الإطلاق إن كان الإسلام سيغدو قوة روحية واجتماعية فطرية ذات شأن في أمريكا الشمالية خلال القرن القادم. إن خمسة الملايين من المسلمين تقريباً الذين يعيشون حالياً في الولايات المتحدة وكندا، وعدة آلاف المساجد المنتشرة في مختلف مدن هاتين الدولتين هي لاشك بشائر خير، ولكننا يمكن أن نتصور أن عدد السكان المسلمين الملتزمين في أمريكا يمكن له أن يتناقص، خاصة إذا انحسرت موجة الهجرة إلى هذا الجزء من الكون. ومن الممكن أيضاً أن تحوّل المساجد العديدة المنتشرة في أرجاء الولايات المتحدة لاستخدامات وأغراض أخرى غير العبادة، وبالتالي تبقى تلك آثاراً حيّة لجيل من المسلمين الأمريكيين ممن انجرف أحفاده في تيار الحياة الأمريكية السائد. ولقد عرف التاريخ أمثلة من ذلك.

وأعتقد أنه لكي يسود الإسلام في أمريكا الشمالية لا بد من تحقيق ثلاثة شروط:

أولاً: أن يبرز جزء كبير من أطفال الجيل الحالي من المسلمين الأمريكيين راشدين متمسكين بإسلامهم بقوة.

ثانياً: أن تبقى الجالية الإسلامية متحدة بعضها مع بعض، وألاّ تنقسم إلى فرق طائفية يعادي بعضها بعضاً .

ثالثاً: أن تُنتج الجالية الإسلامية الأمريكية علماء الدين الخاصين بها، والذين خرجوا من بين ظهرانيها ممن لديهم الكفاءة للاستجابة بفعالية للقضايا المستجدة والمشكلات التي قد تنجم عنها. وسوف أناقش كلاً من هذه القضايا بإيجاز في هذا الفصل.

* * *

الوافدون الجدد

إن الجالية الإسلامية في أمريكا الشمالية حديثة النشأة، سواء من حيث نسب أعمار أعضائها، أو من حيث حضورها الملحوظ هنا. فمنذ ثلاثة عقود خلت لم يكن لهذه الجالية وجود يذكر. وأما اليوم فالمسلمون يشكلون حوالي اثنين في المائة من إجمالي عدد السكان في أمريكا الشمالية. فالذي يحضر صلاة جمعة أو مؤتمراً إسلامياً في أمريكا أو في كندا نادراً ما يلحظ حضور المسلمين من كبار السن في هذه التجمعات، ذلك أن عدد المسلمين من المسنين خاصة الذين تزيد أعمارهم على الستين قليل للغاية. وهذا يفسر لنا السبب في أن قيادات المنظمات الإسلامية الوطنية (مثل الجمعية الإسلامية ISNA والمؤتمر الإسلامي ICNAوالتجمع الاسلامي IANA في شمال أمريكا) تتألف في غالبيتها من الرجال والنساء ممن لم تتجاوز أعمارهم الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، بدلاً من وجود أشخاص أكثر سنّاً وبالتالي أكثر خبرة. وأما السبب في الظهور المفاجئ للإسلام في أمريكا فمرده إلى حملتين للمساواة بدأت إرهاصاتهما، الأولى خلال الستينيات من هذا القرن. تمثّلت الحملة الأولى في نضال الأفارقة الأمريكيين من

أجل الحصول على حقوقهم المدنية في الولايات المتحدة، وأما الحملة الثانية فكانت بسبب صراع دول الشرق الأوسط لتحقيق تكافؤ اقتصادي وتكنولوجي مع الغرب.

* * *

المسلمون الأفارقة الأمريكيون

في الولايات المتحدة أصبح اسم مارتن لوثر كنغ الصغير (Martin Luther King, Jr.) يرمز لحقبة الحقوق المدنية. إن أكثر مايتذكره المرء من مشاهد تلك الفترة صور القس مارتن لوثر كنغ وهو يقود مسيرة مهيبة من الأمريكيين الأفارقة الذين ارتدوا أجمل ثيابهم، وأخذو يسيرون بوقار وتؤدة وهم يغنّون الأغاني الروحية عبر شوارع عواصم الجنوب، في الوقت الذي كانت تقف فيه حشود من الأمريكيين البيض المعتوهين والساخطين جنباً إلى جنب مع بوليس مكافحة الشغب الذين وقفوا بكلابهم البوليسية الشرسة، يرقبون الموقف عن كثب في انتظار الشرارة الأولى لصب جام غضبهم على المتظاهرين.

ومع ذلك لم يشاطر جميع الأمريكيين الأفارقة في تلك الأيام العصيبة القس مارتن لوثر أحلامه بوطن متجانس بعيد عن العنصرية. فقد كان بعض قادة الرأي من الأمريكيين الأفارقة غير مقتنعين بجدوى رؤية الدكتور مارتن لوثر، وكانوا يؤمنون أن الرجل الأبيض مفطور على عدم التعامل مع الأجناس الأخرى بالعدل. فـ (إلَيْجا محمد Elijah Muhammad) ، مؤسس حركة (أمة الإسلام Nation of Islam) كان واحداً من أهم أنصار وجهة النظر تلك. وبرغم أنه توفي عام ١٩٧٥م فإن تعاليمه والعقيدة التي أسسها من هذه التعاليم ما زالت تكسب أنصاراً ومعتنقين جدداً من بين الأفارقة الأمريكيين حتى هذا اليوم، ومازالت أيضاً تؤثر وبقوة على مفهوم أمريكا للإسلام.

إن حركة (أمة الإسلام)، تحت قيادة إلَيْجا محمد، قدمت للأمريكيين الأفارقة تفسيراً دينياً راديكالياً للتاريخ الإنساني الذي أغرى الرجل الأسود كي يعدّ نفسه المختار الحقيقي من قبل الله، وأن الرجل الأبيض هو الشيطان بعينه. كما أن الحركة نفسها زودت أعضاءها بنظام ديني عزز فيهم احترام الذات وإدراك حقيقتها. ومع ذلك وفيما عدا القليل من العادات الدينية السطحية التي استعارها إلَيْجا محمد من الإسلام، فإن القليل من تعاليم الحركة وممارساتها يتصل فعلاً بالإسلام، في حين أن غالبية هذه التعاليم تتعارض مع الإسلام. فالكتاب المقدس (The Bible) كان وما يزال هو الملهم الأول لمبادئ هذه الحركة. فالقس لويس فرخان (Louis Farrakan) ، الزعيم الحالي للحركة، يستشهد بالكتاب المقدس بدرجة من الثقة أكبر بكثير مما يستشهد بآيات القرآن، وغالباً ما يؤكد أموراً ويدلي بتصريحات (مخالفة لنصوص القرآن) مبنية على أساس الكتاب المقدس أو على تعاليم إلَيْجا محمد.

وبعد وفاة إلَيْجا محمد بوقت قصير، انقسمت حركته على نفسها قسمين، الأول بقيادة ابنه وريث الدين محمد (Warithdeen Muhammad)، وأما القسم الآخر فقد قاده المتحدث باسمه القس لويس فرخان. قاد وريث الدين محمد أنصاره إلى الإسلام التقليدي، ومعتقداتهم الدينية الآن تتفق مع تعاليم الإسلام في جميع أنحاء العالم. أما جماعة فرخان، التي احتفظت باسم (أمة الإسلام)، فما تزال تتمسك بتعاليم إلَيْجا محمد، وهو قرار يجعل علماء المسلمين يشككون في تمسكهم بتعاليم الدين الحنيف. إن الغالبية العظمى من مليون الأمريكي الأفريقي ممن يدعون أنفسهم مسلمين هم من بين أتباع وريث الدين محمد. على أننا يجب ألا ننسى أن معظم قيادات الجالية الإسلامية الأمريكية الإفريقية كانوا في وقت من الأوقات أعضاء في حركة (أمة الإسلام). وهكذا فقد مهدت هذه الحركة لظهور الإسلام التقليدي في أمريكا السوداء.

* * *

المسلمون المهاجرون

ظهرت في الستينيات من هذا القرن لدى بعض الحكومات الإسلامية رغبة في أن تستقل تكنولوجياً عن الغرب، وسرعان ما بدأت بإرسال أعداد كبيرة من شبابها إلى الجامعات الأمريكية والأوروبية. وقد عاد العديد من هؤلاء الطلبة إلى بلدانهم وعقولهم مشبعة بأفكار الديمقراطية وحقوق الإنسان. وعاد العديد من هؤلاء أيضاً إلى أوطانهم وهم أكثر تمسكاً بدينهم مما كانوا عليه قبل أن يبدؤوا رحلتهم للدراسة في الغرب. وكلا النوعين من الطلاب شكّل تهديداً للأنظمة السياسية القمعية التي اضطلعت بنفقات تعليمهم في الغرب، وقد يفسّر هذا، جزئياً، التناقص الملحوظ في السنوات الأخيرة في عدد الطلبة المسلمين المسجلين في الجامعات الغربية .

ولقد تمكن عدد كبير من المسلمين الذين تثقفوا في الغرب من الهجرة إلى الولايات المتحدة وكندا. ويشكل هؤلاء المهاجرون مع عائلاتهم ثلاثة أرباع مسلمي الجالية الإسلامية في شمال أمريكا، وهم أول من أتاح السبيل لتقديم الثقافة الإسلامية التقليدية في أمريكا، وذلك عن طريق تأسيسهم للمساجد والمدارس الإسلامية. إن كثرة عدد هؤلاء المهاجرين في الجالية الإسلامية الأمريكية ومن ثم غلبتهم وهيمنتهم عليها، قد أثبتت أن الطريقة التي يفهم بها المسلمون الأمريكيون الإسلام، ويمارسونه في الوقت الحالي، وفي المستقبل المنظور، سوف تكون مشابهة جداً للطريقة التي يفهم بها مسلمو كل من الشرق الأوسط وشبه القارة الهندية الإسلام ويمارسونه.



جالية يتم تجاهلها

وحتى هذه اللحظة يبقى معظم الأمريكيين غير مدركين لحجم الجالية الإسلامية الكبير في شمال أمريكا. جزئياً، قد يكون هذا ناجماً عن السرعة التي

نمت فيها هذه الجالية وتطورت في شمال أمريكا خلال الثلاثين سنة الماضية. وأيضاً ربما لم يتسنَّ لمعظم السكان من الأمريكيين الوقت الكافي كي تحتك بهذه الثقافة الفرعية. إن حقيقة أن معظم الأمريكيين غير عارفين بالديانات التي تمارسها شعوب العالم الأخرى قد يساعد في شرح سبب جهل العامة من الشعب بوصول الإسلام إلى أمريكا.

والسبب الهام الآخر الناجم عن عدم مبالاة الأمريكيين بالإسلام كدين فطري محلي هو أن الجاليات الإسلامية في كل من كندا والولايات المتحدة تعيش على هامش المجتمع في كل من هذين البلدين. وبرغم أن عدد معتنقي الإسلام قد تزايد بين الأمريكيين البيض أنفسهم، فإن الغالبية العظمى من مسلمي أمريكا اليوم هم من الأمريكيين الأفارقة والمسلمين الأجانب ممن ولد خارج أمريكا. وبرغم أن عدد المسلمين يفوق عدد اليهود في أمريكا، فإن الأمريكيين مايزالون ينظرون إلى الإسلام على أنه دين يعتنقه ويمارسه الأجانب وحدهم أو الأجانب والأمريكيون الأفارقة معاً.

ويفضّل المسلمون الأمريكيون الملتزمون أن يروا تغييراً في الإدراك العام الحالي للإسلام على أنه دين غريب عن أمريكا، لأنه مابقيت تلك النظرة سائدة في المجتمع فسوف يكون الوضع أكثر صعوبة بالنسبة إلى أطفالهم كي ينشؤوا مسلمين في أمريكا. إن سماحة الإسلام المدركة قد تؤدي ببعض هؤلاء الأولاد أن يشعروا بالحاجة كي ينأوا بأنفسهم عن الجالية الإسلامية، أو أن يقللوا من أهمية الدور الذي يلعبه الدين في حياتهم. وبالإضافة إلى ذلك يشعر المسلمون أن من واجبهم مشاطرة الآخرين وجهات نظرهم الدينية، وهذه مهمة يصبح بمقدورهم القيام بها ببراعة إذا أصبح الإسلام يعد جزءاً معترفاً به من الثقافة الأمريكية ومسهماً فيها.

ومن أسف، أن الجيل الأول لايستطيع أن يفعل أكثر مما فعله من أجل تغيير صورة الإسلام في أعين العامة من الأمريكيين، والسبب في ذلك يعود —

ببساطة — إلى أن مظهرهم الخارجي إنما يعزز وبقوة تلك الصورة النمطية التي تشكلت في الأذهان عبر السنين. كما أن عامل الوقت لن ينتظر هذا الجيل من المسلمين الأمريكيين، لأن أولادهم قد قاربوا السن التي يتوجب عليهم من خلالها حمل عصا القيادة والدفع بهذه العقيدة إلى الأمام. وكائناً ماكان الحال، وسواء أكان الجيل القادم مستعداً لتحمل المسؤولية أم لا، فإن توطيد دعائم الإسلام في أمريكا يقع على عاتقهم هم أكثر مما يقع على عاتق الجيل السابق.

* * *

المجتمع العريض

وخلال اشتراكي في أحد برامج المؤتمر الإسلامي الذي عقد منذ عامين سألتني امرأة أمريكية إفريقية في مقتبل عمرها سؤالاً مهماً. وكانت ملاحظتها قبل السؤال كالتالي: يعد الإسلام جزءاً من الخلفية الثقافية للمهاجرين المسلمين، وأنه جاء إلى الأمريكيين السود في أمريكا خلال فترة النضال من أجل الحقوق المدنية في الستينيات والسبعينيات. ثم سألت إن كان لدى الأمريكيين البيض دوافع مماثلة حيال هذا الدين. وأردفت بالقول: إن كلاً من المهاجرين والأمريكيين الأفارقة قد اتجه، ومايزال، نحو الإسلام، لأن هذا الدين يحقق بعض الحاجات الاجتماعية لكل من هاتين المجموعتين. فعندما يعتنق المهاجرون الإسلام فإنهم بذلك إنما يعودون إلى جذورهم الثقافية والدينية. وأما بالنسبة إلى المسلمين الأمريكيين الأفارقة فإن الإسلام يمثل بديلاً للثقافة والدين اللذين أرغم أجدادهم على اتباعهما. وكان سؤالها على الشكل التالي: "ماالحافز الاجتماعي والدافع من وراء اعتناق الأمريكيين الأوربيين للإسلام؟" أجبتها أنه لا يوجد مثل هذه الدوافع بالنسبة إلى معظم الأمريكيين اليوم. فالأمريكيون بشكل عام — وأنا لا أشير هنا فقط للأمريكيين البيض — فخورون تماماً بالثقافة التي يعيشونها، وليس لديهم أي ميول للانضمام إلى مايدرك الجميع أنه

حركة ثقافية مضادة. فالأمريكي العام غير المسلم قد لا يهتم بملاحظة أن الإسلام يبدو أنه يتطلب ثقافة معينة مميزة وحسب، بل غالباً ما يعتبر أن الإسلام أمر يودي بهم للكثير من المشكلات[1].

ولكن مهما يكن فإنني أعتقد تماماً أن للإسلام القدرة العظيمة على جذب العديد من الأمريكيين ممن ليس لديهم أي دوافع اجتماعية للنظر فيه. إن الديانات جميعها لها علاقتها أولاً وأخيراً بحاجات الإنسان الروحية، وهذه الديانات تزدهر أو تفنى تبعاً لقدرتها على تحقيق هذه الحاجات. ومنذ زمن النبي ﷺ والإسلام يغذي هذه الحاجات لبلايين البشر من مختلف الأعراق والألوان والثقافات؛ وإن الداخلين في الإسلام ليفوق عددهم عدد الداخلين في أي ديانة أخرى في العالم. وكما قلت سابقاً، إن حيوية الإسلام تنبع بالدرجة الأولى من القرآن، ولا إخال أن هناك أي خصوصية لأي رجل أو امرأة من الغرب لايمكن للقرآن أن يصل إليهم بمناجاته إذا ما أتيح لهم أن يقرؤوه.

ويعبِّر المسلمون عن شكوى مفادها أن وسائل الإعلام الغربية تفعل مابوسعها كي تمنع الرسالة الحقيقية لإيمانهم من أن تصل السواد الأعظم من الشعب الأمريكي، وهذا هو السبب الأكبر وراء عدم شعور الأمريكيين بأي ميول نحو الإسلام. لاشك أن هذا صحيح، حيث نجد بعض الأفراد في الصحافة الغربية يستمرون في محاولتهم تقزيم الإسلام، وتشويه صورته في الغرب، ولكنني أشعر أن هناك بعض المسلمين ممن يتدخل بالدعوة الإسلامية نفسها بطريقة قد تكون أشد ضرراً بالإسلام من ضرر الإعلام الغربي. فمنذ عدة سنين خلت، عندما بدأت البحث في الإسلام، كان من بين الأشياء التي أثارت اهتمامي وإعجابي في المسلمين هو مدى اطلاعهم على النصوص الدينية وخاصة القرآن والسنة، وعن كثرة إشارتهم إلى هذه النصوص عندما يشرح أحدهم عقائده

---

(١) من المعلوم أن أجداد العديد من الأمريكيين الأفارقة هم من المسلمين. وهكذا فعندما يعتنق بعض هؤلاء الإسلام فإنهم في الحقيقة يعودون إلى أصولهم الدينية الإفريقية.

وممارساته. ولاحظت كيف أن المسلمين يستشهدون بنصوصهم المقدسة في أحاديثهم العامة أكثر من أي مؤمن آخر بدين مختلف. ولم يمض وقت طويل حتى أدركت أن الكثير من أصدقائي المسلمين كانوا يساوون بين تلك النصوص المقدسة وبين تفسيراتهم لها. ويبدو أن هذا أمر عام بين البشر ويصعب على المرء تحاشيه، ويبدو أن المسلمين ليسوا استثناءً في هذا المجال[1] . إلا أن المؤمن العام في الديانات الأخرى لايقوم بذلك كثيراً كما يفعل المسلم، وربما يعود السبب لأنه ليس لديه اطلاع كبير بكتبه ونصوصه المقدسة كما هو الحال عند المسلم .

إن الأشخاص الذين يبحثون عن الهداية من كتبهم المقدسة (scriptures) يجدون الحاجة الماسة في أنفسهم لتفسير ذلك الكتاب. وبرغم أن هناك العديد من المقولات/الآيات التي يفهمها جميع المؤمنين من كافة الديانات وبالطريقة نفسها إلى حد ما، فإن هذا ليس صحيحاً دوماً. فإذا كان يُفتَرض لأي كتاب مقدس عام أن يكون مصدر هداية لجميع البشرية، فإننا يجب أن نتوقع من مقولاته/ آياته معاني مناسبة مختلفة للمؤمنين عبر مختلف الأزمان والأماكن والظروف. إن مشكلة خلط التنـــزيل بتفسيراتنا له هو أن تفسيراتنا هذه، برغم أنها قد لايكون لها مايسوغها، فإن من شأنها أن تحصر وتحدد التنـــزيل المقدس بمستوى معيّن من الفهم الإنساني. وبالنتيجة فإننا قد نضع بذلك حاجزاً ما بين التنـــزيل وبين أولئك الذين يثقون أن شرحنا لذلك التنـــزيل شرح محكم وصحيح .

ففي رحلة إلى الشرق الأوسط قابلت شاباً مسلماً ورعاً، أخبرني أن القرآن يمنع المرأة المسلمة من قيادة السيارة. وعندما طلبت منه أن يثبت لي كيف وصل

---

(١) فمثلاً إن عقيدة التثليث في المسيحية Holy Trinity هي مفهوم لاهوتي theologian concept ومن ثم فهي نظرية مبنية في جزء منها على العهد الجديد .New Testament ومع ذلك فالكثير من المسيحيين يدّعون بأن المسيح هو الذي صرح بها علناً في الأناجيل.

إلى هذه النتيجة، بدأ بالاستشهاد ببعض الآيات التي تحض المسلم على طاعة النبي ﷺ، ثم بدأ باقتباس بعض الأحاديث الشريفة التي يشعر هو أنها تخالف أمر السماح للمرأة بقيادة السيارة. وعندما لم أقبل بتفسيره لتلك الأحاديث الشريفة التي استشهد بها، لم يجد أي حيلة أخرى يقنعني بها. تبين لي بعد بعض النقاش مع الشاب أنه لم يكن يعني أن القرآن يحتوي على نص صريح يحرّم قيادة المرأة للعربات، بل إن كل ماكان يعنيه هو أن يخرج بنقاش حول هذا التحريم مدعوماً بآيات من القرآن وأحاديث من السنة حسب تفسيره هو. ولو لم يكن لديّ معرفة بالإسلام ربما قبلت ادعاءه. أعترف أن هذه الحالة شاذة، ولهذا السبب قمت بإيرادها هنا. وعملياً، فإن قلة من المسلمين هم الذين يوافقون الرجل على مقولته. أذكر أمثلة أخرى مماثلة هنا، فقد قال لي بعضهم: إن القرآن والسنة يأمران بعزل النساء عن الرجال، وبمنع المرأة من المشاركة في الانتخابات السياسية، ويأمران بقتل المرتد عن الإسلام، ويجيزان غزو أراضي غير المسلمين. اكتشفت أن العديد من المسلمين يؤيد بعض هذه المقولات أو جميعها، أما بالنسبة إلي فأعتقد أن كلاً منها لاتتعدى كونها مجرد تفسير شخصي، وليست نصاً صريحاً منــــزلاً.

يجب على المسلم أن يكون حريصاً جداً لدى قراءته وفهمه لآية أو نص وألا يطلق الأحكام، ويصر على أن فهمه الوحيد المناسب دون غيره. وأحث المسلمين بقوة أن يكونوا دقيقين جداً حول مصادر مقولاتهم عندما يشاطرون وجهات نظرهم الدينية مع المسلمين. ويجب عليهم أن يكونوا دقيقين قدر الإمكان فيما يتعلق بالأسس التي يبنون عليها توكيداتهم حول الإسلام. وإضافة إلى ذلك يجب أن يكونوا واثقين عندما يستشهدون بالنص وأن يحددوا مايقتبسونه بالإشارة إليه سواء أكان ذلك آية قرآنية، أو حديثاً شريفاً، أو اجتهاد عالم، أو شيئاً ماسمعوه في مكان ما، أو إن كان ذلك مجرد وجهة نظرهم

الشخصية. ولا شك أن توثيق هذه المصادر قد يستغرق جهداً إضافياً لدى المسلم، ولكنه أساسي إذا كان المرء يريد أن يقدم صورة دقيقة محكمة عن الإسلام، كما أن ذلك من شأنه أن يساعد المستمعين أن يبقوا فوق الشبهات وفوق مستوى مواضيع ثانوية قد تكون مثيرة للجدل من جهة، ومن جهة أخرى تتيح لهم اكتساب فهم أفضل وأشمل لرسالة الإسلام.

بين عالَمَيْن

دخل أحد الطلاب المستجدين مكتبي هذا الصيف المنصرم كي أرشده أكاديمياً. بدا وجهه وكأنه من الشرق الأوسط لا محالة، ولكن بلباسه وبسلوكه وتصرفه بدا وكأنه مراهق أمريكي محض. لوحة تسجيله كانت تقول أن اسمه دارك (Darek) ولذلك تساءلت إن كانت جذوره عربية[1] . كنت أرتدي بلوزة قطنية (T-shirt) وقد كتب على صدرها أبجدية عربية، وعندما رآها دارك سألني والبسمة تعلو وجهه: "هل تتكلم العربية؟" أجبته: "مرحباً يا دارك! كيف حالك؟"

قال معتذراً: "أنا آسف. فلست أعرف العربية. إن والدي من مصر ولكنني لم أتعلم لغته".

سألته: "وهل والدك مسلم؟"

قال: "نعم، ولكنه ليس متديناً. وأنا أكاد لاأعرف شيئاً عن دينه. أعتقد أن الديانات جميعها تكاد تكون واحدة".

بصفتي مديراً لبرنامج تحديد مستوى الرياضيات في الجامعة (math placment) فإني أُجري مقابلة قصيرة لعدة مئات من الطلبة المستجدين كل عام خلال جلسات التوجيه الصيفية (Summer orientation sessions) وأما عدد الطلاب ممن

---

(١) لعل هذا الاسم تحريف لـــ "طارق". [المترجم].

ذووهم أمريكيون مسلمون فهو ضئيلٌ جداً. وعندما أخبرهم بوجود مسجد في الجامعة لأرى إن كان هذا الخبر يسرهم أم لا، أجد الجواب نفسه تقريباً في كل مرة، معظمهم مثل دارك ليس لديه أي اهتمام بالإسلام أو بأية ديانة أخرى.

إن ما أعنيه **بالجيل الأول** من المسلمين الأمريكيين هو إما معتنقو الإسلام من الأمريكيين أو المسلمون المهاجرون إلى أمريكا. وسوف أشير إلى أولادهم **بالجيل الثاني**. ولن أشير إلى أولادهم بالجيل الثاني من **المسلمين** وذلك لسبب بسيط وهو أنني اكتشفت أن العديد من هؤلاء الشبان لايؤمنون بالإسلام. فمنذ فترة ليست بالبعيدة أخبرني معاون مدير الجمعية الإسلامية لشمال أمريكا أن الإحصائية التي يتلقاها باستمرار هي أن فقط ١٠% تقريباً من الجيل الثاني يصبحون ملتزمين بالإسلام. ولكننا يجب ألا نستنتج من هذا أن ٩٠% الباقية يتخلّون عن الإسلام، بل في الحقيقة إن معظم هؤلاء لا يكون قد سبق له أن عُرض الإسلام عليه بينما كان ينشأ صغيراً.

ولقد علمت عبر السنين أن الغالبية العظمى من مسلمي الجيل الأول من الأمريكيين لا يحافظون بانتظام على شعائر دينهم، كما أنهم لا يقومون بأي جهود تذكر في تثقيف أسرهم عن الإسلام، وليس لديهم أي اتصال بالمسلمين، وعلى الأخص بمسجد الحي أو بالمركز الإسلامي. وهذا على ما أعتقد هو العامل الأكبر وراء ظاهرة عدم الإيمان بالإسلام واسعة الانتشار بين أعضاء الجيل الثاني. ففي أمريكا يواجه أولاد المسلمين الكثير من الجدل ضد الإسلام من المجتمع المحيط في الوقت الذي لا تزودهم عائلاتهم بالمقولة المضادة .

وعلى خلاف الجيل الثاني فإن جميع من قابلت من الجيل الأول هم مسلمون بحق من حيث إنهم يجهرون بإسلامهم، برغم أنهم قد يكونون غير ملتزمين كل الالتزام بشعائر الإسلام، أو ربما يكونوا مقصرين ببعض واجباتهم الدينية. ولدى سؤالي لهؤلاء عن عدم اتصالهم بالمسجد كانت هناك إجابات نموذجية متعددة تمثّل معظمها في مايلي :

" -إن المسجد لا يلبي حاجاتهم ولا يخاطب حياتهم".

" -إن قيادة المسجد محافظة جداً وتقليدية أكثر مما ينبغي".

" -إن المسلمين الذين يرتادون المسجد لا ينسجمون كثيراً بعضهم مع بعض".

" -إن قيادة المسجد أوتوقراطية (استبدادية).

" -ليس لدينا وقت كاف كي نرتاد المسجد".

وهكذا يبدو أن قيادة أمريكا الإسلامية ليس لها حتى الآن استراتيجية محددة في تجنيد مسلمي الجيل الأول، أو مسلمي الجيل الثاني ممن لهم اتصال محدود بالمسجد، أوممن ليس لهم أي اتصال بالمسجد على الإطلاق. ويبدو أن جل اهتمامهم يتركز على تزويد الدعم الروحي والثقافي للمسلمين الملتزمين أصلاً والنشطين، وكذلك لأسرهم وعائلاتهم. وربما يكون هذا هو جل ما يستطيع هؤلاء عمله بشكل فعلي وذلك بسبب قلة الموارد المادية وضعف الميزانية. فالشعور السائد بين المسلمين المتدينين هو أنه إذا لم يركّز هؤلاء على تعليم أنفسهم كيفية المحافظة على دينهم ويدافعوا عنه ويعززوا إيمانهم في الغرب العلماني، فإنه لن يكون هناك إسلام عملي حقيقي في أمريكا في المستقبل القريب.

فخلال العقدين الماضيين كان تركيز المسلمين المتدينين بالدرجة الأولى على تبليغ رسالة الإسلام إلى العامة من الناس، وقد تابع هؤلاء بحماس منقطع النظير دعوة الأمريكيين إلى الإسلام. كما أنهم حاولوا من خلال الحوارات والمناقشات إثبات عيوب المسيحية وفضائل الإسلام للجمهور الأمريكي. ولكن لخيبة أملهم أدرك هؤلاء المسلمون أخيراً أن معظم الأمريكيين — ببساطة — كانوا غير مهتمين بكل ذلك الحوار أو الجدال. وأما الأمريكيون الوحيدون الذين أبدوا اهتمامهم فقد كانوا من الأقلية المتطرفة من المسيحيين الذين اغتنموا الفرصة للترويج لعقائدهم. لم يفهم المسلمون أن معظم الأمريكيين أصبحوا فاقدي الإحساس تجاه المواضيع الدينية، وأن عدوهم الأكبر لم يكن المسيحية،

دين الآباء والأجداد، بل الفتور المتأصل وواسع الانتشار بين البشر الذين فقدوا الثقة بكل شيء تقريباً. فلقد وصلت أمريكا إلى مرحلة الشك بنظامها القانوني ومؤسساتها وقاداتها ودينها.

لقد وصلت أمريكا إلى مرحلة عدم الثقة بالعقائد والقناعات وأسلمت نفسها إلى نوع من العدمية (nihilism) أو إلى ما يصفه عالم الاجتماع السياسي فرانك فيوردي (Frank Furedi) الليبرالية للتّبسة النسبية (relative noncommittal liberalism)[١] .

فالأمريكيون لم يكونوا ليتجاهلوا ما كان يقوله المسلمون فحسب، بل كانوا ممتعضين من الطريقة التي كان يتحدث هؤلاء بها. إن معظم الأمريكيين يعتقدون أن الدين مسألة خاصة (private matter) وليس أمراً يتوجب على المرء إعلانه، ومن ثم فهو ليس موضوعاً مناسباً للحوار على الإطلاق.

في العقد الأخير من القرن العشرين تحوّل اهتمام المسلمين المتدينين نحو أطفالهم، لأن الوقت قد حان لمؤمني الجيل الثاني أن يأخذوا دورهم القيادي في الجالية الإسلامية الأمريكية. إن هؤلاء الآباء قلقون للغاية حول مستقبل أولادهم الديني، ويبذلون ما بوسعهم من جهد لتهيئة أبنائهم وبناقم للعيش في أمريكا بوصفهم مسلمين متمسكين بدينهم. وهناك سبب للتفاؤل لأنه في الوقت الذي يوجد هناك أولاد لا أدريُّون (agnostic) أو ملحدون (athiest) لمسلمي الجيل الأول غير المتمسكين بدينهم، نجد أن أولاد الجيل الأول من الملتزمين بدينهم هم من المتمسكين بالإسلام والممارسين له. ولكن وكما ذكرت في المقدمة فإن النسيج الفكري والاجتماعي للمجتمع الأمريكي يمكن له أن يمارس ضغطاً كبيراً حتى على أولاد المسلمين المتدينين للمساومة على إيمانهم. وأنا شخصياً أعرف عدداً لابأس به من حالات الآباء المتدينين ممن ترك أولادهم الإسلام[٢] .

---

(١) الهلع من الإسلام: The panic about Islam مقابلة أجريت مع البروفيسور فرانك فيوردي Frank Furedi، "مجلة اقرأ (نيسان: أبريل، ١٩٩٦م) الصفحات ١٣ ومابعدها.

(٢) منذ عدة أسابيع فقط تلقيت رسالة من أب فُطر قلبه بعد أن أصبح ولده ملحداً.

إن المسلمين الذين يصطرعون ويناضلون كي ينشؤوا أولادهم تنشئة إسلامية، يجب أن يكافحوا ضد القوة ذاتها التي قابلوها عندما كانوا يحاولون تبليغ رسالة الإسلام إلى أمريكا غير المسلمة خلال العقدين السابقين: فخارج البيت يتعلم أولادهم ويدرسون ألا يصدقوا أحداً، ولا يؤمنوا بشيء، وأن يكونوا فاتري الدين والأخلاق، وأن يقبلوا بمقولة أن جميع أنظمة العقيدة هي على سوية واحدة من حيث صلاحها أو فسادها.

وأما الأولاد الذين ينحدرون من أسر إسلامية متدينة فسرعان ما يجدون أنفسهم مشتتين بين عالمين مختلفين جداً: عالم البيت الذي يُنَشَّؤون فيه، وعالم المجتمع والبيئة المحيطة. وقد يكونون مسلمين، ولكن تجربتهم تختلف تماماً عن تجربة آبائهم. فهم — على خلاف أمهم وأبيهم — ليسوا مهاجرين، أو معتنقين جدداً، أو أولاد صراع الحقوق المدنية. إن أوضاعهم أكثر ضبابية من أوضاع ذويهم، وإن قضيتهم وأهدافهم وهويَّتهم لا يمكن تعريفها بوضوح كامل. فعلى خلاف المهاجرين فإن أمريكا هي الثقافة الوحيدة التي يعرفون، وعلى خلاف المعتنقين الجدد فقد اختير الإسلام لهم ديناً. وقد يواجهون تفرقة عنصرية وتمييزاً عرقياً، ولكن هذه التفرقة والتمييز يختلفان عن تلك التي واجهها الأمريكيون الأفارقة في الماضي. فالطريقة التي يفكِّرون بها، والطريقة التي يناقشون بها، والطريقة التي يستكشفون بها المواضيع جميعها أمريكية محضة. ولا شك أن ديانتهم تؤثر في أخلاقهم وقيمهم، ولكن هذه بدورها لابد أن تتأثر بأدبيات وقيم المجتمع الأمريكي. إن ابنتي الكبرى لا تتجاوز العاشرة من عمرها، ومع ذلك فقد أصبحت مهتمة جداً بوضع المرأة في الجالية الإسلامية وبموضوع التسامح الديني في الإسلام.

إن أولاد الأمريكيين غالباً ما يصدمون أهليهم بطرائق تفكيرهم وتعبيرهم (الأمريكية). فقد اشتكى لي أحد المسلمين الملتزمين مؤخراً أن ابنته ترتدي اللباس الإسلامي وتبدو وتتصرف كفتاة مسلمة عادية، ولكن بين الفينة

والأخرى تتكلم بأشياء أو تقوم بها بطريقة أمريكية صرفة، أشياء لايجرؤ طفلٌ مسلم من الشرق الأوسط أن يقولها، أو يقوم بها على الإطلاق. وعندما سألت عن أمثلة ذلك قال: إنها تسأل أسئلة عن الله نعتبرها في مصر من المحرمات أو الكبائر.

لقد اكتشفت من خلال مخيمات ومؤتمرات الشباب المسلم، التي غالباً ما أشترك بها، أن المواضيع والأسئلة الدينية التي تعد هامة بالنسبة إلى الشباب الأمريكي المسلم تكاد تكون هي المواضيع والأسئلة نفسها التي يطرحها علينا الأمريكيون غير المسلمين المهتمون بالإسلام. إن الأسئلة التي يسألونها هي على وجه الحصر أحد نموذجين اثنين هما:

أولاً: تلك التي تتعلق بفصل الثقافة عن الدين — وخاصة تلك التي تتعلق بدور الجنسين.

وثانياً: تلك التي تتعلق بالثيودويسيا، ذلك الفرع من اللاهوت الذي يتعلق بدراسة العدالة الربانية المقدسة.

والسبب الرئيس وراء كون هذه المواضيع هامة للشباب المسلم الأمريكي هو أنه غالباً ما يتوجب عليهم الدفاع عن الإسلام حول هذه المواضيع، وذلك عندما يثيرها أصدقاؤهم وزملاؤهم من غير المسلمين. ومع ذلك فإنني أعتقد أن هذا ليس هو الدافع الرئيس وراء هذا الاهتمام، ذلك أن هذه المواضيع هي في حقيقة الأمر أكثر ما يهتم به كافة الأمريكيين بشكل عام في الوضع الراهن. وكأمريكيين يجب ألا ننسى أن هذا هو وضع شبابنا المسلم، وأن هذه المواضيع هي في غاية الأهمية بالنسبة إليهم.

إن الجيل الثاني من المسلمين تواجههم مهمة شاقة جداً، فمن الطبيعي أنهم يبحثون عن التوفيق ما بين أمريكيتهم وديانتهم، فهم يجاهدون كي يكونوا مسلمين فاضلين، وفي الوقت نفسه مواطنين صالحين. ومما يجعل أمر هذه

المحاولة شاقاً عسيراً هو حقيقة أن العديد من المسلمين وغير المسلمين يرون ذلك مستحيلاً. ويخبرني العديد من الشباب ممن يشتركون في مؤتمرات الشباب الإسلامية أنهم غالباً مايكونون ممزقين مابين مجتمعهم وإيمانهم؛ مرغمين على العيش بين العديد من الخلافات التي لايمكن التوفيق بينها. وقد اعترفت حفنة من هؤلاء لي أن أفكارهم قد بدأت بالتشتت، وأن الشكوك حول دينهم بدأت تساورهم. صحيح أن هناك صراعاً بين تعاليم الإسلام وبين القيم الأمريكية الحديثة، وأن المسلمين يستطيعون، بل يتوجب عليهم، التأثير في هذه القيم عن طريق المشاركة بالمجتمع العام من خلال منظورهم الأخلاقي والمسلكي، ولكن على مسلمي الجيل الأول أن يتنبّهوا كيلا يضعوا عقبات غير ضرورية في طريق أولادهم؛ وبالتالي جعلهم غير قادرين على الازدهار روحياً ومهنياً في المجتمع الأمريكي.

أعتقد أنه يجب على الآباء المسلمين أن يقدموا الإسلام لأولادهم بالطريقة نفسها التي يجب عليهم أن يقدموه لغير المسلمين: فكما قلت سابقاً: يجب عليهم أن يفعلوا مابوسعهم للفصل بين أساسيات الإسلام وبين التفسيرات والتعديلات الثقافية والتاريخية غير الضرورية، وأن يحاولوا إيصال تلك الأساسيات لأولادهم بلغة الفكر العقلاني. وإذا كان الآباء المسلمون لا يجدون في أنفسهم الكفاءة للقيام بذلك فيجب عليهم أن يبحثوا عمن يستطيع القيام بذلك بنجاح، لأن ذلك من شأنه أن يكون عوناً كبيراً لأولادهم الذين يريدون أن يعيشوا مسلمين متمسكين بشعائر دينهم في أمريكا. وإضافة إلى ذلك يستطيع هؤلاء الأولاد بدورهم تبليغ رسالة الإسلام للآخرين بنجاح.

وفي الوقت الراهن ليس هناك جماعة من المسلمين في وضع اجتماعي مناسب لتبليغ دعوة الإسلام لسواد الشعب من الأمريكيين أفضل من مسلمي الجيل الثاني. فالأمريكيون غالباً مايجدون صعوبات للتعاطف مع المهاجرين بسبب خلفياتهم الثقافية الأجنبية. إن الإسلام (المهاجر) غالباً ما

يُنظر إليه على أنه جزء من ثقافة المرء السابقة، ومن ثم فهو شيء يجب التخلص منه أو تعديله مع الزمن.

إن الأمريكيين غالباً مايشعرون بالهلع والذعر حيال المعتنقين الجدد، ذلك أن التحول من دين إلى دين يبدو أنه شيء راديكالي أوشيء غير طبيعي. وبما أن المعتنق الجديد يكون قد اختار ديانة غريبة مُدركة فإنه غالباً ما يُسأل عنها، أو يشعر أنه من الضروري أن يشرح — وأحياناً يدافع — عن سبب اختياره الجديد. ونتيجة لذلك فإن الأحاديث التي تتم حول الدين بين المعتنقين الجدد وغير المسلمين في أمريكا غالباً ما تكون مصحوبة ببعض التوتر ومشحونة بالضغينة. ولكن إسلام الجيل الثاني من المسلمين وأمريكانيته غالباً ما يُنظر إليها على أنها أمر طبيعي وعادي، ذلك أن هؤلاء الشبان يكونون قد ولدوا داخل أمريكا وفي بيئة إسلامية في آن واحد. وغالباً ما أجد أن صديقات بناتي ومعلماتهن يشعرن براحة أكبر عندما يسألنهن عن معتقداتهن الدينية أكثر مما يسألن زوجتي التي هي من الشرق الأوسط، أو يسألونني أنا لأني معتنق جديد. ولاحظت أيضاً أن بناتي أقل دفاعاً عن الإسلام في نقاشهن، لأنهن يرون إسلامهن شيئاً طبيعياً. ولقد أخبرني العديد من الآباء المسلمين أن هذا ينطبق على أولادهم أيضاً.

إن مسلمي الجيل الثاني قد يصبحون جيل الاختراق، ومن ثم جسر التواصل بين الجالية الإسلامية العالمية والمجتمع الأمريكي. فهم للتو يفهمون أقرانهم من الأمريكيين، ومن ثم يستطيعون التواصل معهم بطريقة أكثر فعالية. ومع ذلك فإن العنصر الحاسم الذي قد يكون مفقوداً في هذه الحالة هو امتلاك هؤلاء الشباب من المسلمين لتصوّر مُفْحم وعقلاني ومتماسك لحقيقة رسالة الإسلام. إن الآباء المسلمين يمكن أن يساعدوا أولادهم على اكتشاف مثل ذلك التصور، ولكن ذلك يتطلب صبراً وشجاعة عظيمين من جانبهم. إن الصبر ضروري لهؤلاء الآباء مادامت طرق الاكتشاف والنماء نادراً ماتكون سهلة، وهم بحاجة إلى الشجاعة لكي يعطوا لأولادهم المجال لتطوير فهمهم الخاص للإسلام.

حبل الله

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣/٣].

بين الفينة والأخرى يطلب مني بعض الليبراليين أو المعتدلين من المسلمين الأمريكيين أن أساعدهم أو أنضم إليهم في تنظيم جالية إسلامية (جديدة) في أمريكا — جالية لها مساجدها وطريقة فهمها الخاص بالإسلام. وعادة ما يكون الدافع الأساس من جرّاء ذلك هو شعور هؤلاء بالخيبة والإحباط من القيادة الحالية المحافظة للجالية الإسلامية الأمريكية. وأما الأمل فهو إحداث تطبيق للإسلام أكثر عملية وموثوقية في أمريكا، تطبيقاً غير مثقل بأعباء إضافات الثقافة الأجنبية الزائدة وغير الضرورية، تطبيقاً أكثر انسجاماً مع تفكير وتجارب معظم المسلمين في أمريكا، تطبيقاً يرحّب بالمشاركة الكاملة للمرأة المسلمة.

وبرغم أني أشاطرهم بعض هذا الإحباط إلا أني لا أرتاح لدعوات كهذه (ويبدو أنها بدأت تتزايد في الفترة الأخيرة). على هذا لن أدهش أن أجد في أمريكا الشمالية يوماً ما مساجد (تقليدية) وأخرى (إصلاحية). إن هناك خطراً حقيقياً يتهدد الجالية الإسلامية في المستقبل القريب، وهو أن تنقسم هذه الجالية إلى ملل محافظة وأخرى تقدمية. وإذا ما حدث مثل هذا فإن المسلمين سواء المحافظين منهم أو المعتدلين هم الملومون جميعاً، والسبب هو أن كلا الفريقين لم يتسامح مع أخيه الآخر في الإسلام .

يزجي المسلمون في الولايات المتحدة وكندا مزيداً من المديح والإطراء علىحرية التعبير في كل من هذين البلدين، في الوقت الذي يعبر فيه هؤلاء عن شكواهم من عدم وجود مثل هذه الحرية في البلدان الإسلامية الحديثة، وعن صعوبة وخطورة ممارسة مثل هذه الحرية في هذه الدول الأخيرة. ولاشك أن حرية التعبير تحمل في طياتها واجب الاستماع للآخرين. ومن السهل على المرء أن يعبّر عن وجهة نظره الخاصة، ولكن مبدأ حرية التعبير يعتمد أساساً على احترام وحماية حرية الجميع للتعبير عن وجهات نظرهم. ولكن مسلمي شمال

أمريكا —— بوصفها جالية لها كيانها —— مايزالون بطيئين في فهمهم وتطبيقهم لمعظم هذه المسلّمات في الغرب، برغم أن الشورى والإجماع مبدآن جوهريان من مبادئ الشريعة الإسلامية وأساسيان في إصدار الأحكام الإسلامية الجماعية.

إن وجود خلافات متباعدة بوجهات النظر في الجالية الإسلامية قد يكون ذا نفع بالنسبة إلى المسلمين، وذلك لأن مثل هذه التطلعات المختلفة من شأنها أن تحقق ضبطاً وتوازناً فيما بينها. وإن تبايناً كهذا من شأنه أن يساعد الجالية المحافظة على الالتزام بخط وسط ويمنعها من الجموح نحو التطرّف. ومن شأنه أيضاً أن يرغم أعضاء الجالية على التفكير في وجهات النظر البديلة، ومن ثم النـــزوع نحو الوسط. ومن شأنه كذلك أن يسهم في التحول الواعي المدرك، والذي قد يكون محبطاً لدعاة التغيير إذا ما حدث فجأة وبشكل حاد، ولكنه يصب في النهاية في مصلحة المسلمين جميعاً. ومن شأنه أن يقدم لغير المسلمين الذين يهتمون بالإسلام جالية متدينة معتدلة ومتحدة، وغير منقسمة على نفسها ——جالية من شأنها أن تسمح بطيف واسع من الرؤى الفكرية.

وأما قولبة وجهات النظر ضمن فصائل دينية متميزة فليس من شأنه إلا أن يسبب المزيد من الضرر بالمسلمين، ويزيد من الفرقة بينهم، وليس من شأنه إلا الترويج للتطرف وضيق الأفق، وأن يستنـــزف طاقات الجالية ومواردها، حيث تتبارى الفرق المتناحرة في محاولة منها لكسب أنصار جدد بعضها من أعضاء بعض، وعليه فإنها تقدم لغير المسلمين صورة معقدة ومضللة عن الإسلام. وأما بالنسبة إلى المعتنقين الجدد فإنهم والحالة هذه يحارون في أي إسلام ينضمون إليه.

فإذا كان المسلمون يريدون أن يحسّنوا من أنفسهم ومن وضع إخوانهم في العقيدة، فإنني أنصحهم وبقوة أن ينخرطوا في هموم وشجون مساجدهم المحلية وكذلك المراكز الإسلامية، وأن يجعلوا الآخرين مدركين لوجهات نظرهم بصراحة مطلقة وذلك خلال اجتماعات الجالية، وأن يكون لديهم الاستعداد للاستماع بحرص لوجهات نظر الآخرين المخالفة وأخذها بعين الاعتبار.

والأهم من هذا كله أن يتعلم المسلمون الاحتكام لوجهة نظر الأغلبية والقبول بها. إن هذا لايعني أن على المسلم أن يتوقف عن تقديم وجهة نظره إذا كانت الأغلبية لا توافقه عليها، بل يجب عليه في مثل هذه الحالة الإدلاء برأيه مع الالتزام بالقرارات التي تم الإجماع عليها إلى أن يتم تغييرها أو تعديلها فيما بعد.

* * *

هل هناك عالِم في البيت؟

عندما يحاضر المسلمون في غير المسلمين فإنهم يؤكدون على حقيقة أنه ليس هناك إكليروس كهنوت (clergy) في الإسلام. إن هذا انعكاس للمبدأ الإسلامي، وهو أن كل فرد مسلم مسؤول في النهاية عن أعماله، وأن لا أحد سوى الله قادر على تحريرنا من مسؤولياتنا الأخلاقية، وأن لا أحد غير الله يستطيع الحكم على عباده أو يعفو عنهم ويهديهم وينقذهم من النار. وليس هناك سلطة كَنَسيّة (ecclesiastical authority) من شأنها أن تقرر المعضلات الروحية والأخلاقية والشخصية. وعند حدوث مثل هذه المعضلات، فإن المسلم يُنصح بالرجوع إلى نصوص الشرع، أو إلى نصيحة الإخوة المؤمنين من أهل الذكر والمعرفة ومن المشهود لهم بالإيمان والاحترام. ولكن المسؤولية تقع في النهاية على عاتق الشخص نفسه الذي اقترف الإثم وكل ماعليه هو التوبة إلى الله والاستغفار والدعاء والصلاة والثقة واليقين بحكمته وعفوه ومغفرته. وضمن هذا النظام فإن خير ما يستطيع المسلم أن يقدمه لأخيه المسلم في مثل هذه الحالة هو النصح والإرشاد والدعاء بالمغفرة .

وفي معظم العقائد غير الإسلامية لا ينخرط علماء الدين في المشكلات اليومية للمؤمنين. فدراستهم غالباً ماتكون أكثر تقدماً، وعصية على الفهم عند غير المتخصصين. وأما في الإسلام فإن مشكلات المسلمين العامة هي محط الدرس والتحقيق من قبل العلماء المسلمين. إن البحث الذي يجريه علماء

المسلمين هو عملي أكثر منه لاهوتي، وغالباً مايكون في متناول أيدي المؤمنين والمؤمنات. فالعالِم المسلم يشعر أن الهدف الرئيس من التعلم، هو أن يكون قادراً على تقديم النصح لإخوته في الإيمان، حول الطريقة الأنسب للعيش في هذه الحياة. وبرغم أن علماء المسلمين ليست لديهم واجبات احتفالية أو شعائرية، فإنهم يقدمون النصيحة والمشورة للمؤمنين، بطريقة هي أشبه بمايفعله رجال الدين في العقائد الأخرى .

إن مسلمي شمال أمريكا هم بحاجة إلى علماء دين ممن يستطيعون تقديم العون لهم في التغلب على المشكلات الجديدة التي تواجههم. وهم على الأخص بأمس الحاجة للعلماء الذين يستطيعون تقديم المساعدة للشباب المسلم كي يتمسكوا بدينهم ويكونوا صادقين مع أنفسهم، وممن يستطيعون الحفاظ على الجالية الإسلامية موحدة ومتماسكة. ومن أسف أن ليس هناك حالياً سوى حفنة من العلماء ممن لديهم الكفاءة للاضطلاع بهذا الدور. وعبر العالم الإسلامي هناك العديد من المتخصصين في مختلف العلوم الإسلامية الشرعية، ولكن قلة قليلة فقط من هؤلاء يعيشون في أمريكا. إن مسلمي شمال أمريكا بحاجة ماسة لعالم مسلم يقدم لهم الرأي السديد والنصيحة الحق آخذاً بالاعتبار الظروف الخاصة التي يعيشها هؤلاء.

إن المواضيع التي يثيرها المؤمنون الشباب، وأولئك الذين يحاولون تقسيم الجالية الإسلامية في أمريكا؛ تدور حول الإرث الهائل من البحث الدرسي الذي خلّفه علماء المسلمين لنا. ولتناول هذه المواضيع بمسؤولية وإقناع، لا بد للعلماء الذين يريدون التصدي لذلك أن يكونوا على اطلاع واسع بالتاريخ وتطور الفكر الإسلاميين. وبالإضافة إلى ذلك يجب أن يكون لديهم الاستعداد للقيام بالفحص النقدي الدقيق لأعمال بعض أكثر العلماء المسلمين القدامى تأثيراً واحتراماً. لا أظن أن بمقدور الجالية الإسلامية العالمية أو حتى الجالية الإسلامية الأمريكية القيام بمثل هذا الفحص الشامل بعد.

وخلال القرن الماضي كان الإسلام هدفاً لوابل مستمر من النقد والتشويه الذي وجهه الغرب إليه. ومعظم ذلك النقد لم يكن بحثاً علمياً موضوعياً، بل نتيجة لتعصب أعمى حاقد. وفي كل يوم يُجابه المسلمون في شمال أمريكا بمفاهيم مغلوطة ومعلومات خاطئة فيما يختص بعقائدهم، وكل مايفعلونه هو تكرار مقولاتهم المضادة المعهودة. لقد اعتاد المسلمون الدفاع عن عقيدتهم حيال ما يُواجهون به من اتهامات مزيفة (غالباً ما تقدم على شكل دراسات موضوعية) فهم يعارضون أي دراسة نقدية فعلية ضد الإسلام مهما كان مصدرها. على هذا فهم يميلون لرؤية أي نقد للتراث الثقافي أو الدرسي قد يقوم به مسلم آخر على أنه تنازل للكافرين، أو بالأحرى هو نوع من الوقوف في صف الأعداء. وهكذا يصبح من العسير لأي عالم مسلم في بيئة ثقافية كهذه أن يتحدى وجهات نظر سائدة ومتأصلة وراسخة. وربما هذا سبب في أننا نجد دوماً إعادة طرح المواضيع القديمة التالية في قوالب جديدة في المؤتمرات الإسلامية الأمريكية كل عام:

-كيف نؤسس نظام حياة إسلامية في أمريكا؟

- الحاجة إلى وحدة إسلامية أمريكية.

- استراتيجيات الدعوة (شهادة المسلم على غير المسلم).

- حقوق المرأة في الإسلام.

-كيف نرد على وسائل الإعلام الأمريكية التي تقوم بتشويه صورة الإسلام؟

- الإسلام ضد الإرهاب.

أنا لا أريد أن أقلل من شأن هذه المواضيع أو أجعل منها أمراً تافهاً، بل وكما هو واضح، أعدّها جميعاً مواضيع هامة جداً. بل بالأحرى أريد أن أشير إلى أن إعادة طرح هذه المواضيع عاماً بعد عام يدل إلى أن الجالية لم تتمكن بعد من مخاطبتها بشكل مَرْضِيّ، ومن ثم التحرك نحو الأمام. لقد توقفت الجالية

الإسلامية في أمريكا عند حقبة (الوافد الجديد) أو حقبة (الغريب الدخيل)، غير قادرة على التأقلم مع البيئة الجديدة وغير قادرة على أن تجد في الفكر الإسلامي التقليدي حلولاً عملية ناجعة للعديد من مشكلاتها المعاصرة.

إن الخطوة الأولى التي يستطيع المسلمون الأمريكيون القيام بها حيال خلق مناخ فكري في الجالية من شأنه أن يشجع البحث النقدي الإبداعي هو اتباع النصيحة التي قدمتها في بداية هذا الفصل والتي تتمثل بالتالي: يحتاج المسلمون الأمريكيون أن يصبحوا أكثر انفتاحاً وأكثر ثقة بعضهم ببعض. إن أي معتنق جديد حالما يدخل الإسلام يكتشف أن مسلمي اليوم:

- يشكك كل واحد منهم بالآخر وقلما يثق به.
- وميّالون بشكل كبير لنشر الشائعات والنميمة وخاصة فيما بينهم.
- وسريعون جداً باتهام بعضهم بعضاً بالزندقة والكفر.

وقد قال لي أحد المعتنقين الأمريكيين: إن الغيبة ونشر الشائعات والنميمة تبدو أداة التسلية المفضلة لدى كثير من المسلمين. إن هذه النميمة الطائشة، وهذا الترويج المغرض للشائعات يخلق جواً من الهلع والقلق الذي يعوق حرية الكلام ويحبط من عملية البحث النقدي. ومن شأن ذلك أيضاً أن يجعل أولئك الذين يفكرون في مواضيع كهذه أن يحجموا عن التعبير عن وجهات نظرهم التي تتحدى المشاعر العامة، وتشجع العلماء على البقاء بعيداً عن المواضيع الحساسة أو المثيرة للجدل — وهي المواضيع ذاتها التي يجب أن تُناقش وتُدرس من جديد.

إن وجود النظام الإكليركي (clerical order) في المسيحية يساعد على كبح جماح مثل هذه الاندفاعات بين عامة الناس من المؤمنين (المسيحيين) والذين يشعرون أنه ليس من حقهم إطلاق الأحكام الدينية على المؤمنين الآخرين. وأما في الإسلام فلا يوجد مثل هذا النظام، ومن ثم فإن إطلاق الأحكام هو أولاً وأخيراً من حق كل مؤمن. ولكن مادام القرآن وأحاديث النبي ﷺ يعدان

مسألتي الترويج للشائعات والنميمة من الكبائر فإن المرء يدهش لانتشارهما بين المسلمين. ولنفكر معاً فيما يلي بالأمثلة الصغيرة التالية من النذير والوعيد والتي أوردها يوسف القرضاوي في كتابه **(الحلال والحرام في الإسلام)**:

﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ [النساء: ١٤٨/٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩/٢٤].

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢/٤٩].

- قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة نمّام" **(البخاري ومسلم)**.

- قال رسول الله ﷺ : "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً". **(البخاري)**.

- قال رسول الله ﷺ : "من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صب في أذنه الآنك يوم القيامة." **(البخاري ومسلم)**.

ولا يمكن للمرء أن يتصوّر أن الجالية الإسلامية الأمريكية — وكذلك أي مجتمع — سوف تخلص نفسها يوماً ما بشكل تام من التعصب ونشر الشائعات والنميمة؛ ولكن المجتمعات، مثلها مثل الأفراد، تستطيع دوماً أن تحسّن من نفسها فيما يتعلق بهذه المعاصي الاجتماعية المُهْلكة. وفي الوقت الحاضر نجد أن هذه المعاصي تبدو أكثر شيوعاً بين المسلمين منها بين معظم الجاليات الدينية الأخرى في أمريكا. ولكن يبدو أن الإصلاح قد أصبح قريب المنال.

إن ما يُدعى القطاع الليبرالي (liberal sector) في مجتمع أمريكا الشمالية ـــ والذي يسيطر حالياً على وسائل الإعلام وعلى صناعة التسلية وعلى المؤسسة الثقافية ـــ يقوم حالياً بالتركيز على الترويج لأفكار التسامح وحرية التعبير وحرية الإعلام والتحقيق والقبول بالاختلافات الثقافية والاجتماعية . ومادام أن الليبراليين الأمريكيين يميلون أصلاً نحو التعصب حيال الإسلام أكثر من المعتدلين والمحافظين، فإن المسلمين يشكون في أهم، (أي الليبراليين)، سوف يقدّمون صورة حسنة عن الإسلام في وسائل إعلامهم. ولكن، ومهما يكن، فقد دعمت قيادة الجالية الإسلامية في شمال أمريكا هذا التوجه الأخير في الإعلام الليبرالي، لأن العديد من الأمريكيين المسلمين يعتقدون أهم كانوا، ومايزالون، ضحايا التمييز العنصري والحقد الأعمى. أستطيع القول: إن المسلمين يناشدون بقية أمريكا أن تعيش وفقاً لما تعلنه من مبادئ مثالية؛ وأن تعيش نوعاً من استراتيجية: "ضع نقودك حيث يكون فمك".

ولقد حاول بعض المسلمين المدافعين عن هذا الدين مع بعض المهتدين إلى الإسلام إيضاح أن العديد من الحريات التي يثمنها الغرب ويتفاخر بها ـــ مثل حرية التعبير وحرية التسامح الديني ـــ كان الإسلام أول من أرسى دعائمها في التاريخ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً خلت، وذلك تحت حكم النبي ﷺ ويشير هؤلاء أيضاً أنه حتى وقت متأخر، قدمت الحضارة الإسلامية حرية فكرية ودينية تفوق ما قدمته كل البلدان المسيحية حيال ذلك.

فكلا هذين الاتجاهين يشير إلى أن الجالية الإسلامية الأمريكية أصبحت تقيم وزناً لمفاهيم التسامح وحرية التعبير، وتستخدمها في حواراها مع المجتمع ككل. ولكن حتى الآن مايزال الاعتقاد بهذه المبادئ وتطبيقها ضمن الجالية بطيئاً ومحدوداً. فالعديد من الأمريكيين المسلمين يشتكون من أن مساجدهم ومراكزهم الإسلامية وتنظيمات الجالية تذكرهم بالأنظمة التقليدية في الشرق الأوسط حيث ـــ ببساطة ـــ لا يسمح لك أن تتحدى السلطة. ولكنني

أتوقع أن الجالية الإسلامية سوف تدخل عما قريب في مرحلة جديدة من الانفتاح، ذلك أن هذه الجالية لا يمكن لها أن تستمر في تبني مبادئ التسامح، وحرية التعبير، وحرية التحقيق بشكل عام دون أن تتأثر بها وتطبقها فيما بين أعضاء الجالية أنفسهم. إضافة إلى ذلك فإن الجيل التالي من الأمريكيين المسلمين، والذي في النهاية سوف يتمكن من قيادة هذه الجالية، لابد أن يكون سعيداً بتطبيق هذه الأفكار والمبادئ.

إن العامل الرئيس في مناقشة هذا الفصل بأكمله هو الزمن. فهل تكون هذه الأفكار التي استخدمتها للتو قريبة بشكل كاف بحيث تمنع عدداً كبيراً من أولاد الآباء المسلمين من مغادرة الإسلام؟ وهل سيمنع ذلك انقسام الجالية؟ ربما لا، ولكنني مهما يكن أجزم بالاعتقاد بأن الإسلام سوف يعيش ويزدهر في أمريكا برغم أن ذلك لن يخلو من وجود العوائق في البداية. وعليّ أن أعترف بأنني أتكلم الآن ــــ كما يقول أصدقائي من الشرق الأوسط دوماً ــــ من القلب، أو ربما ينبغي علي أن أقول من خلال خبرتي باعتناق الإسلام بعد أن قرأت القرآن، ذلك أن هذا الكتاب الكريم قد أسَرَني بقوة وتملّك قلبي وجعلني أستسلم لله، ولا أظن إن وقع بيد أمريكيين آخرين وقرؤوه إلا أن يفعل بهم الشيء الذي فعله بي نفسه. والله الرحمن الرحيم الحكيم الجبار المتكبر هو الأعلم.

EVEN ANGELS ASK
A JOURNEY TO ISLAM IN AMERICA

Ḥattá al-Malā'ikah Tas'al
Riḥlah ilá al-Islām fī Amrīkā

by: Dr. Jeffrey Lang
tr.: Dr. Munzer al-Absī

يعرض هذا الكتاب لموضوع دقيق جداً، وهو مسألة التفكير المستمر بأمر الله تعالى والكون والنفس؛ فالملائكة وهم لا يعصون الله ما أمرهم.. يسألون أسئلة جوهرية؛ ذلك لأن الإسلام دين الذين يفكرون. فلا ينبغي أن يطيع المسلم طاعة عمياء، وخصوصاً في مجال العقيدة والأمور الحساسة.

ومن هنا ينطلق المؤلف في كتابه المفيد للقارئ العام والمتخصص وللدعاة ودارسي الحضارة ليتحدث عن قصة إيمانه التي بدأت بالتفكير والسؤال، والتي تمثل إيمان المسلمين الجدد من الأمريكيين، وما يلاقون من عقبات في سبيل ذلك. ويبحث في المصاعب التي تواجه انتشار الإسلام في البيئات الغربية.

ونتعلم من الكتاب كيف ندعو للإسلام بعيداً عن العواطف، وكيف نلتزم بتعاليم الإسلام بعيداً عن الغيبة والنميمة، وبعيداً عن بعثرة صفوف المسلمين.. وكيف نكون منهجيين لا نلقي الكلام على عواهنه.

ISBN 978-9933-10-385-9

